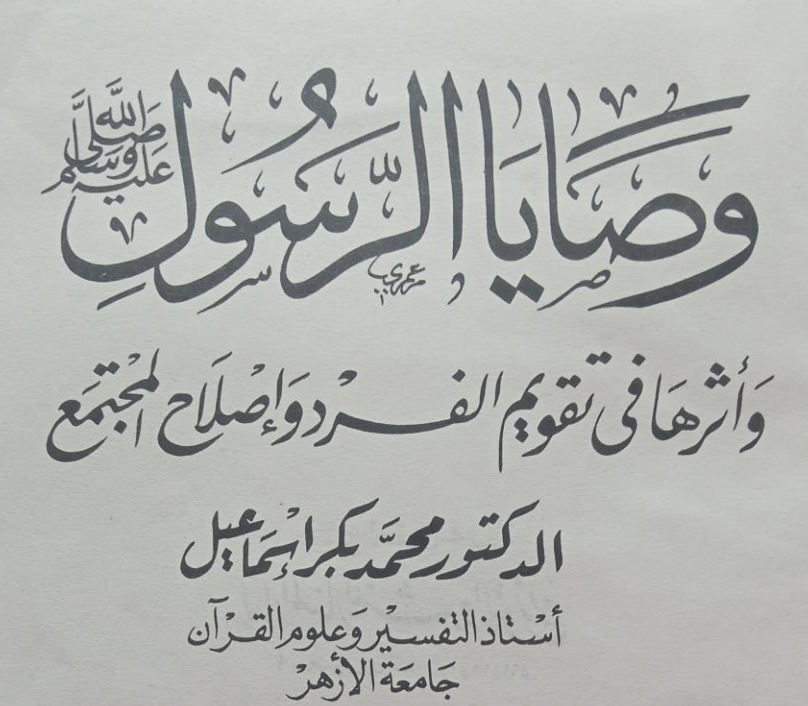


الجزء الأول

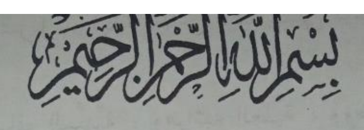
دار المنار

للطبع والنشر والتوزيع

٩ شارع حسن العدوى - ميدان الحسين

ص . ب ٦١ هليوبولس

ت : ٥٩١٥٠٨٥



مقــــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فإنَّ خير ما يُؤْتَاهْ المؤمن قلباً عَقُولاً يَغُوصُ فى أعماق المعانى ، ويستخرجُ من كيسها أخلصَ المقاصد وأبلغ المرامـى ، ويستثمر ما يستخرجه فى تزكية نفسه ، وتقويم خُلُقه ، وإصـلاح أمور دينه ودنياه ، وينشر بين الناس من نور علمه وثاقب فكره ما يشرح به صدورهم ، ويهديهم سواء السبيل .

يقول الله عز وجل : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذَّكَّرُ إلا أولو الألباب ﴾[1] .

والحكمة هى الفطنة والرشد ، والسداد فى القول والعمل ، وليس وراءَها من شىء يُطْلب ، فهى الإيمان فى أسمى صوره ، والتوفيق فى أرقى معانيه ، وهى التقوى التى لا تترك لذى غيظ شفاءً ، وهى الهمة فى أعلى مراتبها ، وهى الحزم فى أقوم درجاته ، وهى العِزَّة التى يتحلّى بها المؤمن إذا تكلّم أو سكت ، وهى الشرف الأسمى فى مواطن الفخر كلِّها ، لا يعرف قدْرها إلا من تَحَلَّى بها ، وتمكن منها وتمكَّنت منه ، فكان نطقه ذكرًا ، وصمته فكرًا ، ونظره عبرًا .

وأعظم الحكماء قدراً وأخلدهم ذكراً محمد – ﷺ – فهو ينبُوعُها الرائق ، ومَعْدِنُها الفائق ، وسَيْلُها الجَّرار ، وبحرها الزَّخَّار .

وإن شئت قلتَ هو الحكمة نَفْسُهَا ، تجسّدت فى أقواله وأفعاله ، إذ تَجلّت فيها أنوار الحكمة القرآنية ، فرأى الناسُ فى خلقه الفاضل ، وسلوكه النبيل ،

---

(١) البقرة : ٢٦٩ .

معانى الوحى ومعالم التنزيل ، فبدا للناس قرآنًا يمشى بينهم ، تراه الأعين كما تسمعه الآذان .

وقد بَيّن الله أوصافه السَّنيَّة ، ومراتبه العليَّة ، ووظائفه الكبرى فى هذا القرآن بأجلى ما يكون البيان المعجز ، بحيث لو جمعت كلها فى مبحث واحد لدلَّت بمجموعها على أنه خير خلق الله ، وأكرم رسل الله أجمعين .

وهذا الكتاب الذى أضعُهُ بين يَدَى القراء قبس من ضياء حكمته ﷺ يستضىء بها طلاب الحكمة من المسلمين ، وغيرهم إن شاءوا .

وقد اقتصرت فيه على ذكر الأوامر والنواهى التى تَعُمُّ بنَفْعِها الناس جميعاً .

وقد عزمت على إخراج هذا الكتاب فى أجزاء يتلو بعضُها بعضاً .

واللهَ أسأل أن يوفقنى لإخراجه فى أجمل صورة وأحسن تقويم ، إنه سميع قريب مجيب .

د . محمد بكر اسماعيل

(١) قل آمنت بالله ثم استقم

عن سفيان بن عبد الله – رضى الله عنه – قال :

قلت : يا رسولَ الله قل لى فى الإسلامِ قولاً لا أسألُ عنه أحدًا غيرَك ، قال : « قل : آمنتُ باللهِ ثمَ استقِم » [١] .

* * *

إذا حَسُن إسلام العبد كان أحرص على فهم أمور دينه أكثر من حرصه على فهم شئون دنياه ؛ لعلمه أن الدين هو عصمة أمره ، ومنهج حياته فى الدنيا ، وسبيل نجاته فى الآخرة .

فهذا الصحابىِ الجليل قد أسلم بعد غزوة حنين ، وحسن إسلامه ، وعزم على أن يقيم الدين على أصول ثابتة لا يعييه فهمها ، ولا يثقل عليه حفظها ، فتوجه إلى من تفجرت من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة يسأله أن يقول له فى شريعة الإسلام قولاً موجزاً بليغاً ، جامعاً لأصولها وفروعها ، يجعله منهاجاً يسير عليه ، ونوراً يهتدى به فى الطريق إلى الله عز وجل ، لا يحتاج بعده إلى أن يسألِ فى دينه أحداً سواه ، وهو يعلم أن رسول الله ﷺ قد أوتى جوامع الكلم فلا يشق عليه أن يجمع له الدين فى كلمات تحفظ ولا تنسى .

فكان رسول الله ﷺ عند حسن ظنه ، فأسدى إليه هذه النصيحة الغالية فى أبلغ أسلوب ، وأعذب بيان ، فقال : « قل آمنت بالله ، ثم استقم » . أى قل بقلبك ولسانك كلما ذكرت الله عز وجل بأسمائه الحسنى ، وأوصافه الكمالية ، أو حاول الشيطان أن يوسوس لك بما يتنافى مع الإيمان بوحدانية الله فى ذاته وصفاته ، وأفعاله : آمنت بالله ، طرداً لهذه الوساوس الشيطانية ، وكفاً عن

---

(١) هذا الحديث أخرجه مسلم من رواية هشام بن عروة عن أبيه عن سفيان .

وفى رواية الترمذى : قال : يا رسول الله حدثنى بأمر أعتصم به ، قال : « قل ربى الله ثم استقم » ، قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علىّ ؟ ، فأخذ بلسان نفسه ثم قال: « هذا ». وقال الترمذى حسن صحيح . ورواه أحمد والنسائي وابن ماجه بألفاظ مختلفة انظرها فى « جامع العلوم والحكم » لابن رجب ، الحديث الحادى والعشرون صـ ٢٥٦ .

التمادى فيها ، فسفيان بن عبد الله راوى الحديث رجل مؤمن ، فينبغى أن يحمل قوله ﷺ « قل آمنت » على ما ذكرناه ، فهو كقوله تعالى فى سورة الحديد : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ (١) .

والمعنى : يا من آمنتم اتقوا الله ، وجددوا إيمانكم دائمًا كلما طرأ عليه ما يعكر صفوه من هواجس النفس أو وساوس الشيطان ، وغير ذلك .

فعلى المؤمن أن يتعهد قلبه بالتنقية والتطهير ، والإصلاح والتقويم ، ويشرك لسانه مع قلبه فى التعبير عن إيمانه بالله ، وإخلاصه له فى الطاعة ، فاللسان ترجمان القلب يفصح عما فيه غالبًا ، ويقر بما يقر به ، ويأتى العمل مصدقًا لهما .

لذا قالوا فى تعريف الإيمان : هو اعتقاد بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح .

والعقيدة الصحيحة لا تستقر إلا فى قلب طاهر نظيف ، خال من شوائب الشرك، ونزغات الهوى ، وظلمة التقليد الأعمى .

قال تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

وقد أمر الله النبى ﷺ أن يعبر عن سلامة قلبه – ولا قلب أسلم من قلبه – بقوله – جل شأنه – فى سورة الأنعام :

﴿ قل إنَّ صلاتى ونُسُكى ومَحْياىَ ومماتى لله ربِّ العالمين لا شريكَ له وبذلك أُمرتُ وأنا أولُ المسلمين قل أغيرَ الله أبغى ربًّا وهو ربُّ كلِّ شىءٍ ﴾ (٢) .

أى قل بقلبك ولسانك : إن صلاتى وعباداتى كلها وجميع أعمالى فى حياتى خالصة لله ، وجميع ما يكون لى بعد موتى من الحسنات الجارية لله بتقديره وتوفيقه ،وقل للمشركين الذين لا يؤمنون بوحدانيتى : أغير الله الواحد الأحد أطلب ربًّا ، وأعبده ، وهو رب كل شىء ، والملك كله له ، وناصية العباد جميعًا بيده ؟!

---

(١) الآية : ٢٨ .   (٢) الآية : ١٦٢ – ١٦٤ .

واللسان يقر بما فى القلب ويشهد له أو عليه ، فإذا أقر اللسان بما أقر به القلب من الوحدانية ، وما يجب لها من صفات التنزيل والكمال كان الإيمان دعوى قوية ينقصها البرهان الدال على صدقها ، وهو العمل الصالح ، ولذلك قُرن بالإيمان فى كثير من الآيات حتى اعتبره المعتزلة جزءاً من الإيمان ، أى ركنًا من أركانه لا يتم إلا به .

وأيمًا كان فإن صحة الإيمان متوقفة على العمل ، أى سواء اعتبرنا العمل ركنًا من أركانه ، أوشرطًا من شروط صحته (١) .

* * *

وقوله ﷺ : « ثم استقم » معناه هيئ نفسك بعد تجديد إيمانك دائماً للعمل الصالح ؛ لكى يكون برهانًا لك على صحة الاعتقاد بالقلب ، والإقرار باللسان .

وقد أتى بالحرف « ثم » للدلالة على الترتيب مع التراخى النسبى ، فإن الاستقامة تبنى على الإيمان ،وتلازمه ولا تفارقه .

وقد شرط الله فى صحة العمل وقبوله أن يكون مصاحبًا للإيمان مستظلاً بظله معتمداً عليه .

قال تعالى فى سورة النحل : ﴿ من عَمِلَ صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فلَنُحيِيَنَّهُ حياةً طيبةً ولنجزينَّهم أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

والإنسان حين يخلو بنفسه ويحاسبها على تقصيرها ، ويجدد إيمانه بربه عز وجل ، وبعد هذه المحاسبة يفكر فى معالجة التقصير الذى بدر منه ، ويعد العدة لقضاء ما فاته من أعمال الخير ، ويشمر عن ساعد الجد فى طلب مرضاة الله عز وجل ، وهذا يستغرق وقتًا ما بعد تجديد الإيمان ، لهذا حسن العطف بـ« ثم » فى هذا الحديث .

---

(١) الركن عند الفقهاء ما كان داخلاً فى الماهية ، والشرط ما كان خارجًا عنها ، وكل منهما إذا فقد ترتب على فقده بطلان العمل ، فالفرق بينهما اصطلاحى .

(٢) الآية ٩٧ .

والاستقامة معناها تقويم النفس بالأخلاق ، وتوجيهها إلى الصراط السوى الذى وضعه الله لعباده وأمرهم أن يتبعوه فى جميع أقوالهم وأفعالهم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

قال تعالى : ﴿ وإن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون ﴾ (١) .

والسبل التى نهانا الله عن اتباعها هى سبل الشيطان ؛ فإنه يصد الناس عن هذا الصراط المستقيم إلى سبل الغواية والضلال ، كما صرحت بذلك الآيات الكثيرة ، منها قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ قال فبما أغويتَنى لأقعدَنَّ لهم صراطك المستقيم ثم لآتيَنَّهم من بين أيديهم ومن خلفِهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرَهم شاكرين ﴾ (٢) .

وهذا الحديث قد اشتمل على خصال الخير كلها ، وأحاط بجميع شعب الإيمان فكان وصية الوصايا كلها ، فكل الوصايا القرآنية ، والنبوية تندرج تحتها ،وتنبع منها ، وتصب فيها .

وهذه الوصية قبس من الوصايا التى أوصاه الله بها فى سـورة هود ، وسورة الشورى .

قال تعالى فى سورة هود : ﴿ فاستقم كما أُمِرتَ ومن تابَ معك ولا تَطغَوا إنه بما تعملون بصير ﴾ (٣) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما نزلت على رسول الله ﷺ فى جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية .

وقال فى سورة الشورى : ﴿ فلذلك فادعُ واستقمْ كما أُمرْتَ ولا تَتَّبعْ أهواءهم وقل آمنتُ بما أَنْزَلَ اللهُ من كتاب وأُمرت لأعدِلَ بينكم اللهُ ربُّنا وربُّكم لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم لا حجةَ بيننا وبينَكم اللهُ يجمعُ بيننا وإليه المصير ﴾ (٤) .

---

(١) الأنعام : ١٥٣ . (٢) الأعراف : ١٦ - ١٧ .
(٣) آية : ١١٢ . (٤) آية : ١٥ .

أى فلذلك التفرق الذى حدث لأهل الكتاب ومن على شاكلاتهم أمرناك أن تدعو الناس إلى الحنيفيـة السمحة مستقيماً على الطريقة المثلى التى بيناها لك ، والصراط المستقيم الذى هديناك إليه ، ولا تلتفت إلى أهل الكتاب ولا تقف طويلاً معهم فهم أهل شُبه ، وضلالات ، وأهواء جامحة ، وقل بقلبك ولسانك آمنت بما أنزل الله من كتاب سماوى سابق لهذا الكتاب الذى بين يدى .

وأمرت لأدعوكم إلى دين الله ، بالعدل والإحسان ، لا أكرهكم عليه ، ولا أجادلكم إلا بالتى هى أحسن .

﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أى أن الرب الذى أدعوكم إليه ليس ربى وحدى ، حتى يكون لى مصلحة خاصة فى دعوتكم إليه ، فهو سبحانه ربكم كما هو ربى . وفى هذا تعريض باليهود الذين يجعلون الله سبحانه وتعالى ربًّا لهم وحدهم ، ويؤثرهم بما عنده من خير وإحسان ، فيسمونه رب إسرائيل ، ويسمونه رب الجنود ،ويجعلونه قائداً لجيشهم فى الحرب ، كما تصرح بذلك التوراة ، التى فى أيديهم ، فى أكثر من موضع منها .

وقوله تعالى : ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أى كل محاسب على عمله مجزى به إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ أى لا جدال ولا مناظرة بيننا وبينكم فإن الحق قد ظهر واشتهر .

﴿ الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ فهو الذى يجمعنا ليوم الجمع فنرجع إليه فيحاسبنا على ما قدمنا وما أخرنا .

وهذه الآية قد جمعت أصول الدين كلها فقد اشتملت على عشرة أوامر كل أمر منها أصل تندرج تحته أحكام لا تنحصر .

* * *

وقبل أن نفارق هذا الحديث إلى غيره ينبغى أن ننبه كل مؤمن يبتغى الحكمة أن ينشدها فى مظانها عند الحكماء المشهود لهم بالعلم والمعرفة والصلاح والتقى ، فرب كلمة تصدر من قلوبهـم على أفواههـم يكون فيها خير الدنيا والآخرة .

ولكى يتعلم الحكمة من أفواه الحكماء عليه أن يجالسهم ويتبع آثارهم ، ويتفقد أحوالهم مع الله ومع الناس ، ويصغى إلى أقوالهم ، وينتبه إلى ما يصدر عنهم من إشارات تقوم مقام العبارات ، فالعلماء والحكماء يحيون القلوب بالعلم والحكمة كما يحيى الله الأرض بالمطر .

تَحْيَا بهم كل أرضٍ ينزلون بها كأنهم فى بقاع الأرض أمطار

ويستفاد من هذا الحديث فوق ماذكرناه أن العلم أبواب مقفلة مفاتيحها الأسئلة ، لهذا كان أصحاب النبى ﷺ يسألونه عن كل ما غمض عليهم فهمه ، فى أدب جم وأسلوب كريم ، فيجيبهم عن كل ما سألوا بحب وكرامة ، ولا يعيب على أحد سأله عن شىء ، كما يفعل بعض علمائنا اليوم ، بل كان يجعل من السؤال التافه منطلقاً إلى باب مهم من أبواب العلم .

ويستفاد أيضاً من هذا الحديث أن يكون المسئول حكيماً فى فهمه للسؤال وفى الإجابة عنه ، فلا يكون جوابه بعيداً عن المطلوب فى السؤال ، ولا يكون قاصراً مخلاً لا يكتفى السائل به ، ولا طويلاً مملاً ينفر منه ، ويتحرى المسئول حاجة السائل إلى السؤال فلا يمهله ولا يتبرم منه ، ويتعرف على حاله - فى الثقافة والفهم - فيخاطبه على قدر عقله ووعيه ، فهذه هى البلاغة فى سموها وعراقتها ، فهى كما يقول أهلها : مراعاة المتكلم بكلامه مقتضى حال المخاطب ، والله ولى التوفيق .

* * *

(٢) المؤمن القوى خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف

عَن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قالَ رسُول الله ﷺ :

« المُؤمنُ القَوِىُّ خَيْرٌ وأحَبُّ إلَى اللهِ مِنَ المؤْمِنِ الضَّعِيف وفى كُلٍّ خَيْرٌ . احْرِصْ عَلَى مَا ينْفَعُكَ ، واسْتَعِنْ باللهِ ولاَ تَعْجز ، وإنْ أصَابَكَ شَىءٌ فلاَ تَقُلْ : لَو أنِّى فعَلْتُ كَانَ كَذَا وكَذَا ، ولَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللهِ ومَا شاءَ فَعَلَ ، فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »(١) .

* * *

هذه وصية من أعظم الوصايا التى يحتاج إليها المسلم فى أمور دينه ودنياه، ولا يستغنى عنها حيثما كان ؛ لأنها فى جملتها منهج تربوى قويم ، مستمد من القرآن الكريم كما هو الشأن فى جميع وصاياه ﷺ .

هذا المنهج يقوم على مقدمة خبرية تعتبر تمهيداً ترتكز عليه هذه الوصية ، وهى قوله ﷺ : « المؤمن القوى خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍ خير » .

والمراد بالمؤمن القوى ، القوى فى إيمانه ويقينه، والقوى فى طاعة ربه ونصرة دينه ، والقوى فى إحقاق الحق وإبطال الباطل ،والقوى فى العلم والجسم، والقوى على مواجهة الصعاب وتحمل المشقات ، والصابر على المكاره،والراضى بالقضاء والقدر خيره وشره ، وحلوه ومره ، إلى أخر ما هنالك مما يتفاضل فيه المؤمنون من الحزم والعزم والشجاعة الأدبية،والصدق والإخلاص، وسائر شعب الإيمان .

وهذه المقدمة مستمدة من آيات كثيرة يظهر فيها فضل بعض المؤمنين على بعض .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب القدر حديث ٢٦٦٤ .

منها : قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضَّررِ والمجاهدون فى سبيلِ الله بأموالهم وأنفسهم فَضَّلَ اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً وكلاً وَعَدَ اللهُ الحُسنى وفضَّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجاتٍ منه ومغفرة ورحمةً وكان اللهُ غفوراً رحيماً ﴾ (١) .

ولا شك أن المجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أعظم إيمانًا وأصدق يقيناً من الذين قعدوا عن الجهاد بغير عذرٍ يحملهم على التخلف عن أعظم فريضة فى الإسلام وهى الجهاد .

قال رسول الله ﷺ : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » (٢) .

وقوله جل شأنه فى سورة الحديد : ﴿ لا يستوى منكم من أنفقَ من قبل الفتحِ وقاتلَ أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا وكلاً وَعَدَ اللهُ الحُسنى والله بما تعملون خبير ﴾ (٣) .

أى لا يستوى فى الإيمان والطاعة والسبق إلى الخيرات من أنفق ماله فى سبيل الله بطيب نفس منه ، ومن أنفق ماله فى سبيل الله بعد الفتح - أى فتح مكة - وإن كان الكل من أهل الجنة ، وهى الحسنى التى وعد الله عباده المخلصين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين .

وقد وصف الله المؤمنين الذين اكتمل إيمانهم بأوصاف تدل عليهم ، وذلك فى مثل قوله تعالى من سورة الأنفال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُليَتْ عليهم آياتُه زادَتْهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يُقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون أولئك هم المؤمنون حقًّا لهم درجاتٌ عندَ ربهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾ (٤) .

فقد حصر الله المؤمنين الكاملين فى هذه الآية فى قوله : ﴿ إنما المؤمنون ﴾

---

(١) آية : ٩٥ - ٩٦ .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) آية : ١٠ .

(٤) سورة الأنفال : ٢ - ٤ .

أى الكاملون فى إيمانهم ، كما دلت عليه أداة التعريف ، فهى حرف كمال كما يقول المفسرون ، وقد أكد إيمانهم الكامل بقوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقًّا ﴾ .

وقد أوصى الرسول ﷺ المؤمنين فى هذا الحديث بعد هذه المقدمة بما لا يخرج عن هذه الأوصاف الخمسة المذكورة فى هذه الآية .

* * *

وبعد هذا التمهيد البليغ نأخذ فى بيان هذه الوصية الجامعة لخصال الخير كلها فنقول : قوله ﷺ : « احرص على ما ينفعك » معناه انظر بتدبر وتبصر إلى ما ينفعك فى دينك ودنياك ، وحدد نوعه ومقداره ،وتعرف على مصدره ومكانه ، وأسباب تحصيله المشروعة ، وتحرى الدقة فى اختيار الأنسب والأصلح ، وخذ حذرك مما يضرك أو يفسد عليك اختيارك ، أو يقف عقبة فى تحقيق ما تصبو إليه ، واستشر فى ذلك أهل الحزم والعزم والرأى والمشورة ، وابذل جهدك فى ذلك كله ، فهذا هو الحرص على ما ينفع – بشىء من التفصيل – الذى يريده الرسول ﷺ من المؤمن .

وهو يعنى بمفهومه : ترك ما يضر ، فمن حرص على ما ينفعه توقى بالضرورة ما يضره .

وقد وُضِع الدين لمصالح العباد فى العاجل والآجل ، ومصالح العباد تتمثل فى دفع المفاسد وجلب المنافع . ودفع المفاسد مقدم على جلب المصالح كما يقول علماء الأصول .

ويفهم منه أيضاً شرط لابد من توفره ، وإن لم ينص الرسول ﷺ عليه فى هذا الحديث ، وهو ألا يؤدى حرصه على ما ينفعه إلى مضرة الآخرين لما فى ذلك من الظلم والأثرة .

قال رسول الله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار » (١) .

وقال الله عز وجل فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تَظَّالموا » (٢) .

* * *

---

(١) رواه مالك فى الموطأ، وابن ماجه فى سننه . (٢) رواه مسلم عن أبى ذر .

ولما كان الحرص وحده لا ينفع صاحبه مهما بذل من جهد أمر النبى ﷺ المؤمن أن يطلب من الله العون على تحصيل ما ينفعه فى دينه ودنياه ؛ فقال : « واستعن بالله » ، فهو الذى يستمد منه العون ويستلهم منه الرشد ويطلب منه التوفيق .

قال تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ أى لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك . وهذه الآية من الفاتحة هى أصل أصول التوحيد ، عليها تدور مراتب الأولياء الأصفياء وعندها تنتهى مقامات المحبين المخلصين .

وقد دندن حولها الراسخون فى العلم وألفوا فيها كتباً جمعوا لطلاب المعرفة فيها من المعارف واللطائف والإشارات بقدر ما علمهم الله تبارك وتعالى .

منهم الإمام الهروى ، فقد ألف كتاباً صغير الحجم غزير العلم سماه « منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين » .

وقد شرحه الإمام ابن القيم فى كتاب من ثلاثة مجلدات سماه « مدارج السالكين » .

وللإمام ابن عطاء الله السكندرى بحوث مطولة فى هذه الآية .

ولهذا أمرنا الله بقراءة الفاتحة فى كل ركعة نصليها فرضاً أو نفلاً .

وسورة الفاتحة سورة تعليمية ، آياتها خبرية فى اللفظ طلبية فى المعنى ، فهى من أولها إلى آخرها أوامر على تقدير : قولوا ، أى قولوا : ﴿ الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين ﴾ ، وقولوا : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

والاستعانة بالله من أوجب الواجبات ومن أعظم البراهين الدالة على صدق العبد فى إيمانه بربه على هدى منه وبصيرة ونور ؛ وذلك لعلمه بكمال عبوديته وافتقاره لخالقه ومولاه ، واعترافه الجازم بضعفه وعجزه عن تحقيق شىء مما يصبو إليه .

وهذا مقام الأنبياء المرسلين والأولياء المقربين .

فهذا هو شعيب عليه السلام يؤكد لقومه أنه لا يريد بهم إلا الخير ، ولا يتحقق ما يريده إلا بعون من الله عز وجل ، وأنه بتوفيق الله يفعل ما يريده الله لا ما يريده هو ، وأنه معتمد عليه فى شأنه كله ، واثق بفضله ، منيب إليه فى سره وعلانيته .

قال تعالى حكاية عنه فى سورة هود : ﴿ إنْ أُريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أُنيبُ ﴾ (١) .

وقال موسى عليه السلام لبنى إسرائيل حين فزعوا من فرعون أن يصل إليهم ويفتك بهم ما عبر به عن صدق توكله على خالقه ومولاه ، وعظيم ثقته فى نصره على من عاداه – قال كما حكى الله عنه فى سورة الشعراء : ﴿ قال كلاَّ إن معىَ ربى سيهدين ﴾ (٢) .

ومن كان معه ربه فلا يضل ولا يشقى .

وقال الله عز وجل حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وقال إنِّى ذاهبٌ إلى ربى سيهدين رب هبْ لى من الصالحين ﴾ (٣) .

وفى قصص الأنبياء وأخبار الأولياء ما يؤكد أن العبودية قد بنيت على الخضوع لله عز وجل والاستعانة به فى كل شىء ، إذ لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق ، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، ولا ينفع العبد ما معه من العلم والخبرة والذكاء والفطنة إلا بمدد من الله وقوة .

إذا لم يكن من الله عون للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهادُه

* * *

والاستعانة بالله تكون بحبس النفس على ما تكره ، والتضرع إليه فى أوقات الرخاء والشدة ، وفى أحب الأعمال إليه وهى الصلاة ، وفى أحب الأماكن إليه

(١) آية : ٨٨ .

(٢) آية : ٦٢ .

(٣) سورة الصافات : ٩٩ – ١٠٠ .

كالمساجد ، وفى أحب الساعات إليه كالثلث الأخير من الليل وأول النهار وآخره .

وفى ذلك يقول الله عز وجل من سورة البقرة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاةِ إن اللهَ مع الصابرين ﴾ (١) .

ويقول رسول الله ﷺ : « واستعينوا بالله فى الغدوة والروحة ، وشىء من الدلجة » (٢) .

والغدوة أول النهار والروحة آخره ،والدلجة ظلمة الليل أو وسطه .

وسيأتى الكلام على حقيقة الاستعانة بالله وثمراتها وما يتعلق بها من الأحكام فى حديث : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » .

وفى حديث : « إن الدين يسر » وفى مواضع أخرى من هذا الكتاب .

* * *

والعبد إذا استعان بالله وجب عليه أن يأخذ بالأسباب التى يعلم أو يظن أنها تحقق له ما يهدف إليه بمشيئة الله عز وجل ، ولا يتقاعد عن العمل ويقول : استعنت بالله وتوكلت على الله ؛ فذلك ليس من التوكل فى شىء ، فهو مستكين لا مستعين ، ولهذا قال رسول الله ﷺ فى الحديث : « استعن بالله ولا تعجز » أى : لا تتقاعد عن طلب الرزق أو طلب الشفاء أو طلب العلم ، وأنت تعلم أن المسببات مرهونة بأسبابها ، فالحرص على ما ينفع لا يتم إلا بالتخلى عن الكسل والخمول والجبن وما إلى ذلك من المثبطات التى أمرنا النبى ﷺ أن نستعيذ بالله منها ، فقال لأبى أمامة الأنصارى : « ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن قضى الله عز وجل عنك دينَك وأذهب همك ، قال أبو أمامة : بلى يا رسول الله ، فقال : قل حين تمسى وحين تصبح : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحَزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ،

---

(١) آية : ١٥٣ .

(٢) من حديث البخارى .

وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ، قال : فقلت ذلك فقضى الله دينى وأذهب عنى همى » (١) .

وسيأتى لهذا الحديث بيان إن شاء الله تعالى .

وقيل : « لا تعجز » معناه لا تيأس إذا سعيت إلى تحصيل شىء ولم تدركه أو دعوت بشىء فتأخرت عنك الإجابة ، فالمؤمن لا ييأس أبداً من رحمة الله . قال تعالى : ﴿ إنه لا ييأسُ من رَّوحِ الله إلا القومُ الكافرون ﴾ (٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ ومن يقنَطُ من رحمة ربِّه إلا الضالُّون ﴾ (٣) ، وعلى العبد أن يسعى وليس عليه تحصيل المطالب فذلكَ موكول إلى الله وحده .

وعليه أن يدعو ربه فى جميع حالاته وأوقاته ولا يتعجل الإجابة ؛ فقد يكون فى التأخير خير وهو لا يدرى ، وقد لا يكون فيما طلبه مصلحة له فيعوضه الله عما طلب خيراً منه وفق حكمته عز وجل .

قال ابن عطاء الله السكندرى : « لا يكن تأخير العطاء مع الإلحاح فى الدعاء أمراً يوجب يأسك ، فهو سبحانه ضمن لك الخير فيما يختاره لك لا فيما تختاره أنت لنفسك ، وفى الوقت الذى يريده هو لا فى الوقت الذى تريده أنت » .

واليأس عدو الإنسان وسلاح من أعظم أسلحة الشيطان ، يستغنى به عن سائر أسلحته ، فليس شىء أخطر على المؤمن منه ، لهذا أوصانا الرسول ﷺ ألا نفعل ما يؤدى إليه كالحزن على ما كان ، والضجر مما هو فيه من بلاء وشدة ، والتفكير فيما يأتى من المصائب المتوقعة أو غير المتوقعة ، والإحجام عما يجب الإقدام فيه ، والتقصير فيما يجب له أخذه وما يجب عليه أداؤه ، وغير ذلك من الآفات التى تسبب الإحباط وتضعف الهمم وتؤدى فى آخر الأمر إلى اليأس من رحمة الله .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) سورة يوسف : ٨٧ . (٣) سورة الحجر : ٥٦ .

ولهذا أوصانا الرسول ﷺ وسلم بأخذ الحذر من العجز بكافة صوره ، ونهانا عن كل ما يؤدى إليه فقال : « وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قَدَرُ الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

وهذا تفسير وبيان لقوله تعالى فى سورة التوبة : ﴿ قل لن يُصيبنا إلا ما كَتَبَ اللهُ لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (١) .

وقوله جل شانه فى سورة الحديد : ﴿ ما أصاب من مصيبةٍ فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتابٍ من قبلِ أن نَبْرَأَها إن ذلك على الله يسير لكيلا تَأْسَوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحبُّ كل مختالٍ فخورٍ ﴾ (٢) .

وقوله فى سورة التغابن : ﴿ ما أصاب من مصيبةٍ إلا بإذنِ الله ومن يؤمن بالله يهدِ قلبَه والله بكل شيء عليم ﴾ (٣) .

فمن آمن بالله ربًّا ورضى بقضائه وقدره ،ولم يحزن لما فاته ، ولم يفرح بما آتاه الله وكان متوكلاً عليه – اطمأن قلبه ، وسكنت نفسه واستراح ضميره ، وصلح حاله ، وهدأ باله وهذا هو ثواب الدنيا .

قال تعالى : ﴿ فآتاهم اللهُ ثوابَ الدنيا وحُسْنَ ثوابِ الآخرة والله يحبُّ المحسنين ﴾ (٤) .

وهم الرِّبيون الذين صحبوا الأنبياء وتخلقوا بأخلاقهم ، ويدخل معهم كل من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وهذا هو المتاع الحسن الذى أشار إليه ربنا بقوله فى سورة هود : ﴿ وأنِ استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه يمتعْكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمًّى ويؤتِ كلَّ ذى فضلٍ فضلَه ﴾ (٥) .

وهذه هى الحياة الطيبة التى أشار الله إليها بقوله فى سورة النحل : ﴿ من

---

(١) آية : ٥١ .
(٢) آية : ٢٢ – ٢٣ .
(٣) آية : ١١ .
(٤) آل عمران : ١٤٨ .
(٥) هود : ٣ .

عَمِلَ صالحًا من ذكر أو أنثىٰ وهو مؤمنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حياةً طيبةً ولنجزيَنَّهم أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ (١) .

وليس هناك نعيم فى الدنيا أعظم من التوكل على الله وتفويض الأمر إليه والرضا بقضائه وقدره ، والمداومة على ذكره وشكره .

ولهذا أوصى النبى ﷺ معاذًا ألا يدع عقب كل صلاة أن يقول : « اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

وسـيأتى لهذا الدعاء بيان مفـصـل فى محله من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

* * *

والرسول ﷺ لا ينهانا نهى تحريم أن نقول : لو فعلنا كذا وكذا لكان كذا وكذا – إلا إذا قصدنا بهذا القول إظهار السخط على ما قدره الله وقضى به ، وهو الأمر الذى يتنافى مع الإيمان .

وإذا قال الإنسان ذلك على سبيل الحكاية أو على سبيل التعجب ، أو قاله فى غفلة عما يستوجب السخط والإنكار فليدرك نفسه بقوله : « قدر الله وما شاء فعل » . أى هذا قدر الله ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، وهو الفعال لما يريد ، ولوكان فيه خير لقدره لى ،والخيرة لله فى كل شىء ، ويذكر قول الله تبارك وتعالـى فى سـورة القصـص : ﴿ وربُّك يَخْلُقُ ما يشاءُ ويختارُ ما كان لهم الخِيَرَةُ سبحانَ الله وتعالى عما يشركون وربك يعلمُ ما تُكنُّ صدورُهم وما يُعلـنون وهو الله لا إِلَه إلا هو له الحمدُ فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ (٢) .

ويستحضر أيضًا فى قلبه قول الله تبارك وتعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمرًا أن يكونَ لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ومن يعصِ اللهَ ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً ﴾ (٣) . إلى غير ذلك من الآيات التى تحمله على الرضا والتسليم ، واحتساب الأجر على الله تبارك وتعالى .

---

(١) آية : ٩٧ . (٢) آية : ٦٨ – ٧٠ . (٣) آية : ٣٦ .

وليحذر أن يكون حاله حال المنافقين الذين يكثرون من قولهم : لو كان كذا لكان كذا . لقد أفسدت عليهم (لو) إيمانهم وجلبت عليهم خزى الدنيا والآخرة ، وحرمتهم أعظم النعم ، وهى راحة القلب .

فقد كان من أقوالهم ما حكى الله عنهم في سورة آل عمران : ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شىءٌ ما قُتلْنا هاهنا ﴾ فرد الله عليهم بقوله : ﴿ قل لوكنتم فى بيوتكم لبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم ﴾[1] .

ولقد حذر الله المؤمنين من هذه المقولة وما يماثلها فقال فى السورة نفسها : ﴿ يا أيها الذين أمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُزًى [2] لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ليجعل الله ذلك حَسْرَةً فى قلوبهم والله يُحيى ويُميت والله بماتعملون بصير ﴾[3] .

إن كلمة « لو »لا يأتى من ورائها خير ، بل هى تصحب الشر معها دائماً ، وتجره إلى قائلها ، فتحزنه وتسلبه السكينة والطمأنينة ، فهى كلمة نكدة فى أغلب الأحوال .

وقد قالوا فى الأمثال : (زرعوا لو فطرحت ليت) .

وماذا تفيد « لو » وهى حرف امتناع لامتناع ، وماذا تفيد « ليت » وهى حرف تمنّى ، والتمنى هو طلب المستحيل أو ما يقاربه !!

وأعظم الكلمات ما نصح الرسول ﷺ بقولها : « قدر الله وما شاء فعل » فهى كلمة التسليم والتفويض ، هى الإيمان فى أسمى صوره وأرقى معانيه .

ولنتذكر مقالة الرجل المؤمن فى سورة غافر : ﴿ فستذكرون ما أقولُ لكم وأُفوِّضُ أمرى إلى الله إن الله بصيرٌ بالعباد ﴾[4] فكان جزاؤه ما ذكره الله فى الآية التى بعدها : ﴿ فوقاه الله سيئاتِ ما مكروا وحاقَ بآل فرعون سوءُ العذاب ﴾ .

وبتعذيب آل فرعون يشفى الله صدره ويذهب غيظه ، فيكون تعذيبهم منحة له . كما قال تعالى فى سورة التوبة : ﴿ قاتلوهم يعذبْهم الله بأيديكم

---

(١) آية : ١٥٤ .

(٢) أى غزاة فى سبيل الله .

(٣) آية : ١٥٦ .

(٤) آية : ٤٤ .

ويُخْزِهم ويَنصرْكم عليهم ويَشْفِ صدورَ قوم مؤمنين ويُذهبْ غيظَ قلوبهم ويتوبُ الله على من يشاء والله عليم حكيم ﴾ (١) .

وبعد ، فإن هذا الحديث مما يطول شرحه وتكثر لطائفه ، وتعظم فوائده ، وتتفاوت أنظار العلماء فيه ، فيفهم منه كل واحد على قدر معرفته بقواعد الدين ، وجوامع الكلم .

كما أن المؤمنين يتفاوتون فى إيمانهم قوة وضعفاً يتفاضلون فى العمل به ،فكل واحد يأخذ منه بحسب عزمه وحزمه وهمته .

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

* * *

---

(١) آية : ١٤ - ١٥ .

(٣) احفظ الله يحفظْك

عنٍ عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - قال : « كنت خلف النبى ﷺ يوماً ، فقال لى : يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظْك ، احفظ اللهَ تجدْه تُجاهك ، إذا سألتَ فاسأل اللهَ ، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أن الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشىءٍ لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه اللهُ تعالى لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىءٍ لم يضروك إلا بشىءٍ قد كتبه اللهُ تعالى عليك ، رُفعتْ الأقلامُ وجفَّت الصُحف » .

رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

وفى رواية أخرى لغيره : « احفظ الله تجدْهُ أمامك ، تَعَرَّف إلى الله فى الرخاء يعرفْك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصرَ مع الصبرِ ، وأن الفرجَ مع الكربِ ، وأن مع العسرِ يسراً »(١) .

* * *

كادت هذه الكلمات تكون قرآناً ، فهى كلماتٌ جامعة لثمرات الإيمان كلها ، مشتملة كل آيات اليقين بفضل الله تعالى .

إنها كلمات يسيرة يسهل حفظها ،واضحة الدلالة لا يحتاج العاقل فى تأويلها إلى بيان ، فهى البيان نفسه فى أسمى صوره ، وأرقى أساليبه ، يجد المؤمن لها حلاوة فى قلبه لا يجدها فى غيرها ، ويشعر بعذوبتها فى كيانه كله ، وتسرى حرارتها وبرودتها فى العروق والخلايا ، ويستقبلها الضمير الحى بارتياح ما بعده ارتياح .

---

(١) هذا الحديث روى من طرق مختلفة أخرجها أحمد بن حنبل ، وعبد ابن حميد وغيرهما بألفاظ متقاربة وفيها تقديم وتأخير .

كل كلمة من هذه الكلمات تعبير صادق عن الدين كله ، لكن أبى البيان إلا أن يسترسل النبى ﷺ فى ذكر كلمات يتتابع روحها وريحانها كما يتتابع الغيث المغيث الذى يجد الناس فيه الحياة ، فيشرب المؤمن من سلسبيل كل كلمة منها حتى يرتوى فلا يظمأ بعدها أبداً .

ولقد وقفت طويلاً أمام هذه الوصية الخالدة التى تلقاها ابن عباس حبر الأمة من نبى الأمة ففاز بها فوزاً عظيماً ، ولعله صار حبراً بسبب حفظها واستيعاب ما فيها من عظات وعبر .

نعم لقد وقفت طويلاً وقفة إعجاب بهذا الأسلوب الرائع الذى يأخذ بمجامع القلوب ، أنظر تارة إلى إيجازه المعجز ، وتارة إلى إطنابه المفيد ،وتارة إلى تشبيهاته البليغة وكناياته التى قد جرت مجرى المثل وحفرت لها فى الأذهان مكاناً ، وتارة انظر إلى ما احتوته هذه الكلمات من المعانى الظاهرة واللطائف الخفية ، وتارة أنظر إلى ما اشتملت عليه هذه الكلمات من المقاصد الدينية والدنيوية ، فوجدت بعد التأمل والنظر أن هذه الوصية بحر تفجرت منه ينابيع الحكمة التى تفيض حناناً من معلم الحكمة .

إنه ﷺ رحيم بأمته ، حريص عليهم حرص الوالد على ولده ، بل قل حرص المرء على نفسه .

قال تعالى : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ (١) .

وقال جل وعلا : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ ﴾ (٢) .

وكأنى أنظر إلى ابن عباس رضى الله عنهما وهو يتلقى هذه الموعظة البليغة فأشاركه بمشاعرى هذه الحفاوة التى وجدها من رسول الله ﷺ عندما أردفه خلفه وأسدى إليه ما أسداه، وأشهد معه هذا التجلى الإلهى الذى كان فيه الرسول ﷺ حين انعكس نوره على هذا الصحابى الجليل من خلال هذه الكلمات العطرة .

---

(١) الأحزاب : ٦ .
(٢) التوبة : ١٢٨ .

وهذا الصحابى هو الذى جاء به أبوه بعد ولادته إلى النبى ﷺ فتفل فى فمه وحنَّكه ودعا له بالخير والبركة ، وقال : « اللهم فقِّهه فى الدين وعلمه التأويل » ، ثم تولاه ﷺ بعنايته ، وأدبه فأحسن تأديبه ، وكان يردفه خلفه كثيرًا حتى لقب برديف رسول الله ﷺ . وكان غلاماً زكى النفس ذكى الفؤاد ، أجرى الله على لسانه الحكمة فكان يعلمها الناس كما علمه الله عز وجل .

وله سيرة عطرة ومواقف حاسمة فى الحرب والسلم ، وهو خير من فسر كتاب الله تبارك وتعالى ، وهو من المكثرين فى رواية الحديث .

* * *

الكلمة الأولى فى هذا الحديث : « احفظ الله يحفظك » ، وهى الأساس لما بعدها .

والمعنى : احفظ حقوق الله عليك فى العبادة فلا تتوجه بقلبك إلا إليه ، ولا يراك غافلاً عن ذكره وشكره واحفظ دينه بحفظ أمانتك وعهدك وصلاتك وصيامك وسائر ما افترضه عليك ، ولا تتجاوز حدوده التى حدها لعباده ، وكن قواماً بالقسط فى أمرك كله، ولا تعط الدنية فى دينك ، واتبع سبيل المؤمنين ، وكن قدوة لغيرك فى الصلاح والتقى ، فهى وصية جامعة لأصول الدين، وفروعه، وفيها من الإيجاز البليغ ما يضيق المقام عن ذكره،ودراستنا للوصايا النبوية ليست دراسة لغوية ،وإنما هى دراسة لما تحتويه من الأوامر والنواهى والعظات والعبر .

ولما كان الجزاء من جنس العمل قال الرسول ﷺ : « احفظ الله يحفظك » يعنى يحفظك فى أمور دينك ومصالح دنياك .

أما أمور الدين فإن العبد إذا بدأ السير إلى الله تعالى بالتوبة النصوح وجدَّ فى العبادة واجتهد فى الطاعة ، وطلب الهدى من الله تعالى – هداه إلي الطريق السوى ووفقه للمزيد والمزيد من الطاعة ، وأعانه على نفسه ودنياه ، وشيطانه وهواه ورزقه شيئاً من معرفته فارتقى بها إلى مقام العبودية ودرجات القرب .

يقول الله عز وجل : ﴿ والذين اهتدَوا زادَهم هُدًى وآتاهم تقواهم ﴾[1].

---

(١) محمد : ١٧ .

ومعنى ﴿ اهتدوا ﴾ : طلبوا الهدى ، والطلب لا يكون باللسان ولكن يكون بالعمل الصالح ،والجد فى الطاعة ، والبعد عن المعاصى .

ولا يزال العبد يترقى من مقام إلى مقام حتى يكون الدين هو عصمة أمره ومنتهى بغيته ، فلا يفرط فى سنة من سننه ولا أدب من آدابه ، وبذلك يكون محفوظاً بعناية الله تعالى من كل ما يعكر عليه صفو الإيمان ، فإذا مات كان له عند ربه الحسنى .

قال تعالى : ﴿ وأُزلفت الجنةُ للمتقين غيرَ بعيد هذا ما تُوعدون لكلِّ أواب حفيظ من خَشِيَ الرحمنَ بالغيب وجاء بقلبٍ منيبٍ ادخلوها بسلامٍ ذلك يوم الخلود ﴾ (١) .

والحفيظ كما قال المفسرون : من اشتد حفظه لما وُكِلَ إليه حفظه ،وفُسِّر أيضًا بالحافظ لأوامر الله ، وبالحافظ لذنوبه يتوب منها ولا يكاد ينساها .

وكما يحفظه الله فى دينه يحفظه أيضاً فى أمور دنياه ، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله ، وذريته من بعده .

ولقد سخّر الله رجلاً من أحب عباده إليه – وهو الخضر – ليبنى الجدار الذى كان ليتيمين لأن أباهما كان صالحًا .

وقد قال الله عز وجل : ﴿ إن الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم تُوْعَدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفُسُكم ولكم فيها ما تَدَّعون نُزلاً من غفور رحيم ﴾ (٢) .

أى إن الذين قالوا بألسنتهم وقلوبهم ؛ ربنا الله ، ثم استقاموا على الصراط المستقيم ولم يفرطوا فى شىء أمرهم الله بحفظه ، تتنزل عليهم الملائكة عند الموت – كما قال مجاهد وغيره – تبشرهم بأن الله وليهم فى أنفسهم ، ووليهم على أهليهم وذويهم ، فلا يخافون من القدوم عليه ولا يحزنون على فراق

---

(١) ق : ٣١ – ٣٤ .   (٢) فصلت : ٣٠ – ٣٢ .

أولادهم ، ولا يحزنون يوم الفزع الأكبـر ، ولهـم عند الله ما تشتهيه أنفسهم ﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ ، أى ضيافة ومودة ممن شأنه أن يغفر ويرحم .

وعلى العبد أن يسأل الله عز وجل فى سره وعلانيته أن يرعاه بحفظه ، ويكلأه بعنايته ، مع الاجتهاد فى الطاعة إذ لا ينفع الدعاء بدونها .

قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريبٌ أجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرشدون ﴾ (١) .

فالرشـد - وهو صـلاح الدين والدنيا - مشـروط حصـوله بالاستجابة والإيمان .

فإذا دعا الداعى ربه عز وجل فلابد أن يكون أهلاً للإجابة - كما سنبين فى موضع آخر .

ولقد كان النبى ﷺ يدعو بدعوات ما أحسنهم .

روى أحمد فى مسنده وأبو داود والنسائى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسى وحين يصبح : « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى ، واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ،وأعوذ بعظمتك أن أُغتال مِن تحتى »

* * *

وقوله ﷺ : « احفظ الله تجده تُجاهك » وفى رواية : « تجده أمامك » - إضافة أخرى للفقرة الأولى لا يفطن إليها إلا من كان يجيد استنباط اللطائف البيانية من مكمنها ، فإن قوله : « تجده تجاهك » أو « أمامك » معناه : أنه من حفظ الله فى دينه وسبق غيره فى ذلك وجد الله أسبق إليه منه بواسع فضله وعظيم رحمته ومغفرته - كما قال جل شأنه : ﴿ ومن يعملْ سوءاً أو يَظلم نفسه ثم يستغفر اللهَ يجد اللهَ غفوراً رحيماً ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ١٨٦ . (٢) النساء : ١١٠ .

والمراد بالسوء : القبيح من الأقوال والأفعال ، والمراد بظلم النفس : الشرك الخفى كالرياء وحب الظهور ، وما إلى ذلك مما يقع ضرره على الشخص نفسه .

ومعنى ﴿ يجد الله ﴾ : يلقاه قد سبقه إلى الرحمة والمغفرة لعلمه أنه سيتوب من ذنبه ، فالتوبة منه وإليه ، كما أفصح عن ذلك قوله تعالى فى شأن المخلفين الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله فى غزوة تبوك : ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ (١) .

ولا شك أن العبد إذا حفظ دين الله رغب فى ثوابه وطمع فى رضوانه . ولن يخيب الله عبداً كان شأنه ذلك بخلاف من أعرض عن ذكره وكذب بآياته ، فإن أعماله تكون كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، أو كسراب بفلاة واسعة يحسبه الظمآن ماءً ، فإذا ما انتهى إليه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فَفُتَّ فى عضده ، ولقى جزاءه على سوء الصنيع وفساد العمل .

وقد ضرب الله للمؤمنين به ، والمحافظين على حدوده ، والطامعين فى رحمته مثلاً فى سورة النور فقال : ﴿ اللهُ نورُ السماوات والأرض مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباحٌ المصباحُ فى زجاجةٍ الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرِّىٌّ يُوقدُ من شجرة مباركة زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكادُ زيتُها يضىءُ ولو لم تمسسْه نارٌ نورٌ على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثالَ للناسِ واللهُ بكل شىءٍ عليم ﴾(٢) .

وقد ذكر الله أوصافهم وحدد مسارهم فى الآية التى بعدها فقال جل شأنه : ﴿ فى بُيوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُرفعَ ويُذكرَ فيها اسمه يسبِّح له فيها بالغدوِ والآصال رجالٌ لاتُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوبُ والأبصار ليجزيَهم الله أحسنَ ما عملوا ويَزيدَهم من فضله والله يرزَقُ من يشاءُ بغير حساب ﴾ .

فهؤلاء لما حفظوا الله حفظهم وأنار قلوبهم ، وأمنهم من الفزع الأكبر ، وأجزل لهم العطاء ، وزادهم من فضله أضعاف ما كانوا يرجون .

﴿ والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثوابًا وخيرٌ أملاً ﴾ (٣) .

---

(١) التوبة : ١١٨ . (٢) النور : ٣٥ .

(٣) الكهف : ٤٦ .

وأبرز أوصافهم أنهم لا يشغلون أنفسهم عن عبادة الله تعالى ببيع أو تجارة أو ما فى معناها ، وأن قلوبهم متعلقة بالمساجد ، وأنهم يتقربون إلى الله بما استطاعوا من الطاعات ،وأنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار من شدة الأهوال .

بينما ضرب الله للذين كفروا مثلين كل منهما أشد من الآخر فقال جل وعلا : ﴿ والذين كفروا أعمالُهم كسراب بقيعَة يَحْسَبُه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئًا ووجدَ اللهَ عنده فوفاه حَسابَه إن الله سريعُ الحساب أو كظلمات فى بحر لُجى يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعض إذا أخرج يده لم يكدْ يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ (١) .

والنور هو أعظم منة يمتن الله بها على عباده المؤمنين ، به يسمعون وبه يبصرون وبه يتعايشون ، وبه ينتصرون ، فليس هناك نعمة أعظم منه ، فهو الإيمان فى أعلى درجاته .

يقول الله عز وجل : ﴿ أو من كان مَيْتًا فأحيَيْناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مَثَلُه فى الظلُمات ليس بخارجٍ منها كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

وقال جل وعلا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يُؤْتِكم كِفلَيْنِ من رحمته ويجعلْ لكم نوراً تمشون به ويغفرْ لكم والله غفورٌ رحيم ﴾ (٣) .

من هذه الآيات نفهم معنى قوله ﷺ : « احفظ الله تجده تجاهك - أو أمامك » .

فإن الله يكون مع عبده معية خاصة كما قال جل وعلا فى آخر سورة

---

(١) النور : ٣٩ - ٤٠ .　　(٢) الأنعام : ١٢٢ .

(٣) الحديد : ٢٨ .

النحل : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (١) فهو ينير لهم الطريق فيمشون فيه آمنين مطمئنين .

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قال : من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب ،وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

هذا هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقطع خطبته يوم الجمعة وينادى سارية – قائد المسلمين فى الشام –: يا سارية الجبل الجبل ، فتحصن بمن معه فى الجبل فنجوا ، ثم جاء البشير يقول: لقد انتصرنا، ولقد سمعنا صوتك يا أمير المؤمنين : يا سارية الجبل الجبل. فتحصنا بالجبل فنجونا .

فبأى عين رأى عمر ؟! لقد رأى بنور الله . وبأى أذن سمع سارية ومن معه ؟! لقد سمعوا بنور الله.

والمسلمون فى غزوة بدر كانوا قلة ، فلما تراءا الجمعان أخذ النبى ﷺ حفنة من حصى فرمى بها وجوه القوم ، فما من عين إلا وقد أصابتها من هذه الرمية قذى .

وهذا هو معنى قوله تعالى فى الحديث القدسى: « ويده التى يبطش بها ».

وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ فلمْ تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم وما رميتَ إذ رميتَ ولكنَّ اللهَ رمى ﴾ (٢) .

وخالد بن الوليد قد قطع بادية السماوى من العراق إلى الشام فى عشرة أيام ،وهى مسافة لا يقطعها الراكب إلاَّ فى شهرين .

وهذا تفسير واقعى لقوله تعالى فى الحديث : « ورجله التى يمشى بها » .

* * *

(١) آية : ١٢٨ . (٢) الأنفال : ١٧ .

قوله ﷺ : « إذا سألت فاسأل الله » جملة مستأنفة وثيقة الصلة بما قبلها ، فهى من تمام قوله : « احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تُجاهك » .

فالدعاء كما عرفنا من قبل لا يستجاب إلاّ لمن حفظ الله فى حقوقه وحدوده ، وامتثل أوامره واجتنب نواهيه ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ [١] .

ومعنى قوله :« إذا سألت »أى إذا أردت أن تسأل شيئاًمن أمورالدين والدنيا « فاسأل الله »ولا تسأل أحداً سواه . قال تعالى :﴿ واسألوا الله من فضله ﴾[٢] .

واعلم أن خزائن الجود وأزِمّتها إليه ، إذ هو الغنى القادر مالك الملك ليس لأحد معه شىء . قال تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملكَ من تشاء وتَنزعُ الملك ممن تشاء وتُعزُ من تشاء وتُذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير تُولجُ الليل فى النهار وتُولِجُ النهار فى الليل وتُخرج الحىَّ من الميت وتخرج الميت من الحىِّ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ [٣] .

وقال عز شأنه : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراءُ إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾ [٤] .

ولا يقولن أحد : الرزق مقسوم وكل شىء مقدر ومكتوب فلماذا الدعاء ؟ هل الدعاء يرد القدر ؟ .

والجواب عن هذا أن نقول إن الدعاء فى ذاته عبادة تعبدنا الله به ، بل هو مخ العبادة كما ورد فى الخبر ، فَبِه يظهر العبد لربه كمال افتقاره إليه ، ويظهر شعوره بعظمة خالقه ومولاه وغناه الكامل عن خلقه ، فلا يسأل العبد لماذا أدعو، ما دام الدعاء مخ العبادة .

أما القدر فلا علم لنا به ، وبالتالى لا يجوز أن نركن إليه ونترك العمل ، فقد قال الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح :« اعملوا فكل ميسرٌ لما خلق له »[٥] .

---

(١) البقرة : ١٨٦ .　　(٢) النساء : ٣٢ .

(٣) آل عمران : ٢٦ – ٢٧ .　　(٤) فاطر : ١٥ .

(٥) رواه البخارى فى التفسير ٩٢ /٣–٥ ، وفى الأدب ١٢٠ ، ومسلم فى القدر ٦ – ٨ .

وقد يكون الأمر المقدر معلقاً حصوله على الدعاء ،وما يدرينا أن الله عز وجل قد يحقق بالدعاء ما لم يحققه بغيره ، وقد جعل لكل شيء سبباً ، ونحن نجهل الكثير والكثير من الأسباب ، فينبغى علينا أن نمتثل أمر الله عز وجل دون أن نورد على أنفسنا شبهاً تعكر علينا صفو قلوبنا .

وبقدر ما يبعد القلب عن مولاه يضعف يقينه ويقع فى هوة الغفلة عن حقائق الأمور التى تيقظ لها أصحاب التوكل واليقين فأعرضوا عما سواه وأنزلوا جميع حوائجهم بباب كرمه وجوده ، لأنه المتكفل بما يحبه ويتمناه . كما قال عز من قائل : ﴿ ومن يتوكلْ على الله فهو حَسْبُه إن الله بالغُ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ (١) .

والتوكل على الله تبارك وتعالى من أعظم ثمرات الإيمان ، وهو أيضاً من أقوى أدلة اليقين بالإجابة .

ومعناه الاعتماد على الله والثقة بفضله مع مباشرة الأسباب ، فإن لم يباشر العبد أسباب الرزق والمعاش لا يسمى متوكلاً ، بل يسمى متواكلاً ، وشتان بين التوكل والتواكل .

وقد كان النبى ﷺ يتداوى ويأخذ بأسباب النصر فى الحرب ، فقد كان يعد العدة ويجهز الجيش للقتال حتى إذا رآه الرائى قال : كأنه لا يعتمد على الله فى شيء ، وكان يدعو حتى يسقط رداؤه من فوق كتفيه ويبكى ويضرع إلى خالقه ومولاه أن ينصره على عدوه حتى إذا رآه الرائى قال : كأنه لا يعتمد على الأسباب فى شيء .

وهذا هو التوكل بمعناه الصحيح على ما سيأتى بيانه مفصلاً فى وصية أخرى .

وقد وردت فى الدعاء أحاديث كثيرة تحض عليه وترغب فيه وترفع مكانته أعلى مصاف العبادات ، منها :

ما رواه البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال

---

(١) الطلاق : ٣ .

رسول الله ﷺ : « يقول الله : أنا عند ظن عبدى بى ،وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إلى ذراعًا تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

وقد علمنا ﷺ من الدعاء أطيبه وأجمله ، من ذلك قوله لمعاذ بن جبل : يامعاذ والله إنى لأحبك ثم أوصيك : يا معاذ لا تَدعَنَّ فى دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنِّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » (١) .

وسيأتى لهذا الحديث بيان مفصل فى موضعه إن شاء الله .

والذين لا يدعون الله محرومون من فضله ورحمته لأنهم متعالون عن إظهار كمال العبودية،وهم قساة القلوب غلاظ الطباع،يكفرون الناس لأتفه الأسباب.

قال تعالى : ﴿ وقال ربُّكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (٢) .

وقد عرفنا أن الدعاء مخ العبادة ، فمن لم يلهج لسانه به مات قلبه واستوحش من نفسه ، وشعر بالذل والانقطاع والحرمان .

وبعضهم يقول : دعوت فلم يستجب لى . ويستعجل الأمر قبل أوانه ، مع أن الله عز وجل لا يرد من سأله ولكن بالقدر المعلوم ،فى الوقت المعلوم ، فقد يستجيب له فيما طلب ، وقد يعوضه عما طلب بأحسن مما طلب فى الدنيا ، وقد يدخر له ذلك فى الآخرة . والله أعلم بما يصلح عباده .

روى أحمد فى مسنده عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » .

يقول الله عز وجل : ﴿ ويَدْعُ الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عَجُولاً ﴾ (٣) .

---

(١) رواه أبو داود والنسائى بإسناد صحيح .

(٢) غافر : ٦٠ . (٣) الإسراء : ١١ .

ويقول جل شأنه : ﴿ ولو بسطَ الله الرزق لعباده لبغَوا فى الأرض ولكن يُنزِّلُ بقَدَرٍ ما يشاء إنه بعباده خبيرٌ بصيرٌ ﴾ (١) .

روى مالك فى الموطأ عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول : دعوت فلم يستجب لى » .

وقد مر بك ما قاله ابن عطاء الله السكندرى : لا يكن تأخر أمر العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجباً ليأسك . فهو – سبحانه – ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك ، لا فيما تختاره أنت لنفسك ، وفى الوقت الذى يريد ، لا فى الوقت الذى تريد .

وقد وردت فى آداب الدعاء أحاديث كثيرة منها :

ما رواه ابن حبان عن النبى ﷺ : « إذا دعى أحدكم فليعظم الرغبة فإنه لا يتعاظم عن الله شىء » .

ومنها ما رواه أبو داود والنسائى والترمذى عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو فى صلاته لم يمجد الله تعالى ولم يصل على النبى ، فقال : « عجل هذا » . ثم دعاه ، فقال له ولغيره : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه عز وجل والثناء عليه ثم يصلى على النبى ﷺ ثم يدعو بعد بما يشاء » .

لقد طوفنا بك أيها القارئ الكريم فى قوله : « إذا سألت فاسأل الله » ، وهو منتهى التوحيد المجرد عن الشبهات كلها ، وهو التحنف الذى كان عليه إبراهيم عليه السلام ، وهو التبتل الذى أمر الله به نبيه محمداً صلوات الله وسلامه عليه .

والحديث من أوله إلى آخره دعوة إلى التوحيد الخالص فى أسمى معانيه ، فمن سأل الله وحده فهو على درجة عظيمة من درجات العزة والكمال الخلقى كما أن ذلك يدل على مدى معرفة العبد بربه فى أوقات الرخاء والشدة كما سيأتى بيانه .

---

(١) سورة الشورى : ٢٧ .

يقول الله عز وجل : ﴿ أَمَّنْ يُجيب المضطرَّ إذا دعاه ويَكشف السوءَ ويجعلكم خلفاءَ الأرض ءَإِلهٌ مع الله قليلاً ما تَذكَّرون ﴾ (١) .

فمن عرف أن الله يجيب المضطر إذا دعاه فتوجه إليه بقلبه ورفع أكف الضراعة إليه فهو العارف بالله حقاً ، ويسمى عند أهل المعرفة الفقير إلى الله .

والفقير إلى الله هو الغنى بالله . يقول الله عز وجل فى شأن المنافقين الذين عقدوا العزم على مقاطعة النبى ﷺ وأصحابه ، فلا يبيعونهم ولا يشترون منهم : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى يَنْفَضُّوا ولله خزائن السموات والأرض ولكنَّ المنافقين لا يفقهون يقولون لئن رَّجَعنا إلى المدينة لَيُخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ولله العـزة ولرسـوله وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمون ﴾ (٢) .

فالعزة كل العزة فى تقوى الله والاتجاه إليه فى البأساء والضراء ، والاعتماد عليه فى الشدة والرخاء ، والإلحاح فى الدعاء تعبداً ورقاً .

* * *

وقوله ﷺ : « وإذا استعنت فاستعن بالله » أى إذا طلبت العون فلا تطلبه من أحد سواه اعتزازاً بالله وثقة بفضله .

وهذا كقوله فى حديث آخر أخرجه البخارى وغيره : « واستعينوا بالله فى الغدوة والروحة وشىء من الدلجة » .

والتوحيد كله يدور على قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فالعبادة أولاً والاستعانة بعد ذلك ، ولهذا قدمها وأخر الاستعانة .

وقد تكلم ابن القيم فى كتابه « مدارج السالكين » عن تفسير هذه الآية باستفاضة فراجعه إن شئت فى الجزء الأول .

ومن أعانه الله فهو المعان ، ومن خذله فهو المخذول .

---

(١) النمل : ٦٢ .   (٢) المنافقون : ٧ ، ٨ .

إذا لم يكن من الله عونٌ للفتى

فأولُ ما يجنى عليه اجتهادُه

ومن ثم كانت « لا حول ولا قوة إلا بالله » كنزاً من كنوز الجنة لتَضمُّنها براءة النفس من حولها وقوتها إلى حول الله وقوته .

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : لا تستعن بغير الله يكلك الله تعالى إليه .

وقوله ﷺ : « وإذا استعنت فاستعن بالله » بعد قوله : « إذا سألت فاسأل الله » توكيد ومزيد إيضاح حتى يقطع المرء كل أمل فى غير الله ، فهو نعم المولى ونعم النصير .

* * *

وقوله ﷺ : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله تعالى لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله تعالى عليك » - تقرير لما سبق وتوكيد له على أبلغ وجه ممكن .

وفيه قطع أمل العبد فى أى مخلوق مهما علا قدره ،وعز شأنه .

وفيه نزع لكل عوامل الخوف من غير الله تبارك وتعالى مهما أوتى المخلوق من القوة والسطوة والبأس .

وقد قال الله عز وجل : ﴿ وإن يمسَسْك الله بضرٍّ فلا كاشفَ له إلا هو وإن يُردْك بخير فلا رادَّ لفضله يُصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾ (١) .

وقال جل وعلا : ﴿ قل لن يُصيبنا إلا ما كَتَبَ الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٢) .

---

(١) يونس : ١٠٧ .   (٢) التوبة : ٥١ .

وقال عز من قائل : ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسيرٌ لكيلا تأسَوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ وما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمنْ بالله يهدِ قلبَه والله بكل شىء عليم ﴾ (٢) .

فمن آمن بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وآمن بالقدر لم يسأل سوى الله أحدًا ولم يخشَ إلاَّ الله .

ولنا فى رسول الله ﷺ وأصحابه أسوة حسنة ؛ فقد كانوا لا يرجون إلا الله ، فلا يخافون أحداً سواه .

اقرأ قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ الذين قال لهم الناسُ إن الناسَ قد جمعوا لكم فاخشَوهم فزادَهم إيمانًا وقالوا حسبُنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسْهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم إنما ذلكم الشيطان يخوِّفُ أولياءه فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين ﴾ (٣) .

والإيمان بالقدر يقتضى الرضا به حتماً وإذا تحقق المؤمن من أمر القدر رضى بخيره وشره ، وحلوه ومره ، وإذا وثق أن الله يختار للمؤمن الخير حيث كان لم يجزع على مصيبة ولم يعترض على أى أمر من الأمور التى قضى الله بها وقدَّرها فى الأزل .

والرضا بالقضاء هو ألا يتمنى العبد غير ما هو عليه من شدة ورخاء .

وقال عمر بن عبد العزيز : أصبحت وما لى سرور إلا فى مواقع القضاء والقدر .

فمن وصل إلى هذه الدرجة كان عيشه كله فى نعيم وسرور .

---

(١) الحديد : ٢٢ – ٢٣ . (٢) التغابن : ١١ .
(٣) آل عمران : ١٧٣ – ١٧٥ .

قال الله تعالى : ﴿ من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياةً طيبة ولنجزينَّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (١) .

وقال بعض السلف : الحياة الطيبة هى الرضا والقناعة .

وقال عبد الواحد بن زيد : الرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين .

وأهل الرضا على درجات : فمنهم من يلاحظ حكمة المبتَلى جل شأنه وخيرته لعبده فيما ابتلاه به ، وأنه غير متهم فى قضائه عملاً بما جاء فى عموم قوله تعالى : ﴿ وربك يخلُقُ ما يشاء ويختار ما كان لهم الخِيَرَةُ سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ماتُكنُّ صدورُهم وما يُعلنون وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ (٢) .

وعموم قـوله تعالى : ﴿ ومـا كان لمؤمـنٍ ولا مـؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهـم الخِيَرَةُ من أمـرهم ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً » (٣) .

ومنهم من يلاحظ ثواب الله فى الرضا فينسى ألم المقضى به .

ومنهم من يلاحظ عظمة المبتلِى ـ جل شأنه ـ وكماله وحكمته فيستغرق عقله وقلبه فى مشاهدة ذلك حتى لا يشعر بالألم بل ربما يتلذذ بالألم .

وهذا لا يصل إليه إلا الخواص من خيرة العباد .

* * *

وقوله ﷺ : « رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » كناية عن الفراغ من القضاء ، فلا راد لقضائه ،ولا معقب لحكمه ، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد .

وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها ، ومن عظمتها وجمالها صُيِّرت مثلاً .

وهذه الخاتمة توكيد لكل ما تقدم وتأسيس عليه ، فإن من علم بالفراغ من

---

(١) النحل : ٩٧ . (٢) القصص ٦٨ ـ ٧٠ .

(٣) الأحزاب : ٣٦ .

القدر لم يسعه إلا الرضا به ، فإن لم يستطع أن يرضى به فليصبر عليه احتساباً للأجر ، وليكثر من قوله : ﴿ إِنَّا لله وإِنَّا إليه راجعون ﴾ (١) فإن ذلك يقوى عزمه عليه ، ويخفف من حدة المصيبة ، وربما تخف حتى لا يبقى لها أثر فى القلب ، قال تعـالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ ولنبلونَّكم بشىء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشِّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ (٣) .

* * *

وقوله ﷺ : « تعرَّف إلى الله فى الرخاء يعرفْكَ فى الشدة » معناه : تقرب إليه بما يحبه ويرضاه ، واسلك كل سبيل يعرِّفك أكثر وأكثر بأوصافه الكمالية ، ويزيدك فهماً فى سننه الكونية ، وتطلع إلى كل سبب تصل به إلى ما وصل إليه العارفون من المنازل السامية فى الحب والقرب ، واغتنم أوقات الرخاء وادخر منها لأوقات الشدة ، وليكن إدخارك عند الله لا عند الناس .

فقد قال الله عز وجل : ﴿ ما عندكم ينفدُ وما عند الله باقٍ ﴾ (٤) .

هذا ما يعنيه الرسول ﷺ بقوله : « تعرَّف إلى الله » بوجه عام ، وإن كان المتبادر إلى الذهن أن التعرف إلى الله فى أوقات الرخاء يكون بالإنفاق على الفقراء والمساكين ومن فى حكمهم ، كالغارمين وطلاّب العلم وأبناء السبيل ، ومن كانوا فى حاجة إلى الزواج أو إلى السكنى وغيرها من الحاجات .

والرخاء هو الأمن وسعة الرزق ، والشدة هى الخوف والعسرة .

والدهر يومان عسر، ويسر . فإذا كان المرء فى يسر ينبغى أن يذكر من كان

---

(١) البقرة : ١٥٦ .
(٢) البقرة : ١٥٣ .
(٣) البقرة : ١٥٥ – ١٥٧ .
(٤) النحل : ٩٦ .

فى عسر ، فيعطيه مما أعطاه الله مواساة له ،وتطييباً لنفسه مبتغيًا بذلك وجه الله تعالى ، محتسبًا أجره عليه .

فمن فعل ذلك فرج الله كربه ، وجعل له من كل ضيق مخرجاً ، وستره فى الدنيا والآخرة .

وقد جاء فى الحديث : « من نفَّس عن مؤمن كربة من كُرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يَسَّر على مُعْسِرٍ يسَّرَ الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان فى عون أخيه » (١) .

وهو تفسير لقوله تعالى : ﴿ إنَّا لا نضيعُ أجر من أحسن عملاً ﴾(٢) .

وقوله جل شأنه : ﴿ هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ ﴾(٣) .

وقد ذكر النبى ﷺ خبر الثلاثة الذين أصابهم المطر فأووا إلى غار فانحدرت صخرة فانطبقت عليهم فقالوا : انظروا ماذا عملتم من الأعمال الصالحة فاسألوا الله تعالى فإنه ينجيكم . فذكر كل منهم سابقة عمل صالح سبق له عند ربه فانحدرت عنهم الصخرة وخرجوا يمشون (٤) .

والعبد المؤمن هو الذى يعمل العمل الصالح لوجه الله تعالى بغض النظر عن انتظار الجزاء ؛ فإن الجزاء فى الحقيقة تفضُل من الله تعالى وليس فى مقابل العمل ؛ فإن العمل مهما عظم قدره لا يساوى عشرَ معشار نعمة أنعمها الله عليه فى الدنيا ، فقوله ﷺ : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » من باب التبشير بفضل الله الوافد على عبده الصالح فى وقت الرخاء والشدة معاً ، بمعنى أن العبد إذا كان فى رخاء وجب عليه أن يشكر ، فإن شكر زاده الله من فضله ، وإن وقع فى شدة قدَّرها الله عليه لطف به فيها ، وخففها عنه حتى يشعر بزوالها قبل أن تزول .

---

(١) أخرجه مسلم .
(٢) الكهف: ٣٠ .
(٣) الرحمن :٦٠ .
(٤) الحديث بطوله فى البخارى وغيره .

ولا شك أن العبد إذا استبشر خيراً هان عليه ما هو فيه حتى يكاد ينسى ما هو فيه بانتظاره الفرج الذى لا يكاد يتأخر على العبد الواثق بفضل الله الواسع كما سيأتى بيانه قريباً .

ولا يخفى ما فى هذه الوصية من حض على فعل كل ما يوصل إلى الله تبارك وتعالى بواسطة الترغيب فى إنقاذ الله له من الشدائد التى كتبها عليه تمحيصاً لقلبه ، وتذكيراً له بحال من هو فى مثل حاله .

والتعرّف ضده التنكر ، فمن لم يشكر الله تعالى على نعمه بقدر طاقته فقد تنكر لما لديه من النعم ، بمعنى أنه تغيَّر بسببها عن الإيمان بمولى النعم سبحانه ، واغتر بماله أو بجاهه أو بمنصبه أو بصحته وظن أنه فوق الناس ، وأنه قادر على صنع ما يريده لنفسه من خير ، وأنه قادر على دفع ما يتوقعه من شر يأتيه من هنا أو هناك ، وهذا التنكر هو الكفر بعينه فليس بين الشكر والكفر طرف ثالث .

قال تعالى : ﴿ وإذ تأذَّنَ ربُّكم لئن شكرتم لأزيدنَّكم ولئن كفرتم إنَّ عذابى لشديد ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ فاذكرونى أذكرْكم وأشكروا لى ولا تكفرون ﴾ (٢) .

وقال عز من قائل : ﴿ وضرب الله مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقُها رغداً من كل مكان فكفرت بأَنْعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (٣) .

وقد يقال : إن كفران النعم ليس كالكفر بالله ، أقول : نعم ؛ لأن هناك كفراً دون كفر ، ولكن العبد إذا تمادى فى كفران النعم وتعالى على خلق الله، وطغى وتكبَّر ، فقد ذهب إيمانه ، وصار فى عداد قوم فرعون ، وقارون ، وهامان ، ومن هو على شاكلتهم ، ولبيان هذا بالتفصيل موضع آخر إن شاء الله تعالى .

* * *

وقوله ﷺ : « واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن

(١) إبراهيم : ٧ .   (٢) البقرة : ١٥٢ .   (٣) النحل : ١١٢ .

ليخطئك » توكيد لقوله فى الرواية الأخرى : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشىء لم يضرُّوك إلا بشىء قد كتبه الله عليك » .

فلا ينبغى أن يقول العبد فى شىء لم يصبه : لو تقدمت أوتأخرت لأصابنى ، ولا يقولن لشىء أصابه : لو فعلت كذا ، أو لو لم أفعل كذا ما أصابنى فإن هذا القول لا يقوله المؤمن بالله ، الموقن بقضائه وقدره . و « لو » تفتح عمل الشيطان كما جاء فى الحديث الثانى من هذا الكتاب .

يقول رسول الله ﷺ : « إن لكل شىء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه » (١) .

ففى ذلك تقرير وحض على تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى مع شهود أنه الفاعل لما يشاء ، وأن ما قضاه وأبرمه لا يمكن أن يتعدى حده المقدر له .

وهذا راجع إلى قوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبَنا إلا ما كَتبَ الله لنا ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومنْ يؤمنْ بالله يهدِ قلبَه ﴾(٤) حسبما تقدم بيانه .

وفى هذا القول البليغ تسلية ومواساة وتعزية لمن أصابه ما يكره أو أخطأه ما يحب .

وفيه أيضاً حث للمؤمن على تسليم الأمر إلى الله عز وجل ، والرضا الكامل بقضائه وقدره ، ولهذا صدَّره بقوله : « واعلم » ؛ لأن هذا من شأنه أن لا يجهله مؤمن ، وأنه من الأمور الهامة التى تبنى على العلم بوصفه ركناً من

---

(١) رواه أحمد . (٢) التوبة : ٥١ .
(٣) الحديد : ٢٢ . (٤) التغابن : ١١ .

أركان الإيمان ، فهو كقوله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ (١) ، وكقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم ﴾ (٢) .

* * *

وقوله ﷺ : « واعلم أن النصر مع الصبر » لا يقل فى أهميته وعظم شانه عن قوله : « واعلم أن ما أخطاك لم يكن ليصيبك » فهذا أوذاك من شانه أن يبنى على العلم ؛ لأن العلم طريق إلى اليقين .

والمراد بالنصر هنا نصر الله للعبد على نفسه الأمَّارة بالسوء ، وعلى شيطانه الذى لا يدَّخر وسعاً فى إضلاله وغوايته ، وعلى دنياه المليئة بالشهوات والملذات، والمكاره ، والمآثم .

وكذلك نصره على عدو دينه من شياطين الإنس أجمعين ، وهذا النصر لا يتأتى إلا مع الصبر .

ولهذا قال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لَكبيرةٌ إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربِّهم وأنهم إليه راجعون ﴾ (٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ (٤) .

فلا نصر بلا صبر ، والصبر هو مواجهة الشدائد بصدر رحب ، وقلب مطمئنٍ ،ومقاومة المثبطات بالهمم العالية ، والعزائم الصادقة ،ومغالبة الكسل والخمول ، والأهواء الجامحة ، والتيارات المنحرفة .

إن الصبر كلمة تعنى الثبات ، والإقدام ، والجلد ، والحسم ، والتسليم ، والتفويض ، ورباطة الجأش ، والتأنى فى اتخاذ القرار ، والتثبت فى الأمر ، وحبس النفس على ما تكره ، وكبح جماحها عما تحب .

---

(١) محمد : ١٩ .　　(٢) البقرة : ٢٣٥ .

(٣) البقرة : ٤٥ – ٤٦ ، والضمير فى قوله : ﴿ وإنها ﴾ يعود على الاستعانة .

(٤) البقرة : ١٥٣ .

ولهذا علّق الله الفلاح عليه فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تُفلحون ﴾ (١) .

ومعنى صابروا : غالبوا أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب .

ومعنى رابطوا : أقيموا على الحدود لحماية بلاد المسلمين من غارة الأعداء .

* * *

وقوله ﷺ : « وإن الفرج مع الكرب » معناه أن الكرْب لا يدوم بل سرعان ما يتبدد ، وتزول شدته ،وتذهب آثاره بالفرج ، وهو التوسعة وفتح الفروج التى يستطيع المحصور أن يخرج منها .

ضاقت فلما استحكمت حلقاتُها

فرجت وكنت أظنها لا تفرجُ

وجاء فى الخبر : « اشدد يا كرب فكلما اشتد الكرب هان » .

وهذا ما يشهد له قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يُنَزِّلُ الغيثَ من بعد ما قنطوا ويَنشرُ رحمته وهو الوليُّ الحميد ﴾ (٢) .

وقوله ﷺ : « وإن مع العسر يسراً » توكيد لقوله : « وإن الفرج مع الكرب » وهو اقتباس من القرآن .

وذكر الفرج مع الكرب ، والعسر مع اليسر لأن الكرب إذا اشتد وعَظُم ، وتعسَّر على المكروب الخروج منه ، أو الصبر عليه ، وشعر باليأس من ذلك ـ أدركه الفرج ، وتيسر عليه أمر الخروج مما هو فيه ، فالفرج أخو اليسر ولكنه مقدم عليه ، وسبيل إليه ، فإذا حل الفرج جاء معه اليسر ، وذهب الكرب وأخذ معه العسر .

ولكى يكون العبد فى انتظار الفرج بعد الكرب ، واليسر بعد العسر عليه

---

(١) آل عمران : ٢٠٠ . (٢) الشورى : ٢٨ .

أن يستعين على تحقيق ذلك بالتقوى ، وما يعين عليها كالتوبة والاستغفار ؛ لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ ومن يتقِ الله يجعلْ له مخرجًا ﴾ (١) .

وقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ فقلتُ استغفروا ربَّكم إنه كان غفاراً يُرسلِ السماءَ عليكم مِدراراً ويُمدِدْكم بأموال وبنينَ ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ (٢) .

ولا شك أن الذكر والدعاء مما يحقق ذلك ، فقد قال الله عز وجل: ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريبٌ أجيب دعوة الداعِ إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ (٣) .

وقال جل وعلا : ﴿ وقال ربُّكم ادعونى أستجبْ لكم ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ فاذكرونى أذكرْكم واشكروا لى ولا تَكفرون ﴾ (٥).

وأحسن ما يقول المكروب :« لا حول ولاقوة إلا بالله » فقد روى ابن جرير وغيره كمحمد بن إسحاق وأبى حاتم أن مالك الأشجعى جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له : أُسر ابنى عوْف . فقال له رسول الله ﷺ : « أرسل إليه أن رسول الله يأمرك أن تكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله » ، وكانوا قد شدوه بالقدّ (٦) فسقط القد عنه ، فخرج ، فإذا هو بناقة لهم فركبها ، وأقبل فإذا بسَرْح (٧) القوم الذين كانوا شدوه ، فصاح بها فاتبع أولها أخرها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادى بالباب ، فقال أبوه : عَوْف ورب الكعبة . فقالت أمه : واسوأتاه ! كيف يقدم؟! - لما هو فيه من القد - فاستبقا الباب والخادم فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلاً ، فقص على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قفا حتى آتى رسول الله ﷺ فأسأله عنها . فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل،

---

(١) الطلاق : ٢ .
(٢) نوح : ١٠ - ١٢ .
(٣) البقرة : ١٨٦ .
(٤) غافر : ٦٠ .
(٥) البقرة : ١٥٢ .
(٦) القد - بكسر القاف - وتر القوس .
(٧) السرح : الماشية .

فقال له رسول الله ﷺ : « اصنع بها ما أحببت ، وما كنتَ صانعاً بمالك » .
ونزل : ﴿ ومن يتقِ الله يجعلْ له مخرجاً ويرزقْه من حيث لا يَحتسب ﴾[1] .

* * *

وبعد ، فهذا ما وسعنى ذكره فى بيان هذا الحديث الجامع لأصول العقيدة والشريعة كلها ، وكنت أود أن أتوسع فى شرحه وبيان لطائفه وأسراره بأكثر من ذلك ولكنِى خَشِيتُ أن يمل القارئ من طول الشرح فأمسكت عن ذلك واكتفيت بما ذكرت . والله ولى القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل .

* * *

---

(١) الطلاق : الآية ٢ – ٣ .

(٤) اغتَنمْ خَمساً قبل خَمسٍ

عنِ ابن عبّاسٍ رضى اللهُ عنهمَا قالَ : قال رسُول الله ﷺ لرجلٍ وهو يَعظه :

« اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خمْسٍ :

شَبَابَكَ قَبْلَ هرَمكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقمِكَ وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ » (١) .

* * *

هذا الحديث واضحٌ فى معانيه ، قوى فى مقاصده ومراميه ، جامع لما فيه الخير للمسلم فى دينه ودنياه ، ولا شك أن صلاح الدنيا فى صلاح الدين ، وصلاح الآخرة فى صلاحهما معًا ، باعتبار أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وأنها لن تكون كذلك إلا إذا كان الدين منهجها ودستورها .

ومن رام الحياةَ بغير دينٍ

فقد جعل الفناءَ لها قرينا

وقوله ﷺ : « اغتنم خمسًا قبل خمس » معناه : اظفر على وجه المغالبة وقهر النفس خمس نعم قبل خمس محنٍ ، فإن النعمة لا تدوم على ما هى عليه فى جميع الأحوال ، لأن دوام الحال من المحال ، فالشباب يبلى ويذبل ،والصحة تضعف وتنكمش وتضمحل، والمال ظل زائل سرعان ما يذهب ويزول أو ينتقل من مُوَرِّثٍ إلى وارث، والفراغ نعمة من النعم التى يغبن فيها ابن آدم ولكنه سرعان

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك ، وقال صحيح على شرطهما – يعنى البخارى ومسلم ، وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير ، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان ، وأقره الذهبى فى التلخيص ، انظر تخريجه فى فيض القدير شرح الجامع الصغير جـ ٢ صـ ١٦ .

ما تأتى الشواغل على حين غفلة ، فيجد المرء نفسه عاجزاً عن تحقيق مآربه، لفوات وقت الفراغ وضياع الفرصة التى لم يغتنمها .

والحياةُ أنفاس معدودة فى أماكن مَحْدُودَةٍ تنقطع بالموت فى وقتٍ ربما لا يكون فى الحسبان ، فيندم المرء على ضياع العمر فيما لا ينفع ، فلا يُجْدِيه النَّدمُ شيئًا ولا يخلصه مما وقع فيه من التقصير فى حق نفسه ، والتفريط فى حقوق ربه .

هذا هو معنى الحديث إجمالاً ، والإجمال لا يغنى عن التفصيل ، فكلام النبى ﷺ ينابيعُ من الحِكَم ينهل منها الناهلون فيرتوُونَ ولكنهم لا يكتفون بل يطلبون المزيد والمزيد ؛ لما يجدونه فى كلامه ﷺ من حلاوة تتذوَّقها قُلُوبُهم ، وطَلاَوةٍ تجد لها مهابةً وجلالاً فى نفوسهم .

ولا شك أن الباحث لو أعاد النظر فى كلام رسول الله ﷺ مرةً بعد مرة سيجد – ولابد – من الأسرار ما لم يكن قد وقع عليه من قبل .

ومن هنا يتفاوت العلماءُ فى فهم الحديث وفقهه بحسب علم كل منهم بفنون القول وأساليب البيان « ورب حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه » .

ولنا فى الحديث نظرات متواضعات على قدر فهمنا ووعينا وعلمنا ، والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

* * *

قوله ﷺ : « شَبَابَك قبل هَرَمِك معناه : اغتنم هذا القدر من عمرك فيما ينفعك فى دينك ودنياك وآخرتك ، ولا تضيعه فى اللهو واللعب والشهوات والملذات المحرمة فهو خيرُ وقتٍ تستطيع أن تدخر فيه لنفسك عملاً صالحًا تجده نافعًا لك فى دنياك وفى أخراك ؛ فإن الله عز وجل يثيب العبدَ على عمله الصالح فى الدنيا والآخرة معاً . قال تعالى : ﴿ فآتاهم الله ثوابَ الدنيا وحُسنَ ثوابِ الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ مَن عَمِلَ صالحًا من ذَكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياة طيبة ولنجزينَّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

---

(١) آل عمران : ١٤٨ . (٢) النحل : ٩٧ .

والشباب هو زمن القوة والفتوة والرجولة والفحولة يبدأ من البلوغ إلى الأربعين أو ما دونها بقليل على ما قرره العلماء .

والصحيح عندى : أن الشباب هو زمن القوة بغض النظر عن السِّن ، فإن المرء قد يظل قوياً إلى سن متأخرة ، وقد تضعف قواه فى سن مبكرة .

فالشباب مأخوذ من الشبيبة وهى القوة والفتوة .

وضدها الشَّيْبُ وهو الهَرَمُ – بفتح الهاء والراء – .

يقال : هَرِمَ – بكسر الراء – يهرَم – بفتحها – هَرَمَاً ومَهْرَمًا هكذا فى لسان العرب .

والشَّابُّ يستطيع أن يحفظ على نفسه شبابها بطرق كثيرة مرجعها إلى الوسطية فى كل شىء بحيث لا يكون هناك فى شئونه كلها إفراط ولا تفريط ، ويستطيع أن يغتنم شبابه فى مناحٍ متعددة وبسبلٍ مختلفة .

يستطيع أن يغتنم شبابه فى طلب العلم وتحصيله مع أدبٍ يزينُه وخلق يرفع مكانته عند الله وعند الناس ، ثم يعمل بما يعلم لأن العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر ، وقد وردت فى فضل العلم والحث على طلبه ونشره والعملِ به أحاديثُ كثيرة نذكر منها ما وسعنا ذكره فى موضع آخر إن شاء الله تعالى .

والجهاد فى سبيلِ الله مَيْدَان واسع فسيح ، فِرسانه الشباب القوى فى إيمانه والقوى فى جسمه أيضاً .

وليس هناك عمل للشباب أفضل من الجهاد ، كما ورد فى الأحاديث الصحيحة التى سنذكر طرفاً منها عند الكلام عليه .

والجهاد نوعان : جهاد العدو ، وجهاد النفس .

ومن سلك طريق الجهاد مخلصاً يسَّر اللهُ له سُبُلَ النصر على عدوه الظاهر والباطن ، قال تعالى فى آخر سورة العنكبوت : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا وإنَّ الله لمع المحسنين ﴾ (١) .

* * *

---

(١) آية : ٦٩ .

وقوله ﷺ : « صحتَك قبلَ سقَمكَ » أى اظفر بالوقت الذى تكون فيه صحيح الجسم فاقضه فى ميدان العبادة والعمل النافع ، ولا تؤخر عبادة عن وقتها ولا تؤجل عمل اليوم إلى الغد ، فإنك لا تدرى هل تظَل صحيحًا معافًا أم يعتريك ما كتب عليك فتقول : يا ليتنى صليت من الليل كذا وكذا ، ويا ليتنى صمت من الأيام كذا وكذا وياليتنى ويا ليتنى . . .

وهى كلمة لا تأتى بخير بل هى كلمة تفتح عمل الشيطان مِثْلَ « لو » ، وقد قالوا فى الأمثال : « زرعوا ليت فطرحت لو » .

* * *

وقوله ﷺ : « فراغَك قبلَ شُغْلك » معناه : اغتنم أوقات الفراغ فى شُغْل النفس بما ينفعها لتحول بينها وبين شُغلها بما يضرها ، فالنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، فهى رعناء بطبعها ولا تكف عن العمل فى ميادين متشعبة ، كثيراً ما تَضِلُّ فيها عن سواء السبيل .

ولو أهملها صاحبها ما رجعت إليه بخير وما ثابت إلى رُشْدها أبداً ، ولاسـيما لو ابتعدت عن الهُدَى بُعْداً شـاسـعًا دون هـداية من عقلَ أو وازع من ضمير .

قــال تعالــى : ﴿ قـل أندعوا من دونِ الله ما لا ينفعُنا ولا يضرُنا ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيرانَ له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهُدَى وأُمرنا لنسلمَ لربِّ العالمين ﴾ (١) .

ومعنى استهوته الشياطين : ذهبت به إلى هُوَّةٍ سحيقة من الأرض فأضحى حيران لا يعرف من أين أتى ، ولا كيف أتى ، ولا كيف يعود ، فيظل على ما هو عليه من شرك وضلال حتى يَهْلَك .

قال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزُّور حنفاء لله

---

(١) الأنعام : ٧١ .

غيرَ مشركين به ومن يشركْ بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطَفُه الطيرُ أو تَهوى به الريحُ فى مكانٍ سحيقٍ ﴾ (١) .

وقد أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام باغتنام وقته كُلِّه بالتنقل فى رياض العمل الصالح من ميدان إلى ميدان ، أو من بستان إلى بستان ، فقال : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ أى إذا فرغت من العبادة فانصب فى الدعوة ، وإذا فرغت من الدعوة فانصب فى العبادة ، وهذا الحديثُ بيانٌ لهذه الآية وتفصيل لها بأعظم أسلوب وأعذب بيان .

« ومن المؤسف أن العوام لا يبالون بإضاعة أوقاتهم سدى ويضمون إلى هذه الجريمة السطو على أوقات غيرهم لإراقتها على التراب ، وإنهم ليقتحمون على رجال الأعمال خلواتهم الجادَّة ليشغلوهم بالشئون التافهة » (٢) .

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقـول : « نعمتان مغبون فيهما كثيرٌ من الناس : الصحة والفراغ » (٣) .

* * *

وقوله ﷺ : « وغِنَاك قبل فقرِك » معناه : أنفق فى أوقات الغنى قبل أن ينفد المال بسبب البخل أو لأى سبب آخر فلا تجد ما تنفق منه فيفوتك خيرٌ كثيرٌ ولا تُكْتَبُ مع المحسنين الذين يحبهم الله ويخصهم بالمزيد من عنايته ورعايته .

وهذا كقوله فى حديث آخر قد سبق ذكره : « تَعَرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك فى الشدة » .

وقد يكون المراد بالغنى مجرد وجود ما ينفق منه فى الدنيا كالتمرة ونحوها وقد يكون المراد بالفقر الدار الآخرة وهى تبدأ من الموت إذ لا يملك الإنسان فيها درهمًا ولا ديناراً .

---

(١) الحج : ٣٠ - ٣١ .

(٢) انظر خلق المسلم للشيخ محمد الغزالى صـ ٢٣١ .

(٣) البخارى ومسلم .

ويجوز أن يكون هذا إنذاراً للغنى بالفقر إذا لم ينفق من ماله فى وقت الغنى ، فكأنه يقول له : أنفق من مالك لكى لا يكون البخل سبباً فى فقرك .

وقد قال الله عز وجل : ﴿ ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْنَ لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخلُ ومن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراءُ وإن تتولَّوا يستبدلْ قوماً غيرَكم ثم لا يكونوا أمثالَكم ﴾ (١) .

فقوله تعالى : ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ تهديدٌ للبخلاء بالفقر وسوء المنقلب . نسأل الله السلامة والعافية .

* * *

وقوله ﷺ : « وحياتَك قبل موتك » معناه : قدِّم لنفسك ما ينفعك بعد موتك لا تسَوِّف حتى إذا جاءك الموت قلت : ليتنى تصدقت ، ليتنى صليت ليتنى فعلت وفعلت ، فيكون حالك كمن قال الله فيهم : ﴿ يومئذٍ يتذكَّرُ الإنسان وأنَّى له الذكرى يقول يا ليتنى قدمتُ لحياتى ﴾ (٢) .

أى يا ليتنى قدمت لآخرتى فهى الحياة الحقيقية الباقية المليئة بالحيويَّة والنعيم كما قال تعالى :﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ (٣) .

فمن مات لا يشرك بالله شيئًا وقدم لنفسه عملاً صالحًا وُهِبَت له هذه الحياة .

ومَن لعبت بعقله الأهواء ومَلك الشيطانُ عليه قلبه فأشرك بالله وعصاه فى سره وعلانيته فليس له إلا النار وبئس القرار ...

إن هذا الحديث يبين لنا قيمة الوقت ويكشف عن سر النجاح والفلاح فى دارَىّ الدُّنيا والآخرة ، ويعطينا انطباعاً بأنَّ العُمُر هو رأس مال صاحبه فإن اغتنمه فاز بما حصَّلَه منه ، وإن ضيَّعه فقد باء بالخسران فى الدنيا والآخرة .

---

(١) محمد : ٣٨ .	(٢) الفجر : ٢٣ – ٢٤ .

(٣) العنكبوت : ٦٤ .

وإن كان للإنسان أن يحزن على فوات شيء فليحزن على فوات العُمُر إذا مرَّ بغير عمل صالح .

والإسلام يجعل من دلائل الإيمان وأمارات الهدى أن يَعِيَ المسلم قيمة الوقت ، ويقدِّر خطورة الزمن ، فيسعى جاهداً إلى تحصيل معاشه بجدٍّ واجتهاد ومن غير إفراطٍ في الطلب ولا تفريط في الواجبات .

وذلك بأن يقوم بكل ما يجب عليه في وقته من غير تعجيل ولا تأجيل .

كما يؤكد الإسلام الحكمة القائلة : « الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك » .

ويعتبر الذاهلين عن غدهم ، الغارقين في حاضرهم ، المسحورين ببريق الدار العاجلة ، قوماً خاسرين سفهاء :

﴿ إن الذين لا يَرجون لقاءنا ورضُوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ (١) .

إن الركون إلى الدنيا جهل فاضحٌ بأهمية الوقت الذى جعله الله مزرعة للآخرة ، فالدنيا تُحْمَدُ حين تُسْتَغَلُّ من أجل الآخرة ، وتُذمُّ إذا جعلها المرء مبلغ همه ومنتهى أمله .

والناس من الزمان صنفان :

صنف لا يعرف إلا مَرَّه وكَرَّه ، فليل يذهب ونهار يجيء دون أن يدرى لماذا جعل الله الليل والنهار ، ولأى حكمة خلق الله الخلق .

وهذا الصنف يُعَبِّر عنه الشاعر بقوله :

أشابَ الصغيرَ وأفنى الكبيرَ ... كرُّ الغــــداةِ ومرُّ العشى

وكقول الآخر :

يسر المرءَ ما ذهــب الليالى ... وكان ذهابهن له ذهـــابا

---

(١) يونس : ٧ – ٨ .

والصنف الآخر أوتى حظًا من العلم والفقه فجعل الآخرة مبلغ همه ، فجمع الله له شملَه ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومتعه فيها بذكره وشكره ، وأصلح باله وأعزَّه بعزّ الإسلام حتى حان أجله فلقى جزاءه عند ربه جزاءً موفوراً ،وكان من أولئك الذين يناديهم ربهم بقوله عند الموت وفى الدار الآخرة :

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضيةً مرضيةً فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ (١) .

وإنه لقبيح بالناس أن يظنوا محياهم فى هذا الوجود الرتيب سدى ، إنه الميدان الذى أعد للسباق الطويل ، السباق الذى لا يَتَقَدَّمُ فيه إلا من يعرف ربه ويذكر حقه ، ويشكر نعمه ، ولسوف يُسأل المرء عن أربعة أمور هى فحوى هذا الحديث وملتقاه .

قال رسول الله ﷺ : « لا تزولُ قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل فيه » (٢) .

قال الغزالى فى كتابه خلق المسلم : (٣) .

« والإسلام نظر إلى قيمة الوقت فى كثير من أوامره ونواهيه ، فعندما جعل الإعراض عن اللغو من معالم الإيمان ، كان حكيماً فى محاربة طوائف المتبطلين الذى ينادى بعضهم بعضاً : تعال نقتل الوقت بشىء من التسلية !! وما درى الحمقى أن هذا لعب بالعمر ، وأنّ قَتْل الوقت على هذا النحو إهلاك للفرد وإضاعة للجماعة » .

ومن الحكم التى تغيب عن بال الجماهير : « الواجبات أكثر من الأوقات » ، « الزمن لا يقف محايداً ، فهو إما صديق ودود ، أو عدو لدود » .

ومن كلمات الحسن البصرى : « ما من يوم ينشق فجره إلا نادى منادٍ من

---

(١) الفجر : ٢٧ – ٣٠ .
(٢) رواه الترمذى .
(٣) صـ ٢٣٠ .

قبل الحق : يا آبن آدم ، أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد ، فتزود منى بعمل صالح فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » .

وهذه الحكم تنبع من روح الإسلام ومن تفقه تعاليمه العظيمة فى الإفادة من الحياة الأولى للحياة الكبرى ، وإنه لمن فضل الله ودلائل توفيقه أن يلهم الرجل استغلال كل ساعة من عمره فى العمل ، أو الاستجمام من جهد استعداداً لجهد آخر .

﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (١) .

* * *

(١) القصص : ٧٣ .

(٥) من كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فلا يؤذِ جارَه

عن أبى هــريرة – رضى الله عنه – قال : قال رســولُ الله ﷺ : « من كانَ يؤمن باللهِ واليومِ الآخرِ فلا يُؤذِ جــارَه ، ومَنْ كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليكرمْ ضيفَه ، ومَنْ كـــان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخــرِ فليقُلْ خيراً أو ليصمُتْ » (١) .

* * *

يُوصِى النبى ﷺ أصحابَهُ – رضوان الله عليهم – ومَنْ جاء بعدهم فى هذا الحديث بثلاث وصايا هُنّ من أمهات المبادئ الخُلُقيَّة ، لأنَّهن يُمَثِّلْنَ أعظمَ الأوصاف التى يتحلَّى بها من كَمُل إيمانه ، وصَدَق يَقينه ، وطابَ عُنْصُرُه ، وسَلِمَ قلبُهُ من آفاتِ الشحِّ والأَثَرَة وغيرها مما يعكر صَفْوَ الإيمانَ ويطفئ نورَه .

الوصيةُ الأولى : النَّهىُ عن إيذاء الجار بأى لون من ألوان الأذى ؛ وذلك لأن الجار له على جاره حقوق جمعها اللهُ فى كلمة واحدة ، لا تجد فى الكلام ما يسدُّ مسَدَّهَا وهى الإحسان ، فقد أوصى جل شأنه بالإحسان إليه بعد الإيصاء بعبادته ونَظَمَهُ فى سلك أقرب المقربين ، ليُعْلَمَ أنه فى عِدَادهم ، وأنه من جملتهم ، ولا يقل نفعُه لجاره عن نفع القريب لقريبه ، بل ربما يكون الجار أنفعَ لجاره من القريب لذوى قُرْبَاه .

اقرأ فى سورة النساء قوله تعالى : ﴿ واعبدوا اللهَ ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجارِ ذى القربى والجارِ الجنبِ والصاحب بالجنبِ وابنِ السبيلِ وما ملكت أيمانُكم إن اللهَ لا يحبُّ مَنْ كان مختالاً فخوراً ﴾ (٢) .

والجارُ القريــب إذا كان مسلماً كان له على جاره ثلاثة حقوق ، حق الإسلام ، وحق القرابة ، وحق الجوار .

---

(١) أخرجه البخارى . (٢) آية : ٣٦ .

وإذا لم يكن مسلماً كان له حق القرابة وحق الجوار ، وإذا لم يكن مسلماً ولا قريباً كان له على جاره حق الجوار فقط .

هذا ما أفاده الحديث الذى أخرجه البَزَّار بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « الجيران ثلاثة :

جار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران حقاً ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، وهو أفضل الجيران حقاً .

فأما الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له ، له حق الجوار .

وأما الذى له حقان فجار مسلم ، له حق الإسلام وحق الجوار .

وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم ، له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم » .

ولكن ما حق الجار على جاره بشىء من التفصيل ؟

والجواب على ذلك تُحَدِّدُه كلمة الإحسان ، فهى كلمة جامعة – كما ذكرنا – .

ومن الإحسان أن تَرْعَى حرمتَه ، وتصُونَ عرضَهُ ، ولا تتعرض لأهله بسوء بلسانك ولا بيديك ولا بعَيْنَيْكَ ، فإن ذلك من أشد أنواع الأذى وأقبحه ، إذ ليس هناك فى الأخلاق جُرْمٌ أعظمُ من الاعتداء على الحرمات والأعراض بوجه عام ، وحرمات الجيران وأعراضهم بوجه خاص .

فقد ورد فى الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ ، قال : « أن تجعل لله نداً وهو خَلَقَك » .
قلت : ثم أى ؟ ، قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَم معك » .

قلت : ثم أى ؟ ، قال : « أن تُزَانى حَلِيلة جارك » .

وأوَّل مبادئ الزنا : النظر بالعين ، واللمس باليد ، واللَغَطُ فيه باللسان .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « كُتِبَ على ابن آدمَ نصيبَهُ من الزنا ، فهو مدرك ذلك لا محالةَ ، العينان : زناهُما النظرةُ ، والأذنان :

زناهما الاستماعُ ، واللسان : زناهُ الكلامُ ، واليدُ : زناها البطشُ ، والرِّجْلُ : زناها الخطى (وهو المشى إلى المعصية) ، والقلبُ يَهْوَى وَيَتَمنَّى ، ويصدِّقُ ذلكَ الفرجُ ، أو يُكَذِّبُهُ » (١) .

ومن الإحسان إلى الجار أيضاً أن يُعينَهُ على إصلاح نفسه ، فيأمُره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر ، ويدعوه إلى الخير ، ويفتح له أبواب العمل الصالح ، ويَدُله على ما فيه صلاح معاشه ومعاده بالحكمة والموعظة الحسنة ، مع الصبر على ما يلقاه منه فى سبيل ذلك ، ودون أن ييأس من ذلك ، فإن لله فى أيام الدهر نفحات قد ينصحه اليومَ فلا يستجيب،وينصحه فى الغد فيستجيب- والهُدَى هُدَى الله .

وليستعِن على هدايته بالله ، فإن لم يستجب له سَخَّرَ له من أهل العلم والتُّقَى مَنْ يقومُ بذلك ، إذ ليس من الإحسان أن يترك الجار جاره فى محنة المعاصى والإعراض عن ذكر الله دون أن يبذلَ جُهْدَه فى إخراجه من الحال التى هو فيها إلى حالٍ أخرى يجد فيها الأُنْسَ بالله ، والطُمَأْنِينَة بذكْرِه فى ظل طاعته وعبادته .

والأمرُ بالمعروف والنهى عن المنكر واجبٌ من أعظم الواجبات فى جميع الأوقات على كل من هو قادر عليه مع كل الناس ، ولكنَّ الجار أَوْلَى بذلك من غيره ، فليبدأ به كلُّ جار مع جيرانه الأقرب فالأقرب .

روى أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخيرُ الجيران عند الله خيرهم لجاره » .

وأىّ خير أعظَمَ من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوةِ إلى الخير .

ومن الإحسان إلى الجار أن ينظر إلى حاجته فَيَقضيَها له ، فإن كان جائعاً أطعمَه ، وإن كان مريضاً عَادَهُ ، وإن كان فى شدةٍ واساهُ ، وإن كان قد أُصيب فى

---

(١) رواه البخارى ومسلم باختصار ، وأبو داود والنسائى .

ولدٍ له أو قريبٍ عَزَّاه ، ولا يَتَخلَّى عنه فى وقت يكون هو فى حاجةٍ إليه ، وهذا هو التعاون فى أسمى صُوَره وأرقى معانيه .

قال تعالى : ﴿ وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تَعاونوا على الإثم والعُدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ (١) .

وأولى الناس بالبر الوالدان والأقربون والجيران وسائر من نَصَّت عليهم الآية السابقة ، وهى قــوله تعــالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا ﴾ .

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وعائشة رضى الله عنها – أن رسول الله ﷺ قال : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أَنَّهُ سَيُورِّثه » (٢) . أىّ حتى ظننت أن الله سيجعلُ له فى الميراث نصيبًا كالعصبات .

ومن الإحسان إلى الجار التَّخَلِّى تمامًا عن إيذائه ، وهــو أقل مراتب الإحسان ، وذلك لأن إيذاء الجار عدوان عليه ، وهو أولى الناس بأن يكرمَه ويعطفَ عليه ، ويكونَ فى خدمته ، ويدفع الأذى عنه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه – أنَّ النبىَّ ﷺ قالَ : « والله لا يُؤْمنُ ، والله لا يُؤمنُ ، والله لا يُؤمِنُ ، قيلَ : مَنْ يا رسـول الله ؟ ، قال : الذَى لا يأمَنُ جارُهُ بوائِقَهُ » (٣) .

والبوائِقُ : الغوائِلُ والشرور ، والإيذاء بأنواعه المختلفة .

وقــد قــال رســول الله ﷺ : « أحـسن مجـاورة من جاوَرك تكن مسلمًا » (٤) .

أى تكن مسلمًا حقًّا كما ينبغى أن يكون الإسلام .

---

(١) المائدة : ٢ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية لمسلم : « لا يدخل الجنة » .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه (٦٠١٤) ، و (٦٠١٥) .

واعلم يا أخى المسلم أن من حق الجوار احتمال الأذى وليس كفّه فقط ، بل لا يكفى احتمال الأذى فحسب ولكن ينبغى على الجار أن يفعل ما تقدم ذكره من رعاية الحرمات ، وصيانة الأعراض ، والتعاون معه فى السراء والضراء ، ومشاركتُه آماله وآلامه فى الشدة والرخاء .

وهناك حديث جامع لهذا كُلِّه رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال : « أتدرون ما حق الجار ؟ ، إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عُدْتَه ، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ،ولا تستعل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه ،وإذا اشتريت فاكهة فاهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها ، ثم قال : أتدرون ما حق الجار ؟ والذى نفسى بيده لا يبلغ حقَّ الجار إلا مَنْ رحمه الله » (١) .

وكان أصحاب النبى ﷺ يبالغون فى إكرام الجار مسلماً كان أو غير مسلم، وهو الأمر الذى جعل غير المسلمين يدخلون فى الإسلام لما يرون من سماحته ورفقه .

قال مجاهد : « كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة ، فقال : يا غلام إذا سلخت الشاة فابدأ بجارنا اليهودى ، حتى قال ذلك مراراً ، فقال له : كم تقول هذا ؟ ، فقال : إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه » (٢) .

وروى أن الحسن البصرى رضى الله عنه – قال : لا بأس أن تطعم الجار اليهودى والنصرانى من أضحيتك .

---

(١) قال العراقى فى تخريجه على الإحياء : « حديث عمرو أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق ، وابن عدى فى الكامل وهو ضعيف » والضعيف يؤخذ به في فضائل الأعمال .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى ، وقال : حسن غريب ، وأخرجه أحمد فى مسنده ، والبخارى فى الأدب .

وقد كان بعض أصحاب النبى ﷺ يَشْكُون فى إحسانهم للجار ، ويستَقلُّون ما يقدمونه له من أنواع البر ، ويتهمون أنفسهم دائماً بالتقصير ، لِمَا علموا من أن الله عز وجل قد شَدَّدَ فى الإيصاء به .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : قال رجل : يا رسول الله ، كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ، قال : « إذا سمعت جيرانك يقولون : قد أحسنت ، فقد أحسنت ، وإذا سمعتهم يقولون : قد أسأت ، فقد أسأت »(١) .

وكان أصحاب النبى ﷺ يُوصى بعضهم بعضاً بالإحسان إلى الجار والصبر على أذاه ، كما يُوصِى بعضُهم بعضاً بالتقوى ؛ لعظمة الأجر الذى يترتب على ذلك .

فهذا هو عبد الله بن مسعود يأتيه رجل فيقول له : إنى لى جاراً يؤذينى ويشتُمُنى ويُضَيِّقُ علىَّ ، فقال : اذهب ، فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه .

ومن أطرف ما رُوى عن النبى ﷺ من الأخبار الصحيحة : أن رجلاً جاءه يشكو إليه جاره ، فقال له النبى ﷺ : « اصبر » .

ثم قال له فى الثالثة أو الرابعة : « اطرح متاعك فى الطريق » قال : فجعل الناس يمرون عليه ويقولون : مالك ؟ فيقال : آذاه جاره ، قال : فجعلوا يقولون : لعنه الله . فجاءه جاره فقال له : رد متاعك فو الله لا أعود (٢) .

ولكن من هو الجار ؟

أقول الجار مَن جاورك فى المسكن ، أو فى العملِ أو جاورك فى الطريق ، والجارُ للجار إلى أربعين بيتاً شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ، كما جاء فى الحديث

---

(١) رواه أحمد والطبرانى وإسناده جيد .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم عن أبى هريرة : وقال : صحيح على شرط مسلم .

الذى رواه الزهرى : أنّ رجلاً أتى النبى - عليه السلام - فجعل يشكو جاره، فأمره النبى ﷺ أن ينادى على باب المسجد : « ألا إن أربعين داراً جارٌ » (١) .

قال الزهرى : أربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأومأ إلى أربع جهات .

وكلما كان الجارُ أقرب كان بالبر والإحسان أحق ، كما أشرنا من قبل .

قالت عائشة - رضى الله عنها - قلت : يا رسول الله ، إن لى جارين أحدهما مقبلٌ علىَّ ببابه والآخر ناءٍ ببابه عنى ، وربما كان الذى عندى لا يسعهما ، فأيهما أعظم حقًا ؟ فقال : « المقبل عليك ببابه » (٢) .

وأسعدُ الناس حظًا من له جار إذا استعان به أعانه ، وإذا احتاج إلى مؤونة مانه ، وإذا أساء إليه قابل إساءته بالإحسان والعفو والصفح ، وإذا استنصحه نصحه ، وكان له مخلصاً فى أقواله وأفعاله .

عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « اليمن والشؤم فى المرأة والمسكن والفرس ، فيُمْنُ المرأة خفة مهرها ، ويُسر نكاحها ، وحسن خلقها ، وشؤمها غلاء مهرها ، وعسر نكاحها ، وسوء خلقها ، ويمن المسكن سعته وحسن جوار أهله ، وشؤمه ضيقه وسوء جوار أهله ، ويمن الفرس ذله وحسن خلقه ، وشؤمه صعوبته وسوء خلقه » (٣) .

* * *

الوصية الثانية فى هذا الحديث هى إكرام الضيف ، وهو من نزل بدارك أو حل بأرضك .

وقد سمى الضيف ضيفاً لأنه يميل إليك ، يقال : ضاف الرجل إلى الرجل مال إليه ، ويقال : أضافه أنزله عليه ضيفاً .

---

(١) أخرجه أبو داود فى المراسيل ، ووصله الطبرانى من رواية الزهرى عن ابن كعب ابن مالك عن أبيه .

(٢) رواه البخارى .　　　(٣) رواه مسلم .

والضيافة تعتبر من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وهى سنة الأنبياء والمرسلين ، وديدن الأولياء والصالحين والأخيار من ذوى الأنساب والأحساب والأمجاد .

وقد رغب الإسلام فى الضيافة وبالغ فى الحث عليها ، واعتبرها علامة على صدق الإيمان وكماله .

وهى حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم ، بل هى حق لغير المسلم على المسلم إن نزل به ولم يكن محارباً للإسلام ، أو معادياً للمسلمين فى الظاهر .

ومدة الضيافة أقصاها ثلاثة أيام بلياليهن .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى شريح الخزاعى أن النبى ﷺ قال : « الضيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة ،ولا يحل لمسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه ، قالوا : يا رسول الله وكيف يؤثمه ؟ ، قال : يقيم عنده لا شىء له يقريه به » .

هذا ، وللضيافة آداب ينبغى على كل من الضيف والمضيف أن يراعيها ، وقد ورد أكثرها فى حديث ضيف إبراهيم من سورة الذاريات وسورة هود ، وورد الكثير منها أيضاً فى السنة المطهرة وعلى ألسنة الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم .

ولنبدأ أولاً بآداب الضيف ثم نثنى بذكر آداب المضيف . فنقول :

١ - من آداب الضيف أن يتحرى الأوقات التى يطرق فيها أبواب الناس وينزل فيها بساحتهم ، فإن هذا هو اللائق بالمتأدبين بأدب الإسلام ، والحريصين على راحة الناس فى أوقات الراحة ، وعلى عدم إحراجهم .

ولا يعرف هذا إلا أصحاب المروءات ،والذوق السليم ، والحس المرهف ؛ وقليل ما هم فى هذا الزمان .

٢ - ومن أدب الضيف أنه إذا نزل على رجل أن يبدأه بالسلام ، وأن ينظر

فى وجهه ليرى فيه أمارة القبول من عدمه ، وليعرف هل يأذن له بالدخول عن رضا أم عن كراهية وإحراج .

هذا ما يعنيه قوله تعالى فى سورة النور : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بُيوتاً غير بُيوتكم حتى تستأنسوا وتُسلّموا على أهلها ذلكم خيرٌ لكم لعلكم تَذكَّرون ﴾ (١) .

ومعنى تستأنسوا : تسلموا أولاً ، وتبصروا ماذا يكون حال المضيف عند طلب الإذن ؛ فالإيناس معناه : الإذن والاستبصار معاً ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنى آنست ناراً ﴾ .

٣ - وإذا دخل الضيف جلس حيث يُجلسه المضيف ولا ينتقل منه إلى غيره ؛ فربما يكره صاحب البيت ذلك ،وربما يرى فى البيت عورة لم يكن ليراها فى المكان الذى أجلسه صاحب البيت فيه .

٤ - ينبغى أن يرضى بما يقدمه له المضيف ، ويثنى عليه كما كان يفعل الرسول ﷺ عندما كان يقدم له أقل ما يقدم من الطعام ، كالخل ، فيقول : « نعم الإدام الخل » (٢) .

٥ - ومن الأدب أن يدعو الضيف للمضيف بالدعاء الوارد عن رسول الله ﷺ بأن يقول : « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة » (٣) .

٦ - ومن الأدب ألا يقيم عنده أكثر من ثلاثة أيام حتى لا يحرجه ، كما عرفنا من الحديث السابق ، بل لا يقيم عنده إلا بقدر الضرورة ، فخير الناس من إذا زار خفف ، وعليه أن يـراعى حال المضـيف ، فإن كان من أصحاب الأعمال أو كان من العلماء فلا يقتحم عليهم مقر أعمالهم أو خلواتهم إلا للضرورة، فمن

---

(١) النور : ٢٧ .

(٢) رواه أبو داود فى الأطعمة ٣٩ ، والنسائي فى الإيمان ٢١ ، وغيرهما .

(٣) رواه أبو داود من حديث أنس ٤ / ١٨٩ ، وصححه ابن حجر كما فى الفتوحات لابن علان ٤ / ٣٤٣ .

المستحب ألا يُزار هؤلاء كثيراً ، وإن كان ولابد من زيارتهم فلتكن الزيارة غبًّا ، أى عن بعد ، وأن تكون خفيفة كما ذكرنا .

هذه هى أهم الآداب التى ينبغى على الضيف مراعاتها .

أما آداب المضيف فإنها أكثر من أن تحصى ، منها :

١ - رد التحية بأحسن منها ، وحسن اللقاء ، وبشاشة الوجه ، وإيناسه بالحديث الطيب والقصص التى تليق بالحال ، فذلك كله من الإكرام الذى لابد منه فهو حق من حقوق الضيف ، وهو أحسن من تقديم الطعام وغيره ، فقد جاء فى الحديث الصحيح : « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسطُ الوجه وحسنُ الخلق » (١) .

٢ - وأن لا يتكلف للضيف فوق طاقته ، فإن ذلك يجعله يكره نزول الضيف عليه ، وربما يحمله هذا على ترك ما يجب عليه فعله من البشاشة وبسط الوجه ، وغير ذلك مما ذكرناه .

٣ - ومن الأدب أن يقرب له الطعام عند مجلسه وأن يقول له برفق : « كل » .

وعليه قبل ذلك أن يتسلل خفية لإحضار الطعام حتى لا يحرجه ، ولا يستشيره : أتأكل أم لا ؟ ؛ فربما يحمله ذلك على الإباء وهو جائع .

كل ذلك قد تعلمناه من حديث ضيف إبراهيم عليه السلام ، فقد قال الله عز وجل فى سورة الذاريات : ﴿ هل أتاك حديثُ ضيف إبراهيم المكرَمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال سلامٌ قومٌ منكَرون فراغَ إلى أهله فجاء بعجْلٍ سمينٍ فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴾ (٢) .

ومعنى « فراغ » : تسلل خفية إلى أهله حتى لا يحرجهم .

وقد خدمهم بنفسه ، وأخدمهم زوجته ، فهى التى أعدت الطعام بنفسها، وقرب الطعام إليهم وقال لهم برفق : ﴿ ألا تأكلون ﴾ ، وهى أفضل من كلمة : كلوا .

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ، والحاكم فى مستدركه فى أبى هريرة .
(٢) آية : ٢٤ - ٢٧ .

وقد ذكرت هذه الآداب بشىء من التفصيل فى كتابى « تأملات فى سورة الذاريات » .

٤ – ومن الأدب ألا يجلسه مع من يكره الجلوس معه وألا ينهر الخادم بحضرته ، وألا يغيب عنه كثيراً ، وألا يديم السكوت ؛ فإن هذا كله مما يحرجه ويضيق صدره .

٥ – ومن الأدب أن يأذن له بالخروج إذا استأذنه ، ولا يشق عليه فى طلب المكث معه ، ولا سيما إذا كان هو أو الضيف من رجال الأعمال .

ولا ينبغى أن يقول له : امكث ، وهو يريده أن ينصرف فإن هذا نوع من النفاق والمداراة .

٦ – وإذا خرج الضيف يستحب أن يخرج معه إلى باب الدار تتمة لإكرامه ، وإن احتاج إلى تشييعه إلى مكان شيعه إليه ، وقام بالواجب نحوه على حسب ما تقتضيه الضرورة ، ويرتضيه العرف ، ويقره الشرع .

هذه هى الآداب التى ينبغى أن تراعى فى الضيافة من قبل الضيف ومن قبل المضيف .

* * *

الوصية الثالثة فى هذا الحديث قوله ﷺ : « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وهى وصية تخير الإنسان بين أمرين كل منهما يحمد ويذم ، وهما الكلام والصمت .

فالكلام يحمد إذا كان فيه خير للمتكلم أو لغيره ، وهو إما أن يكون واجباً أو مستحباً .

فالواجب منه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحقاق الحق وإبطال الباطل ، والدعوة إلى الخير ، والثناء على الله بما هو أهله .

والمستحب منه هو ما دعا إلى مستحب ،وأرشد إلى إحياء سنة ، ونحو ذلك من الأمور التى هى دون الواجبات .

والكلام يذم إذا أدى إلى وقوع شر بصاحبه ، أو إلحاق ضرر بغيره ، وهو الذى يأثم عليه قائله ، أو يلام عليه ولا يأثم .

فإن أدى الكلام إلى محرم فهو محرم ، وإن أدى إلى مكروه فهو مكروه .

فالمحرم كالقذف ،والغيبة والنميمة ، والكذب وشهادة الزور ، إلى آخر ما هنا لك مما نص الشرع على تحريمه .

والمكروه هو الذى يكون لغواً لا ينفع ولا يضر ، والإعراض عنه فضيلة من الفضائل التى يتحلى بها المؤمنون ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللغو مُعرِضون ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالُنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ (٢) .

أما الصمت فإنه يحمد عندما لا يكون فى الكلام خير لقوله ﷺ : « فليقل خيراً أو ليصمت » ، ويذم عندما يكون الكلام واجب أو مستحب – وقد عرفنا متى يجب الكلام ومتى يستحب .

واللسان مع عظيم فضله له آفتان عظيمتان – آفة الكلام ، وآفة السكوت .

وقد تكون كل منهما أعظم إثماً من الأخرى فى وقتها . فالساكت عن الحق – مثلاً – شيطان أخرس ، عاص لله ؛ لأن سكوته قد يترتب عليه ضياع ما ينبغى الحرص عليه ، وإفساد ما ينبغى أن يظل على حاله من الصلاح والاعتدال .

والمتكلم بالباطل – أيضاً – شيطان مارد ، عاص لله ؛ لأنه يطمس الحق ، وينصر الباطل ، ويدعو إلى الإفساد فى الأرض .

فالكلام والصمت كل منهما فيه جانب خير وجانب شر ، بحسب الحال والمآل ، والعاقل هو الذى يعرف متى يسكت ، ومتى يتكلم ، وماذا يقول، وماذا

---

(١) المؤمنون : ٣ . (٢) القصص : ٥٥ .

يدع من الكلام مسترشداً فى ذلك بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ فكتاب الله تعالى كتاب هداية ومنهج حياة ، وسنة رسوله ﷺ بيان لهذا الكتاب العظيم وتفصيل لما أجمل فيه .

وكثير من الأوامر والنواهى التى جاءت فى القرآن والسنة قد عُنيت بادئ ذى بدء بتهذيب اللسان وتدريبه على التكلم بما ينفع ولا يضر .

واللسان صغير الجِرم كبير الجُرم ،كثيراً ما يوقع صاحبه فى مزالق لا يمكنه أن يتخلص منها فيقف من إخوانه بسبب ما تكلم به موقف الأسف والاعتذار ، وسيقف يوم القيامة بسبب ذلك بين يدى الله تعالى موقف الهوان والصغار ، وربما يكون فيها حتفه وهلاكه ، وما كان أغناه لو اتبع تعاليم دينه القويم فتعرف على ما يترتب على الكلمة قبل أن ينطق بها لسانه . فإن وجد فيها خيراً قالها وإلا سكت .

قال الحسن البصرى – رضى الله عنه – : « لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشىء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، ولسان المنافق أمام قلبه ، فإذا هم بشىء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه » .

ولقد كان أصحاب النبى ﷺ يحرصون كل الحرص على أن يعرفوا سبل النجاة فى الدنيا والآخرة ؛ لذا كانوا يسألون النبى ﷺ عما يقربهم إلى الله ، ويقربهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار .

فهذا هو عقبة بن عامر – رضى الله عنه – يأتى رسول الله ﷺ فيقول : يا رسول الله ما النجاة ؟ ، فيقول الرسول ﷺ « أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابكِ على خطيئتك » (١) .

وإمساك اللسان عن الكلام الذى لا ينفع سبيل إلى تقوى الله – عز وجل – فإن أكثر ما يقع من المعاصى سببه اللسان ، فإمساكه طاعة من أعظم الطاعات ، ومحمدة من أعظم المحامد ، وخلق نبيل يغبط عليه صاحبه .

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن أبى الدنيا فى العزلة وفى الصمت ، ورواه البيهقى فى كتاب الزهد وغيره .

روى أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – قال كنت مع النبى ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقلت : يا رسول الله خبرنى بعمل يدخلنى الجنة ، ويباعدنى عن النار ؟ ، قال : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » .

ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، قال : « الصوم جُنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل فى بيته شعار الصالحين ثم تلا قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ يعملون ﴾ (١) .

ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » قلت : بلى يا رسول الله . قال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » .

ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » ، قلت : بلى يا رسول الله ، قال : « كفَّ عليك هذا » – وأشار إلى لسانه – قلت : يا نبى الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ ، قال : « ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم – أو قال : على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم » .

وفى رواية أخرى للطبرانى قال : قلت : يا رسول الله أكل ما نتكلم به يكتب علينا ؟ . قال : « ثكلتك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم ، إنك لن تزال سالماً ما سكت ، فإذا تكلمت كتب لك أو عليك » .

وفى حديث آخر رواه أحمد والطبرانى وابن حبان وصححه الحاكم ، قال أبو ذر – رضى الله عنه – : يا رسول الله أوصنى . قال : « أوصيك بتقوى الله فإنه زين لأمرك كله » ، قلت : يا رسول الله زدنى ، قال : « عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عز وجل ؛ فإنه ذكر لك فى السماء ، ونور لك فى الأرض » ، قلت : يا رسول الله زدنى ، قال : « عليك بطول الصمت فإنه مطردة للشيطان ، وعون لك

---

(١) تمام الآية : ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفسٌ ما أُخفىَ لهم من قُرَّةِ أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ السجدة : ١٦ – ١٧ .

على أمر دينك ، قلت : زدنى ، قال : « إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجـه » ، قلت : زدنى ، قال : « قل الحـق وإن كان مرًا » ، قلت : زدنى ، قال : « لا تخـف فى الله لومـة لائم » . قلت : زدنى ، قال : « ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك » .

وقد وردت فى الصمت أحاديث كثيرة تشير إلى فضله عند الضرورة وجماعها قوله ﷺ فى هذا الحديث : « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وقد قال الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء بـعد أن ذكر فضيلة الصـمت : (فإن قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب ، والغيبة والنميـمة ، والـرياء والنفاق ، والفحش والمراء ، وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضول ، والتحريف والزيادة والنقصـان ، وإيذاء الخلق وهتك العورات .

فهذه آفات كثيرة وهى سباقة إلى اللسان لا تثقل عليه ، ولها حلاوة فى القلب ، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ، ويكفه عما لا يحب ، فإن ذلك من غوامض العلم ، ففى الخوض خطر وفى الصمت سلامة ؛ لذلك عظمت فضيلة هذا مع ما فيه من جمع الهمم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة ، والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ومن حسابه فى الآخرة .

وقد قال الله تعالى : ﴿ ما يَلفظُ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ ﴾ (١) .

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر : وهو أن الكلام أربعة أقسام :

قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم هو ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة .

أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه ،وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفى بالضرر .

---

(١) سورة ق : ١٨ .

وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عين الخسران .

فلا يبقى إلا القسم الرابع . فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع .

وهذا الربع فيه خطـر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائـق الرياء والتصنع ، والغيبة ، وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجًا يخفى دركه ، فيكون الإنسان به مخاطراً » (١) .

نسأل الله السلامة والعافية .

* * *

(١) انظر جـ٣ صـ١٦٠ – ١٦١ .

(٦) مَنْ استطاعَ منكمُ الباءَةَ فليتزوجْ

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشرَ الشبابِ مَنْ استطاعَ منكُمُ الباءَةَ فليتزوجْ ، فإنَّهُ أغضُّ للبصرِ ، وأحصنُ للفرجِ ، ومَنْ لم يستطعْ فعليه بالصومِ ؛ فإنَّهُ له وِجاءٌ » (١) .

* * *

كان النبى ﷺ يولى الشباب عناية خاصة ؛ لأنهم هم الطاقة الفعالة والقوة المحركة ، والعدة فى الحرب والسلم ، وهم رجال الحاضر والمستقبل ، عليهم تعقد الآمال ، وإليهم تسند أهم الأعمال ، وبهم تناط كثير من الواجبات الدينية والدنيوية .

فكان ﷺ يلتقى بهم فى مواطن كثيرة ويتحدث معهم حديث من يحب لمن يحب - حديثًا عطوفًا حانيًا ، أعظم أثرًا وأعمق تأثيرًا من حديث الوالد لولده ، فهو ﷺ أرحم بهم وبكل مسلم - بوجه عام - من أنفسهم على أنفسهم .

قال تعالى : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ (٢) .

وكان يتعرف على مشكلاتهم ويسألهم عما يجيش فى نفوسهم من رغبة ورهبة ، وكانوا يبادلونه حبًا بحب ، ويتقربون إليه يناجونه مناجاة ملؤها الوفاء والتقدير ، ويبثون إليه ما يجدونه فى أنفسهم من فرح أو حرج ، فيوجههم إلى ما فيه الخير لهم ولأمتهم فى الدنيا والآخرة .

ومن توجيهاته الحكيمة أمره لهم بالزواج لما فيه من صيانة للدين والعرض وتعفف عن الفواحش وما يؤدى إليها فيقول :

---

(١) رواه البخارى ومسلم واللفظ له .

(٢) الأحزاب : ٦ .

« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ... إلخ » .

والمراد بالمعشر : الجماعة ، وهو نداء يشعر بالحب والتقدير ، ويوحى بأن ما بعده من الأوامر مهم ينبغى الالتفات إليه والأخذ به .

والشباب : جمع شاب ،والشبيبة هى القوة والفتوة والعنفوان .

ويظل المرء شابًا ما دام قويًّا ممتلئًا حيـوية ونشاطًا ، يحدوه الأمل فى طلب ما ينفعـه فى ديـنه ودنـياه ، لا يَمَـلّ العمـل ولا يَكِـلّ عنه ولو بلغ السـتين من عمره .

ولكن العرب يسمون الرجل شاباً أو غلاماً إلى الأربعين ، فإذا جاوزها بقليل سمى كهلاً .

ويستأنس لهذا وذاك بآيتين من كتاب الله تعالى .

الأولى قوله جل شأنه : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحسانًا حملته أمُّه كُرهًا ووضعته كُرهًا وحَمْلُه وفصالُه ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أَشُدَّه وبلغ أربعين سنةً قال ربِّ أَوْزِعْنى أنْ أشكرَ نعمتَكَ التى أنعمتَ علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحًا ترضاه وأَصلِحْ لى فى ذريتى إنى تبُتُ إليك وإنى من المسلمين ﴾ (١) .

وبلوغ الأشد هو بداية الشباب ونهايته بلوغ الأربعين .

الثانية قوله جل شأنه حكاية عن عيسى ابن مريم عليه السلام : ﴿ ويكلم الناس فى المهدِ وكهلاً ﴾ (٢) .

والمعنى : ويكلم الناس فى السن الذى يبعث فيه الأنبياء وهو سن الأربعين بما كلمهم به وهو فى المهد فيذكرهم به ، فيعلموا أنه هو الرسول حقاً .

وقد حكى الله كلامه فى المهد فقال سبحانه : ﴿ قال إنى عبدُ الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًا ﴾ إلى قوله جل شأنه : ﴿ والسلامُ علىَّ يومَ وَلِدتُ ويومَ أموتُ ويومَ أبعثُ حيًا ﴾ (٣) .

---

(١) الأحقاف : ١٥ .

(٢) آل عمران : ٤٦ .

(٣) مريم : ٣٠ - ٣٤ .

فهاتان الآيتان ليستا دليلاً على أن سن الشباب يتوقف عند سن الأربعين ولكنه استئناس فحسب ، والاستئناس استشهاد لا يبلغ مبلغ الدليل فى الاحتجاج .

والرسول ﷺ إنما يخاطب من استطاع الباءة ، وهى القدرة على المعاشرة الزوجية والقيام بنفقات الزواج ومُؤَنه ، فهذه هى الباءة بوجه عام ، وإن كان العرب يطلقونها على القدرة الجنسية بوجه خاص .

وقوله ﷺ : « فليتزوج » أمر ترغيب ونصح وتوجيه ،ولكنه يحتمل الإيجاب أيضاً إذا اشتدت الحاجة إلى الزواج ، بأن خاف المسلم على نفسه من الوقوع فى الزنا أو مقدماته ولم يستطع الصبر على البعد عن النساء ، وقد ذكرت فى كتابى « الفقه الواضح » أن الزواج من الأمور التى تعتريها الأحكام الخمسة .

وهى : الوجوب ، والندب ، والحرمة ، والكراهة ، والإباحة .

فهو يختلف باختلاف الأحوال ، فتارة يكون واجباً ، وتارة يكون مندوبًا ، وتارة يكون مكروهاً ، وتارة يكون حراماً . والأصل فيه الإباحة ،ولا ينتقل حكمه إلى الاستحباب أو الوجوب أو الكراهة أو الحرمة إلا بسبب يقتضيه .

فيستحب الزواج فى حق من وجد القدرة على الإنفاق وكانت لدية القدرة أيضاً على الجماع ،ولكن لا يخاف على نفسه من الوقوع فى الزنا أومقدماته ، وإنما يستحب الزواج لما فيه من المنافع الدنيوية والأخروية ،كما هو معلوم .

ويجب الزواج فى حق من وجد القدرة على الجماع والنفقة وخاف على نفسه من الوقوع فى الزنا أومقدماته – كما أشرنا – حماية لدينه وصيانة لعرضه ، ولا شك أن حماية الدين وصيانة العرض من أهم الواجبات ، فإذا كان الرجل لا يستطيع حماية دينه وصيانة عرضه إلا بالزواج – كان الزواج فى حقه واجباً .

ويحرم الزواج فى حق من فقد القدرة على الجماع والنفقة ، وانعدم الباعث عليه ، والدافع إليه ، وخاف إن تزوج أن يقع فى المحظور ، كأن يجد نفسه مضطراً إلى كسب رزقه من طريق غير مشروع ، فإنه يجب عليه فى هذه الحالة أن لا يقدم على الزواج صيانة لدينه، حتى تتوفر أسبابه أو يقضى الله أمرًا كان مفعولاً .

ويكره الزواج فى حق من فقد القدرة على النفقة وهو قادر على الجماع ، ولا يخشى على نفسه من الوقوع فى الزنا أومقدماته ، ويستحب له أن يصبر حتى يجد النفقة على الزواج لقوله تعالى : ﴿ وليستعففِ الذين لا يجدون نكاحًا حتى يُغنيَهم الله من فضله ﴾ (١) .

وكذلك يكره الزواج فى حق من وجد النفقة ولكن فقد القدرة على الجماع .

وإنما قلنا يكره ولم نقل يحرم فى حقه ، لأنه قد يكون محتاجاً إليه للمؤانسة والخدمة ،وتدبير المنزل ، وغير ذلك من شئون الحياة .

ويجب عليه إن أراد الزواج أن يخبر من يخطبها لنفسه بحاله فإن رضيت به زوجاً على ما به فعلى بركة الله تعالى .

* * *

وقد بين النبى ﷺ أهداف الزواج ومقاصده بعد الأمر به فقال : « فإنه أغضُّ للبصر وأحصنُ للفرج » .

وهذا المقصد هو أبرز المقاصد التى يهدف إليها من يرغب فى الزواج ،ولا يمنع ذكر هذا المقصد من المقاصد الأخرى التى لا تكاد تحصى ، فالزواج سنة من سنن الفطرة ، وضرورة من ضرورات الحياة ، به تحفظ الأنساب والأحساب ، وبه تصان الأعراض والحرمات ، وبه تتوثق الصلات بين الأفراد والأسر والمجتمعات قال تعالى : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسبًا وصِهْرًا وكان ربُّك قديراً ﴾ (٢) .

وإنه لمن نعم الله الكبرى على الرجل والمرأة لما فيه من الأنس والمتعة والمنافع المتبادلة ، ولما يكون بين الزوجين من المودة والرحمة .

قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون ﴾ (٣) .

---

(١) النور : ٣٣ .　　(٢) الفرقان : ٥٤ .
(٣) الروم : ٢١ .

أى ومن دلائل قدرته وعظيم حكمته ، أن خلق لكل ذكر أنثاه ، وجعل كلاً منهما ميالاً إلى الآخر بطبعه ، راغبًا فى الاقتران به والعيش معه ، تجمعهما رابطة المودة والرحمة .

وهذا الميل الفطرى ، هو ما يعرف بالسكون النفسى والجنسى ، وكلاهما مراد بقوله : ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ .

فالأول يشبع الناحية الروحية لدى كل منهما ، والثانى يشبع الناحية الجسدية .

ولا شك أن السكون النفسى أسمى وأجل من السكون الجنسى ، لهذا ينبغى أن يجعله المرء هدفه الأول عند الاختيار ؛ فإن المتعة الجسدية بجانب المتعة الروحية شىء لا يذكر ، وإن المتعة الجسدية لا تتحقق ولا تكتمل إلا إذا كان هناك بين الزوجين حب متبادل ، وائتلاف يمنع التنافر والاختلاف .

ولا أجد أسعد حظًا ممن يأوى إلى بيت به زوجة صالحة تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر ، وتحفظ عرضه وماله ، وتشاركه آلامه وآماله .

قال رسول الله ﷺ : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرًا له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ،وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته فى نفسه وماله » (1) .

ومعنى أبرته : فعلت ما أقسم عليها أن تفعله وتركت ما أقسم عليها أن تتركه .

ومعنى نصحته فى نفسه : حافظت على سره وعرضه وحرمته ، ولم تخنه فى شىء أثناء غيبته .

ولو تمادينا فى ذكر فضائل الزواج ومقاصده العامة ما وسعتنا مجلدات .

وغرضنا هنا دراسة هذه الوصية العظيمة وبيان ما تشتمله من الأحكام الشرعية ، والحقائق العلمية .

* * *

---

(1) رواه ابن ماجه .

والطرف الثانى من هذا الحديث قوله ﷺ : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

وبدهى أن يتجه الرسول ﷺ إلى الفريق الذى يعجز عن نفقات الزواج فيوصيه بما ينبغى أن يفعله حتى يغنيه الله من فضله بعد أن أوصى بالزواج أولئك القادرين عليه فقال : « ومن لم يستطع – يعنى الباءة – فعليه بالصوم » أى فليلزمه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وليتخذه سلاحًا يقاوم به شهوته وهواه ؛ « فإنه له وجاء » أى وقاية من هيجان الشهوة .

والوجاء – بكسر الواو – قطع الخصية ، وهو هنا كناية عن إضعاف الشهوة إلى الحد الذى لا تجعله ينظر إلى النساء ولا يشغل نفسه بالتفكير فيهن .

وقد قال لى بعض الشباب : إن الصيام يزيد فى الشهوة ولا ينقص منها ، ويدفع الرجل إلى الرغبة الملحة فى المعاشرة الجنسية ، فكيف يوصى النبى ﷺ به والحال كما وصفتُ ؟

قلت : هذا فى أول أيام الصيام ولا يلبث أن يجد المرء فيه بعد ذلك قدرة عجيبة على كبح جماح النفس من الزنا وغيره من المحرمات ، فالصوم يقوى الروح حتى تتلاشى أمامها القوة الجسدية ، ويشد من العزم حتى يتغلب المرء على نفسه بسهولة فلا يجعلها ترعى حيث شاءت هنا وهناك .

وذلك لأن الصوم عبادة يتعلم منها المسلم الصبر على المكاره ،ويتعود على الحرمان مما يحب حتى يصير معصوماً من السوء بطبعه إلى حد كبير ، فالتعفف عن الأكل والشرب يحملك ولابد على التعفف عن الشهوات الجامحة والمنكرات الفاحشة ، فأنعم بها من وصية طيبة جاءتك ممن لا ينطق عن الهوى .

* * *

(٧) لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ

عن أنسٍ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنَّينَّ أحدُكُمْ الموتَ من ضُرٍّ أَصَابَه ، فإن كانَ لابُدَّ فاعلاً ، فليقلْ : اللهم أَحْيِنى ما كانَتِ الحياةُ خيراً لى ، وتَوَفَّنى إذَا كانتِ الوفاةُ خيراً لى » (١) .

* * *

هذا الحديث يعلمنا كيف يكون التأدب مع الله تبارك وتعالى فى شأننا كله ، ويربى أنفسنا على الرضا بقضائه وقدره ، وتفويض الأمر إليه – جل شأنه – فى محيانا ومماتنا ، ويحذرنا من التعدى عليه سبحانه فى الاختيار ، وهو أمر ليس لنا فيه مثقال ذرة .

قال تعالى : ﴿ وربُّكَ يَخلُقُ ما يشاءُ ويَختارُ ما كان لهم الخِيَرَةُ سبحان الله وتعالى عما يُشرِكون ﴾ (٢) .

وقال عز من قائـل : ﴿ وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنـةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُهُ أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ومن يعصِ الله ورسـوله فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً ﴾ (٣) .

* * *

والإنسان بطبعه يكره الموت ، ويحب الحياة ، ولكن قد يَعرض له ما يُدخل على نفسه اليأس منها فيستطيل عمره فى هذه الدنيا ، ويتمنى انقطاعه لكى يستريح مما يعانيه من مرض شديد ، أو فقر مدقع ، أو دَيْن موجع ، وما إلى ذلك من أنواع البلاء ، وهو لا يدرى إن كان سيجد الراحة بعد الموت أم لا يجدها ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وغيرهم .

(٢) القصص : ٦٨ .

(٣) الأحزاب : ٣٦ .

فقد يموت مثقل بالذنوب فيصلى بنارها فى قبره ويوم تقوم الساعة ،ولو عاش ربما يرزقه الله بتوبة نصوح ، ويوفقه للعمل الصالح ، ثم يلقى الله عبداً كريماً فيجزيه جزاءً حسناً على صبره ، وحسن بلائه فى جهاد نفسه وجهاد عدوه .

لهذا حذر النبى ﷺ من تمنى الموت فقال : « لا يتمنين أحدكم الموت » بصيغة التوكيد ؛ لما فى هذا التمنى من الرعونة والتعدى على قدر الله ، واليأس من رحمته وغير ذلك من الآفات التى تضعف الإيمان أو تقضى عليه تماماً ،ونحن نعلم أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان ، والرضا به أمارة من أمارات صدق اليقين ، وهو مقام كبار العارفين .

وهذا النهى مشروط بشرط هو قيد فيه وهو قوله ﷺ : « من ضرّ أصابه » . أى بسبب ضر لحق به فى أمر دينه أو شئون دنياه ، فالحرف « مِن » للسببية .

وفى هذا التحـذير – فوق ما ذكرنا – دعوة إلى الصـبر والمصابرة ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصَابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (١) .

أى احبسوا أنفسكم على ماتكره ودربوها على ترك ما تحب ، وغالبوها على ما تهوى ،ولا تتركوها نهباً لليأس والجزع والقنوط ، وفريسة للعجز والكسل والخمـول ، ورابطـوا فى المسـاجـد للصلاة ودروس العـلـم ، ورابطوا على الحدود لحماية بلاد الإسلام من غارة الأعداء ، لعلكم تجدون الفلاح فى دارى الدنيا والآخرة .

* * *

والرسول ﷺ خبير بأحوال النفس البشرية ، فهو يعلم أن هذا التحذير قد لا يلاقى آذاناً صاغية ممن اشتد بهم الكرب ، وأحاط بهم البلاء من كل جانب لهذا جاءهم من طريق آخر فيه إشباع لرغباتهم فى تمنى الموت لكن على النحو الذى يحبه ربنا ويرضاه ، ولا يخرج عن حد الأدب معه – جل فى علاه – فقال :

---

(١) آل عمران : ٢٠٠ .

« فإن كان لابد فاعلاً ، فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى ،وتوفَّنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى » .

وهذا دعاء يدل على منتهى التفويض والتسليم والرضا والاعتراف لله بالعلم والحكمة وسعة الفضل والرحمة .

والله وحده هو الذى يعلم بحال عبده ومآله ، وهو أرحم به من نفسه على نفسه ، وهو الذى يقدّر له الخير حيث كان،ولا راد لقضائه ،ولا معقب لحكمه . ومن توكل عليه كفاه ، ومن سأله أعطاه ، وهو عند ظن عبده به إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

والمؤمن القوى هو الذى يثبت عند الشدائد ، بل إن الشدائد تجعله أحياناً أصلب عوداً ، وأعلى همة ، وأصدق عزمًا فى طاعة الله – عز وجل – من سوابغ النعم ؛ لأنه يرى فى الشدائد ميدانًا فسيحًا لكبح جماح النفس ،ومغالبة الهوى، والطمع فى أجر الصابرين الشاكرين ، بينما يخشى على نفسه من وفرة النعم من أن تكون استدراجًا له فيقع فى الهلكة ، أو يخاف ألا يقوم بشكرها فيعد مع الكفَّار بأنعم الله – عز وجل – فيضل ويخزى .

وقد كان بعض الصالحين إذا جاءه مال كثير يقول : أخشى أن يكون ذنباً عُجّلت عقوبته .

ومن هنا كان تمنى الموت من الجهل بقواعد الدين وقِيَمه مع ما فيه من مخالفة الطبع البشرى .

وأنا أسميه بالانتحار المجازى ؛ لأن التمادى فى اليأس والجزع من هول المصاب يُعجِّل بالحياة ، ويقضى على أسبابها ، فهو يقضى على الأمل الذى هو من أكبر الدوافع على تحقيق ضروريات الحياة ، ويقضى على الإرادة التى تميز بها الإنسان عن غيره من سائر الحيوان ؛ فالإنسان هو الكائن الحى المتحرك بالإرادة وغيره من الحيوان كائن حى متحرك بالإلهام لا بالإرادة .

وقد قال النبى ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلٍ خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز، وإن

أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا وكذا ،ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » (١) .

* * *

ولماذا يتمنى العبد الموت وعمره هو رأس ماله فى كل يوم يمكن أن يزداد فيه عملاً صالحًا يقربه إلى الله تبارك وتعالى .

وقد جاء فى صحيح البخارى وسنن النسائى أن النبى ﷺ قال : « لا يتمنَّين أحدكم الموت ، إمَّا محسنًا ؛ فلعلَّه يزداد ، وإما مسيئًا ؛ فلعلَّه يستعتب » .

ومعنى يستعتب : يطلب العتبى من الله وهى الرضا ، وذلك بأن يتوب من ذنبه قبل موته توبة نصوحًا ، فيلقاه وليس عليه من أوزاره شيء .

* * *

هذا وقد اختلف الفقهاء فى حكم تمنى الموت ، فقيل يحرم ، وقيل يُكرَه ، وقيل يجوز .

فمن قال بالحرمة حمل النهى فى الحديث على التحريم ، بشرط أن يكون التمنى بسبب ضر أصابه .

ومن قال بالكراهة حمل النهى فى الحديث على الكراهة بدليل قوله فيه : « فإن كان لابد فاعلاً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفَّنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » .

ومن قال بالجواز شرط لذلك أن يكون الضرر الذى لحقه فى صميم دينه فأصبح يخشى على نفسه من الفتنة فيه .

وقيل يجوز لمن كان محبًا لله تعالى متشوقًا إلى لقائه أن يتمنى الموت كما تمناه يوسف عليه السلام .

---

(١) رواه مسلم .

قال الله تعالى حكاية عنه : ﴿ ربِّ قد آتيتنى من المُلْك وعلَّمتَنى من تأويلِ الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليِّ فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ (١) .

وقيل يجوز ذلك لمن كان فى ورطة شديدة يخشى على نفسه من الفضيحة والعار ، ويخشى على الناس من الوقوع فى عرضه فيحملون من الأوزار ما يدخلون به النار .

واستدلوا على ذلك بقول مريم - رضى الله عنها - حين وضعت وليدها : ﴿ قالت يا ليتنى مِتُّ قبل هذا وكنتُ نسيًا منسيًا ﴾ (٢) .

والأصح عندى - والله أعلم - أن النهى فى الحديث للتحريم إذا كان التمنى بسبب ضرر دنيوى .

أما إن كان بسبب ضرر لحقه فى دينه فالتمنى جائز ، فالجواز ليس على إطلاقه كما زعم بعض أهل العلم .

أما احتجاجهم بيوسف عليه السلام فليس فى محله ؛ لأن يوسف عليه السلام لم يتمنَّ الموت لذاته ولكنه تمنى الموت على الإسلام ، فهو يرجو بدعائه حسن الختام وليس التعجيل بالموت ، فهو كقوله تعالى : ﴿ ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٣) . فليس النهى فى الآية عن الموت فى ذاته ولكن النهى منصب على ألا يدرك المسلمَ الموتُ إلا وهو على الإسلام .

وأما مريم - رضى الله عنها - فهى لم تقل : أمتنى يا رب ، ولكنها تمنت الموت قبل ذلك ، بدليل حرف التمني ، وبدليل قولها : ﴿ قبل هذا ﴾ ، وبدليل قولها : ﴿ وكنت نسيًا منسيًا ﴾ ، فهو ليس من قبيل الدعاء كما هو واضح .

والمنهى عنه فى الحديث دعاء المرء على نفسه بالموت يأسًا من الحياة وقنوطًا من رحمة الله ، على أن مريم كانت فى حالة يرثى لها ، فقالت ما قالت لتدفع عن نفسها الهلع والفزع مما ستجده من قومها ، فلا تلام على ذلك .

---

(١) يوسف : ١٠١ .
(٢) مريم : ٢٣ .
(٣) آل عمران : ١٠٢ .

على أن الإمام القرطبى فى كتاب التذكرة قد أجاب عن ذلك بإجابة أخرى فقال : إنها تمنت الموت لوجهين :

أحدهما : أنها خافت أن يظن بها السوء فى دينها وتُعيَّر ، فيفتنها ذلك .

الثانى : لئلا يقع قوم بسببها فى البهتان والزور والنسبة إلى الزنا ، وذلك مهلك لهم .

أما تمنى الموت حبًّا فى لقاء الله تعالى فلا أراه معقولاً ؛ لأن الدنيا مزرعة للآخرة ، والعارف بالله يرجو التزود منها ، ويتمنى أن تطول حياته ليكثر أجره وهو مستمتع بذكر الله تعالى متعلق القلب به ، فهو فى لقاء دائم معه .

ومن شأن العارف بالله ألا يستعجل شيئًا قدَّره الله ، فهو لا يجهل أن الأجل محدود بأنفاس معدودة ، لا يتقدم ولا يتأخر ، فكيف يتمنى شيئًا ليس له فيه خِيَرَة .

وممن قال بجواز تمنى الموت لمن أحب لقاء الله تعالى « سهل بن عبد الله التسترى » فقد نقل عنه القرطبي فى التذكرة قوله : « لا يتمنى أحد الموت إلا ثلاثة : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفر من أقدار الله تعالى عليه ، أومشتاق محب لقاء الله عز وجل » .

وعلى كل حال فإن الله عز وجل يعلم السرائر فيجزى كل امرىء بحسب نيته وعلى قدر إخلاصه فى القول والعمل .

* * *

وبعد ، فإن هذه الوصية من أمهات الوصايا التى تضع المسلم أمام قدر الله عز وجل بحيث يجعله نصب عينيه فى حالة الحزن وحالة الفرح ، وفى أوقات الرخاء وأوقات الشدة .

فإذا كان فى نعمة غامرة فليذكر الموت ، فإنه أقرب إليه من شراك نعله ؛ حتى لا يغتر بها فيدفعه الغرور إلى ارتكاب ما لا تحمد عواقبه ، وربما يورده موارد الهلكة فتذهب نعمته وتتحول استدراجًا له ووبالاً عليه .

وإذا وقع فى بلية فليتسلح فى مواجهتها بالصبر ، فإن النصر مع الصبر ، وإن الفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً كما قال الرسول ﷺ ، ولا يسارع إلى

الدعاء على نفسه بالموت ، فإن ذلك برهان على ضعف إيمانه أو فقدانه بالمرة – كما أشرنا من قبل – بل يجب عليه مع الصبر أن يشكر ، فالشكر هو امتلاء القلب بالرضا ، وليس هناك مقام أرفع من مقام الرضا ، كما أشرنا أيضاً من قبل.

وقد جاء فى الحديث القدسى : « من رضى فله الرضا منى حتى يلقانى ، ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى » .

* * *

(٨) إن اللهَ كتبَ الإِحْسَانَ على كُلِّ شيء

عَنْ أبى يَعْلَى شَدَّاد بن أوس رضـى الله تعالى عنه عن رَسُول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسانَ على كُلِّ شىء ، فإِذَا قَتَلْتُمْ فأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإِذَا ذَبحتُم فأحسِنُوا الذِّبحَةَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُم شَفْرَتَه ، ولْيُرِح ذَبِيحَتَهُ »(١) .

* * *

قاعدة الإحسان فى الشريعة الإسلامية قاعدة مكينة تبنى عليها جميع الأحكام التكليفية والمبادئ الخُلقية ، وهى قرينة العدل والمعروف ، والوفاء والرحمة .

وقد بدأ الرسول ﷺ بها حديثه مع المؤمنين ، وقدمها فى هذه الوصية التى تعد مثلاً رائعًا فى الأخذ بالأحسن فى كل عمل يعمله المرء حتى ولو كان فى ظاهر هذا العمل قسوة ، أو الشأن فيه عند بادى الرأى أن تكون الغلظة فيه مقدمة على الرحمة .

والتعبير بقوله : « إن الله كتب الإحسان » يدل على أن الإحسان – وهو التحسين والإتقان – أمر قدره الله على جميع الخلق وفرغ منه ، وأوجبه على كل مكلف وجوب فرض أو ما يقارب الفرض .

وبيان ذلك أن لفظ كتب فى الشرع يعنى الوجوب غالبًا ، فهذا هو الأصل فيه وهذه هى حقيقته الشرعية كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عليكم الصيام ﴾ ﴿ كُتِبَ عليكم القصاص فى القتلى ﴾ ، ولكن قد يخرج هذا اللفظ عن حقيقته إلى معنى الطلب .

والطلب نوعان : طلب على سبيل الفرض ، وطلب على سبيل الندب .

والطلب أيضًا قد يكون بمعنى افعل كذا وافعل كذا ، وقد يكون بمعنى اترك كذا واترك كذا .

---

(١) رواه مسلم .

ويسمى هذا الطلب خطاب الشرع .

وقد قسم الأصوليون خطاب الشرع إلى خطاب تكليف ، وإلى خطاب وضع ، وقسموا خطاب التكليف إلى خمسة أقسام وهى : الإيجاب ، والندب ، والتحريم ، والكراهة ، والإباحة .

ولا يعنينا هنا أن نستفيض فى هذا التقسيم ولكن يعنينا أن نفهم أن لفظ كتب قد يتسع ويتسع فيشمل بعمومه كل شيء أُمرنا به أو نُهينا عنه ، أو أبيح لنا فعله أو تركه ، فيكون المعنى : إن الله كتب عليكم أن تحسنوا فى كل شيء أمرتم بفعله فتؤدوه على وجه الإتقان ما استطعتم ، وأن تحسنوا فى كل شيء نهيتم عن فعله أو خيرتم فيه ، فيكون المؤمن عند مرضاة ربه على الوجه الذى يحبه ويستحسنه ، والحسن ما حسنه الله ، والقبيح ما قبحه الله ، لا ما حسنه الإنسان أو قبحه بعقله وهواه .

ومن هنا وجب على كل مكلف أن يتعرف على طرق الإحسان ومواطنه فى كل شيء من شئون الدين والدنيا حتى يستطيع أن يحسن فيه ويتقنه بالوسائل المتاحة له .

* * *

وقد اختلف فقهـاء اللغـة فى الحرف « على » ، فمنهـم من قال هى بمعنى « فى » ، أى أن الله كتب الإحسان فى كل شيء ،ومنهم من قال هى بمعنى « إلى » والمعنى أن الله طلب منكم الإحسان إلى كل شيءٍ .

ومنهم من قال هى على بابها ، والمعنى أن الله قدر الإحسان على كل شيء بمعنى : أن كل شيء خلقه فإنّما خلقه على أحسن ما يكون الخلق .

وهذا المعنى الأخير صحيح يدل عليه قوله تعالى : ﴿ الذى أحسنَ كلَّ شيء خَلَقَه ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ صنعَ الله الذى أتقن كل شيء ﴾ (٢) .

---

(١) السجدة : ٧ .   (٢) النمل : ٨٨ .

والمعانى السابقة صحيحة أيضًا يؤيدها قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يَعِظُكم لعلكم تَذَكَّرون ﴾ (١) .

* * *

ولما كانت هذه القاعدة مجملة تحتاج إلى شىء من البسط والتوضيح قال ﷺ : « فإذا قتلتم فأَحسِنُوا القِتْلَة ، وإذا ذبحتم فأَحسِنُوا الذِّبحَةَ » .

أى إذا قتلتم رجلاً أو امرأة قصاصاً فلا تعذبوه ولا تعذبوها أثناء القتل مبالغة فى الانتقام والتشفى ، ولكن اجعلوا للرحمة نصيبًا فى ذلك ، ويكفى القتيل إزهاق روحه بالسيف ضربة واحدة إن أمكن ، فإن لم يمكن قتله بضربة واحدة فضربتان .

وقد حرم الله المثلة بالمقتول ، وهى أن يُقطع شىء من جسده وهو حى أو وهو ميت .

وكذلك إذا أراد المرء أن يذبح شاة ونحوها فعليه أن يقطع الأوداج والحلقوم بسرعة حتى لا يُعذب الحيوان بالإبطاء فى الذبح .

ومن أجل ذلك قال – عليه الصلاة والسلام : « وليحد أحَدُكُم شفرته ، وليرح ذبيحته » .

والشفرة هى السكين .

وقد وردت فى ذلك أحاديث كثيرة تدل على الرحمة بالحيوان ولا سيما عندما يساق إلى الذبح ، منها ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه من حديث ابن عمر قال : « مر رسول الله ﷺ برجل وهو يجر شاة بأذنها ، فقال رسول الله ﷺ : دع أذنها وخذ بسالفتها » والسالفة مقدّم العنق .

---

(١) النحل : ٩٠ .

وأخرج الخلال والطبرانى من حديث عكرمة عن ابن عباس قال : « مرّ رسول الله ﷺ برجل واضع رجله على صفحة شاة ، وهو يحد شفرته ، وهى تلحظ إليه ببصرها ، فقال : أفلا قبل هذا ؟ تريد أن تميتها موتتان ؟ » .

وفى رواية لعبد الرزاق وغيره ، قال له : « هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها » .

قال الإمام أحمد : « تقاد إلى الذبح قودًا رفيقًا ، وتوارى السكين عنها ،ولا يظهر السكين إلا عند الذبح . أمر رسول الله ﷺ بذلك - أن توارى الشفار (أى آلات الذبح) - وقال : ما أبهمت عليه البهائم ، فلم تبهم أنها تعرف ربها وتعرف أنها تموت »(١) .

وروى عبد الرزاق فى كتابه عن محمد بن راشد عن الوضين بن عطاء قال : إن جزاراً فتح باباً على شاة ليذبحها فانفلتت منه حتى جاءت النبى ﷺ ، فاتبعها فأخذ يسحبها برجلها ، فقال لها النبى ﷺ : « اصبرى لأمر الله ، وأنت يا جزار فسقها إلى الموت سوقًا رفيقًا » .

وروى أحمد عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رجلاً قال للنبى ﷺ : يا رسول الله إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها ، فقال النبى ﷺ : « والشاة إن رحمتها رحمك الله » .

* * *

ويؤخذ من الحديث فوق ما ذكرناه أن الإسلام يجعل العدل والرحمة قرينين ؛ فالقصاص - مثلاً - عدل ، والرحمة فيه إحسان ، والإحسان هو جماع العدل والرحمة ، فلا عدل بلا رحمة ، ولا رحمة بلا عدل ، ولا إحسان إلا بهما .

---

(١) ذكره ابن رجب فى جامع العلوم والحكم صـ ١٩٦ .

وهذا الحديث من الأحاديث التى ينبغى أن يضعها المسلم نصب عينيه عندما تدفعه نفسه إلى مجاوزة الحد فى أخذ الحق أو المطالبة به ، أو إرادة التشفى من عدوه .

ولقد كان النبى ﷺ يعلِّم الناس كيف تكون الرحمة فى السلم والحرب ، وفى الباساء والضراء . كما سيأتى بيانه فى وصايا أخرى .

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

* * *

(٩) استقيموا ولن تُحصوا

عن ثوبان رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « استقيموا ولن تُحْصُوا ، واعلموا أنَّ خيرَ أعمالِكم الصَّلاةُ ، ولا يُحافِظُ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ » (١) .

* * *

الاستقامة هى الطاعة والانقياد لأمر الله تبارك وتعالى ، والثبات على الصراط السوى والنهج المستقيم ، وتعديل المسار كلما انحرفت النفس عن جادة الأمر أومالت مع الهوى ، وتصحيح النية فى جميع الأعمال كلما همت النفس بالنظر إلى الخلق بقصد الرياء وحب الظهور .

وقد أوصى النبى ﷺ أصحابه ومن يجىء بعدهم بالاستقامة ؛ لأنها خير وصية تلقاها من ربه عز وجل فى كتابه العزيز ، قال تعالى : ﴿ فاستقم كما أُمِرْتَ ومن تاب معك ولا تَطغَوا إنه بما تعملون بصير ﴾ (١) . فكانت هذه الآية أشد آية تلقاها النبى ﷺ من ربه عز وجل ، خشع لها قلبه ، واقشعرت من جلالها جوارحه ، فوعاها وعمل بمقتضاها على أتم وجه وأكمله ، واقتدى به أصحابه فكانوا على مثال الخلق الفاضل والكمال الوافر ، واجتهدوا فى العبادة ، فكانوا أعظم ربانيين التفوا حول أعظم نبى وأكرم رسول ، اجتمعت فيهم خصال الربانيين الذين كانوا أنصار الأنبياء ، وزادوا عليهم أضعاف ما كانوا عليه من جد فى العمل وإخلاص فى النية ، وامتازوا عنهم بما خصهم الله به من فضل ورحمة وأثنى عليهم بما هو أهله فى خير كتاب أنزله ، وعلى لسان أجلِّ نبى أرسله .

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم ، وقال : صحيح على شرط البخارى ومسلم .

(٢) هود : ١١٢ .

قال جل شأنه فى إطرائهم والثناء عليهم : ﴿ كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهَون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (١) .

وقد كان كثير من أصحاب النبى ﷺ يقيمون الليل ويصومون النهار ويتصدقون بما فضل عن حاجتهم ، ويبالغون فى الزهد والتقشف وترك زينة الدنيا ، يريدون بذلك وجه الله تبارك وتعالى ، ويبتغون مرضاته ،فردهم النبى ﷺ إلى التوسط فى الأمور والقصد فى العبادة ، ومراعاة حظوظ النفس عند الحاجة ، والتمتع بطيبات الحياة من غير إسراف ولا إجحاف – فقال : « استقيموا ولن تحصوا » ، أى أطيعوا الله ما استطعتم ، واعبدوه قدر طاقتكم ، ولن تحصوا ، أى ولن تبلغوا الغاية مهما بذلتم من جهد فى الطاعة والعبادة ،ولن توفوا الله حقه عليكم ، ولن تقدروه قدره ، ولن تستطيعوا أن تبلغوا كل ما لديه من أجر وفضل .

وهذا كقوله ﷺ : « خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا ، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام ، وإن قل » (٢) .

أى لا تكلفوا أنفسكم ما لا طاقة لكم به فإن الله قد نهاكم عن ذلك ، وهو سبحانه لا يزال يعطيكم أجوركم على أعمالكم ما دامت موصولة لا يقطعها عنكم حتى تنقطعوا عن العمل وتملوه . والله عز وجل لا يحب أن ينقطع عبده عن عبادته ،ولا شك أن الغلو فيها يسبب الملل ويجلب الكسل والانقطاع عنها وربما أدى الملل إلى عدم العودة إليها وفى ذلك نكث للعهد وانقلاب على الأعقاب وانحراف عن الصراط المستقيم .

قال رسول الله ﷺ : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » (٣) .

وقال : « إن الدين يسر ولن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا » (٤) .

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) الحديث رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم .

(٣) الحديث رواه أحمد والبزار . (٤) الحديث رواه البخاري .

أى لا تشددوا على أنفسكم ؛ فالدين يسر فى أوامره ونواهيه ، ليس فيه عسر ولا غلو ، فمن حاول أن يشدد على نفسه أبى عليه ورده إلى الوسطية التى تميز بها .

وسيأتى لهذا الحديث مزيد بيان لأنه من أمهات المبادئ الخلقية والاجتماعية .

ولقد كان النبى ﷺ يتتبع المغالين في الدين ويتفقد أحوالهم ، فيعظهم ويذكرهم ويحذرهم من هذا تحذيراً شديداً .

فقد روى البخارى فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ ، فلما أُخبروا كأنهم تَقَالُّوها ، فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء النبى ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

أى فمن حاد عن سنتى هذه فى الوسطية والتيسير فليس يحبنى ولا هو على نهجى ، ولا فعل ما أحبه ، ولا كان مصيباً ولا محقاً فيما فعله بنفسه .

على أن هناك من العلماء ما يحمل النص على ظاهره فيخرج من يفعل هذا من الإسلام ، فيفسر معنى قوله ﷺ : « ليس منى » بأنه ليس على دينه . وهو بعيد والأصح ما ذكرناه ، والله أعلم بالصواب .

وإنى أفهم من قوله ﷺ : « ولن تُحصوا » معنى آخر يحتمله النص ولا يأباه وهو أن هذا النص خبرى فى اللفظ طلبى فى المعنى . والمعنى : استقيموا ولا تحصوا أعمالكم على الله ، وتقولوا فى أنفسكم : فعلنا كذا من الصالحات فلنا كذا وكذا من الأجر ، فذاك ليس لكم ،ولا علم لكم إن كان الله قد قبل منكم عملكم أم لم يقبله ، وما عليكم إلا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً دون

النظر إلى الأجور فإنما هى هبة من الله تعالى وهو الذى يحصى لكم وعليكم أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقد جاء فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى ذر رضى الله عنه : « يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ،ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

والعباد ثلاثة كما يذكر ابن عطاء الله السكندرى عن شيخه أبى العباس المرسى سأنقله هنا بالمعنى مع الشرح والتحليل :

الأول عبد عبادة : وهو الذى ينظر إلى عبادته ويحصيها ويرجو عليها الأجر ، وربما يفرح بكثرتها وربما يطمع أن يدخل الجنة بسببها .

الثانى عبد عبودية : وهو الذى يعبد الله رعاية لحق الربوبية ، فلا يحصى على الله عبادته ، ولا يعتمد عليها فى دخول الجنة ،ولا يرضى عن نفسه مهما اجتهد فيها ، بل دائماً يشعر بالتقصير فى حق مولاه ، ولا يرى لنفسه جهداً يذكره ولا عملاً يعده ، ولكنه يقف عند حده بالأدب فيقول : أنا عبد والله رب ، وما على العبد إلا أن يعبد سيده سواء أعطاه أم منعه ، ولا يرجو من وراء عمله إلا رضاه .

الثالث عبد عبودة : وهو الذى نظر فأبصر فلما أبصر عرف ، فلما عرف لزم ، فلما لزم عاين الحقيقة فرأى مكانه وعرف قدره وأيقن أنه عبد حقًا وصدقًا ، فعبد الله عزوجل عن علم ومعرفة وتحقق من عبوديته لخالقه ومولاه فلم يَعْدُ طوَره ، ولم ير لنفسه خيرة فى أى أمر من أمور دينه ودنياه ، وهو منتهى المقامات .

ولقد كان من تلبية بعض أصحاب الرسول ﷺ فى الحج : « لبيك حقًّا حقًّا تعبداً ورقًّا » .

* * *

وبعد قوله ﷺ فى الحديث : « استقيموا ولن تحصوا » قال : « واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » .

وفى ذلك توجيه حكيم إلى ما ينبغى على المسلم أن يتخيره من الأعمال التى تقربه إلى الله عز وجل ، وتدنيه من حضرة قدسه ، وتضفى عليه من الجلال والجمال ما يجعله عبداً ربَّانيًا بمعنى الكلمة ؛ فالصلاة عماد الدين ، وركنه الركين كما جاء فى القرآن والسنة ، فقد سماها الله – لعظمة شأنها – إيمانًا .

فقال فى آيات القبلة من سورة البقرة : ﴿ وما جعلنا القبلةَ التى كنتَ عليها إلا لنعلمَ من يتَّبعُ الرسولَ ممن ينقلبُ على عقبيه وإن كانت لكبيرةً إلا على الذين هدى اللهُ وما كان اللهُ ليُضيعَ إيمانَكم إن الله بالناسِ لرءوفٌ رحيم ﴾ (١) .

وقد سميت الصلاة إيمانًا لأنها برهان على صحته ، فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن ضيعها فقد هدم الدين .

قال رسول الله ﷺ : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » (٢) .

والمعنى أن الإسلام : هو رأس الأمر الذى يهم كل إنسان فى دنياه ، وآخرته ؛ فهو أول ما يجب عليه الاعتناء به والإلمام بأحكامه .

وأن الأساس المتين الذى يقوم عليه هذا الدين هو الصلاة .

وأن أسمى عمل فيه هو : الجهاد ؛ لأن به تصان الحرمات ، وبه يظهر الإسلام ، ويعلو على سائر الأديان .

وقد شبه الرسول ﷺ الإسلام فى حديث آخر ببيت ، له خمس قواعد ، إليها تشد جدرانه ، وفوقها يستوى سقفه وبنيانه ، إذا سقطت قاعدة منها ، تداعت سائر القواعد للسقوط ، وانهار بناء البيت ، وخر السقف على من تحته .

فقال عليه الصلاة والسلام : « بُنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله

---

(١) الآية : ١٤٣ .   (٢) رواه الترمذى .

إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ،وإيتاء الزكاة ،وحج البيت ، وصوم رمضان »[١] .

ولا ريب أن الشهادتين هى الركن الأساسى فى الإسلام ، ولكنها لا تصح إلا من عبد قام بحقها وعمل بمقتضاها ، فأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً ، وصام شهر رمضان إن قدر على صيامه ولم يكن مريضاً أومسافراً أو شيخاً كبيراً ، على ما هو مذكور فى أحكام الصوم .

والصلاة بالذات من أقوى البراهين وأعظمها على صحة الإسلام ، فمن ترك الصلاة منكراً لوجوبها فهو كافر بلا خلاف ، ومن تركها كسلاً فهو فاسق يستتاب ثلاثة أيام فإن لم يصل قتل ، وقيل هو كافر كالذى أنكر وجوبها ، والأصح أنه فاسق وليس بكافر[٢] .

والصلاة عبادة من أعظم العبادات ، وقربة من أعظم القربات ، فهى صلة وثيقة بين العبد وربه ، يعبر فيها عن خضوعه لعظمته ، وكمال عبوديته ، وافتقاره إليه فى سره وعلانيته .

وهى الملاذ عندما يجد العبد نفسه فى مأزق حرج أو فى ضيق شديد فيقبل عليها ، ويضرع إلى الله فيها ، ولا سيما فى السجود ، رغبة منه فى الإجابة عملاً بقوله ﷺ : « أقرب ما يكون أحدكم من ربه وهو ساجد ، فأكثروا فيه من الدعاء »[٣] .

وقوله : « ألا إنى نهيت أن أقرأ راكعاً ، أو ساجداً ، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء ، فقَمِنٌ - أى جدير - أن يستجاب لكم »[٤] .

وكان النبى ﷺ إذا حَزَبَه أمر هُرِع إلى الصلاة[٥] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية تقديم الصوم على الحج .

(٢) راجع حكم تارك الصلاة فى كتابى الفقه الواضح جـ ١ .

(٣) رواه مسلم وغيره .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه أحمد وأبو داود .

والعبد الصالح الذى يحب الصلاة ، ويجد فيها روحه ،وريحانه لا يزال يتقرب إلى ربه بها حتى يحبه ، ولا شىء أعظم من حب الله تبارك وتعالى .

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، عن ربه عز وجل ، قال : « من عادى لى وليًا ، فقد آذنته بالحرب ،وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

والفرائض : كل ما أوجب الله على عباده ، والصلاة من أعظمها ، كما تقدم .

والنوافل : ما زاد على الفرائض ، والصلاة فى بابها ، من أعظمها أيضًا .

والصلاة نور يتلألأ فى قلب المؤمن ، وينعكس على وجهه ، وسائر جوارحه ، ويظهر فى أقواله وأفعاله .

يقول الله عز وجل فى وصف النبى ﷺ وأصحابه : ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ (١) .

والسيما : العلامة الظاهرة ، وهى النور الذى يسطع فى وجوههم – كما قال كثير من المفسرين – يُعرفون به إينما حلّوا وحيثما ساروا ، ويهتدون به إلى ما يحبه ربهم ويرضاه .

قال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن – أو تملأ – ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ... » (٢) .

---

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) وتمامه : « والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها » .

وروى ابن حبان بإسناد حسن ، عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من مشى فى ظلمة الليل إلى المساجد آتاه الله نوراً يوم القيامة » .

وروى الطبرانى عن أبى الدرداء - أيضًا - أن رسول الله ﷺ قال : « من مشى فى ظلمة الليل إلى المسجد لقى الله عز وجل بنور يوم القيامة » .

ومن عظيم فضل الصلاة أنها تكفر الذنوب ، وتمحو الخطايا ، وترفع الدرجات ، إذا أقبل العبد إليها بقلب خالص وأداها كما ينبغى ، وحافظ عليها فى أوقاتها .

قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طَرفَى النهار وزُلفًا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾(١) .

والمراد بالحسنات - هنا - الصلوات الخمس .

والمراد بالسيئات : الصغائر . كما قال أكثر المفسرين .

وقال رسول الله ﷺ : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، كفارة لما بينها ما لم تغشَ الكبائر »(٢) .

ويشبه النبى ﷺ الصلوات الخمس فى محوها للذنوب ، بنهر جار ، يغتسل منه المسلم فى اليوم والليلة خمس مرات ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شىء ؟ » . قالوا : لا يبقى من درنه شىء . قال : « فكذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بها الخطايا »(٣) .

وقد روى مسلم - فى صحيحه - عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن

---

(١) هود : ١١٤ .　　(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » .

ومن ثمرات الصلاة أنها تقوى إرادة المسلم ، وتشد من عزمه ، وتمده بالقوة التى تحمله على طاعة مولاه وكبح جماح شهوته وهواه .

يقـــول الله عـــز وجــل : ﴿ اتلُ ما أوحىَ إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولَذِكْرُ الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ (١) .

والصلاة التى تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر هى التى يؤديها المسلم بقلبه وجوارحه ، ولا يغفل عن أدب من آدابها ، ولا يشغل نفسه فيها بشىء ليس منها .

أما الصلاة التى تخلو من الخشوع ، وإظهار التمسكن والتواضع ، وينقرها صاحبها نقر الغراب – فهى لا تُرفع فوق رأسه شبراً ،ولا تحدث فى صاحبها أثراً يزيد فى إيمانه أو يسمو بهمته أو يقوى من إرادته .

والصلاة – كما نعلم – من أفضل الذكر لاشتمالها على كافة أنواعه ولاشتراك القلب مع الجـوارح فيها ، لهذا كانت تدريباً على التخلص من هموم الدنيا ، ونزغات الهوى ، ونزوات النفس ، ووساوس الشيطان .

وهذه الأمور الأربعة من أعظم البلاء ، والتخلص منها من أعظم المنح الربانية ، والنفحات الإلهية .

والعاقل من بذل جهده فى تصحيح النية ،وإصلاح العمل ، وإظهار كمال التعبد والافتقار فى الصلاة على وجه الخصوص ، لأن العظيم فيها يتناسى عظمته ويتلاشى شعوره بها تماماً ،ولا يرى لنفسه شيئاً مع الله ، ولا سيما عندما يضع أنفه على الأرض ، ويعفر وجهه بالتراب تواضعاً وتذللاً وتمسكناً لخالقه ومولاه .

* * *

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .

وقوله ﷺ فى الحديث : « ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » توجيه منه ﷺ إلى تطهير الظاهر والباطن ، وترغيب فى إسباغ الوضوء وإتمامه ، وذلك بمراعاة آدابه العامة بعد استيفاء فروضه وشروط صحته .

والمحافظة على الوضوء معناها ما ذكرناه مع الحرص على بقاء المؤمن متوضئاً ما أمكن ؛ لأن الوضوء سلاح المؤمن ، بمعنى أن الشيطان لا يوسوس له ولا يثبط عزيمته عن الصلاة وهو متوضئ ، إذا كان مؤمناً حقًّا .

فالإيمان طهارة قلبية باطنة ، والوضوء طهارة ظاهرة ، فإذا اجتمعت للعبد طهارة الباطن وطهارة الظاهر استطاع أن يتغلب على الخمول والكسل ، والعجز عن الصلاة وغيرها من العبادات .

ونحن نلحظ ذلك فى أعمالنا وأحوالنا مع الله عزوجل ، فإذا كان الرجل منا على غير وضوء وسمع المؤذن ينادى : « حى على الصلاة حى على الفلاح » يقول فى نفسه : أنا غير متوضأ ، وليس من السهل علىَّ أن أخلع نعلىّ وجوربىَّ . وبعض ما ينبغى خلعه عند الوضوء . وإذا مر بمسجد لا يكاد يدخله كسلاً أن يتوضأ فتفوته الصلاة مع الجماعة وربما يفوته وقتها فيصليها قضاء ، وربما .. وربما ..

ولو كان على وضوء ما حدث ذلك فى الغالب ، وقد كان النبى ﷺ يحب أن يكون على وضوء فى أكثر أحواله ، وكان أصحابه يقتدون به فى ذلك ، فليكن لنا فى رسول الله ﷺ وأصحابه أسوة حسنة .

ومن المحافظة على الوضوء أن يحضر المتوضئ قلبه فيذكر عند كل عضو يغسله أن هذا العضو نعمة من الله يجب أن يشكره عليه ما استطاع ، وأن هذا العضو قد اقترف من الذنوب ما لا يعلمه إلا الله فيستغفر الله من ذنب كل عضو يغسله ، وأن يعلم أن هذا العضو الذى يغسله ، عليه حق يؤديه إلى الله ، فليذكر ذلك أثناء وضوئه ، ولينظر إلى الماء الذى يتوضأ به ، وهو من أعظم النعم عليه ،لو شاء لمنعه عنه .

وبالجملة يظل المسلم ذاكراً شاكراً مستغفراً حتى ينتهى من وضوئه .

فإذا فعل ذلك فقد أعد نفسه للخشوع فى الصلاة فدخلها وهو على درجة عظيمة من الإيمان ، ولهذا كان الطهورشطر الإيمان ، أى نصف الصلاة ، لأن الصلاة تسمى إيمانًا ، أو هو نصف الإيمان بمعناه العام الذى يشمل طهارة القلب وطهارة الباطن ، وطهارة الظاهر ، وطهارة الجوارح – كما ذكرت فى أول كتاب الفقه الواضح . والله هو الهادى إلى سواء السبيل .

* * *

(١٠) دع ما يَريبُك إلى ما لا يَريبُك

عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : حفظتُ من رسول الله ﷺ : « دع ما يَريبُك إلى مالا يَريبُك ، فإن الصدقَ طُمأنينةٌ ، وإن الكذبَ ريبةٌ » (١) .

* * *

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ ، قد اشتمل على معانٍ كثيرة تلوح للمتأمل عند النظر فيه ، فهو على إيجازه الوجيز يعد قاعدة القواعد كلها فى أبواب الحلال والحرام ، وأبواب الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج ، وغير ذلك من العبادات والمعاملات ، لا يستغنى عنه فقيه فى الأصول أو فى الفروع ، فهو محط أنظار المفتين والمستفتين عندما يتعارض الشك مع اليقين .

ومن القواعد التى تندرج تحت هذا الحديث قولهم :

(أ) اليقين لا يزال بالشك .

(ب) اليقين لا يرتفع إلا بيقين .

(جـ) استصحاب الأصل وطرح الشك وبقاء ما كان على ما كان .

(د) من شك أَفَعَل شيئًا أم لا فالأصل أنه لم يفعله .

(هـ) من تيقن الفعل وشك فى القليل أو الكثير حمل على القليل لأنه المتيقن .

(و) لا عبرة بالظن البيِّن خطؤه .

إلى غير ذلك من القواعد التى نص عليها الفقهاء فى كتبهم (٢) .

* * *

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب صفة القيامة ، باب ٦٠ . وقال : حسن صحيح . ورواه ابن حبان بلفظ : « فإن الخير طمأنينة والشر ريبة » .

(٢) راجع كتابى « القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه » .

والشرع الحكيم قد بنيت أحكامه عل اليقين لا على الشك والتخمين ، فأدلته فى جملتها يقينية لا يتطرق إليها الوهم ولا الشك ، ولا الظن البين خطؤه ، ولا تعتريها شبهة تعوق العمل بها أو تقف عقبة فى طريق فهمها على النحو الذى أراده الله عز وجل ، وبيّنه رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

واعلم – وفقك الله – أن الإسلام حريص فى قواعده وأحكامه على تحرير المسلم من وساوس الشيطان وهواجسه ،ووقايته من شروره وآثامه ،وتخليصه مما قد يعتربه فى عباداته ومعاملاته من شك وتردد يؤدى به إلى إفساد عمله بنفسه من غير داع يقتضيه ، وهو هدف الشيطان وغايته ، فلا ينبغى للمسلم أن يلتفت إلى ما يطرأ عليه فى أثناء عباداته ومعاملاته من وسوسة شيطانية تجعله يترك اليقين إلى الشك ، فإنه لو أخذ بالشك مرة بعد مرة يُخشى عليه أن يصير الشك مرضاً عضالاً لا يستطيع أن يتخلص منه إلا بصعوبة بالغة .

فالوسوسة كما قال علماؤنا : « خبل في العقل ونقص فى الدين » .

وعلاج الوسواس ترك الوسواس ، بمعنى أن الإنسان إذا شك فى أمر من الأمور أكثر من مرة حتى كثر شكه فليدرك نفسه قبل استفحال خطره ، فيأخذ نفسه بالحزم والعزم ،ويفعل ما أمر بفعله ويترك ما نهى عن فعله ،متسلحاً باليقين مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم .

* * *

وقوله ﷺ : « دع ما يَريبك إلى مالا يريبك » معناه : اترك الشىء الذى ترتاب فى حلِّه أو تشك فى منفعته ، أو تجد فى نفسك حرجًا فى تصديقه ، أو تظن أنك لو أخذته لعاد عليك من وراء أخذه شىء لا ترضاه لنفسك ، أو هو مما يقدح فى مروءتك وسلامة دينك ،والزم ما يطمئن إليه قلبك فافعله أو خذه ،و دع الشبهات فإنها من المهلكات .

فقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير : « إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن ، وبينهما أمور مُشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ،فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ،ومن وقع فى الشبهات وقع

فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحِمى يُوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلَحت صلح الجسد كله ،وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وهذا الحديث عليه مدار الإسلام . والحلال ما بينته الشريعة فى نصوصها من القرآن والسنة ،والحرام ما بينته الشريعة كذلك ، فالحلال ما أحله الله ،والحرام ما حرمه الله ، لاما أحله الإنسان أو حرمه بعقله وهواه .

وبين الحلال والحرام شبهات ، من شك فيها وجب عليه أن يسأل العلماء عنها ليفتوه بما يرونه أليق بالفعل أو بالترك ، وذلك تحرياً للحلال ، وتوقياً من الوقوع فى الحرام أو فى المكروه ، فإن الوقوع فى المكروه قد يؤدى إلى الوقوع فى الحرام ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، كما جاء فى بعض الروايات ، ولا سيما إذا تكرر منه ذلك ، فإن النفس إذا قارفت المكروه لا تلبث أن تعتاد عليه ولا تبالى بعواقبه : وهى التجرؤ على المحرمات والوقوع فيما يلوث العرض ويجرح الدين .

والمرء رهين قلبه فصلاحه بصلاحه ، وفساده بفساده .

والله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما صدر عن سلامة القلب وإخلاص النية ،وأيقن صاحبه أنه حلال خالص .

* * *

والشبهات ثلاثة :

شبهة إلى الحل أقرب ، وتركها ورع .

وشبهة إلى الحرمة أقرب ،وتركها واجب أو قريب من الوجوب .

وشبهة بين بين ، أى استوى فيه دليل الحل والتحريم ، فمن مال إلى حلٍّ شىء ، واطمأن قلبه إليه ، فلا بأس من فعله أو أخذه ،ومن مال إلى حرمته استحب له تركه والزهد فيه .

وهذا ما يفهم من قوله ﷺ فى نهاية الحديث : « فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة » .

والصدق من معانيه التحقق من الأمر ، والتثبت فيه ، وأخذه بالقوة المنبعثة من الإيمان المبنى على اليقين .

واليقين ضد الشك كما يقول علماء اللغة .

والكذب ضد الصدق ، وهو مخالفة الخبر للواقع ومباينته للحقيقة ،وعدم التثبت منه ، ولذلك سمى الكذاب مريبًا أى موضعًا للريبة ،وهى الشك مع القلق والحيرة والاضطراب ، فكل ريبة شك ،وليس كل شك ريبة وإن كان الكثير من العلماء لا يفرقون بينهما .

ومن علامة صدق المرء أن يقدم على الشىء وهو واثق من حله ونفعه ، ويدبر عنه وهو واثق من حرمته وضرره ، ولا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا يكاد يشك أن الناس تكذبه وإن وجد فيهم من يتهمه بالكذب .

أما الكذاب فإنه لو صدق فى شىء ظن كل الظن أن الناس تكذبه ، ورأى أن أصابع الاتهام تتوجه إليه فى حالتى الصدق والكذب على السواء ؛ لأن الريبة ملكت عليه عقله وفكره ؛ ولذا قالوا : (كاد المريب أن يقول خذونى) .

واعلم أن الصدق خير محض ، وأن الكذب لا خير فيه .

وقد ورد من رواية ابن حبان : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الخير طمأنينة والشر ريبة » .

فالخير هو البر فى صوره المختلفة ، « والبر ما اطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى الصدر وكرهتَ أن يطَّلع الناس عليه ،وإن أفتاك الناس وأفتوك وأفتوك » كما قال الرسول ﷺ فى الحديث الذى رواه أحمد وغيره .

* * *

وقد ذكرنا أن هذا الحديث يدخل فى جميع أبواب الفقه من عبادات ومعاملات على الجملة .

ففى باب الطهارة مثلاً قد يتطرق الشك فى الوضوء أو فى الغسل ، أو فى طهارة الثوب ، أو فى طهارة المكان ، أو فى طهارة البدن ، أو فى طهارة الماء الذى يريد استعماله أو فى غير ذلك مما لا ينحصر ، فماذا يفعل من وقع له هذا الشك ؟ .

أقول : يأخذ باليقين ويطرح الشك جانبًا ، فمن توضأ وشك هل أحدث أم لا - ترك الشك وأخذ بالأصل ، وهو أنه قد توضأ والشك طارئ على هذا الأصل فلا عبرة به .

ويرى المالكية أن عليه الوضوء استثناء من القاعدة المشهورة وهى : « استصحاب الأصل وطرح الشك وترك ما كان على ما كان » . ورأوا أن الأخذ بالاحتياط أولى فى أبواب الطهارة حتى يدخل المسلم الصلاة وهو مطمئن ، فلا يعتريه أثناء صلاته ما يعكر عليه الخشوع فيها من وساوس الشيطان وهواجس النفس .

وإذا شك فى الحدث أثناء الصلاة فليضرب عنه صفحاً ،وليأخذ باليقين .

فقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا وجد أحدكم فى بطنه شيئًا فأُشكل عليه ، أَخَرج منه شىء أم لا ، فلا يخرجنَّ من المسجد حتى يسمع صوتًا أو يجد ريحًا » .

والمراد بالمسجد فى الحديث الصلاة ، كما صرح بذلك أبو داود فى روايته بدليل ما رواه البخارى ومسلم عن عباد بن تميم عن عمه : أنه شكا إلى رسول الله ﷺ الرجل الذى يخيل إليه أنه يجد الشيء فى الصلاة ؟ فقال : « لا ينفتل - أو لا ينصرف - حتى يسمع صوتًا أو يجد ريحًا » .

وليس المراد سماع الصوت أو وجدان الريح فى التحقق من نقض الوضوء ، بل هو مثل لما سواه من النواقض ،كخروج قطرة من البول أو المذى أو الودى ونحو ذلك .

وليس سماع الصوت ووجدان الريح شرطًا فى نقض الوضوء ، بل متى تيقن من حصول الناقض وجب عليه قطع الصلاة وإعادة الوضوء .

ومن أدلة هذه القاعدة أيضًا ما رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا شك أحدكم فى صلاته فلم يدرِ كَم صلى : ثلاثاً أو أربعًا ؟ فليطرح الشك ، وليبن على ما استيقن ثم يسجد سجدتين قبل أن يسلم ، فإن صلى خمسًا شفعت له صلاته ، وإن كان صلى إتمامًا لأربع كانتا ترغيماً للشيطان » .

ولو تتبعت أبواب الفقه لوجدت صوراً كثيرة من الوساوس التى تعترى ، الناس فى عباداتهم ومعاملاتهم مما لا نطيل الكلام فيه هنا ، ولكن ينبغى أن تعلم أن الوسوسة آفة من الآفات التى يصعب على المرء تلافيها إذا ما استحكمت فى العقل ، وتمكنت منه ، فإنها لو تمكنت منه أخبلته وأفسدت قريحته ، وانحرفت به عن الجادة ،وربما ذهبت به – والعياذ بالله تعالى .

وإذا لم يكن الموسوس مخبولاً فهو ناقص فى دينه بسبب جهله بتعاليمه أو بسبب انخراطه فى المعاصى ، أو بسببهما معًا .

والوِسواس – بكسر الواو – هو ما يمليه الشيطان على الإنسان من الأقوال الباطلة ، والأفكار الفاسدة ، والشبهات المنحرفة ، وما يُدخله على قلبه من الأحاديث المضللة ، والهواجس الممرضة ، والأهواء الجامحة .

وهى من كيده الذى لا يكاد ينقطع ، ومكره الذى لا يكاد يزول .

يقول الله عز وجل : ﴿ إنَّ الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدوًّا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (١) .

ولقد لعب الشيطان بأقوام حتى أخرجهم من الملة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وقد تكلمت عن آفات الوسواس وعلاجه فى القاعدة التاسعة من الباب الثانى عشر من كتابى « القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه » فراجعه إن شئت وبالله توفيقك .

* * *

(١) فاطر : ٦ .

وكلمة أخيرة أقولها لإخوانى حول هذا الحديث الذى هو عمدة في علاج النفوس من الحيرة والتردد والتردى فى مزالق الشر من غير روِّية ولا تثبت ولا نظر ولا استدلال – أقول لهم : إن لكم فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فقد كان يحسم الشك باليقين ويأخذ بمعالى الأمور ويترك سفسافها ، ويأخذ بالاحتياط فى أمره كله مع مراعاة التيسير عندما تدعو الضرورة إلى الأخذ به ، ومن تتبع سيرته عرف ذلك .

وسيأتى طرف من سيرته العطرة فى عدة أحاديث إن شاء الله تعالى .

والله ولى التوفيق

* * *

(١١) لا تغضب

عن أبى هـــريرة - رضى الله عنه - : أن رجــلاً قـــال للنبى ﷺ : «أوصنى، قال : لا تغضب » (١) .

* * *

هذه الوصيـة حكمـة بالغـة صدرت من حكيم تفـجرت من قلبـه ينابيع الحكمة فارتوى بها طلابها وعاشوا عليها حياة طيبة بعيداً عن مواطن الشر وعن أسبابه ودوافعه ، وعاشوا لها يجمعونها ثم يتدبرونها ويفقهون معانيها ومراميها، وينعمــــون بثمـارها التى يحصـلون عليــها من خلال التأمـل والنـظر فى أسرارها وآثارها .

وكان أصحاب النبى ﷺ من أحرص الناس على تلقيها وحفظها والعمل بها ونقلها إلى من بعدهم عملا بقوله ﷺ : « نضَّر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلغها فَرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه » (٢) .

لقد كان الرجل منهم يأتى إلى النبى ﷺ فيقول له : أوصنى ، وهو يعلم أن وصاياه أدوية شافية لأدواء النفوس المؤمنة والقلوب الواعية .

فالنفوس المؤمنة تستجيب لهذه الوصايا وتستريح لها وتستوعبها فى سهولة ويسر ، وتجد فيها الروح والريحان ، وتنتفع بها كثيراً فى التخلص من الحمية الجاهلية والعادات الموروثة والطباع الشريرة ، حتى تتحول هذه النفوس من نفوس أمارة بالسوء إلى نفوس لوامة نادمة لا تصر على الذنب ، ولا تصبر عليه ولا تستهين به،ولكن تبادر إلى التوبة منه،ثم تترقى هذه النفوس بالتوبة من منزلة

---

(١) رواه البخارى فى الأدب باب ٧٦ ،والترمذى فى البر ٧٣ ،ومالك فى الموطأ فى حسن الخلق ١١ ، بالفاظٍ متقاربة .٠ وراجع الحديث وتخريجه أيضاً فى جامع العلوم والحكم لابن رجب صـ ١٨١ .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب العلم باب ٧ .

إلى منزلة حتى تصبح مطمئنة لذكـر الله ، راضـية كل الرضا بقضـائه وقدره، مرضية عند الله وعند الناس ، تسـتحق النداء الإلهـى الوارد فى سورة الفجر : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضـيةً مرضيةً فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ (١) .

* * *

وهذه الوصية من الوصايا التي جمعت أسباب الخير كلها أو أكثرها وحذرت من خلائق الشر كلها أو أكثرها ، ونبهت القلوب الواعية إلى أخطار الغضب وويلاته وثمراته المرة ، وعواقبه الوخيمة وآثارة المدمرة .

فالغضب آفة الآفات كلها ، فالشر ينبع منه وإليه يعود ؛ لهذا لم يزد عليه النبى ﷺ فى الوصية مع إلحاح الرجل فى الزيادة عليها ، وكأنه يريد - ﷺ - أن يخبره بأن الغضب لا يأتى بخير وأن فى تركه سلامة الدين ومتعة الحياة .

فمن تركه ولم يتعاطَ أسبابه عاش معافى فى دينه ودنياه .

وربما رأى النبى ﷺ أن داء الغضب مستفحل فى هذا الرجل فأوصاه بتركه والبعد عن مواطنه ودوافعه ، والرسول ﷺ طبيب يعرف كيف يشخص الداء ويصف الدواء ، فهو ذو بصيرة نافذة وذو بصر بالأمور وخبرة بمعادن الرجال ، يأتيه الرجل فيقول له : أوصـنى ، فيقول له : « لا تكذب » ، ويأتيه آخر فيقول له : « لا تسبَنَّ أحداً » ، ويأتيه آخر فيقول له : « قل آمنت بالله ثم استقم »، وهكذا .

والإسـلام دين يدعو إلى مكـارم الأخـلاق . والحـلم والعـفو والصـفح من أعظمها .

* * *

والغضب يحمد فى مواطن ويذم فى مواطن ، والنهى فى الحديث منصب على الغضب المذموم ، وهو الغضب بغير حق ، أو فى المواطن التى يكون الحلم فيها أولى منه .

---

(١) الفجر : ٢٧ - ٣٠ .

وعلى ذلك يكون هذا النهى من قبيل العام المخصوص ، أى لا تغضب حين لا يكون للغضب مجال ، ولكن إن كان ولابد أن تغضب فليكن ذلك فى نصرة دين الله ، وفى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وهذا هو الغضب لله ؛ وهو غضب محمود تضافرت النصوص القرآنية على الأمر به .

قال تعالى : ﴿ قاتِلوهم يعذبْهم الله بأيديكم ويُخْزِهم و ينصرْكم عليهم ويشفِ صدور قوم مؤمنين ويُذهبْ غيظَ قلوبهم ويتوبُ اللهُ على من يشاء والله عليم حَكيم ﴾ (١) .

فالغضب لله محمود فى عواقبه ، مطلوب فى كل أمر دعا الشرع فيه إلى إظهار الشدة والحمية والغيرة على الدين والحرمات .

فقد كان النبى ﷺ يغضب حتى تحمر وجنتاه من شدة الغضب إذا انتهكت حرمة من حرمات الله عز وجل ، ولكن لا يخرجه غضبه عن طبعه وجبلته وفطرته ، ولا يدفعه إلى العدوان على من أغضبه .

عن أنس أن النبى ﷺ قال : « إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر » (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت فى الغضب والرضا ؟ فقال : « اكتب . فوالذى بعثنى بالحق نبيًّا ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه . فلم يقل إنى لا أغضب ولكن قال : « إن الغضب لا يخرجنى عن الحق - أى لا أعمل بموجب الغضب - » (٣) .

وغضبت عائشة رضى الله عنها مرة فقال لها رسول الله ﷺ : « ما لك جاءك شيطانك » . فقالت : وما لك شيطان ؟ قال : « بلى ولكنى دعوت الله فأعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بالخير » (٤) .

وعن على رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ لا يغضب للدنيا فإذا

---

(١) التوبة : ١٤ - ١٥ . (٢) رواه مسلم .
(٣) رواه أبو داود . (٤) رواه مسلم .

أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له ، فكان يغضب للحق وإن كان غضبه لله » (١) .

* * *

والعاقل من يتريث فى الأمور ، ويحسب للعواقب حسابها ، ولا يقدم على شىء ولا يحجم عنه إلا بحكمة ، فلا يجبن حين يستلزم الأمر إقداماً ، ولا يتهور حين يستلزم الأمر إحجاماً ؛ فالفضيلة وسط بين رذيلتين .

وإذا أوتى المرء الحكمة لا تدفعه المثيرات إلى فعل ما لا تحمد عواقبه ؛ فإن المثيرات تسلب الإنسان لُبَّه أحياناً فيفقد توازنه فيتصرف تصرف الحمقى أوالمجانين ؛ لهذا كان قول النبى ﷺ للرجل « لا تغضب » درساً جامعاً للحكمة من أطرافها ، فمن ترك الغضب وتحلى بالحلم فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وتسلح بسلاح لا يقهر ، وأمن على نفسه من الوقوف فى مواطن الزلل والهلكة .

والناس يتفاوتون فى مواجهة هذه المثيرات ، فمنهم من تستخفه التوافه فيقف أمامها ويستحمق على عجل فيقع فيما يندم عليه حيث لا يفيده الندم وهذا هو الذى حُرِم الحكمة واعتراه السفه فلا يكاد يسلم من غائلة حتى يدخل فى أخرى ، ومنهم من تستفزه الشدائد فيتغلب عليها برجاحة عقله وثاقب فكره حتى تتصاغر أمامه هذه الشدائد فيقوى على احتمالها من غير تكلف ولا اعتساف .

وهذا يرجع إلى الطباع الأصيلة فى الأنفس السوية .

وهناك ارتباط مؤكد بين ثقة المرء بنفسه ونظرته الفاحصة للآخرين .

فالرجل العظيم كلما حلق فى آفاق الكمال اتسع صدره وامتد حلمه ، وعذر الناس من أنفسهم ، والتمس المبررات لأغلاطهم ، فإذا عدا عليه غرٌ يريد تجريحه نظر إليه من قمته كما ينظر الفيلسوف إلى صبيان يعثون فى الطريق وقد يرمونه بالأحجار .

وقد رأينا الغضب يشتط بأصحابه إلى حد الجنون عندما تقتحم عليهم

---

(١) رواه الترمذى .

نفوسهم ويرون أنهم حقروا تحقيراً لا يعالجه إلا سفك الدم ، ولو كان يعقل ما يحمله الغضب إليه من ويلات لآثر الحلم والعفو على المعاقبة والانتقام .

ولقد أراد النبى ﷺ أن يعلم أصحابه هذا الدرس فى الأناة وضبط النفس فى أعرابى اشتد عليه فى القــول ، فواجـهه بأحسـن ما تكـون المواجهة ، وتلقاه بحلم ما بعده حلم ، حتى أثره بحلـمـه وعفوه فما وسعه إلا الدخول فى الإسلام .

رُوى أن أعرابيًا جاء الرسول ﷺ يطلب منه شيئًا ، فأعطاه ثم قال له : « أحسنت إليك ؟ » قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت ! ، فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا .. ثم قام ودخل منزله ، فأرسل إليه وزاده شيئًا ، ثم قال له : « أحسنت إليك ؟ » قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال له النبى : « إنك قلت ما قلت آنفًا ، وفى نفس أصحابى من ذلك شىء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك » قال : نعم . فلما كان الغد جاء ، فقال النبى ﷺ : « إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟ » قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً . فناداهم صاحبها : فقال لهم : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفــق بها منــكم وأعلم ، فتــوجه لها بين يديها فأخذ من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت واستناخت . وشد عليها رحلها ، واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه ، دخل النار » .

إن هذا الأعرابى الذى تلطف به النبى ﷺ حتى أرضاه ربما يحسن إسلامه ويكلف بأمر خطير في نصرة الإسلام فيقوم به خير مقام ، فبالحلم تُساس الرجال ويرد كل مخطئ إلى الصواب ، ويُدفع كل خَمولٍ إلى ميادين العمل بحب وطيب نفس ، فما دخل الناس فى الإسلام إلا بفضل هذه السياسة الحكيمة القائمة على الحلم والعفو والرحمة .

يقول الله عز وجل : ﴿ فبما رحمةٍ من الله لِنتَ لهم ولو كنتَ فظًّا غليظَ القلب لانفضوا من حولك ﴾[1] .

ولقد تعلم أصحاب النبى ﷺ منه هذا الأسلوب فى الدعوة ، فكانوا يتعاملون فيما بينهم بالحسنى فيراهم غيرهم فيميلون إليهم ويطمئنون لهم ويجدون عندهم ما يفتقدونه فى رجال دينهم ، فيدخلون فى الإسلام طوعًا وهم فرحون مسرورون بهداية الله لهم إلى هذا الدين القيم .

فما أحوجنا إلى أن ندعو الناس إلى الله عز وجل بهذا الأسلوب النبوى العظيم ، ونعلمهم أحكام الدين من غير تشدد ولا تنطع ، وبدون قسوة أو تهور .

* * *

والمؤمن الحق هو الذى إذا استغضب لا يغضب إلا فى الحق ؛ لأن قوة إيمانه تحول بينه وبين السفه والطيش والتسرع فى الحكم وحب الانتقام .

فالقوى فى إيمانه قوى فى عزمه وهمته ، قوى فى تصديه للباطل ورد العدوان .

عن ابن مسعود قال رسول الله ﷺ : « ما تعدُّون الصُّرعة فيكم ؟ ، قالوا : الذى لا تصرعه الرجال . قال : ليس ذلك ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب »[2] .

وقد قال الرسول ﷺ : « إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى ، ألا وإن منهم البطىء الغضب سريع الفىء ، والسريع الغضب سريع الفىء ، والبطىء الغضب بطىء الفىء ، فتلك بتلك ألا وإن منهم بطىء الفىء سريع الغضب ، ألا وخيرهم بطىء الغضب سريع الفىء ، وشرهم سريع الغضب بطىء الفىء ، ألا وإن منهم حسن القضاء حسن الطلب ، ومنهم سىء القضاء حسن الطلب ، ومنهم سىء الطلب حسن القضاء ، فتلك بتلك ، ألا وإن منهم سىء القضاء

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(٢) رواه الترمذى .

سيء الطلب ، ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب ، وشرهم سيء القضاء سيء الطلب . ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه . فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض »[1] أى فليبق مكانه ويجلس .

وهناك كثير من الوسائل التى يدفع بها الإنسان الغضب عن نفسه منها :

الإكثار من ذكر الله تعالى بالقلب واللسان ، وخير الذكر : « لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وإشعار النفس بأنها أمارة بالسوء لكى تكفكف من غلوائها وترجع عن غيِّها ، وتتواضع لعظمة الله تعالى ، وتتواضع أيضًا للناس فى غير منقصة ؛ فإن الدافع للغضب هو الكبر والتعالى على الناس ، والغرور بالمنصب والجاه والمال والإعجاب بالنفس ، وما إلى ذلك من الأوصاف المرذولة التى لا يتحلى بها إلا من سفه نفسه ، وفقد صوابه وحاد عن صراط الله المستقيم .

وعلى المسلم أن يجعل نصب عينيه ما كان عليه رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق ، فيتخذه أسوة له فى أقواله وأفعاله كلها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فمن ائتسى به نجى ونال ما يتمنى من خيرى الدنيا والآخرة .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أُسوةٌ حسنة لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخر وذكر الله كثيراً ﴾[2] .

ومن هنا كانت دراسة سيرته العطرة واجبًا من أهم الواجبات ، حتى إذا هَمَّ المسلم بأمر لم يقدم عليه إلا بعد أن يعرف حكم الله فيه ،وكيف كان الرسول ﷺ يفعل فى مثله .

* * *

---

(١) رواه الترمذى .   (٢) الأحزاب : ٢١ .

وبعد ، فقد أطلت بعض الشيء في شرح هذا الحديث ، ولا يزال في الجعبة الكثير مما يقال ولكن حسبنا ما ذكرنا .

وأنصح كل من يتصدى إلى التعليم والإرشاد أن يشخص الداء أولاً ، ثم يصف الدواء الناجع بحسب ما آتاه الله من العلم والحكمة أسوة برسول الله ﷺ ، فإنه كان يأتيه الرجل يسأله النصح فينظر إليه ، ويتعرف حاله ثم ينصحه بما يصلحه بأسلوب موجز بليغ يحفظ ولا ينسى ، كما فعل مع الرجل الذي قال : يا رسول الله أوصني ، فقال : « لا تغضب » ؛ لأن الرجل فيما يبدو كان غضوباً فعالج أعظم الأدواء فيه .

قال تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ (١) .

والبصيرة هي الحجة والبرهان ، وتشخيص الداء ووصف الدواء ، والبصر بالأمور قبل الإقدام عليها أو الإحجام عنها نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق .

* * *

---

(١) يوسف : ١٠٨ .

(١٢) المسْلِمُ أَخو المسْلِم

عنْ أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لا تحَاسَدُوا ، ولا تَناجَشُوا ، ولا تَباغَضُوا ، ولا تَدابَرُوا ، ولا يبعْ بعضُكم على بيعِ بعضٍ ، وكونوا عبادَ الله إِخواناً ، المسلمُ أخو المسلمِ ، لا يَظلمُه ، ولا يَخْذُلُه ولا يَكذبُه ،ولا يحقرُه ، التقوى ها هنا ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، بحسبِ امرئٍ من الشرِّ أن يحقرَ أخاه المسلمَ ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ ، دمُه ومالُه وعِرضُه » (١) .

* * *

بُنى الإسلام على الأخوة الإيمانية التى جمعت بين الناس على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم بغض النظر عن أنسابهم وأحسابهم ودرجاتهم فى العلم والمال والمنصب .

يقول الله عز وجل : ﴿ إنما المؤمنون إِخوةٌ ﴾ (٢) إِخوة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى .

وقد صور لنا النبى ﷺ هذه الأخوة فى قوله : « مثل المؤمنين فى تَوَادِّهم وتراحمهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى من عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » (٣) .

والأخوة فى الدين نعمة من أجلِّ النعم وأعظمها ، بها يتكافل المسلمون ويتعايشون فيما بينهم فى حب وسلام ووئام ، وبها ينصرون على أعدائهم لأنها قوة فى ذاتها ، فإذا ما استقر الإيمان فى القلوب تلاشت الضغائن والأحقاد وائتلفت القلوب والأرواح ، واجتمع المتآخون على هدف واحد ، ورأى واحد ، وكلمة واحدة ، وسعدوا بهذه الأخوة المباركة فى دنياهم وآخرتهم ، وعجزت كل

---

(١) رواه مسلم . (٢) الحجرات : ١٠ .

(٣) رواه البخارى فى الأدب ٢٧ ، ومسلم فى البر ٦٦ ، وغيرهما .

القوى الشريرة أن تنال منهم نيلاً مهما كان شـأنه ، فليس بعد أخوة الإسلام من نعمة .

يقول الله عز وجـل : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفـرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يُبيِّنُ الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ (١) .

فهذه الآية تأمر المسلمين أن يعتصموا بحبل الله ، وهو دينه القويم ، ويتمسكوا بتعاليمه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، فإن الاعتصام بدين الله هو الذى يحفظ عليهم إنسانيتهم وصبغتهم الإيمانية التى صبغهم الله بها ، وقوتهم التى استمدوها من هذه الصـبغة فكانوا بها رجالاً بكل ما تعنيه الرجولة من معنى ، وكانوا بها أبطالاً في ميادين الشرف بكل ما تعنيه كلمة البطولة من سمو فى الخلق وحكمة فى الإقدام والإحجام ، وتذكرهم الآية بهذه الأخوة وآثارها فى النفوس المؤمنة وغير المؤمنة ، فإن اليهود والمشركين ما حسدوا المؤمنين على شىء أكثر مما حسدوهم على هذه النعمة ؛ إذ كانوا على النقيض منهم ، كما قال تعالى : ﴿ تحسَبُهم جميعًا وقلوبهُم شتى ﴾ (٢) .

وقد كانوا يتمنون أن تزول هذه النعمة من أتباع محمد ﷺ وأن تتحول إليهم حتى يجدوا حلاوتها فى قلوبهم ، ويجنون ثمراتها فى معاملاتهم ، ولكن أنى لهم ذلك وهم على غير هدى من الله ونور ،وكيف تزول هذه النعمة من المسلمين وهم أحق بها وأهلها ، ما داموا معتصمين بحبل الله تبارك وتعالى مُستنِّين بسنة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام .

وقد وجد المسلمون فى هذه الأخوة أعظم ما تجده البشرية فى التاريخ كله؛ إذ لم يحدثنا التاريخ عن أخوة بلغت ما بلغته أخوة المهاجرين والأنصار ،ولو كانت هناك فى الزمان السابق أخوة تماثلها أو تدانيها لحدثنا القرآن عنها .

* * *

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) الحشر : ١٤ .

وقد علمنا النبى ﷺ فى هذا الحديث ونحوه كيف يحافظ المسلمون على هذه النعمة المسداة إليهم من ربهم ، وكيف يعمقونها في نفوسهم ويملأون بها شغاف قلوبهم ، ويجددونها كلما دب إليها الوهن بسبب بعض الغرائز التى ركبت فيهم ، فقال : « لا تحاسدوا » أى لا يحسد بعضكم بعضاً على شىء فضلهم الله به ، فالحسد آفة الآفات وملمة الملمات ، وهو أول معصية وقعت فى الخليقة ، فقد حسد إبليسُ آدمَ عليه السلام على ما آتاه الله من فضله ، فكان حسده معصية حملته على ارتكاب معصية أفظع منها وأشنع ، وكان من أمره ما كان ، فهو ملعون لا تفارقه اللعنة فى الدنيا ولا فى الآخرة . فأى جرم إذاً أعظم من الحسد ! .

ومن تتبع ما قصه الله علينا فى كتابه العزيز من أخبار الأمم التى دب فيها داء الحسد لوجد أن الحسد من أقوى الأسباب التى حملت الكثير من الناس على التمادى فى كفرهم وغيهم وتكذيبهم أنبيائهم ورسلهم وإيذائهم بل وقتلهم وقتل من آمن بهم ظلماً وعدواناً .

قال تعالى : ﴿ ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يَردُّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعدِ ما تَبين لهم الحق ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أم يحسُدون الناسَ على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتابَ والحكمةَ وآتيناهم مُلكًا عظيماً فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه وكفى بجهنم سعيراً ﴾ (٢) .

لقد حدثنا القرآن الكريم عن ولدى آدم وكيف أدى الحسد بأحدهما إلى قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين .

وحدثنا أيضاً عن قوم حسدوا قارون على ما عنده من كنوز تعجز عن حمل مفاتحها العصبة أولو القوة ، مع أنه كان مستدرجًا بما أوتيه من مال وجاه .

قال تعالى : ﴿ فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثلَ ما أُوتىَ قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ١٠٩ .   (٢) النساء : ٥٤ – ٥٥ .   (٣) القصص : ٧٩ .

بينما كان أهل العلم والدين مشغولون عنه تمامًا بأمر الآخرة لا يريدون أن يكون لديهم من حطام الدنيا إلا ما يكفى ضروريات الحياة ، وهم يعلمون مصير طلاب الدنيا ومآل طلاب الآخرة .

﴿ قال الذين أوتوا العلم وَيْلَكم ثوابُ الله خير لمن آمن وعمل صالحًا وما يلَقَّاها إلا الصابرون ﴾ (١) .

إن داء الحسد وبيل ، وإن شره مستطير ، وإن فيه ناراً تحرق صاحبها فى الدنيا قبل الآخرة ،وتحرمه التمتع بما لديه من طيبات الحياة على كثرتها ، وتجعله يحتقر ما عنده دائمًا ، ويسعى إلى تحصيل ما عند غيره وليس بقادر على ذلك ، فقد قسَّم الله الأرزاق على عباده بالعدل ، فأعطى كل عبد من عباده نصيبه من المعيشة غير منقوص بنسبة مئوية ، فجعل هذا مرفوعًا فى جهة مخفوضًا فى جهة أخرى .

قال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمون رحمةَ ربك نحن قَسَمْنا بينهم معيشتَهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذَ بعضُهم بعضاً سُخريًّا ورحمةُ ربك خير مما يجمعون ﴾ (٢) .

فالقسمة تقتضى التساوى ، وهذا التساوى موجود بالفعل وقائم على العدل والحكمة والرحمة .

فهناك رجل مثلاً لديه مال كثير ولكنه محروم من نعمة الأولاد والعكس .

وهناك رجل لديه علم وليس لديه مال والعكس .

وهناك رجل موفور الصحة قليل المال والعكس .

والحكمة من ذلك بيّنها الله تعــالى فى قوله : ﴿ ليتخذ بعضُهم بعضاً سُخريًّا ﴾ أى خدمًا ، حتى يجد كل إنســان من يعينه فى أمور دينه وشئون دنياه .

والناس للناس من بْدوٍ وحاضرةٍ
بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ

---

(١) القصص : ٨٠ .
(٢) الزخرف : ٣٢ .

من عرف هذه الحقيقة أراح نفسه وأقنعها بان ما له سيأتيه ، فلا يحسد أحداً على ما عنده ، فإن عنده من الخـير بقدر ما عنده لكنه بطريق التوزيع مع التقسيم .

والكلام فى الحسد يطول ذكره ، وقد بسطناه فى كتاب خاص لم يطبع بعد ، وفى كتاب إحياء علوم الدين كلام طويل فى بيان آفاته وسبل اتقائه .

* * *

ولكن ما الفرق بين الحسد والغبطة ؟

أقول : الحسد هو تمنى زوال نعمة الغير ، أما الغبطة فهى تمنى مثل ما للغير وهى محمودة لا مذمومة ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ ولا تَتَمَنَّوا ما فَضَّلَ الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسْبْنَ واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيءٍ عليماً ﴾ (١) .

والتمنى هو طلب الأمر المستحيل أوما يقارب المستحيل ، فلا يحق للمرأة مثلاً أن تطلب مساواتها بالرجل فيما هو من خصائصه وقدراته ، ولا يحق للرجل أن يطلب من الحقوق التى خص الله بها المرأة ، فإن ذلك ليس لهما لأن سنة الله قضت بذلك ، وما على المسلم إلاّ أن يطلب من الله المزيد من فضله دون أن يسمح لغريزة الحسد أن تفسد عليه عقله ودينه .

* * *

والناس يتفاوتون فى نظرتهم إلى النعم ؛ فمنهم من يراها فى المال ، ومنهم من يراها فى العلم ،ومنهم من يراها في المنصب المرموق ومنهم ومنهم ...

ومنهم من يراها فى التقوى ويقول : التقوى هى السعادة كلها ، ويسوق الآيات الدالة على ذلك .

وهذا القول صحيح غاية فى الصحة ، إلا أنه لابد للتقوى من علم ، ولابد للعلم من مال يخدمه ، ولابد للمال من قدرة على جمعه .

فالتقوى إذاً لها أسبابها ودوافعها الدينية والدنيوية .

---

(١) النساء : ٣٢ .

فلكى يسعد الإنسان بها لابد أن يجعل لنفسه وقاية من الجهل والفقر والمرض حتى يتمكن من إقامة الدين على الوجه الصحيح .

وبسبب تفاوتهم فى النظرة إلى النعم قد ينشأ بينهم الحسد ، فيحسد الفقيرُ الغنى لأنه يرى أن السعادة فى المال ، ويحسد الموظف الصغير من هو فوقه ويتمنى أن يكون أرقى منه ، ويحسد المريض الصحيح على نعمة العافية ويرى أن الصحة تاج على رءوس الأصحاء .

وقد عرفنا أن الحسد هو تمنى زوال نعمة الغير سواء تمنى أن يكون مثله أم لا .

فالحسود يعنيه بالدرجة الأولى ألاَّ يرى الناس فى نعمة حتى ولو كان عنده مثلها أو هو غير قادر على تحصيلها .

وما أحسن قول الشاعر فى ذلك :

جامل عدوك ما استطعت فإنه
بالرفق يُطمع فى صلاح الفاسدِ
واحذر حسودك ما استطعت فإنه
إن نمت عنه فليس عنك براقدِ
رضى الحسودُ زوال نعمتك التى
أوتيتها من طارف أوتالدِ
ولربما رضى الحسودُ إذا رأى
منك الجميل فصار غير معاندِ
فاصبر على غيظ الحسود فنارُه
ترمى حشاه بالعذاب الخامدِ
تطفو على المحسود نعمةُ ربه
ويذوب من كمدٍ فؤادُ الحاسدِ

وما أحسن قول آخر :

فاصبر على غيظِ الحسو د فإن صبرَكَ قاتلُه

كالنـــارِ تأكل نفسَــها
إن لم تجد ما تأكلُــه

* * *

والحسد والإيمان ضدان لا يجتمعان ؛ لذا أوصى النبى ﷺ المؤمنين بأن ينزعوا هذه الآفة من قلوبهم كلما خطرت فيها ، فإن الخاطر قد يتحول إلى عزم ، وقد يتحول العزم إلى فعل ، وقد يعتاد الإنسان على الفعل فيصبح ديدنه ، فلا يمكنه التخلص منه بعد ذلك ، فعلى المرء أن يتعهد نفسه بالإصلاح ويتعهد قلبه بالتنقية والتطهير ، بحيث يجعل قلبه خاليًا من كل ما يعكر على الإيمان صفوه ويكدُر جلوته .

* * *

وشر أنواع الحسد ما يحمل صاحبه على السعى فى زوال نعمة المحسود ويحمله على إظهار ما فى قلبه على لسانه ويده فيعتدى ويسىء ويظلم .

ولهذا أمر الله نبيه عليه الصلاة والسـلام أن يستعيذ من شر الحاسد إذا حسد ، أى إذا أظهر حسده الكامن فى قلبه بالأفعال التى تؤدى إلى ظلم المحسود والعدوان عليه .

ولذلك لا يكون الحسد الكامن فى القلب إثمًا يعاقب الله عليه صاحبه إلا إذا عبر عنه بلسانه ويده أوتمادى فيه ؛ لأنه كما قلنا طبيعة فى الإنسان يتقيها ولا يستطيع أن يتخلص منها .

* * *

وقوله ﷺ فى هذا الحديث : « ولاتناجشوا » أى لا يخدع بعضكم بعضًا فى البيع والشراء كما كان يفعل بعض التجار والسماسرة .

والنجْش - بسكون الجيم - فسَّره كثير من العلماء بأنه الزيادة فى ثمن السلعة ممن لا يريد شراءها إما لنفع البائع بزيادة ثمنها ، أو ضرر المشترى بتكثير الثمن عليه .

قال ابن أبى أوفى : الناجش آكل ربا خائن . ذكره البخارى .

قال ابن عبد البر : أجمعوا على أن فاعله عاص لله تعالى إذا كان بالنهى عالمًا .

ويحتمل أن يراد بالنجش فى الحديث ما هو أهم من ذلك ، فإن أصل النجش فى اللغة : إثارة الشىء بالمكر والحيلة والمخادعة .

وعلى ذلك يكون معنى قوله ﷺ : « ولا تناجشوا » لا يمكر بعضكم ببعض ، ولا يخدع بعضكم بعضًا فى أى شىء يترتب عليه أذى .

قال تعالى : ﴿ ولا يَحيقُ المكر السَّيِّئُ إلا بأهله ﴾ (١) .

وفى الحديث : « من غشنا فليس منا » .

وفى الحديث الذى رواه الترمذى عن أبى بكر الصديق أن النبى ﷺ قال : « ملعون من ضار مسلمًا أو مكر به » .

ويدخل فى التناجش المنهى عنه جميع أنواع المعاملات بالغش ونحوه كتدليس العيوب وكتمانها ، وغش المبيع الجيد بالردىء .

والذى يخدع أخاه المسلم لا يبقى على أُخوَّته ، لأنه لم يرع حقها ، فيحصل بينهما التنافر بعد التلاقى على الحب والمودة ، وهذا ما لا يرضاه الإسلام أبدًا .

ومن يخدع الناس فإنما يخدع نفسه كما فهمنا من قوله تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ .

وقد قال العرب : « على الباغى تدور الدوائر » ، وقالوا : « من حفر لأخيه حفرة وقع فيها » ، وقالوا : « من حفر لأخيه جبًّا وقع فيه مُكبًّا » ، وقالوا : « كما تدين تدان » ، وقالوا : « من سلّ سيف البغى قُتلَ به ، ومن صارع الحق صُرِع » .

وقال الشاعر :

الخير يبقى وإن طال الزمان به

والشر أخبث ما أوعيتَ من زادِ

---

(١) فاطر : ٤٣ .

وقوله ﷺ : « ولا تباغضوا » معناه لا يحمل أحدُكم أخاه على بغضه بسوء فعله ، ولا يبغض أحدكم أخاه إن أساء إليه ، بل يعفو عنه ويصفح ، ويقبل عذره إن اعتذر إليه إبقاءً على الحب والمودة والإخاء .

وله أن يعاتبه عتاباً رقيقاً لا يتمادى فيه لكيلا يحرجه ؛ فالعتاب يحفظ الود إن كان فيه تحلم وحسن خلق ، (ويبقى الود ما بقى العتاب) .

والإنسان خطّاء ولا يوجد من لا يخطئ إلا الأنبياء ، وحتى الأنبياء يجوز عليهم الخطأ فى الاجتهاد ، ولكن خطأهم ليس من قبيل الخطيئة بل من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين .

والشيطان يحرص كل الحرص على بث الفرقة بين المتحابين ، وإيقاد نار العداوة بين المؤتلفين ، قال تعالى : ﴿ إنما يُريدُ الشيطانُ أن يُوقِع بينكم العداوة والبغضاءَ فى الخمر والميسر ويصدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ [1] .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذى من حديث أبي الدرداء عن النبى ﷺ قال : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ » ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين،فإن فساد ذات البين هى الحالقة »[2] .

وأخرج الإمام أحمد وغيره من حديث أسماء بنت يزيد عن النبى ﷺ قال : « ألا أنبئكم بشراركم ؟ » ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة الباغون البرآء العيب » .

ولا يدخل فى النهى البغضُ فى الله فإنه ضرورة لابد منها فى المحافظة على الدين ، وعلى حقوق الله عز وجل ، وحقوق العباد أيضاً .

وإذا ظهر لرجل من أخيه شر فأبغضه عليه - وكان الرجل معذوراً فيه - أثيب المبغض ، وقبل العذر من الرجل . بشرط أن يكون المبغض قد أبغضه فى الله، وأن يكون عذر الرجل وجيهاً ، وأظهر من نفسه الندم عليه والتوبة منه .

---

(١) المائدة : ٩١ .

(٢) الحالقة : أى التى تحلق الدين ، بمعنى أنها تذهب شيئًا فشيئًا .

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لبعض الناس يومًا : « إنا كنا نعرفكم إذ رسول الله ﷺ بين أظهرنا ، وإذا ينزل الوحى ،وإذ ينبئنا الله من أخباركم ، ألا وإن رسول الله ﷺ قد انطلق به ، وانقطع الوحى ، وإنما نعرفكم بما نخبرُكم ، ألا من أظهر منكم لنا خيراً ظننا به خيراً وأحببناه عليه ، ومن أظهر منكم شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه ، سرائركم بينكم وبين ربكم تعالى » .

وقال الربيع بن خيثم : لو رأيت رجلاً يظهر خيراً ويسرّ شراً أحببته عليه أجرك الله على حبك الخير ، ولورأيت رجلاً يظهر شراً ويسرّ خيراً بغضته عليه أجرك الله على بغضك الشرّ .

وهناك أمر ينبغى التنبيه عليه ، وهو أن كثيراً من الناس فى هذا العصر يعتقد المرء منهم أنه يبغض لله ويحب لله ، وهو لا يعرف معنى البغض لله ، والحب لله ، ولا يعرف متى يبغض ومتى يحب ، ولا كيف يبغض ، ولا كيف يحب ،وربما يعتقد أن الحق معه وليس كذلك ، أو ربما يحمله الهوى على تخطئة فلان ، وتصويب فلان ، فالواجب على المؤمن أن يتحرى الصدق مع نفسه فى الحكم على هذا وذاك حتى يبغض من يستحق البغض ، ويحب من يستحق الحب ، ويتجرد من الهوى ، والأغراض الشخصية ، والعداوات الكامنة فى النفوس من زمن طال أم قصر ، فالحكم النزيه هو ما يصدر من إنسان نزيه .

على أننا لا نثق فى قول رجل : أنا أبغض فلاناً فى الله لأنه مبتدع مثلاً ، وهو لا يعرف معنى البدعة ، ولا يعرف الفرق بين البدعة فى العادات والبدعة فى الدين .

إن البغض فى الله لابد أن يكون مبنيًا على حقائق مسلمة حتى يقع موقعه، ويؤجر المرء عليه .

وهذا كلام يطول شرحه ، ويكفينا هنا ما ذكرناه .

* * *

وقوله ﷺ : « ولا تدابروا » معناه : لا تتقاطعوا فيدبر أحدكم عن الآخر بقلبه وجسده ، ويوليه ظهره عندما يلقاه بغضاً له ، ونكاية فيه ، ورغبة فى هجرانه . فإن ذلك من الأمور المحرمة لما فيها من فصم لعرى الأخوة ، وقطع لحبال المودة التى أمر الله أن توصل .

ففى الصحيحين عن أبى أيـوب – رضـى الله عنه – عن الـنبى ﷺ قال : « لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيصدّ هذا ويصدّ هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » .

وأخرج أبو داود من حديث أبى خراش السلمـى عن النبى ﷺ قال : « من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه » .

وكل هذا إذا كان التقاطع لأمر من أمور الدنيا ، فإن كان نصرة للدين وتأديباً لمن اعتدى على حرمة من حرماته فإنه تجوز الزيادة في القطيعة عن ثلاثة أيام إلى أن يعود الضال إلى رشده ، والمخطئ إلى صوابه .

فقد هجر النبى ﷺ الثلاثةَ الذين خُلِّفوا فى غزوة تبوك ،وأمر المسلمين بهجرانهم حتى نزلت توبتهم .

وقد هجر النبى ﷺ أزواجَه شهراً تأديباً لهن .

وخلاصة القول أن التدابر لا يجوز إلا لغرض معتبر شرعاً كتأديب الوالد لولده ، والزوج لزوجته ، وتأديب العاصى ، ولا سيما الكذّاب ؛ فإن الكذب أم الكبائر ، وينبوع الرذائل ، وأساس الشر كله ، ولقد كان النبى ﷺ من أشد الناس بغضاً للكذب والكذّابين .

قالت عائشة – رضى الله عنها – : « ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب ، ما اطّلع على أحد من ذلك بشىء فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه أحدث توبة » (١) .

ولقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يتلاقون على الفضائل

---

(١) رواه أحمد .

ويتعارفون بها فإذا أساء أحد السيرة وحاول أن ينفرد بمسلك خاطئ بدا - بعمله هذا - كالأجرب بين الأصحاء ، فلا يطيب له مقام بينهم حتى يبرأ من علته .

* * *

ومن الأمور التى تؤدى إلى التنافر والتباغض والتدابر : اعتداء الأخ على أخيه فى أمر من أمور الدنيا ، كالبيع وما فى معناه من المعاملات التجارية والصناعية والوظيفية ، وسائر ما تكون فيه المشاحَّة ، ولهذا قال رسول الله ﷺ فى وصيته هذه : « ولا يبع بعضكم على بيع بعض » .

وقد تكاثر النهى عن ذلك وعما فى معناه فى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « لا يبع المؤمن على بيع أخيه ،ولا يخطب على خطبة أخيه » .

وفى الصحيحين أيضاً عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « لا يبيع الرجل على بيع أخيه ،ولا يخطب على خطبة أخيه إلا أن يأذن له » . ولفظه لمسلم .

وأخرج مسلم من حديث عقبة بن عامر عن النبى ﷺ ، قال : « المؤمن أخو المؤمن ، فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر » .

واختلف الفقهاء فى النهى هل هو للتحريم أم للكراهة ؟ .

والأصح عند أكثر الفقهاء أنه للتحريم ؛ لأن ذلك من العدوان الذى يؤدى غالباً إلى المغاضبة ، والمخاصمة ، والقطيعة ، ولا سيما فى أمر البيع والنكاح .

فإذا ساوم رجل رجلاً على سلعة فرضى البائع بالثمن لا يجوز لرجل آخر أن يساومه عليها حتى يعدل عن شرائها .

وإذا خطب رجل امرأة ورضيت به زوجًا ، وأخذ بذلك منها أو من وليها وعداً فلا يحل لرجل آخر أن يخطبها لنفسه ، فإنه قد ينجم عن ذلك الشقاق بين الأسر ،واشتعال نار العداوة بين الخاطب الأول والخاطب الثانى ، ولا يجهلن أحد ما تفعله الغيرة فى نفوس الناس ،وما يجره الحقد من ويلات .

أما إذا لم تصرح له المرأة ، أو وليها بالرضا ، أو لم يعلم الخاطب الثانى بخطبة الأول ، فلا حرج فى أن يتقدم لخطبتها .

وقال المالكية : إن كان الخاطب الأول فاسقًا يجوز للرجل الصالح أن يخطب على خطبته؛ لتخليصها من الوقوع فى حباله، ولأن الفاسق لا حرمة له .

والأحاديث السابقة إنما تحرم خطبة المؤمن على خطبة أخيه المؤمن ،ولا يحرم خطبة المؤمن على الفاسق كما هو الظاهر .

هذا ، وإذا خطب المؤمن على خطبة أخيه وعقد عليها صح العقد مع ارتكاب الإثم عند جمهور العلماء ؛ لأن الخطبة ليست عقداً ، بل هى مجرد وعد من المخطوبة أو من وليها .

* * *

وقوله ﷺ فى وصيته هذه : « وكونوا عباد الله إخوانًا » تعليل لما تقدم أو كالتعليل له ؛ إذ فيه إشارة إلى أنهم إذا تركوا التحاسد والتناجش ، والتباغض والتدابر ، وبيع بعضهم على بيع بعض -كانوا إخوانًا .

وفيه أمر باكتساب ما يصير المسلمون به إخوانًا على الإطلاق ،وذلك يدخل فيه أداء حقوق المسلم على المسلم من رد السلام ، وتشميت العاطس ، وعيادة المريض ، وتشييع الجنازة ، وإجابة الدعوة ، والابتداء بالسلام عند اللقاء ، والنصح بالغيب .

والأخوة منحة من الله لعباده لا يستطيع أن يحصلها أحد بنفسه ولكن يستطيع أن يتعاطى أسبابها ويسأل الله تحقيقها .

والرسول ﷺ فى قوله : « وكونوا عباد الله إخوانًا » إنما يرشد إلى الأخذ فى أسباب الأخوة لا فى تحصيلها بأنفسهم ، فهم إنما يؤمرون بالحرص على بقائها إن منَّ الله عليهم بها ، قال تعالى : ﴿ وألَّفَ بين قلوبهم لو أنفقتَ ما فى الأرض جميعًا ما ألَّفتَ بين قلوبهم ولكنَّ الله ألَّفَ بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (١) .

---

(١) الأنفال : ٦٣ .

فالقلوب بين يدى الله عز وجل يتصرف فيها كيف يشاء ، فإن شاء جمعها على الحب وإن شاء فرقها ، فإن جمعهم جمعهم على الإيمان فكانوا كياناً واحداً وجسداً واحداً، وذلك لا يكون إلا بفضل من الله تبارك وتعالى .

وبفضل الله العظيم توحدت قلوب المسلمين بعد الهجرة النبوية،واجتمعت على الولاء لله ولرسوله ، فكانت أخوتهم مضرب الأمثال وآية من آيات الله فى خلقه ، وهو الأمر الذى لا تستطيع قوة بشرية أن تحققه فى أى مجتمع إنسانى على تلك الصورة .

* * *

وانطلق النبى ﷺ فى تقعيد قواعد الأخوة ، وبيان موجباتها وثمراتها فقال : « المسلم أخو المسلم » ، وفصَّل هذا بقوله : « لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه ، ولا يحقره » .

وهذا بيان لقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوةٌ فأصلحوا بين أخوَيْكم واتقوا الله لعلكم ترُحمون ﴾ (١) .

فمن الإصلاح أن لا يظلم المؤمن أخاه فى حق من حقوقه فإن وقع فى شىء من ذلك رد إليه مظلمته أو استبرأه منها ، واعتذر إليه بما يقنعه ويرضيه .

وإن رأى ظلماً قد وقع عليه أو وقع منه على غيره أعانه على دفع الظلم عنه وخلَّصه من ظلمه للآخرين ، فإن ظلم المرء لغيره ظلم لنفسه أولاً .

قال رسول الله ﷺ : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلوماً ، قالوا : يا رسول الله أنصره مظلوماً ، فكيف أنصره ظالمًا ؟ ، قال : تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه » (٢) .

وإن وقع المسلم فى مأزق أو اعتدى عليه معتدٍ فلا يخذله أخوه فى الإسلام أى لا يمتنع عن معونته ، بل يدافع عنه ما استطاع ويدفع عنه الشر ما أمكن .

---

(١) الحجرات : ١٠ .

(٢) أخرجه البخارى بمعناه من حديث أنس ، وأخرجه مسلم بمعناه من حديث جابر .

وإن لم يجد ما يعينه به واساه بكلمات يصبره بها ،ويقوى عزمه على تحمل ما أصابه ومواجهة ما ألَمَّ به بصدر رحب وقلب مطمئن ؛ فإن فى المواساة عزاء يخفف الآلام ويرفع من الروح المعنوية ويذكّر بالله ، فربما إذا خفَّت آلامه وقويت عزيمته وصح توكله استطاع أن يجد الحلول المناسبة لمشكلاته كلها أو لأكثرها ، فإن المرء إذا اشتدت عليه المحنة أخبلت تفكيره أو شتته ، وأعمته عن وجوه الخير وإن كانت تحت عينيه ، وقد يرى المشكلة الصغيرة كبيرة تستعصى على الحل فيدب فى قلبه اليأس والوهن فيعجـز عن حلها ، مع أن حلها قد يكون أقرب إليه من حبل الوريد ٠

* * *

والمؤمن لا يَكْذب المؤمن ولا يُكذِّبه ، فليس الكذب من الإيمان فى شىء ٠ والكذب لا يأتى بخير ، فالكذَّاب ملعون ؛ لأنه يقرب البعيد ويدنى القريب ، وينسب الأشياء لغير أصحابها ، ويحقر العظيم ويعظم الحقير ، ولا تقـف منه على خبر صحيح ولا على قول صريح ، ولو صحبته ما لقيت منه إلا ما يلقاه الإنسان من الشيطان ٠

* * *

ومن شأن المؤمن أن يوقر أخاه ، ويقدره قدره ، وينزله منزلته اللائقة به ، ولا يحقر من شأنه فى نفسه ولا يبخسه حقه فى السر ولا فى العلانية ٠

فإن كان أخوك المؤمن أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، أوكانت ثقافته محدودة وكنت على درجة عالية من الثقافة والفهم فلا ينبغى أن تتعالى عليه أو تتجاهله بسبب جهله ، فذاك هو الكبر بعينه ، فالكبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس – كما جاء فى الحديث الصحيح ٠

وبطر الحق : إنكاره وطمس معالمه ٠

وغمط الناس : احتقارهم والسخرية منهم والاستهزاء بهم بالعبارة أو بالإشارة ٠

فقد قال الله عز وجل ﴿ يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفى الصدور ﴾ [١] ٠

---

(١) غافر : ١٩ ٠

ولهذا قال النبى ﷺ : « التقوى ها هنا - وأشار إلى صدره ثلاث مرات - ثم قال : بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » يعنى يكفيه ما حصله من الشر بسبب تحقيره لأخيه وتنقيصه من شأنه ، فاحتقار المسلم لأخيه المسلم ليس من التقوى .

قالت عائشة - رضى الله عنها - : « لله درُّ التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء » .

ثم ختم النبى ﷺ هذه الوصية بقوله : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » .

وهذا القول من جوامع كلمه ﷺ فقوله : « كل المسلم » معناه هو وما يتعلق به يحرم على غيره أن يناله بسوء أو يتناوله من غير حله ، فهو معصوم الدم والعرض والمال ما بقى على الإيمان .

وهذا القول كان يكرره الرسول ﷺ دائمًا فى خطبه ليتذكر المؤمنون أنهم فى رعاية الله وأمنه ، وليرتدع كل من تحدثه نفسه بإيذاء المسلم بلسانه أو بيده .

قال فى حجة الوداع : « إن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

لقد كان الرسول ﷺ يبالغ فى التحذير من أذى المسلم بأى نوع من أنواع الأذى .

ففى سنن أبى داود عن بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - أنهم كانوا يسيرون مع النبى ﷺ - فقام رجل منهم ، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذها ففزع ، فقال النبى ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً » .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ؛ فإن ذلك يحزنه » ولفظه لمسلم .

وأخرج الإمام أحمد من حديث ثوبان عن النبى ﷺ قال : « لا تؤذوا عباد

الله ، ولا تعيِّروهم ، ولاتطلبوا عوراتهم ، فإن من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته » .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه سئل عن الغيبة فقال : « ذكرك أخاك بمايكره ، قال : أرأيت إن كان فيه ما أقول ؟ ، فقال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » .

وهذه الأحاديث وما فى معناها تفسير وبيان لقوله تعالى : ﴿ والذين يُؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بُهتانًا وإثمًا مبينًا ﴾ (١) .

والمؤمن من شأنه أن يكون مرآة أخيه يبصره بعيوبه ،ويميطها عنه إن استطاع ، قال رسول الله ﷺ : « المؤمن مرآة المؤمن ، المؤمن أخو المؤمن ، يكف عنه ضيعته ، ويحوطه من ورائه » (٢) .

وقال ﷺ : « إن أحدكم مرآة أخيه ، فمن رأى به أذى فليمطه عنه » (٣) .

قال رجل لعمر بن عبد العزيز : « اجعل كبير المسلمين عندك أبًا ، وصغيرهم ابنًا ، وأوسطهم أخًا ، فأى أولئك تحب أن تسىء إليه ؟ » .

وقال يحيى بن معاذ الرازى : « ليكن حظ المؤمن منك ثلاثة : إن لم تنفعه فلا تضرّه، وإن لم تفرحه فلا تغمه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه » .

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق .

* * *

---

(١) الأحزاب : ٥٨ .

(٢) رواه أبو داود عن أبى هريرة .

(٣) رواه الترمذى

(١٣) ازهدْ فى الدُّنْيا يُحبَّك اللهُ

عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنه - قال : « جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : يا رسولَ الله دُلَّنى على عمل إذا عَمِلْتُه أحبَّنى اللهُ وأحبَّنى الناسُ ، فقال : ازهدْ فى الدُّنْيَا يُحبَّك اللهُ ، وازهدْ فيما عند الناس يُحبَّكَ الناسُ » (١) .

* * *

هذا الحديث يعده العلماء أصلاً من أصول الدين ، وفلكًا من أفلاكه التى يدور عليه ، ويعتبرونه ركيزة من ركائز الإيمان القوى واليقين الصادق ؛ لأنه حديث جامع لكل ما ينبغى على المسلم أن يتحراه فى طَلَب الدنيا وابتغاء الآخرة على النحو الذى يرضاه الله عز وجل ، فهو من جوامع كلمه ﷺ .

ولقد كان أصحاب النبى ﷺ من أشد الناس حرصًا على معرفة ما يقربهم إلى الله تعالى ، وينجيهم من عذابه ، ويدفع عنهم معرة الدنيا ومذلة الآخرة .

فهذا هو سهل بن سعد رضي الله عنه – وهو من آخر الصحابة موتاً ، على ما قيل – يخبر أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ جاء يسأله عن عمل إذا عمله أحبه الله ، وأحبه الناس ، فيأمره الرسول ﷺ بالزهد فى الدنيا ،والزهد فيما فى أيدى الناس .

وسؤال الرجل يدل على رجاحة عقله ، واتساع مداركه ، وحسن خلقه ، وعظيم حبه لله ، وحبه لبنى جنسه ، بدليل أنه سأل عما يجلب له حب الناس بعد أن سأله عما يقربه من الله ويرفع منزلته عنده . فهو رجل يحب الناس ويسعى إلى ما يجعلهم يحبونه ، لعلمه أن الله – عز وجل – يحب من أحبه عباده ، وأن العباد لا يحبون إلا من أطاع الله فيهم ، وتعاون معهم على البر والتقوى ؛ لذا كان حريصاً على أن يدله الرسول ﷺ على أفضل الأعمال التى

---

(١) حديث حسن ، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة وفيه خالد بن عمرو القرشى الأموى تكلم فيه العلماء ، فانظر ماذا قالوا فيه فى « جامع العلوم والحكم » ص ٣٦٢ ولكن رواه آخرون بطرق حسنة ، وانظر ما قاله ابن حجر الهيثمى فى « الفتح المبين » صـ ٢٣٦ .

تحقق له هذا المقصد النبيل ، فيفوز بحب الله وحب الناس من أيسر طريق .
فيجيبه النبي ﷺ بإجابة شافية كافية ، تحفظ ولا تنسى ، يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل بوصفها حكمة من أعظم الحكم وأقومها فى صلاح الدين والدنيا .

* * *

فقوله ﷺ : « ازهد فى الدنيا يحبك الله » أى خذ منها قدر كفايتك ، وارض بما قسم الله لك ، واقتصر على الحلال الطيب ، ولا تحزن على ما فاتك منها ، ولا تفرح كثيراً بما أتاك من حطامها .

فالزهد هو طلب الزهيد من الدنيا ، والزهيد هو الشىء القليل الذى يُعْرِضُ الناس عنه احتقاراً له ، إما لقلته وإما لدناءته وخسته ، هذا هو التعريف اللغوى للزهد ومنه يفهم التعريف الشرعى الذى ذكرناه بالمعنى .

وقد ذكر العلماء للزهد تعريفات ، كل تعريف منها يمثل وجهة نظر صاحبه فيها .

(أ) فمنهم من قال : هو أخذ قدر الضرورة من الحلال المتيقن حله .

(ب) ومنهم من قال : هو ترك الحرام ، والاقتصار على الحلال الخالص .

(جـ) ومنهم من قال : هو ترك المتشابهات خوفاً من الوقوع فى المحرمات .

(د) ومنهم من قال :هو ترك ما لا بأس فيه خوفاً من الوقوع فيما فيه بأس.

والزهد فى الحقيقة أنواع ، والناس فيه على أربع درجات ، وهى التى عرفت عند الإمام الغزالى وغيره بدرجات الورع .

الدرجة الأولى : درجة العدول . وهم الذين يكتفون بالحلال الخالص ، ويتركون الحرام قليله وكثيره ، ويسمى هذا النوع من الزهد بزهد العدول . فهم لا يحرمون أنفسهم من التمتع بالحلال الطيب قلَّ أو كثر ، فينفق كل واحد منهم على نفسه وعلى عياله بقدر وسعه ، فيلبس أحسن الثياب ، ويأكل أشهى الطعام ، ويسكن فى أوسع البيوت إن تيسر له ذلك ما دام حلالاً . بناءً على ما جاء فى الكتاب والسنة .

أما الكتاب فقوله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ قل من حرَّم زينةَ الله التى أخرجَ لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة كذلك نُفصِّلُ الآيات لقوم يعلمون قل إنما حرم ربى الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن والإثمَ والبغىَ بغير الحق وأن تُشركوا بالله ما لم يُنزِّل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾(١) .

وأما السنة فمنها ما رواه النسائى عن أبى الأحوص عن أبيه قال : دخلت على النبى ﷺ فرآنى سيئ الهيئة فقال : « ألك من شىء ؟ » قلت : نعم ، من كل المال قد آتانى الله تعالى ، فقال : « إذا كان لك مال فليُرَ عليك » أى : فليُرَ عليك أثرُهُ من التجمل بالثياب وغيرها مما يحل للرجال أن يتجملوا به .

وروى الحاكم والترمذى عن ابن عمرو أن النبى ﷺ قال : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وروى مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ، ونعله حسنة ؟ ، قال : « إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بَطَرُ الحق ، وغَمْطُ الناس » .

الدرجة الثانية من درجات الزهد : هى زهد الصالحين ، وهم الذين يتركون المتشابهات استبراءً لدينهم وأعراضهم ، فهم أرقى من العدول مقامًا عند الله وعند الناس .

فهم يعملون بنصح رسول الله ﷺ فى قوله : « فمن اتقَ الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه »(٢) .

الدرجة الثالثة : درجة المتقين ، وهم الذين يتركون الجائزات إن خافوا أن تؤدى بهم إلى ارتكاب المحرمات أو الشبهات .

قال رسول الله ﷺ : « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس »(٣) .

---

(١) الأعراف : ٣٢ - ٣٣ .

(٢) الحديث بتمامه أخرجه البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير .

(٣) رواه ابن ماجه .

وروى أن أبا بكر - رضى الله عنه - قال : « كنا نترك سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع فى باب واحد من الحرام » ، أى : كنا ولا زلنا .

الدرجة الرابعة : درجة الصديقين ، وهم الذين يكتفون من دنياهم بما يسد الرمق ، ويستر العورة ، ويجعلون الآخرة مبلغ همهم ، ومنتهى بغيتهم ، والزهد بمعنى الاقتصار على القدر الضرورى من الحلال الطيب مستحب وليس بواجب .

والزهد بمعنى ترك الحرام والاقتصار على الحلال واجب من أعظم الواجبات .

والزهد بمعنى ترك المتشابهات قريب من الواجب وليس بواجب إلا عند الخوف الشديد من أن يؤدى الوقوع فيه إلى الوقوع فى المحرم ، فعندئذٍ يكون بمنزلة الواجب .

وقد قسم الغزالى فى كتاب الإحياء المتشابه إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ماكان إلى الحل أقرب ، وهو مباح وتركه أولى .

والثانى : ما كان إلى الحرمة أقرب ، وهو مكروه فعله ، وتشتد الكراهة كلما اشتد قربه من الحرام .

الثالث : ما كان وسطًا بين الحل والتحريم بحيث لم يكن هناك دليل يرجح أحدهما على الآخر ، فهذا مباح مكروه [1] ، وإن كان التوقف فيه أولى .

والزاهد يأخذ بالأحوط دائمًا ، ولا يأخذ بالأيسر إلا عند الضرورة .

وأما الزهد بمعنى ترك الجائزات خوفًا من الوقوع فى المحرمات فهو مباح وليس بمستحب إلا عند العارفين - وهم المتقون - كما سبق بيانه .

وأما الزهد بمعنى الاكتفاء بما يسد الرمق ، ويستر العورة فهو مقام الخواص ، لا يجوز لنا أن نحاكيهم فيه لعدم قدرتنا على ذلك ، لكن علينا أن ندرب أنفسنا على التقشف والقناعة بالقليل حتى نسلك الطريق إلى الله - تعالى -

---

(١) أى مباح من جهة ومكروه من جهة .

فننتقل من مقام إلى مقام أرقى منه ، لعلنا نتخذ إلى الله سبيلاً ، فنصل إلى مرتبة المحبين المقربين بتوفيق الله تعالى .

* * *

وقد أوصى النبى ﷺ بالزهد فى الدنيا ورتب عليه محبة الله – عز وجل – لأن القرآن الكريم قد رغب فيه ، وحض عليه ، ورتب عليه من درجات القرب والحب ما يفرح به المؤمنون فى الدنيا والآخرة ، فكانت هذه الوصية النبوية بياناً لما جاء فى القرآن على أبلغ وجهٍ وأكمله .

قال تعالى : ﴿ بل تؤثِرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ [١] .

وقال جل شأنه : ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ [٢] .

ومعنى نهى النفس عن الهوى نهاها عما تشتهيه من حطام الدنيا والشهوات العاجلة التى تُلْهى عن ذكر الله عز وجل .

وقال سبحانه معاتبًا المؤمنين فى شأن طلب الفداء من أسرى بدر : ﴿ تريدون عَرَضَ الدنيا والله يُريدُ الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتابٌ من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ [٣] .

وقال تعالى فى قصة قارون : ﴿ فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثلَ ما أوتى قارونُ إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن وعَمِلَ صالحًا ولا يُلقَّاها إلا الصابرون ﴾ [٤] .

وقال فى آخر قصته : ﴿ تلك الدارُ الآخرةُ نجعلها للذين لا يريدون عُلُواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبةُ للمتقين ﴾ [٥] .

وقال جل شأنه : ﴿ قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرة خيرٌ لمن اتقى ولا تُظلمون فتيلاً ﴾ [٦] .

---

(١) الأعلى : ١٦ – ١٧ .
(٢) النازعات : ٣٧ – ٤١ .
(٣) الأنفال : ٦٧ – ٦٨ .
(٤) القصص : ٨٠ .
(٥) القصص : ٨٣ .
(٦) النساء : ٧٧ .

وقال تعالى : ﴿ وفَرِحُوا بالحياة الدنيا وما الحياةُ الدنيا فى الآخرة إلا متاعٌ ﴾ (١) .

وقال تعالى مخبراً عن مؤمن آل فرعون : ﴿ يا قومِ اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ وإن الآخرة هى دارُ القَرار ﴾ (٢) .

والأحاديث فى ذم الدنيا وحقارتها عند الله عز وجل كثيرة جداً فمنها :

ما جاء فى صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ مر بالسوق والناس كنفيه (٣) فمر بجدى أسك - أى صغير الأذنين - ميت ، فتناوله فأخذ بأذنه فقال : « أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ » فقالوا : ما نحب أنه لنا بشىء ، ما نصنع به ؟ ، قال : « أتحبون أنه لكم ؟ - أى مجاناً - » قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت ؟ ، فقال : « والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » .

وفيه أيضاً عن المستورد الفهرى عن النبي ﷺ : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليمّ فلينظر بماذا يرجع » .

وأخرج الترمذى بسند صحيح عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » .

وقد كثر كلام الزاهدين من السلف والخلفِ فى تهوين شأن الدنيا فهى كما قيل : كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر .

أو هى كراحل استظل تحت شجرة ثم تركها وانصرف .

والناس فيها غرباء يعبرونها سريعاً حتى يُخَيَّل لأحدهم بعد موته أنه ما لبث فيها وقتاً يذكر .

﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عددَ سنين قالوا لَبِثْنا يوماً أو بعضَ يوم فاسأل العادِّين قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ (٤) .

---

(١) الرعد : ٢٦ .
(٢) غافر : ٣٨ - ٣٩ .
(٣) أى عن يمينه وشماله .
(٤) المؤمنون : ١١٢ - ١١٤ .

وما أحسن قول الحسن البصرى : (ما من يوم يُصبح العباد فيه إلا ويقول أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد ، فاغتنمنى فإنى لا أعود إليك إلى يوم الوعيد) .

وما أحسن قول الشافعى فى الحث على هجران الدنيا بالقلب وترك حطامها والاشتغال بما يقرِّبُ إلى الله وينفع في الدار الآخرة .

قال رحمه الله :

ومن يذق الدنيا فإنى طعمتها ... وسيق إلينا عذبُها وعذابُها

فلم أرها إلا غروراً وباطلاً ... كما لاح فى ظهر الفلاة سرابُها

وما هى إلا جيفةٌ مستحيلة ... عليها كلاب هَمُّهُنَّ اجتذابُها

فإن تَجْتَنِبْهَا كنتَ سِلْماً لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتْك كلابُها

فدع عنك فضلات الأمور فإنها ... حرام على نفس التَقىِّ ارتكابُها

وقال آخر :

هى الدنيا تقول بملء فِيْها ... حذارِ حذار من بطشى وفتكى

ولا يَغْرُرْكُمُ منى ابتسام ... فقولى مضحكٌ والفعل مُبكى

فمن محاسن العاقل ألا يغتر بمحاسن الدنيا ؛ فإنها ساحرة تزين ظاهرها بمحاسنها وتخفى قبائحها ومساويها فى باطنها ليغتَر الجاهل بما يرى من ظاهرها ، ومثلها كمثل عجوز قبيحة المنظر تخفى وجهها وتلبس أحسن الثياب وتتزين وتتجمل ليفتتن الخلق بها ، فإذا كشفوا عنها غطاءها عرفوا حقيقتها وندموا على النظر إليها والاغترار بها .

والعمر هو رأس مال المرء فإن ضيعه فقد ضيع كل شىء ، وهو الوحيد الذى لا عوض عنه ولا إدراك لما فات منه .

وَمَا لا بد أن يأتى قريبٌ ... ولكنَّ الذى يَمْضى بَعِيدُ

ولستُ أَرَى السعادةَ جمعَ مالٍ ... ولكن التقىَّ هو السعيدُ

وتقــوى الله خيـــر الزاد زخرًا وعنــد اللهِ للأتقـــى مزيدُ

* * *

والدنيا تحمد وتذم ، ولكن متي تحمد ؟ ومتى تذم ؟ ، والجواب عن هذا السؤال سهلٌ ميسورٌ ، فهى تحمَدُ بوصفها مزرعةً للآخرة ، فإذا ما وُفِّق المسلمُ لاغتنَامِهَا فى العبادة والعمل الصالح فدنياهُ محمودة ، ومَنْ كان فيها لاهيًا لاعبًا غافلاً عن ذكر الله تعالى مقصرًا فى طاعته فدنياه مذمومةٌ غايةَ الذّم ، حقيرةٌ غايةً فى الحقارة ، فلكل امرئ دنيا يعيشها ، وخير الناسِ مَنْ طالَ عمُره وحَسُنَ عملُه، وشرُّ الناسِ مَنْ طال عمُره وساء فعلُه » [1] كما قال ﷺ .

وعلى المسلم أن يَتَعَرَّفَ على دُنْيَاهُ كما يَتَعَرَّف على أُخْرَاه ، فلا يقطع صلته بالحياة بحجة أن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة ؛ لأن هذا يخالف المنهج الذى وضعه الله لعباده فى كتابه العزيز فى قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ [2] .

وفى قوله جل وعلا : ﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجدْ فى الأرض مُرَاغمًا كثيراً وَسَعةً ﴾ [3] ، وغير ذلك من الآيات التى تدعو إلى العمل وتحث على طلب الرزق بالطرق المشروعة .

وقد وضع الله للدنيا والآخرة منهجًا متكافلاً فيما حكاه عن قوم موسى فى نصحهم لقارون ، وهو منهجٌ يقوم على خمسةِ مبادئ .

قال تعالى : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفَرِحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أَحسنَ الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحبُ المفسدين ﴾ [1] .

---

(١) رواه أحمد والحاكم وصححه ، وأخرجه الترمذي أيضاً ، وانظر تخريجه فى كشف الخفا للعجلونى ج ١ صـ ٤٦٢ .

(٢) الملك : ١٥ .

(٣) النساء : ١٠٠ .

والفَرِحُ هو الفخور بماله ،وجاهه ، ومنصبه ، وعلمه ، وعمله ، وصحته ، وما إلى ذلك من النِّعَم .

قال الشـيخ محمد الغـزالى - رحمه الله - فى كتـابه علل وأدوية (٢) : (التعريف بالآخرة حق ، وهو شيء غير التجهيل فى الدنيا ، كما تحدث إنسانًا عن مستقبله وضرورة الإعداد له ولا يعنى ذلك بداهة لفته عن حاضره وصرفه عن مواجهته .

لكن بعض المربين والدعاة تغيب عنه هذه الحقيقة فيُسيئ أكثر مما يحسن ، ويترك فى النفوس انطباعاً بأن الدين عدو الدنيا ، وأن أحداً لا يبلغ حقيقة التقوى إلا إذا عاش وهو يعانى كآبة المنظر فى الأهل والمال ، أو إلا إذا عاش وهو جاهل بحقائق الحياة وقوانين المادة وسنن الله فى كونه .

واختلال الميزان العقلى فى هذه النظرة السيئة أنشأ أجيالاً من المسلمين لا تفقه ديناً ولا تملك دنيا ، بل لعله من أهم الأسباب فى التخلف الضارى الذى أهان المسلمين فى المشارق والمغارب .

نحن لا ننكر أن الدين أطال الحديث عن الدار الآخرة ، وبث فى النفوس الأشواق إلى نعيم الجنة كما بث فيها المخاوف من عذاب النار ، لكن هذا الإسهاب فى الوعد والوعيد هو لتهذيب الغرائز وكبح جماحها ، ومنع طغيان العاجلة على الآجلة ، وإخراج المرء من القوقعة الأرضية التى يحتبس داخلها غالباً، وفتح بصيرته على آفاقٍ أوسع وحياة أخلد .

أما القصور فى فهم الدنيا ، والغربة على سطح الأرض ، والعجز عن امتلاك زمام الحياة ، فهذا كله لا يدل على تقوى ، بل يدل على طفولة فكرية يضاربها الدين وتنكس بها ألويته وتتقهقر بها تعاليمه .

وليت شعرى ماذا يفيد الإسلام من رجـل مكن الله له فى الأرض فلم يتمكن ، أو جعلها له ذلولاً ليركبها ويبلغ بها غايته ، فإذا هى تجمح به ، وتسقطه من فوق ظهرها وإذا هو طريح الثرى والعجز ؟!

---

(١) القصص : ٧٦ - ٧٧ .   (٢) صـ٢٢٩ .

وما العمل إذا استطاع ملاحدة ومخرفون امتلاك أسرار الحياة ، ثم طوعوا ما يملكون لدعم كفرهم وتغليب أهوائهم ؟ . . .

ثم قال – رحمه الله – : والتعريف بالآخرة ليس تجهيلاً بالدنيا أو صرفاً عنها كما يتصور البعض ، فربما أوجب عليك الإسلام أن يكون لك مال قارون ، على ألا يكون لك كبره أو شحه أو فساده .

إن الصعلكة لا تقيم جهازاً ولا تبنى جامعة للمعرفة ، إنما ينشئ ذلك كله كثرة لا تلهى ، وسعة لا تطغى ، ودنيا يسخرها مالكها لخدمة الدين .

إن هذا لهو الفهم الصحيح للدنيا وللزهد فيها ، وكيفية التزام المنهج السليم فى الموازنة بينها وبين الآخرة ، وهذا هو الفهم الصحيح لقوله تعالى : ﴿ وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ﴾[1] .

إن الزهد فى الدنيا لا ينافى طلب المعالى إذا كان فى طلبها عزةُ الإسلامِ والمسلمين) .

إن يوسف عليه السلام قال للملِك – كما حكى القرآن الكريم عنه – : ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾[2] ولم يخش على نفسه من غوائل الُمْلك وأثقاله ومُغريَاته ، ولم يُنْسه الُمْلك بعد أن آل إليه طلبَ الآخرة والسعى إليها ، بل كان ملَكًا متواضعاً محسَناً إلى الأقربين وغيرهم ، يؤدى ما افترضَ الله عليه ، ويدعو إلى الله على بصيرة مع القيام بأعباء الُمْلك وشئون الرعية ، ولم ينس فى ظل هذا الُمْلك أن يضرعَ إلى الله تعالى بأن يَتَوَفَّاهُ على الإسلام ويدخله فى عباده الصالحين : ﴿ ربِّ قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطرَ السماوات والأرض أنت وليّى فى الدنيا والآخرة تَوَفَّنِى مسلماً وأَلحقنى بالصالحين ﴾[3] .

عرفنا معنى قوله ﷺ : « ازهد فى الدنيا » ومعذرة إن كنا قد أطَلنا الكلامَ فى ذلك ، ونريد أن نعرفَ فى عُجَالَة معنى : « يُحبَّك الله » فنقول :

---

(١) القصص : ٧٧ . (٢) يوسف : ٥٥ . (٣) يوسف : ١٠١ .

حبُّ الله عز وجل معناه المناسبُ لذاته العَلِيَّة هو : توفيقُهُ للعبد الذى يحبُّه إلى ما يحبُّه ويرضاه .

وليس هناك نعمة أعظمَ من نعمة التوفيق إلى الإيمان والعمل الصالح ، والفهم الصائب فى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، وهو أمل الأنبياء والمرسلين .

ولقد جاء على لسان شعيب - عليه السلام - وهو خطيبُ العرب وأفصَحُهُم لسانًا قوله كما حكى القرآن عنه : ﴿ إن أُريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيبُ ﴾ (١) .

ونلحظ فى هذه الآية أن التوفيق مشروط بثلاثة شروط :

الأول : إرادة الإصلاح وهى : النيةُ الصادقة بإخلاص العمل لله ، وهى : المدار الذى تترتب عليه صحة الأعمال وقبولها .

والثانى : التوكُّل على الله ، وهو ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان ، ومعناه : الاعتمادُ على الله والثقةُ بفضله مع مباشرة الأسباب .

والثالث : الإنابة إلى الله تعالى ، وهى : التوبة النصوح ، والرجوع إلى الله بالقلب ، وحُسْنُ العمل ، والاطمئنان إلى قبول التوبة بنورٍ يحصُلُ للتائبين يعرفون به أن الله قد تقبلهم وتقَبَّل منهم .

والكلامُ فى حبِّ الله يطُول ، وهو يسبقُ حبَّ العبد ، فإذا أحبَّ الله عبداً رزقه حُبَّه ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يَرْتَدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه ﴾ (٢) .

وكذلك الرضا فإذا رضى عنهم أرضاهم قال تعالى : ﴿ رضىَ الله عنهم ورَضُوا عنه ﴾ (٣) .

* * *

ونقف هنا وقفةً أمام الوصية الثانية فى هذا الحديث وهى قوله ﷺ : « وازهد فيما فى أيدى الناس يحبّك الناس » فنقول : إنها دعوةُ إلى التَّعَفُّف ،

---

(١) هود : ٨٨ . (٢) المائدة : ٥٤ . (٣) البينة : ٨ .

وهو أعظمُ صفةٍ أثنى الله بها على عباده ، ورسمها على وجوههم ، من رآها رأى فيها العزة فى أسمى معانيها ، ورأى فيها الرضا كل الرضا فى أبهى مظاهره ، قال تعالى فى مصارف الإنفاق : ﴿ للفقراء الذين أُحصِروا فى سبيل الله لايستطيعون ضربًا فى الأرض يحسبُهم الجاهلُ أغنياءَ من التعفف تعرفُهم بسيماهم لا يسألون الناسَ إلحافًا وما تنفقوا من خيرٍ فإن الله به عليم ﴾(١) .

فهم أغنياءُ من التعفف أى بسبب التعفف -فـ﴿ من ﴾ فى الآية سببية - مع أنهم فقراء . والغِنَى غنى النفس ، والقناعةُ كنزٌ لا يفنى .

والمرادُ بالجاهل : الجاهلُ بحالهم بسبب بعده عنهم أو بسبب تَرَفُّعِهِم عن إظهار فقرهم بأى حيلةٍ من الحيل .

وقد وصفهم الله عز وجل بأنهم لا يسألون الناسَ إلحافًا أى : لا يُلحُّونَ فى المسألة ، وهو تعريضٌ بغيرهم ممّن يفعلون ذلك ، فهم لا يسألون الناس شيئًا على الإطلاق لثقتهم بفضل الله ، ولعلمهم أن المسألة تنافى عزَّةَ المؤمنين ، أو تجرحُها جرحًا قد يتسع ويتسع حتى يتعوَّد السائلُ على المسألة فتصير ديدنه ، فتذهب بذلك مُرُوءَتُه وهى أعزُّ ما يملك ، إذ المروءة رأسُ الكرامة ، ولن تتحقق هذه الكرامة إلا بالاتجاه إلى الله وَحْدَه ، فمَن لم يتجه إليه وَكَلَهُ لغيره ، فيقع فى الذل والمهانة : ﴿ ومن يُهنِ اللهُ فما له من مُكرِمٍ إن الله يفعل ما يشاء ﴾(٢) .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ سيماهم فى وجوههم ﴾ سِيمَا الغِنَى وليست سيما الفقر كما يفهم بعض المفسرين ، فالمقام مقامُ مدحٍ - كما نَعلم - ولو ارتسمت سيما الفقر على وجوههم ما كان لتعففهم معنى ، فهذا كقوله تعالى فى سورة الفتح : ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾(٣) .

وهى سيما الإيمان وليست هى الأثر الذى يكون فى الوجه من تأثير الحصير ، أو من تأثير وضعه على الأرض الخشنة كما يقول بعضُ المفسرين .

وللتعفف عما فى أيدى الناسِ صورٌ كثيرةٌ منها :

التعفف عن مال اليتيم ، وإن كان لهم فيه حقُّ الخدمةِ والكفالةِ إذا كانوا فقراء .

---

(١) البقرة : ٢٧٣ . (٢) الحج : ١٨ . (٣) الفتح : ٢٩ .

قال تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رُشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافًا وبدَارًا أن يكبَروا ومن كان غنيًّا فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾(١) .

قال عمر - رضى الله عنه -: « إنى نزَّلتُ نفسى منزلة ولِىِّ اليتيم ، إن استغنى استَعْفَفَ ، وإن افتقر أكل بالمعروف » .

والأكل بالمعروف معناه : إذا افتقر استدان من مال اليتيم فمتى أيسر وضعه مكانه .

هذا هو الصحيح الذى تطمئن إليه النفس ، ويليه فى الصحة قول من قال : يأخذُ منه بحق خدمته لهم بشرط أن يُقدِّرها له أهلُ الحَلِّ والعقدِ ، بحيث يُراعَى فى تَقْديرها مصلحةُ الطَّرفَين . والله أعلم .

ومِنْ مظاهر التَّعَفُّف عدم الاستدانة من الناس مالم تدعُ الضرورة المُلِحَّة لذلك ؛ فالدَّيْنُ هَمٌّ بالليل وذُلٌّ بالنهار .

وكان النبى يستعيذ فى آخر صلاته من المَغْرَمِ والمأثم .

والمغرم : هو الدَّينُ ، والمأثم : هو الذنب .

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما : عن عائشة رضى الله عنها : أن النبى ﷺ كان يدعو فى الصلاة : « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم » فقال له قائل : ما أكثرُ ما تستعيذُ من المغرم ؟ . فقال : « إن الرجل إذا غَرُمَ حَدَّث فكذب ، ووعد فأخلف » .

وقال أحد الحكماء - وقيل هو على بن أبى طالب - الدينُ هَمٌّ ولو درهمٌ ، والمرأةُ عارٌ ولو مريمُ - أى عِرْضٌ يجب المحافظة عليه ولو كانت فى العفة مثلَ مريم رضى الله عنها - .

ومِن مظاهر العفَّة التغاضى عما فى أيدى الناس من النِّعَم المادية حتى لا يتطرق الحسدُ إلى القلوب ، فيسلب منها القناعةَ والرضا ، فيتبدد نورُ الإيمان

(١) النساء : ٦ .

شيئًا فشيئًا بسبب الحسد حتى يتلاشى ؛ لأن الحسد والإيمان ضدّان لايجتمعان، فهو أول معصية وقعت فى الخليقة ، وهو السببُ الأوَّلُ فى كفر مَنْ كَفَرْ .

وقد تكلمنا عن الحسد فى موضع آخر عند الكلام على حديث : « لا تحاسدوا » .

واعلم أن الزُّهْدَ مما فى أيدى الناس نوعٌ من الكَرَم لا يعرفُهُ أكثرُ الناس لأن الكرم من الكَرَامة ، وما سُمِّىَ الكريم كريمًا إلاَّ لأنه يُعْطِى الناسَ وَيَتَنَزَّه عن أُعْطِيَاتِهِم ، فهوَ يُعْطِيهِم لله بمقتضى دينه وأَرْيَحِيَّته [١] ولاَ يسألُهُم فى مقابل ذلك شيئًا .

قال ابن المُقَفَّع : عَوِّد نفسك السَّخَاء ، واعلم أنهما سَخَاءَان – سَخَاوةُ نفس الرجل بما فى يديه ، وسخاوته عما فى أيدى الناس ، فمن بَذَلَ وعَفَّ فقد استكمل الجودَ والكَرَمَ .

* * *

والناس يُحِبُّونَ مَن يُعْطِيهم ولا يأخذُ منهم ، تلك جبلَّةٌ فيهم لا مَهْرب لهم منها – وإن حاولوا ذلك – فكَلمةُ خُذْ عندهم لها حَلاَوةٌ ، وعليها طَلاَوَةٌ ، ولها فى النفس رنين وحَنين .

أمَّا كلمة هات فبينهم وبينها عَدَاوة ، قد يستجيبُ لها المرءُ مرةً أو مرتين ثم لا يستجيب لها ولا يُرَحِّبُ بقائلها ، ويتمنى أن يفارقه فلا يعود إليه إلاَّ مَنْ عصَمَ اللهُ من هذا الشُّحِّ المطاع ، وهم قليل .

لو سُئِلَ الناسُ الترابَ لأَوْشَكُوا

إذا قيل هات أن يملوا ويمنعوا

إن الإنسانَ ليغضبُ إن سألته ، والله يغضب إن لم تسأله، فمَنْ تسأل إذًا؟.

يقول الله عز وجل : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ [٢] .

---

(١) الأريحية : الطبع والجِبلّة .

(٢) النساء : ٣٢ .

ويقول عز وجل : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أُجيبُ دعوة الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ (١) .

وما أحسنَ قول القائل :

لا تَسْأَلَنَّ بُنَىْ آدمَ حاجةً
وسلِ الذى أبوابُه لا تحُجَبُ

اللهُ يغضبُ إن تركتَ سُؤَالَهُ
وبُنَىْ آدم حين يُسْأل يَغْضَبُ

فإن لم تسأل الناس وابتعدت عن درهمهم ودينارهم أحبُّوك ، وإن أعطيتهم قَرَّبوك وعَظَّمُوك ، ورُبَّما بالغوا فى مدحك وإطرائك ، ورفعوك مكانًا عليًّا ، ونَسَوا أو تَنَاسَوا مَاضيكَ وحاضرَك ومَساوئك كلها ، وقبلوا منك ما لم يقبلوا من غيرك وصدقوك فى كل شىء ولو بألسنتهم مُحاباة ومُجَاملةً لك ، وطمعًا فى المزيد من رفدك .

هكذا الناس مع الأغنياء أهل الكرم والسخاء . وما أحسن قول شوقى رحمه الله :

إن الدراهمَ فى الأماكنِ كلِّها	تكسو الرجالَ مهابةً وجمالا
فهى اللسانُ لمن أراد فصاحةً	وهى السلاحُ لمن أراد قتالا
إن الغنىَّ إذا تكلمَ بالخطا	قالوا أصبتَ وصدقوا ما قالا
وإذا الفقيرُ أصاب قالوا كلُّهم	أخطأتَ يا هذا وقلت ضلالا

نعم قالوا كلهم – بقضهم وقضيضهم – وقاموا عليه قومة رجل واحد يقولون : أخطأت يا هذا ، ولم يقولوا : أخطأت يا فلان – باسمه – استكثروا عليه أن يكون له اسمًا فى الوجود .

---

(١) البقرة : ١٨٦

وما أحسنَ قول الآخر :

يُؤْذَى الفقيرُ وكلُّ شيءٍ ضِدُّهُ وَيَرى العَدَاوةَ لا يَرَى أسْبَابَها

وتَرَاهُ ممقُوتًا وليس بمُذنبٍ والناسُ تُغْلَقُ دونه أبوابَها

حتى الكلابُ إذا رأت ذا ثَرْوةٍ خَضَعَتْ إليهِ وَحَرَّكت أذنابَها

وإذا رأتْ يوماً فَقِيراً مَاشِياً نَبحَتْ عليه وكشَّرتْ أنْيابَهَا

وكان فى البادية أعرابىٌّ له مالٌ كثيرٌ ينفقُ منه ذاتَ اليمين وذات الشمال وكان الناس يأتون إليه أفواجًا صباح مساء ، وظل يجودُ عليهم بما رزقه الله حتى افتقر ومَرِض فلم يَعُدْهُ أحدٌ ، فأنشد قائلاً :

المالُ فى زمن الإقبالِ كالشجرة

النَّاسُ من حَوْلِها ما دامت الثَّمَرَة

فإن نضَّ عنها حملُها انصرفوا

وتركوها تؤاسى الحَرَّ والغَبَرَا

ومن هنا نشعر بقيمة هذه الوصية التى أوصى بها الرسولُ ﷺ كل مَنْ يريدُ أن يحبَّه الله وأن يحبَّه الناس .

ونحن لا نرى انفصالاً بين الزُّهد فى الدنيا والزهد فيما فى أيدى الناس ، فهما متلازمان .

ولا نرى انفكاكًا بين حب الله وحب الناس ، فمَنْ أحبه الله حبَّب فيه خلقه ، كما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه وغيره : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إنى أُحِبُّ فلاناً فأَحِبَّه فيحبّه جبريل ، ثم ينادى جبريلُ فى أهل السماء : إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه ، فيحبّه أهل السماء ، ثم يوضع له القَبُولُ فى الأرض » .

اللهم زهدنا فى الدنيا ، ورغبنا فى الآخرة يارب العالمين .

* * *

(١٤) إنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فلا تُضيِّعوها

عن أبى ثعلبة الخشنى « جرثوم بن ناشر » - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ ، قال : « إن اللهَ فرضَ فرائضَ فلا تُضيِّعُوها ، وحدَّ حُدودًا فلا تَعْتَدُوها ، وحَرَّمَ أشياءَ فلا تَنْتَهِكُوها ، وسَكَتَ عن أشياءَ رحمةً لكم من غيرِ نسيانٍ فلا تَبْحَثُوا عنها » (١) .

* * *

هذه الوصية وصية جامعة لأصول التشريع وفروعه ، وسماحة الإسلام ويسره ، ورفقه ورحمته بأتباعه ، فقد أمر النبي ﷺ فيه بامتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه ، والوقوف عند الحدود التى رسمها لعباده ، وحذرهم من التشدد فى الدين ، والتنطع فى تقرير الأحكام ، والتوغل فى البحث عن المسائل التى لا تعنيهم فى دينهم ولا فى دنياهم .

هذه هى النظرة العامة لهذه الوصية الجامعة ، وهى نظرة أولية تمهد لنظرات أخرى تشتمل على قضايا يطرحها أرباب النظر فى الفقه والأصول .

والرسول ﷺ يضع القواعد العامة التى يندرج تحتها من المسائل الجزئية ما لا ينحصر ، كما سنرى ذلك فى شرح الحديث وتحليله .

* * *

قوله ﷺ : « إنَّ اللهَ فَرَض فرائض فلا تُضَيِّعوها » يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسولُ فخذوه ﴾ (٢) أى ما ألزمكم به فالزموه ولا تهملوه .

والفرائض جمع فريضة ، والفريضة والفرض بمعنى واحد على الجملة ، والفرض يجمع على فروض .

ومعنى الفرض فى اللغة : القطع . يقال : فرضت الشىء قطعته .

---

(١) حديث حسن رواه الدارقطنى وغيره ، وانظر تخريجه والحكم عليه فى كتاب جامع العلوم والحكم ، حديث ٣٠ / ص ٣٤٨ .

(٢) الحشر : ٧ .

وأما معناه فى الشرع فهو ما أوجبه الله على المكلفين من عباده ، ووعدهم بالثواب على فعله ، وتوعدهم بالعقاب على تركه من غير ضرورة شرعية .

وتضييع الفرائض أو تضييع بعضها معناه : ترك القيام بها على النحو المشروع .

والفرائض كثيرة ، منها : الصلاة والصوم ، والزكاة والحج ، والجهاد فى سبيل الله ، وطلب العلم ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وبر الوالدين ، إلى غير ذلك .

وهذه الفرائض كلها تبنى على أصل أصول التوحيد ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ولكى يكون المسلم مؤديًا لهذه الفرائض ينبغى عليه أن يعرفها معرفة كافية ويعرف كيف تؤدى ، ومتى تؤدى ،وما الذى يجب لصحتها ، وما الذى يبطلها حتى يتلاشاه ، وغير ذلك مما يعينه على القيام بها على أكمل وجه بقدر طاقته البشرية .

وقد عرف المسلمون من رسول الله ﷺ هذه الفرائض ، وعرفوا شروط صحتها ،وكانوا يترقبون فرائض أخرى لم تفرض عليهم بعدُ ، ويجمعون أمرهم على تأديتها ، والقيام بها على النحو الذى يحبه ربهم ويرضاه .

ولقد كان الرسول ﷺ دقيقًا فى تعبيره حين قال : « إن الله فرض فرائض » بصيغة التنكير للدلالة على التعميم من جهة ، والإيحاء بزيادتها من جهة أخرى .

فتأمل ذلك واعلم أن الأحكام الشرعية كانت تتوالى حكماً بعد حكم حتى لقى الرسول ﷺ ربه ، فوقف التشريع عند ذلك وانقطع ، ولكن كان أصحاب النبى ﷺ والتابعون من بعدهم يتتبعون هذه الأحكام بالشرح والتحليل والتعليل ، ويقيسون الأشياء التى ليس لها حكم فى الشريعة على ما له حكم فيها لاشتراكها فى العلة عملاً بقوله تعالى : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ (١) .

---

(١) الحشر : ٢ .

والاعتبار معناه طلب العبور من شىء لا حكم له إلى شىء له حكم لاشتراكهما فى العلة كما قلنا .

وأولو الأبصار هم أصحاب البصائر النيرة ، والقلوب الزاهرة ، وهم أهل التأمل والنظر .

وبذلك استطاع العلماء أن يحكموا على أمور كثيرة جدَّت بأنها من الواجبات لاشتراكها فى العلة والحكمة والغاية مع الواجبات المعروفة من نصوص الكتاب والسنة .

ومن هنا نعلم أن الشريعة الإسلامية ذات نصوص مرنة ، تفيض بالحيوية واليسر ، تصلح للتطبيق فى كل زمان ومكان ، وأن هذه النصوص أصول ثابتة وقواعد كلية ترد إليها جميع الجزئيات التى استجدت ولا تزال تستجد حتى يأتى أمر الله .

فقوله – ﷺ – : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها » يعنى بها كل ما حكم الشرع عليه بالوجوب بمقتضى النص أو القياس .

* * *

أما قوله – ﷺ – : « وحد حدوداً فلا تَعتدوها » فهو تنبيه على أن لهذه الفرائض وغيرها من الأحكام التكليفية حدوداً ومعالم لابد من مراعاتها حتى لا يزيد الأمر على حده فينقلب إلى ضده .

فللفرائض حدود بينتها الشريعة الإسلامية ووضعت لها أسبابها وشروطها وموانعها ، فمن تجاوز الحد فيها فقد أساء وظلم ، وكان معتدياً على هذه الشريعة الغرَّاء .

فحد صلاة الظهر – مثلاً – أربع ركعات . فمن صلاها خمساً فقد أبطل عمله بتجاوزه الحد وصار مأزوراً لا مأجوراً .

وقد أمر الله بصوم شهر رمضان وحرم صوم يوم العيد، فمن صام شهر رمضان وأضاف إليه صوم يوم العيد – صح صوم الشهر وبطل صوم يوم العيد ، وأثم على صيامه .وهكذا قل فى سائر الفرائض .

وكذلك الحال فى المحرمات فإنها محصورة فى أمور معينة ، فمن حرم شيئًا أحله الله فقد اعتدى على شرع الله وأساء وظلم .

يقول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحَرِّموا طيباتِ ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحبُّ المعتدين ﴾ (١) .

ولكن ما معنى الحد فى اللغة والشرع ؟

أقول : الحد فى اللغة هو الفاصل بين شيئين ، ومعناه فى الشرع عقوبة مقدرة شرعًا تزجر عن المعاصى .

ومعناها أيضًا : المعالم التى يجب أن نقف عندها ولا نتجاوزها .

ومجاوزة الحد عدوان من ثلاث جهات ، فهى أولاً عدوان على الشرع كما سبق بيانه ، وعدوان على الناس كما فى قوله تعالى : ﴿ تلك حدودُ الله فلا تَعْتَدُوها ومن يَتَعَدَّ حدودَ الله فأولئك هم الظالمون ﴾ (٢) .

وعدوان على النفس كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ ولا تُمسِكوهن ضِراراً لتَعْتَدُوا ومن يفعلْ ذلك فقد ظلمَ نفسَه ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وتلك حدودُ الله ومن يَتَعَدَّ حدودَ الله فقد ظلمَ نفسَه ﴾ (٤) .

* * *

وقوله ﷺ : « وحرم أشياء فلا تنتهكوها » هذا هو النوع المقابل للفرائض ، فالمحرمات أمور محصورة منصوص عليها ، وهى قليلة جداً بالنسبة للمباحات ، لا يصعب على العادِّين عدُّها ولكنها مع قلتها شدد الله فى التحذير منها وسماها محرمات ، أى ممنوعات منعًا مشدداً ، وتسمى أيضًا محارم الله .

لهذا قال النبى ﷺ : « فلا تنتهكوها » أى فلا تقارفوها أو تلابسوها بل

---

(١) المائدة : ٨٧ . (٢) البقرة : ٢٢٩ .
(٣) البقرة : ٢٣١ . (٤) الطلاق : ١ .

ولا تحوموا حولها حتى لا تقعوا فيها ، فهى حمى الله الحصين ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « ألا وإن لك مَلِك حمى ألا وإن حمى الله محارمه » (١) .

ولهذه المحرَّمات مقدمات وشبهات ، فالورع من المسلمين هو الذى يجتنب الوقوع فى الشبهات خوفًا من الوقوع فى المحرمات ، بل أحيانًا يجتنب الوقوع فى بعض الجائزات إن خشى أن تؤدى به إلى الوقوع فى المحرمات .

فعن رسول الله ﷺ ، قال : « لا يبلغ العبد درجة المتقين ، حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس » (٢) .

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه قال : « كنا نترك سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع فى باب واحد من الحرام » .

* * *

أما قوله ﷺ : « وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » نصح وإرشاد لكل من يلح فى السؤال عما يعنيه وعما لا يعنيه ، ويورد على نفسه شبهات يضطر إلى السؤال عما يدفعها ، ثم يورد عليها شبهات أخرى فلا تندفع شبهة إلا وتحل محلها أخرى ، وفى ذلك إحراج له وإحراج لغيره من المسلمين ، ولا سيما إن كان الإلحاح فى السؤال والوحى ينزل ؛ فربما يحرَّم الشيءُ على المسلمين بسبب سؤاله ، فيكون بسؤاله هذا متسببًا فى التشديد عليه وعليهم .

قال رسول الله ﷺ : « إن أعظم المسلمين فى المسلمين جرمًا من سأل عن شىء لم يحرَّم فحُرِّم من أجل مسألته » (٣) .

وقال ﷺ : « هلك المتنطعون ، قالها ثلاثًا » (٤) والمتنطع هو المتعمق فى

---

(١) من حديث البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير .

(٢) رواه ابن ماجه .

(٣) رواه البخارى عن سعد بن أبى وقاص فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٣٢ - باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه .

(٤) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعًا .

البحث عما لا يعنيه ، أو عن الأشياء التى سكت الشارع عنها ، أو عن المتشابهات التى لا يعلمها إلا الله ، أو قد يعلمها الراسخون فى العلم دون غيرهم . أو هو الذى يسأل عن الأشياء التى لا يضره الجهل بها ، أو الذى يريد بسؤاله التشدد فى الدين ، ويعتبر التشدد فيه ورعاً وزهداً وهو ليس كذلك .

والمسكوت عنه فى الشرع هو ما لم يذكر له حكم بتحليل ولا إيجاب ولا تحريم ، فيكون معفواً عنه لا حرج على فاعله .

ويحتمل أن يكون النهى عن البحث فى هذه الأمور المسكوت عنها كان فى زمن الرسول ﷺ فقط ؛ لئلا يكون السؤال عن الشىء سبباً فى تحريمه ، ويحتمل أن يكون النهى عاماً ؛ لأن كثرة البحث والسؤال عن حكم ما لم يذكر فى الواجبات ولا فى المحرمات قد يوجب اعتقاد تحريمه أو إيجابه لمشابهته لبعض الواجبات أو المحرمات ؛ فقبول العافية فيه وترك البحث عنه والسؤال خير .

وقد بيّن الله لنا فى كتابه وعلى لسان رسوله - عليه الصلاة والسلام - ما أحلَّه لنا وما حرَّمه علينا ، فكان لنا فى ذلك غنى والحمد لله ، فلا ينبغى لأحد أن يتمسك بقول لا دليل له من الكتاب والسنة ، ولا أن يحمِّل النصوص أكثر مما تحتمل تكلفاً واعتسافاً ؛ فالدين محجة بيضاء ليلها كنهارها .

يقول رسول الله ﷺ : « الحلال ما أحل الله فى كتابه ،والحرام ما حرَّم الله فى كتابه ، وما سكت عنه فهو مما قد عفا عنه ، فلا تتكلفوا » [1] .

هذا ما وسعنى إملاؤه فى هذا الحديث الجامع لأصول الشريعة وفروعها وخصائصها ومميزاتها من يسر وسماحة وغير ذلك ، وسيأتى له مزيد بيان فى الحديث الذى بعده إن شاء الله والله . ولى التوفيق .

* * *

---

(١) رواه الترمذى والحاكم وابن ماجه عن سلمان الفارسى .

(١٥) قد فرضَ اللّٰهُ عليكمُ الحجَّ فحُجُّوا

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس : قد فَرَضَ اللّٰهُ عليكم الحَجَّ فحُجُّوا » .

فقال رجل : أفى كل عام يا رسول الله ؟ . فسكت حتى قالها ثلاثًا .

فقال رسولُ الله ﷺ : «لو قلتُ نعم لوجبت ولما استطعتم » ، ثم قال : « ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتُكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتُكم عن شىء فدعوه » [١] .

* * *

هذا الحديث درس من الدروس القيمة التى نتعلم منها الأدب مع الله – تبارك وتعالى – ومع رسوله ﷺ فنقف عند ماحده لنا فلا نتجاوزه ، ونلتزم بما أمرنا به ولا نعدوه ، ونجتنب ما نهانا عنه فلا نقربه ، فهو حديث يضع المؤمن على جادة الطريق المستقيم ، وينأى به عن محقِّرات الأمور وسفسافها ، ويحذره من التشدد فى الدين ، والسؤال عما عفا الله عنه ولم يقطع فيه بحل ولا بحرمة ، أو لم يحدد للناس فيه حدًّا ينتهون إليه ، ولا زمانًا ولا مكانًا لفعله أو تركه .

فما بيَّنه الله – عز وجل – فى كتابه ، أو بيّنه الرسول – ﷺ – بأقواله وأفعاله ينبغى علينا أن نقف عنده وأن نلزم الطاعة فيه ، ولا نتجاوزه إلى غيره ولا نزيد عليه ولا ننقص منه ، ولا نسأل عما سكت الله ورسوله عنه ، ولكننا نسأل عما غمض علينا فهمه أو احتجنا إلى تفصيل القول فيه على ما سيأتى بيانه قريبًا .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم ،كتاب الحج ، باب فرض الحج مرة فى العمر، حديث رقم (١٣٣٧) .

قوله ﷺ : « يا أيها الناس » خطاب يحمل فى طياته الكثير من اللطائف التى استنبطها أولو العلم والنُّهى .

منها : جلب انتباههم إلى ما سيلقيه عليهم من الأوامر والنواهى ، والنصائح والتوجيهات ، وتشويقهم إلى ذلك ؛ فإنهم كانوا يحبون أن يحدثهم الرسول - ﷺ - بما أوحاه الله إليه من العلم والحكمة ، والعظة والعبرة .

ولا يخفى ما يحمله هذا الخطاب إلى المخاطبين من حب نبوى يفيض بالحنان والرحمة ، ويشعرهم بمدى حرصه على ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ، ولذا كانوا إذا رأوه صعد المنبر سكتوا كأن على رءوسهم الطير ، واشرأبت أعناقهم إليه، وألقَوا إليه السمع والقلب معًا ، وحرص كل واحد منهم على حفظ ما يقول، وفهم ما يتضمنه قوله من المعانى والمقاصد ؛ ولهذا فتح الله عليهم فى القرآن والسنة فتحًا مبينًا ، فحفظوا لنا الوحى المنزل كتابًا وسنة ، ونقلوه إلينا كما سمعوه بأمانة ليس لها مثيل ، فكانوا مصابيح الهدى وأئمة البيان .

* * *

وقوله ﷺ : « قد فرض اللهُ عليكم الحَجَّ فحُجُّوا » أى أوجب عليكم الحج إلى بيته الحرام ، ومراده - ﷺ - بقوله : « عليكم » المستطيع منهم دون العاجز ، اعتماداً على قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ ولله على الناس حِجُّ البيتِ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ (١) .

والاستطاعة هى القدرة الصحية والمادية على تأديته ، وتوفر الأمن فى الذهاب والإياب ،وعدم وجود الموانع التى تحول بينه وبين تحقيق ذلك حسبما جاء فى كتب الفقه .

وقد فرض الحج فى السنة السادسة من الهجرة على الراجح من أقوال

---

(١) آل عمران : ٩٧ .

العلماء ، وقيل بل فرض فى السنة التاسعة ، وهذا الخلاف مبسوط فى كتب السير والحديث والفقه .

ونحن يعنينا هنا أن نكشف عما تضمنه هذا الحديث من جواهر العلم والأدب فلا نخوض فى تفصيل الأحكام ، ولا فى ذكر الخلاف إلا بقدر ما تدعو إليه الحاجة .

* * *

واستمع أصحاب النبى – ﷺ – منصتين إلى هذا القول ، وفهموه حق الفهم ، واطمأنت نفوسهم به ، وسعدوا كل السعادة بفريضة الحج ، وهم أشد شوقًا إليه من أى وقت مضى ولا سيما المهاجرون من مكة إلى المدينة ، فهم سُوَّاسٍ بيت الله وحرمه ، ويتلوهم فى ذلك الأنصار فهم من أشد الناس حبًّا وتعظيمًا لهذا البيت الحرام .

لكن كان فى الناس رجلٌ يقال له « الأقرع بن حابس » قال : أفى كل عام يا رسول الله ؟ . وما كان أغناه عن هذا السؤال لو عرف حدود الأدب ، واستفاد من أصحاب النبى ﷺ فاقتدى بهم فى ترك ما لا يعنيهم ، والتخلى عما يحرجهم أو يكون سببًا فى إحراجهم ، والتضييق عليهم ؛ إذ ربما يكون السؤال سببًا فى تحريم شىء كان حلالاً لهم ، أو سببًا فى إيجاب شىء لم يكن واجبًا عليهم .

و « الأقرع بن حابس » كان رجلاً غليظ الطبع ، قاسى القلب ، أسلم على مضض ولا ندرى هل حسُن إسلامه أم لا ؟ ، ولكنه بسؤاله هذا قد فتح لنا بابًا من أبواب العلم ، ولولا أن سأل ما عرفنا هذا الدرس ولا وعيناه .

وقد سكت النبى ﷺ ولم يجب السائل عما سأل ، حتى كرر السؤال عليه ثلاث مرات لعله يسكت فلم يسكت ، وأغلب الظن أن الرسول ﷺ لو ظل ساكتًا ما سكت الرجل ، فأسكته الرسول ﷺ بقوله : « لو قلتُ نعم لوجبت ولما استطعتم » .

وقد فهم أصحاب النبى ﷺ أن الحج قد فرض عليهم فى العمر مرة واحدة

بالنص بعد فهمهم له من فحوى الخطاب ؛ فإن الأمر بالشيء لا يقتضى التكرار كما يقول أكثر علماء الأصول .

* * *

ثم قال الرسول ﷺ : « ذرونى ما تركتكم » أى دعونى فلا تسألونى عن شيء حتى أبينه لكم ؛ تأدباً مع الله - تبارك وتعالى - ومع رسوله ﷺ ، وعلل هذا الأمر بقوله : « فإنما هـلك من كان قبـلكم بكثرة سـؤالهم واختـلافهم على أنبيائهم » .

ولقد كان بنو إسـرائيل يشددون على أنفسهم بإيراد الشبهات على أنبيائهم ، وإحراجهم بكثرة مسائلهم ، وتنطعهم فى اختيار الصعب من الأمور وهم أعجز الناس عن القيام بها ، فكان ذلك سبباً فى هلاكهـم ، والتشديد عليهم ، وعدم العفو عنهم فى كثير مما وقع منهم من المعاصى .

وقد أراد النبى ﷺ أن يقى أمته مما وقعت فيه الأمم السابقة ، وقد جاءهم بشريعة غرَّاء لا عسر فيها ولا حرج ، ووقف بهم على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا ينحرف عنها إلا هالك .

ويواصل النبى ﷺ حديثه مع أصحابه الكرام البررة فيقول - صلوات الله وسلامه عليه - : « فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعـــوه » .

وهو بيان لقوله تعالى فى سورة الحشر : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديدُ العقاب ﴾ (١) .

أى ما أمركم به الرسول فهو عطاء من ربكم فالزموه ، واعملوا به ما استطعتم ، وما نهاكم عن فعله فكفوا عنه ولا تقربوه إلا مضطرين ؛ فالأمر والنهى فى هذه الآية ليس على عمومه وإنما هو مخصص بآيات أُخر كقوله تعالى : ﴿ لا يُكلِّف الله نفساً إلا وُسعها ﴾ (٢) .

---

(١) الحشر : ٧ . (٢) البقرة : ٢٨٦ .

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [١] .

وقوله جل شأنه : ﴿ فمن اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾ [٢] .

والله ولى التوفيق

* * *

(١) التغابن : ١٦ .

(٢) البقرة : ١٧٣ .

(١٦) اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ من اليَد السُّفْلَى

عن أبى أمامة الباهلى - رضى الله عنه - أن رسولَ الله ﷺ قال : « يا ابن آدم إنك أن تَبذُلَ الفضلَ خيرٌ لك ، وأن تمسكَه شرٌ لك ، ولا تُلام على كَفافٍ وابدأ بمن تعول ، واليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ من اليَدِ السُّفْلَى »(١) .

* * *

هذا الحديث فيه وصية للأولياء بمن يعولونهم، ويرعون شئونهم ، ويكونون مسئولين عنهم فى الدنيا والآخرة ، وهم الأولاد والزوجات ، ومن تجب عليهم نفقتهم كالآباء والأمهات ، والأخوات اللاتى ليس لهن من يعولهن غيرهم.

وقد مهد النبى ﷺ لهذه الوصية بجمل خبرية ترغب فى الإنفاق من فضول الأموال بقدر الوسع والطاقة ، من غير إسراف ولا تكلف ، ثم ختمها بحكمة سامية جُعلتْ مضرب الأمثال فى العزة والقناعة، وعفة النفس ، وبذل ما فى الطاقة بذله لمن يستحقه .

* * *

وخطاب النبى ﷺ بقوله : « يا ابن آدم » يشعر بعراقة النسب وعظمة الانتساب ، إذ نسبه إلى أول نبى أرسله الله إلى أبنائه ، والمرء يسره أن ينتسب إلى أبيه الأول ،ويجد فى ذلك مسرة ومبرة .

ويشعر هذا الخطاب - أيضًا - بتكريم الله له لأنه قد زوده بالعقل والعلم ، وأمده بالقدرة على عمارة الأرض وسخر له ما فى البر والبحر ، وجعله سيداً على ما خلق وبرأ من الكائنات الحية ، وأعطاه من الخير ما لا يحصى عده ، ولا يعرف أمده .

ولقد قال الله - عز وجل - فى سورة الإسراء : ﴿ ولقد كَرَّمْنَا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾(٢) .

---

(١) رواه مسلم فى الزكاة رقم ١٠٣٦ ، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، والترمذى رقم ٢٣٤٤ فى الزهد باب رقم ٣٢ .

(٢) آية : ٧٠ .

ويشعر هذا الخطاب – كذلك – بأن الإنسان عائد إلى التراب الذى خُلق منه أبوه آدم ، وتارك ما فى يديه من مال ونشب ، فلا ينبغى أن يتمسك بشىء زائل ، أو هو زائل عنه ، ثم إنه مبعوث ليوم عظيم ومحاسب على ما قدم وأخر من خير وشر .

ولا يخفى ما فى الخطاب من التنبيه إلى أهمية ما سيُلْقَى بعده من توجيهات حكمية ينبغى أن تؤخذ مأخذ الجد والاعتبار – كما هو الشأن فى الخطاب إذا ورد فى بدء الكلام .

* * *

وقوله ﷺ : « إنك أن تبذلَ » بفتح همـزة إن ونصـب الفعل المضارع بعدها ؛ على تأويل مصدر تقديره : إنك فى بَذْلِكَ الفضل – وهو ما زاد عن حاجتك – « خير لك » فى الدنيا والآخرة ؛ فإنك تثاب على عملك الصالح فى الدارين معًا ، كما جاء فى قوله تعالى من سـورة آل عـمران فى شأن الربِّيين(١) ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحُسنَ ثوابِ الآخرة والله يحبُّ المحسنين ﴾ (٢) .

وثواب الدنيا يكون فى صلاح الحال ، وهدوء البال ، واطمئنان القلب بذكر الله ، وهوان الدنيا على المسلم حتى لا ينصب فى جمع حطامها فيشقى .

وقد ترجم الله – عز وجل – هذا الثواب بشىء من التفصيل فى قوله تعالى : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه يمتِّعْكم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى ويؤتِ كلَّ ذى فضل فضلَه وإن تَوَلَّوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ (٣) .

وقوله تعالى – : ﴿ من عَمِلَ صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياة طيبة ولنجزينَّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ (٤) .

والمتاع الحسن والحياة الطيبة هى ما قد ذكرناه من صلاح الحال وهدوء البال

---

(١) الربِّيون : هم المنسوبون للرب – جل شأنه – لإخلاصهم له وإحسانهم إلى أنفسهم وإلى دينهم ومجتمعهم .

(٢) الآية : ١٤٨ . (٣) هود : ٢ – ٣ . (٤) النحل : ٩٧ .

إلى غير ذلك من النعم الظاهرة والباطنة التى يشعر بها المؤمن ويعجز عن التعبير عنها والشكر عليها .

وثواب الآخرة خير وأبقى ، وأعظمه رضوان الله عز وجل كما قال - جل وعلا - فى سورة التوبة : ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكنَ طيبةً فى جنات عَدْنٍ ورضوانٌ من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) .

* * *

ويكفى ابن آدم من الخير أن يبذل للفقراء مازاد على حاجته ، فإنه لو فعل ذلك يكون قد اقتحم العقبة ونجا من عذاب الله فى الدنيا والآخرة .

والله - عز وجل - لم يكلف عباده أن ينفقوا جميع أموالهم ولا نصفها ولكنه - جل شأنه - أمرهم أن ينفقوا منها بقدر ما تجود به أنفسهم ، وبما زاد عن الحاجة .

قال تعالى : ﴿ ويسألونك ماذا يُنفقون قل العفو ﴾ (٢) أى : الزيادة عن الحاجة .

أما من زاد فإن الله يزيده من فضله أضعافًا مضاعفة ، والله واسع الفضل ، غزير الفيض ، لا يزال يعطى عباده من الخير ما بذلوا من الخير .

قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يُقرضُ اللهَ قرضًا حسنًا فيضاعفَه له أضعافًا كثيرة والله يقبضُ ويبسُطُ وإليه ترجعون ﴾ (٣) .

وقال جل وعلا : ﴿ من ذا الذى يُقرضُ الله قرضًا حسنًا فيضاعفَه له وله أجر كريم ﴾ (٤) .

وقد ضرب الله مثلين فى سورة البقرة لمضاعفة الأجور إلى الحد الذى لا

---

(١) التوبة : ٧٢ . (٢) البقرة : ٢١٩ .

(٣) البقرة : ٢٤٥ . (٤) الحديد : ١١ .

يخطر على قلب بشر ، فقال - عز من قائل : ﴿ مَثَلُ الذين ينفقون أموالَهم فى سبيل الله كمثل حبَّةٍ أنبتت سبعَ سنابلَ فى كلِّ سنبلة مائةُ حبَّةٍ والله يضاعفُ لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ (١) .

ولننظر إلى الحبة الواحدة قد أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة منها مائة حبة سوف تُزرع مرة أخرى ، فتنبت كل حبة من المائة سبع سنابل ، ولا تزال تنبت وتنبت ، وهكذا شأن الصدقة يزيد الله فيها حتى تصير الثمرة مثل جبل أحد كما جاء فى الحديث الصحيح .

والله - عز وجل - يضاعف الأجر بحيث لا يقع ما قدَّره للمحسنين تحت حصر .

وقال - جل وعلا - : ﴿ وَمَثَلُ الذين ينفقون أموالَهم ابتغاءَ مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمَثَلِ جنة بربوة أصابها وابلٌ فآتت أُكُلَها ضِعفين فإن لم يصبْها وابلٌ فطلٌّ والله بما تعملون بصير ﴾ (٢) .

وهذا المثل بيَّن الله لنا فيه أن الحبة تصبح جنة ذات زرع وثمر تنبت بأى نوع من المطر : غزيراً كان أم قليلاً وتؤتى أكلها ضعفين ، والضعف يقتضى التكرار كأنه لا ينقطع أبداً ولا يزول كما دل عليه قوله تعالى فى الآية السابقة : ﴿ من ذا الذى يُقرِضُ الله قَرضاً حسناً فيضاعفَه له أضعافًا كثيرة ﴾ .

والوابل : فى الآية معناه المطر الكثير .

والطلُّ : هو القليل الكافى .

والربوة : المكان المرتفع الخصب .

ومن هذين المثلين يتبين لنا معنى قوله ﷺ : « إنك أن تبذلَ الفضل خيرٌ لك » ، فهذا هو الخير الذى لا ينقطع مدده أبداً . كما قال - جل وعلا - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ٢٦١ . (٢) البقرة : ٢٦٥ .
(٣) فصلت : ٨ .

والناس فى البذل والإنفاق درجات :

أدناهم : من يكتفى بإخراج الواجبات ، كتأدية الزكاة ، ونفقة الزوجة والأولاد وسائر من يعولهم .

وأعلاهم درجة : من يجود بماله كله ، كأبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ودونه فى الدرجة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الذى جاد بنصف ماله إلى النبى ﷺ ، ومثل عمر عثمان بن عفان - رضى الله عنه - الذى جهز جيش العسرة . وغيرهم ممن لم يدخر وسعاً فى الإنفاق فى وجوه الخير .

﴿ وكلُّ شىء عنده بمقدارٍ عالمُ الغيبِ والشهادةِ الكبيرُ المتعالِ ﴾ (١) .

* * *

أما الإمساك عن الإنفاق فهو شر ما بعده شر إلا الكفر ، فليس هناك صفة أقبح من البخل ، ولا سيما البخل فى الوجوه الواجبة كالزكاة ، فإن من امتنع عن دفع الزكاة قسا قلبه وساء خلقه ، وفسد حاله ومآله ، وحشر مع الكفار .

قال تعالى : ﴿ وويلٌ للمشركين الذين لا يُؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ (٢) .

والبخيل قد أشرك حب المال مع حب الله ، وآثر الدنيا على الآخرة ، وظلم أصحاب الحقوق عليه ، وتحلى بصفة يبغضها الله عز وجل ؛ فهو الكريم يحب من حاكاه فى الكرم بقدر طاقته البشرية ، ويبغض من كنز المال ومنع حق الفقراء فيه .

واقرأ ما جاء فى وعيده قوله تعالى : ﴿ والذين يَكنزون الذهبَ والفضةَ ولا يُنفقونها فى سبيل الله فبشرْهُم بعذاب أليم يومَ يُحمَى عليها فى نار جهنم فتُكوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تَكنزون ﴾ (٣) .

واقرأ قوله - جل شأنه - : ﴿ كلا إنها لَظَى نَزَّاعةً للشَّوَى تدعو من أدبرَ وتولى وجمع فأوعَى ﴾ (٤) .

(١) الرعد : ٨-٩ .
(٢) فصلت : ٦-٧ .
(٣) التوبة : ٣٤-٣٥ .
(٤) المعارج : ١٥-١٨ .

واقرأ قوله عز وجل : ﴿ فويلٌ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾(١) .

والماعون : كل ما يعين الإنسان على قضاء حوائجه .

والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، وهى تشمل بعمومها من أسلم ولم يبرهن على إسلامه بالعمل الصالح ، فكان كمن لم يسلم فى أخلاقه وطباعه وسلوكه ، فهو معهم بعمله فى الدنيا ، ومعهم بعمله فى الآخرة . ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

والإمساك من طبع الإنسان بدليل قوله تعالى : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائنَ رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قَتُوراً ﴾(٢) .

لكن هذا الطبع ينبغى أن يتخفف المرء منه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ومن أجل ذلك سيقت له المواعظ التى تحمله على التخلص منه بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى .

وإذا تخلص المرء من البخل والتقتير فقد صار بطلاً فى هذا المجال ؛ لأنه يصعب على الإنسان أن يتخلص من هذا الداء الوبيل بسهولة حتى أن بعض المربِّين كالإمام الغزالى قد أشار على البخلاء أن يتخلصوا من بخلهم ولو بالرياء ، وذلك من باب التخلص من داء أشد بداء أخف ، ثم يسهل عليه بعد ذلك أن يتخلص من الداء الأخف والأثقل معًا فيسلم له دينُه ويقينه .

والإنسان بطبعه شحيح بما عنده ، حريص على ما فى يديه ، يكره النقص ويحب الزيادة ، ويطمع فيما لا مطمع له فيه أحياناً .

قال تعالى : ﴿ وأُحْضِرت الأنفسُ الشُّحَّ ﴾(٣) أى : ألزمته وعانقته ، ولكن النفوس المؤمنة تتخلص منه شيئًا فشيئًا حتى يختفى الشح وراء الشعور فلا تكاد تجده أو تحس بوجوده ، فيكون الكرم فى البؤرة ويكون الشح فى الحاشية – كما يعبر بذلك علماء النفس .

---

(١) الماعون : ٤ – ٧ .   (٢) الإسراء : ١٠٠ .   (٣) النساء : ١٢٨ .

والطبع – أحيانًا – يغلب التطبع فيظهر الشح فجأة ثم يختفى ، وأحياناً يغلب التطبع على الطبع حتى يحل محله ، وذلك يرجع إلى قوة الإيمان وضعفه.

يقول النبى ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ... إلى آخر الحديث » . وقد سبق بيان معناه والحمد لله .

وإذا كنا قد عرفنا معنى الخير فى هذا الحديث وأدركنا أنه لا منتهى لحده وأمده فالشر كذلك قد يتسع ويتسع بسبب البخل والحرص ، والشح والطمع ، والجشع ، حتى يصـل بصاحبه إلى أن يعبد المال من دون الله ، فلا يطعم مسكينًا ، ولا يحض على إطعامه ، ولا يكرم يتيمًا ولا يحسن إليه ، ولا يصل رحمًا ، ولا يلتفت إلى أم أو إلى أب ، ولا يسهم فى شىء مما يحتاج الناس إليه ؛ فيعتزله الناس جميعًا ويبغضونه بغضًا ما بعده بغض ، ولا يشاركونه آماله ولا آلامه ولا يعدونه من الأحياء ، فهو ميت فى صورة حى .

يقول النبى ﷺ : « تَعِسَ عبدُ الدرهم ، وعبد الدنيار وعبد الخميصة (١) تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » (٢) أى : إذا أصابته شـوكة لا يجد من ينقشها له لعدم تعاونه مع الناس ، وبخله عليهم بما هم فى حاجه إليه .

والخيرُ يبقى وإن طال الزمانُ به

والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ

إن الرسول ﷺ لم يـقل : تعـس طالب الدرهـم والدنـيار ، ولكنه قال : « تعس عبد الدرهم والدينار » ، والفرق بين من يطلب ومن يعبد كبير ، فمن بلغ به الطلب إلى حد العبادة خاب سعيه وخسر دنياه وآخرته ، وكان إنسانًا شاذًا ليس فيه من معانى الإنسانية شىء .

والإنسان – كما يقول ابن خلدون – : « مدنى بطبعه » ، أى هو متعاون

---

(١) الخميصة : ثوب له أعلام .

(٢) رواه البخارى .

مع بنى جنسه ، لا يستطيع أن يعيش بمعزلٍ عنهم ، ولا يجد لنفسه غنى عن تعاونه معهم وتعاونهم معه ، فإذا جعل المال مبلغ همه ظن أنه ساعٍ إلى طريق السعادة أو هو مغمور فيها ، وهو المخدوع بحق .

ولستُ أرى السعادةَ جمعَ مالٍ ولكنَّ التقىَّ هو الســـــعيدُ
وتقوى الله خـــــيرُ الزاد ذُخراً وعـــــند الله للأتـــــقى مزيدُ

إن المؤمن يعرف بهوان الدنيا عليه ، والبخيل يعرف بتفانيه فى طلبها .

ومن جعل الدنيا مبلغ همه شتت الله شمله وجعل فقره بين عينيه ، ومن جعل الآخرة مبلغ همه جمع الله شمله وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة .

هذا وقد حذر النبى – ﷺ – من الشح والبخل ، والحرص والطمع ، فقال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءَهم ، واستحلوا محارمهم »[١] .

وقال ﷺ : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ، ودخان جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع شحٌ وإيمانٌ فى قلب عبدٍ أبداً »[٢] .

وقال ﷺ : « السخى : قريب من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس ، بعيد من النار ، والبخيل : بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس ، قريب من النار ، والجاهل سخى أحب إلى الله من عابد بخيل »[٣] .

وقد تكلمنا فيما سبق عن الشح فلا نطيل الكلام فيه هنا .

* * *

وقوله ﷺ : « ولا تلام على كفاف » معناه أن ابن آدم لا يلومه الناس وهو

---

(١) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنه – .
(٢) رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه ،والحاكم واللفظ له .
(٣) رواه الترمذى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – مرسلاً .

على فقر وعسر ألا يجود بشىء مما تحت يده ؛ لأنه فى حاجة إليه ولا غنى له عنه . والكفاف هو مقدار الضرورة .

يقال : فلان على كفاف ، أى على ضرورة لا يستطيع أن يجود بشىء مما عنده لشدة احتياجه إليه – كما أشرنا .

والله – عز وجل – لا يلوم عبده – أيضًا – إذا شح بما هو فى حاجة إليه – كما يفيده قوله – ﷺ : « وابدأ بمن تعول » .

ولكن ينبغى على المسلم ألا يحرم نفسه من ثواب الإنفاق ولو بنصف تمرة . فإن الله – عز وجل – قال : ﴿ فمن يعملْ مثقال ذرة خيراً يرَهُ ومن يعملْ مثقال ذرة شراً يَرَهُ ﴾ (١) .

وقد روى البخارى ومسلم عن عدى بن حاتم – رضى الله عنه – قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » .

* * *

وقوله ﷺ : « وابدأ بمن تعول » معناه : فضِّل بالإنفاق من تجب عليك نفقته ؛ فتأدية الواجبات مقدمة على فعل المستحبات – كما هو معلوم .

فلا ينبغى أن يتصدق المسلم على فلان وفلان ، ويدع أهله بلا طعام ، أو يتركهم يسألون الناس .

قال ﷺ : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » (٢) .

ولا شك أن الإنفاق على الأهل والأقارب أعظم أجراً من الإنفاق على غيرهم لقوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكينِ والجار ذى القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجَنْبِ وابنْ السبيل وما ملكت إيمانُكم إن الله لا يحبُّ من كان مختالاً فخوراً ﴾ (٣) .

فبدأ سبحانه بالإحسان إلى الوالدين، وثنى بذوى القربى ، وما ذاك إلا لمزيد

---

(١) الزلزلة : ٧ – ٨ .	(٢) رواه أبو داود وغيره .	(٣) النساء : ٣٦ .

العناية بهم ، فهم أولى بالعطاء من غيرهم ؛ لأنه لا يلحقهم من هذا العطاء عار كالذى يأتيهم من الغرباء .

وقال الله عز وجل : ﴿ وآتِ ذا القربى حقَّه ﴾ (١) .

وهذا الحق واجب ، وتأدية الواجب أعظم أجرًا من تأدية المستحبات - كما أشرنا .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرًا الذى أنفقته على أهلك » .

* * *

وقوله ﷺ : « واليد العليا خير من اليد السفلى » معناه أن اليد المعطية خير عند الله من اليد الآخذة - كما هو ظاهر - غير أن فى هذه الفقرة من الحديث إشارات لابد من ملاحظتها ، منها :

(أ) الترغيب فى الإعطاء ، والتنفير من الأخذ من غير ضرورة ملحة .

(ب) والترغيب فى التواضع ، بمعنى أن المعطى ينبغى عليه أن يضع يده تحت يد الآخذ لئلا يشعر - ولو للحظة - أنه خير من الآخذ .

(جـ) ومن الإشارات أيضًا أن اليد العليا يد خير دائمًا لأنها تعمل فتأتى بالخير ثم تنفق من هذا الخير على من يستحق العون ، بخلاف اليد السفلى فإنها يد عاطلة ، إذ لو كانت عاملة لكانت معطية من كسبها ما دام صاحبها قادرًا على العمل .

وهذا السر هو ما أفهمه من قوله تعالى : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ إذ

---

(١) الإسراء : ٢٦ .

لم يقل : مؤدون ؛ ليدل قوله : ﴿ فاعلون ﴾ على اختلاق ما يزكى المسلم منه، وتحصيله بالعمل ، فهو يكافح فى طلب الرزق ، ويرغب فى أن يكتب مع المزكين فيجد فى الحصول على النصاب الموجب للزكاة لا على الفرار منها بالحيل المذمومة كما يفعل بعض من لا دين لهم .

رزقنا الله وإياكم فهماً فى كتابه العزيز وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

* * *

(١٧) المَرْءُ عَلَى دِيْنِ خَلِيْله

عن أبى هريرة – رضي الله عنه – قال : قالَ رسولَ اللهِ ﷺ : « المَرْءُ عَلَى دِيْنِ خَلِيْلِه فَلْيَنْظُرْ أحَدُكُم من يُخَالِلُ » (١) .

* * *

اختيار الأصدقاء واصطفاؤهم من خيرة الرجال مقصد من مقاصد التشريع الإسلامى لما ينبنى على حسن الصحبة من ألفة فى القلوب ، وتجانس فى الأخلاق ،وتعاون فى ميادين البرّ والإحسان والتقوى ، وغير ذلك من الأهداف السامية التى يحرص كل مسلم على تحقيقها لنفسه ولغيره من المسلمين بوجه خاص ، ولمن غيرهم بوجه عام .

فللصداقة أثر عميق فى توجيه الأنْفُسِ للخير أو للشر ، وتزكية العقول أوتضليلها ، ولها دخل كبير فى تقدم الجماعة أو تأخرها ؛ لهذا كان تخير الأصدقاء واجبًا يحتمه الإسلام من أجل أن يتعايش الناس فيما بينهم على وفاق لا يكدِّر صفوه خلاف مذهبى ، ولا توتر عصبى ، ولا حمية جاهلية ، ولا غرض دنىء من أغراض الدنيا الدنية ، ومن أجل حياة مستقرة مطمئنة يملؤها الحب والوفاء ويسودها الأمن والرخاء .

والإنسان مدنى بالطبع – كما يقول ابن خلدون – لا يستطيع أن يعيش وحده بمعزل عن بنى جنسه ، ولا يجد فى البعد عنهم راحة مهما حاول أن يتكلفها ، ولا يشعر بشىء من السعادة ولو كان فى برج عاجى مشيد ، فيه ما لذ وطاب من أنواع الطعام والشراب ، واللباس والفراش ، وسائر ما يجلب المتعة واللذة ؛ فسعادته فى العيش مع أهله وعشيرته وأصدقائه الأوفياء .

* * *

---

(١) رواه الترمذى : ٢٤٨٤ ، وقال : هذا حديث حسن غريب . ورواه أحمد وأبو داود والبيهقى فى شعب الإيمان ، وقال النووى : إسناده صحيح .

ولما كان للصديق على صديقه تأثير عميق فى تغيير سلوكه أو تعديله أمر النبى ﷺ المسلمَ أن يتخير لنفسه خليلاً يألفه ويطمئن إليه ، ويرضى دينه وخلقه ، ويجد منه من الخير ما يسعده ويعينه على أمور دينه وشئون دنياه فقال : « المرء على دين خليله » أى : على طريقته ومذهبه وديدنه فى عاداته وتصرفاته وغير ذلك من صفاته الخُلُقية .

« فلينظر أحدكم من يخالل » أى : فليتخير من يتخذه خليلاً ، أى حبيباً مصاحباً ، يلازمه ملازمة الظل لصاحبه ، فلا يتخلف عنه وهو فى أمس الحاجة إليه ، ولا يفارقه إلا على خير ، ولا يجتمع معه على ضلال .

ولا شك أن لتجانس المزاج والتفكير مدخلاً كبيراً فى تأسيس الصداقات وتوثيق الأواصر .

وقد قيل : « رب أخ لك لم تلده أمك » ، فقد يلتقى المرء فى زحام الحياة بمن يحس سرعة التجاوب معه والانجذاب إليه . وكأنما سبقت المعرفة به من سنين .

وهذا مصداق الحديث : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » (١) .

لكن هذه العاطفة يجب أن يحكمها سلطان العقيدة ونظامها ، هذا السلطان الذى يستوحيه المؤمن فى اتجاهات قلبه كلها ، فيجعله يحب فى الله من لم يطالع لهم وجهاً لبُعد الشقة أو لسبق الزمن ، ويكره كذلك من لم يخالطهم فى حضر أو سفر ، لا لشىء إلا لأنه يودّ الأخيار ويكره الأشرار . واتجاهات القلب على هذا النحو الخالص ترفع صاحبها درجات فوق منزلته .

عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : قلت يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم . قال : « أنت يا أبا ذر مع من أحببت » (٢) .

* * *

---

(١) رواه البخارى .

(٢) انظر « خلق المسلم » للشيخ محمد الغزالى صـ ١٩٧ .

هذا وتأثير صديق السوء أشد من تأثير الصديق الصالح فى الغالب ؛ لهذا وجب على المؤمن أن ينظر فى أمره وأمر نفسه - هل لو صاحَبَه يستطيع بعون الله تعالى أن يهديه سواء السبيل أم لا يستطيع ذلك ؟ ، فإن غلب على ظنه أنه يستطيع أن يهـديه إلى سـواء السبيل صاحبه مدة ، فإن هـداه الله على يديه فبها ونعمت ، وإن لم يجده مستجيباً إلى الهُدى تركه ودعا له بخير ، فإن الاستمرار فى صحبته سيضره حتماً فى دينه ودنياه ، وربما يصيبه ما أصابه من البلاء .

قال تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تُصيبَنَّ الذين ظَلَموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ (١) .

وقد دلت التجربة على أن البعد عن صديق السوء غنيمة ، فإذا أراد المؤمن أن يسدى له النصيحة فليكن ذلك عن بُعد لا عن قُرب .

والرسول ﷺ يقول : « مَثَلُ الجليس الصالح كمَثَلِ صاحب المسك ، إن لم يصبك منه شىء أصابك من ريحه . ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه » (٢) .

وقد شوهد أن عدوى السيئات أشد سرياناً وأقوى فتكاً من عدوى الحسنات .

ففى أحيان كثيرة تنتقل عدوى التدخين من المصاب بها إلى البرىء منها ويندر أن يقع العكس . وتقديراً لهذه الآثار ، وحماية للخلق الحسن والعادات الكريمة أمر رسول الله ﷺ بتخير الأخلاء والجلساء ؛ حماية للدين واستبراء للعرض ، وطلباً للنجاة من عدوى لا تحمد عواقبها ، ومن شر لا يدرك مداه .

إن صداقة الأتقياء قد ترفع إلى القمة ، وأما صداقة السفهاء البُله فهى منزلق سريع إلى الحضيض .

---

(١) الأنفال : ٢٥ .

(٢) رواه أبو داود ، ورواه غيره بألفاظ مختلفة .

قال تعالى : ﴿ وإن الظالمين بعضُهم أولياءُ بعضٍ والله ولىُّ المتقين . هذا بصائرُ للناس وهدًى ورحمةٌ لقوم يوقنون ﴾ (١) .

وأصدقاء السوء يتناكرون ولا يتعارفون ، ويعاشر بعضهم بعضًا على خبث دفين ومكر لعين ، فهم أصدقاء فى الظاهر أعداء فى الباطن ، لا يجتمعون إلا على ضلال ولا يلتقون إلا على الشر ، حب بعضهم لبعض مزيف ينتهى بانتهاء المصالح الشخصية ، والمتقون على النقيض من ذلك ، فهم يجتمعون على الخير دائمًا ويلتقون على الحب ويتفرقون عليه .

ويوم القيامة يكون حال كل من أصدقاء السوء وأصدقاء الخير على ما كانوا عليه فى الدنيا ، فالمتباغضون فى الدنيا متباغضون فى الآخرة ، والمتحابون فى الدنيا متحابون فى الآخرة ، مادام حبهم لله خالصًا .

يقول الله عز وجل : ﴿ الأَخلاَّءُ بعضُهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين ﴾ (٢) .

ولنا فى الصداقة والأصدقاء بحث طويل سطرناه فى كتاب آخر لم يطبع بعدُ .

وعلينا أن نضع هذه الوصية موضع الاعتبار ونتمسك بها فى اختيار الأخلاء ، واختيار الجيران أيضًا ، واختيار الأزواج ، ورفقاء السفر ، واختيار من نتعامل معهم ونحتك بهم فى شتى الميادين .

فليس الأخلاء هم الأصدقاء فقط ، بل هم كل أُولئِكْ الذين ذكرتهم لك لما لكل واحد منهم من تأثير عليك بالإيجاب أو السلب .

ولعل أعظم الأخلاء الزوج والزوجة ، فهو وهى صاحب بالجنب ، ومجاور ملاصق ، وقد جعل الله كلاً منهما سكنًا للآخر ، ولباسًا له وسترًا عليه ، وجعل بينهما مودة ورحمة .

وكذلك الجيران بعضهم لبعض خدمٌ وعون ، وربما يكون الجار أقرب إلى جاره من أخيه ابن أمه وأبيه .

---

(١) الجاثية : ١٩ – ٢٠ .　　(٢) الزخرف : ٦٧ .

فلا ينبغى أن يغيب عن أذهاننا هذا المعنى الواسع لكلمة خليل ، فالخليل هو الحبيب الذى تألفه ويألفك ، وتجد منه من الخير ما يجده منك ، وترتفع به ويرتفع بك .

واعلم أنه من جالس العلماء وُقِّرَ ، ومن جالس السفهاء حُقِّرَ . فاختر صديقك عالمًا أو متعلماً ، ولا تختره جاهلاً ؛ فإن الجاهل يضرك من حيث يعتقد أنه ينفعك .

ولا تصحب الكذاب فإنه يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب ، ويضلك عن الحق ،ويفسد عليك أمرك كله .

قال الشاعر :

إذا كنت فى قوم فصاحبْ خيارَهم
ولاتصحب الردِى فتردى مع الردى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قــرينٍ بالمـقَـارَنِ يقتـدى

وقال آخر :

اختر صديقَك واصطفيه تفاخرًا
إن القــرينَ إلى المـقــارَن يُنْسَــبُ
واحـذر مصاحبــة اللئيــم فإنه
يُعدى كما يُعـدى الصحــيحَ الأجربُ

وقال آخر :

وقلت : أخ !! قالوا :أخ من قرابة؟
فقلتُ لهم : إن الشَّكُولَ أقاربُ
صديقى فى حزمى وعزمى ومذهبى
وإن باعدتْنا فى الأصول المناسبُ

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق .

* * *

(١٨) اسْتَحْيُوا منَ الله حَقَّ الحياء

عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – قال رسول الله ﷺ: « استَحْيُوا من الله حقَّ الحيـاء » . قال : قلنا : يا رسـول الله إنا نستَحْيِ والحمدُ لله ، قال : « ليس ذاك ، ولكنَّ الاستحياءَ من الله حقَّ الحياء أن تحفظ الرأس وما وَعَى ، والبطنَ وما حَوَى ، وتَتَذكَّر الموتَ والبلَى ، ومَنْ أراد الآخرة تركَ زينة الدُّنْيا ، فمن فَعَل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء » (١).

* * *

هذا الحديث فيه من الوصايا التى لو تَمَسَّك بها المسلمُ لكَفتْهُ فى إصلاح دينه ودنياه ، إذ كل وصية منها تحمل بين طَيَّاتها ما لا ينحَصرُ من الخصال الحميدة التى تُعَدُّ كل خَصْلَةٍ منها برهاناً على صحة الإيمان ، وسَلاَمَة اليقين .

الوصية الأولى قوله ﷺ : « استحيوا من الله حقَّ الحياء » ، ومعنى استحيوا : اطلبوا لأنفسكم الحياء ، وتكلَّفُوه إن لم يكنْ طَبْعًا فيكم ، واصطنعوه لأنفسكم كلما وجَدتمُوهَا قد مالت إلى ما لا تُحْمَدُ عواقبه ، أو استخفت بفضيلة من الفضـائل ، أو أقـدمت على رزيلة من الرذائـل ، أو قَصَّرت فى واجب من الواجباتٍ ، أو استهانت بمندوب من المندوبات ، أو أكثرت من تناول المبَاحَاتُ ، أو خاضت فيما لا يَعْنيها .

والحياءُ خلقٌ فاضل ، وكمالٌ وافر ، وسلوكٌ نبيل ، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ؛ ولهذا خَصَّه النبى ﷺ بالذِّكر من بين شُعَبِ الإيمان ، فقال : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان » (٢) .

وقد عَرَّفه العلماءُ بتعريفات متقاربة ، توضِّح معناه بالوصف ؛ لأنه – فيما

---

(١) أخرجه الترمذى رقم (٢٤٥٨) صـ٦٣٧ فى صفة القيامة ، وأخرجه أحمد والحاكم والبيهقى . قال المناوى : قال الحاكم صحيح وأقره الذهبى .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ، حديث ٥٧ .

أرَى – ليس له حَدٌّ جامعٌ مانعٌ ، إذ هو من الشُّعَب التى تَتَشَعَّبُ من غيرها ، ويتشعب غيرُها منها ، فهو رافد تمده روَافِد ، وبحرٌ تَمُدُّهُ أبْحُر ، حتى كاد يكونُ هو الإيمانَ كُلَّه .

وقد نَوَّه النبى ﷺ بذلك فقال : « الحياءُ خيرٌ كُلُّه » (١) .

وقال ﷺ : « الحياءُ لا يأتى إلاّ بخير » (٢) .

وهذا الحديث يدُلُّ على أنه خيرٌ مَحْض ، شأنُه فى ذلك شأنُ الإيمان ، فإنه خير محض .

وهذا لا يمنع أن يكون هناك نوعٌ من الحياء مذموم ، وذلك النوعُ إنما لحقه الذمُّ لأسباب سيأتى ذكرُهَا .

وإذا كان الحـياءُ لا يأتى إلا بخـير فإن عـدمَه يكونُ وَبَالاً على مَنْ فقده ، أو فَقَدَ الكثيرَ منه .

ولا بأس أن ننقُلَ هنا بعضَ ما ذكره العلماءُ فى تعريف الحياء .

(أ) قال بعضهم هو : تغيّرٌ وانكسارٌ يعترى الإنسان من خوفِ ما يُعَابُ به ويُذَمُّ .

أما التَّغيُّرُ الذى يحدثُ للإنسان ممّا يخاف أن يُعابَ به ويُذَمّ فإنه يُرَى على وجهه ، فتراه يَحْمَرُّ ، أو يَصْفَرّ أحيانًا .

وأما الانكسارُ فهو الشعور بالخزى والمذَلَّة عندما يخشى أن يكونَ قد وقع فيما يُعَابُ به ويُذَم ، فترى رأسه قد انخفضَ ، وتَرَى عينـيه قد غاصت إلى الدَّاخل ، أو يُخيل إليك ذلك ، أو تراه قد أغمضها ، وهذا إذا اشتَدَّ به الحياءُ ، وأخذ منه مأخذاً .

(ب) وقيل : إن الحياء هو انقباضُ النفس عن القبيح وتركُه .

---

(١) رواه مسلم ح ٦١ كتاب الإيمان .

(٢) رواه مسلم ح ٦٠ كتاب الإيمان .

وهذا الانقباضُ والتَّركُ هو من أثرِ الحياء ، وليس هو الحياء نفسه ، ولكن يجوز تعريفُ الشىء بأوصافه وآثاره .

(جـ) وقيل : الحياء انفعال النفس وتألُّمُها من النقص والقبيح بغريزة حب الكمال .

أى : بسبب غريزة حبِّ الكمال ، والتَّطلُّع إليه ، والسعى إلى تحصيله ، وهى غريزة محمودةُ ، إذا ما صحبَها الاعتدالُ والتَّواضُعُ .

وهذا التعريف أقربُ من التعريف الأول والثانى وأوضح .

ولا يَردُ عليه وصفُ الله - تبارك وتعالى - بالحياء فى قوله جل وعلا : ﴿ إن اللهَ لا يستَحْىِ أن يَضربَ مثلاً ما بعوضةً فما فوقَها ﴾ (١) .

فإن أوصاف الله تعالى من الرحمة ، والرأفة ، والحياء ، ونحوها ، أوصافُ أفعال ، وليست أوصافَ انفعال ، بمعنى أنَّ الرحمة مثلاً رقة فى القلب ، والله منزهٌ عن ذلك ، والحياءُ تَغَيُّرٌ وانكسار ، وانفعال خاص ،والله منزهٌ ، عن ذلك ، فيُصرفُ المعنى إلى الفعل .

فيقال فى قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحى ﴾ . أى : لا يأبى ، ولا يمتنع أن يضرب الأمثال بالعظيم والحقير من المخلوقات ، كالذبابة ، والعنكبوت ، فإن ما تراه حقيراً هو عظيم ، لو تأملناه ، وعرفنا كُنْهَهُ ، وقدرَتَهُ على تكييف نفسه بحسب البيئة التى يعيش فيها ، وحماية نفسه من عَدُوِّه ، وتحصيل رزقِهِ .. إلخ .

وسيأتى للحياء مَزيدُ بيان فى شرح هذا الحديث وغيره - إن شاء الله تعالى .

* * *

والرسول - ﷺ - يأمُر أصحابه أن يُبَالغُوا فى الحياءِ مع الله تعالى فيقول : « استحيوا من الله حقَّ الحياء » ، أى : الحياءَ الحقَّ ، الذى لا يتركُ صاحبه إلاَّ وهو على المحجة البيضاء ، والطريق السَّوى ، والمنهج القويم .

---

(١) البقرة : ٢٦ .

ولا شك أن مَن بَلَغ به الحياءُ هذا الحد يكونُ قد قاربَ الكمالَ ،وبَلَغ المَنْزِلَ الذى لا يتجاوز قدرَه ، فإن للأنبياء منزلٌ لا يُدَانِيهِم فيه أحدٌ ، وللصديقين منزل لا يُدانيهم فيه أحد ممن دونهم .

والناسُ متفاوتون فى الحياء وغيره من شُعَب الإيمان لكنَّ الحَيِىَّ يَدْفَعُهُ حياؤه إلى مـواطن الخير ، ويَذُبُّه عن مواطن الشَّرِّ بالطَّرِيقَةِ المُثْلَى وبصـورة مُشـرِّفَة غيرِ متكَلَّفَة .

ومَبْلَغُ علمى أن شُعَبَ الإيمان لا تستجيبُ لأحدٍ يخلُو من الحياء ؛ لأنَّ الحياء قلبٌ حَىٌّ ، وضميرٌ يَقِظٌ ، وشعُورٌ مرهف ، وإحساسٌ نبيل ، يهوِّنُ على صاحبه ارتياد طريق الخير مهما كان فيه من عقبات ، ويُبَغِّض إليه طريق الشر وإن كان مفروشًا بالورود .

وصاحبُ الحياء إنسانٌ ذو مُرُوءة يحترمُ آدَمِيَّتَهُ ، فلا يُهينُهَا أبدًا ،ويُوَقِّرُ إنسانيَّتَه فلا ينزل بها عن مستواها البَتَّةَ ؛ بل يحافظ على ما حَبَاهُ اللَّهُ به من التكريم ، والتفضيل ، فَيَظَلُّ إنسانًا بكل ما تَعْنيه كلمةُ الإنسانيَّة من معنى ، ويَبْقَى مدةَ عمره حُرًّا فى حدودِ الشَّرْع لا يحاور ،ولا يُداور ، ولا يداهن ، ولا ينافق ، ولا يتَملَّق أحدًا ، ولا ينظر إلى ما فى أيدى الناس ، فيحملُه النظر على الحقد والحسد ،ولا يرغب فى الدنيا بقدر ما يرغب فى الآخرة ، ولا يخرج عن طبعه بسبب التقليد والمحاكاة ، وإن خرج الناس جميعًا عن أطباعهم وقَلَّدُوا غيرَهم باسم التَّحَضُّر والتَّمَدُّن وما إلى ذلك من الأسماء البراقة الخَدَّاعَة .

* * *

وهل كان النبى – ﷺ – يَخُصُّ أصحابه بهذه الوصية ؛ لأنه يرى أنهم أقدر الناس على اسْتِيعابِهَا ، وتنفيذها على الوجه الذى يُريده، أم هى عامة لهم ولغيرهم ؟ .

والجوابُ سهلٌ ميسورٌ ، فنقول : إن هذه الوصية لهم على وجه الخصوص وللمؤمنين جميعًا على وجه العموم ، وكل على قدر حالِه ، فإذا استحيا المؤمن من الله على قدر درجته من العلم والفهم والإيمان فقد استحيا – والحمد لله – .

غيرَ أن الصحابَة – رضوان الله عليهم – أرادوا أن يُخْبِرُوا عن أنفسهم بأنهم قد استحيوا من الله حق الحياء ظنًّا منهم أنّ الحياءَ هو الإجلال والتوقير ، والحمدُ والثناء ، وما إلى ذلك من كُلِّ ما يجبُ عليهم فعلُهُ نحو ربهم – عز وجل – من التوحيد والتقديس ، فقالوا : إنا نستحى – والحمد لله – يا رسول الله .

وهم لم يدَّعُوا ذلك إطْراءً لأنفسهم ، أو اغتراراً بأعمالهم ، كَلاَّ ولكنهم أجابوه بما يحب ، وبما يُدْخِلُ السرور على نفسه، وبقدر ما فهموا من معنى الحياء، فقال لهم الرسول ﷺ : « ليس ذاك » . أى : ليس الأمر يقف عند حَدٍّ ما قد فهمتم ؛ بل هو أوسعُ من ذلك وأشمل .

وكأني برسول الله – ﷺ – يعرفُ أنَّهم سيقولون ذلك ، فأراد أن يَزِيدَهُم فى الحياء فهماً ، وفى الدين علماً ، وأحبَّ أن يعَظهم وعظًا بليغًا ، فَمَهَّد بذلك بقوله : « استحيوا من الله حَقَّ الحياء » .

وفى هذا التمهيد عبرةٌ لكل مَن يتصدى للعلم والوعظ والإرشاد ، فإنه لابدَّ أن يفتح الباب بسؤالٍ ، أو بنُصحٍ مُجْمَلٍ ، يجعل الناس يسألونه بلسان الحال أو المقال عن بيان معناه بشىء من التفصيل ، فيبدأ بالبيان ، ويتمادى فيه ، من غير تطويل ممل ، حتى لا تضيعَ المعانى بسبب الإسهاب .

ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة فى كل شىء .

* * *

وبعدَ أن يقول الرسول ﷺ : « ليس ذاك » تتطلع الأنظارُ إلى ما سيذكره الرسول ﷺ بعدَ هذا القول الُمْوجَز البليغ ، وهو قوله : « ليس ذاك » ، فيقول مستدركًا : « ولكنَّ الاستحياء من الله حقَّ الحياء أن تحفظ الرأس وماوعى ... إلخ » .

والخطابُ ليس لواحد من أصحابه كما يظن بَادِىَ الرأى ، ولكنه خطاب لكل من يَصْلُحُ له الخطابُ من المؤمنين ، فهو رسول للناس جميعاً ، وخطابُ الواحد خطابٌ للجميع ، ما لم يرد هناك تخصيص .

وحفظ الرأس وما وعاه من عقلٍ ، وسمعٍ ، وبصرٍ ، ولسانٍ ، وعُنُقٍ ، يُعْتَبَرُ ضرورةً من ضُرُوريَّات حِفظ الدين .

وأول ما يجبُ على المسلم حفظُه العقلُ ؛ لأنه مناطُ التكليف ، وحفظُه يكون بتركِ كل ما يغتالُهُ ، أو يؤدى إلى اغتيَالِه ولو بعدَ زمنٍ طويل .

وما يغتالُ العقلَ معروفٌ ، كتعاطى الخمر والمُخـدِّرَات ، وما فى حكمها من المَضَارّ .

ويكون حفظُهُ أيضًا بتدريبه على التأمل والنظر فى آيات الله الكونية ، وتبصيره بسائر أمور الدين وشئون الدنيا ، فإن العقل إذا لم يُدَرَّب على التدبر والتفقه يَصْدَأ ، ويَفْسُد ، ويَخْمُل ،ويَخْمُدْ ، فلا يعقل شيئًا ذا بال ، بل يكون مَعْقُولاً عن التَّفَكُّرِ والتَّبَصُّر ، فينحط شأنه ،وبانحطاط شأنه ينحط صاحبه إلى درجة الأنعام ، بل يكون أضَلَّ منها سبيلاً .

والآفات التى تصيب العقل كثيرة ، لا تقتصر على ما ذكرناه ولكن لذكر آفاته موضعٌ آخر .

أما السَّمْع فحفظُهُ إنما يكونُ بصونه عن سماع القيل والقال ، واللغو الذى لا ينفع وقد يَضُرّ ، وصرفِه عن سماع الأغانى الخَلِيعَة وكل ما فيه مُجُون ، وتَقَويتُه بسماع الذكر،والعلم، والوعظ، وما إلى ذلك مما يُحْمَدُ سماعُه ولا يُذَمّ.

وأما البصر فينبغى أن يُغَضَّ عن المحارم ، ويُصْرَفَ عن كُلِّ ما يُسْتَحْيا من رؤيته من المناظر الخليعة والظواهر الممقوتة .

وأما اللسانُ فهو صغيرُ الجِرْمِ كبيرُ الجُرْمِ ، يُوقِع صاحبه فى مآزق قد لا يمكنُهُ أن يتخلصَ منها ، بل ربما يُورِدُهُ مواردَ الهلكة فلا تقوم له قائمة ، وأكثرُ المعاصى تتأتى منه ، وتصـدرُ عنـه ، وقد تكلمنـا عن آفات اللسـان فى حديث سابق .

وأما العنق فهو عمودُ الرأس وحامله ، تصدرُ عنه كثيرٌ من المعاصى كالتعبير به عن الكِبْر والغرورِ ، واحتقار الناس والاستخفاف بهم . وقد قال تعالى حكاية عن لقمان وهو يوصى ابنه : ﴿ ولا تُصعِّرْ خَدَّكَ للناس ولا تمشِ فى الأرضِ مَرَحًا إن الله لا يُحبُّ كل مختالٍ فخور ﴾ (١) .

---

(١) لقمان : ١٨ .

وتصعير الخد : ميله إلى اليمين أو إلى الشمال ، تكبرًا وإعراضًا ، وميلُ الخد يتطلب بالضرورة ميل العُنُق كما هو معروف .

وقال – جل شانه – : ﴿ ثانىَ عِطْفِه ليُضلَّ عن سبيلِ الله له فى الدنيا خزىٌ ونُذيقُه يومَ القيامةِ عذابَ الحريقِ ﴾ (١) .

والعطْفُ هو العنق ، وثَنيُه لَوْيُه تكبُرًا وتَجَبُّرًا ، والمسلم لا يكون إلا مُتَوَاضِعًا لله ، ومتواضعًا للناس أيضًا فى غير منقصة .

والتواضع هو أول صفة من صفات عباد الرحمن ، كما ذكر الله – جل شانه – فى سورة الفرقان حيث قال : ﴿ وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرضِ هَوْنًا وإذا خاطبَهم الجاهلون قالوا سلامًا ﴾ (٢) .

والمعنى : يمشون مُتَوَاضِعِينَ لا يَرَوْنَ لأنفسهم فضلاً على الناس ،ولفرط تواضعهم لا ينتقمون لأنفسهم بل يَعْفُونَ عن الجاهل بأمور الدين ، والسفيه الذى لا يُحسن الكلام ، ويقولون له قولاً فيه سَلاَمٌ لهم ولِمن يجهل عليهم .

* * *

وأما قولُه ﷺ : « والبطنَ وما حوى » فهو قولٌ مُرَتَّبٌ على سابقه ترتيبًا تنازليًّا، ومبنيًّا على حفظ الرأس وما وعاه– مما قد ذكرناه . وكلام النبى – ﷺ – مُرَتَّبٌ مهذبٌ ، يأخذ بعضُه بحُجزِ بعضٍ ، بغير إشعارٍ بالنُّقْلَةِ .

وحفظُ البطن يكون بحمايتها من وصول شىء إليها مما حرمه الله ، فلا يتعاطى المسلم الخمرَ ،ولا يأكل الربا ، ولا يأكل مال اليتيم ،ولا يأكل شيئًا فيه شبهة ، ولا يملأ بطنَهُ بالطعام فَتَفْسُدُ الأمعاء ، فَيَفْسُد بفسادها الجسم كُلُّه ، فما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه .

ويدخل فى حفظ البطن حفظ الفرج ؛ لأن البطن ليست هى الأمعاء وحدها ، بل يشمل اللفظ الصدر أيضًا ، فالبطن ما قابل الظهر من أعلى إلى

(١) الحج : ٩ . (٢) الفرقان : ٦٣ .

أسفل ، كما هو معروف فى كتب اللغة ، وإن كان المتبادر إلى الذهن أنها الأمعاء وحدها عند الإطلاق .

وعلى ذلك يكون البطن قد حوى الصدر والقلب ، والأمعاء والفرج ، وهى أمورُ أربعة تماثِل الأمور الأربعة التى حواها الرأس ، وهى العقل والسمع ، والبصر واللسان .

ويُلْحَقُ بالبطن القدمان – كما ألحقنا العنق بالرأس – فيكونُ الحياءُ معناه : حفظ كُلٍّ ما أمر الله بحفظه ، وهو الجسدُ كُلُّه بجميع مُحْتَوَياته على الجملة .

ونحن نعلم من دراستنا لعلم أصول الفقه أن حفظَ النفس من الضَّرُوريَّات الخمسة ، وهى : حفظ الدِّينِ ، والنفس ،والنسل ، والعقل ، والمال .

فمَنْ حفظ دينَه فقد حفظ نفسَهُ ونسله ، وعقله وماله ، وحفظ الدِّين يَتَوَقَّفُ على الحياء ؛ لهذا كان الحياءُ قرينَ الإيمان ، لا يَنْفَكُّ عنه ولا يفارقه .

روى البيهقى فى شُعَبِ الإيمان عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن النبى ﷺ قال : « إن الحياء والإيمان قرناء جميعًا ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر » .

والمعنى أنَّ الإنسان إذا وقع فى معصية من المعاصى بسبب تَخَلِّيه عن الحياء أو تَخَلِّى الحياء عنه ، يرتفع عنه الإيمانُ حتى يعودَ إليه حياؤه ؛ لأنه إذا عادَ إليه حياؤه نَدِمَ على ما فعل ، والنَّدَمُ توبة .

ولا يُقْدِمُ الإنسان على ما يُستحيا منه إلا بسبب فقدان الحياء – كما أشرنا– وقد ورد أن النبى ﷺ قال : « إن مما أدرك الناس من كلام النُّبُوَّة الأولى : إذا لم تستحى فاصنع ما شئت » (١) .

وقد وردت فى الحياء أحاديثُ كثيرة تدل على أنه من أعظم الأخلاق وأَسْمَاهَا ، وأن صاحبه فى أعلى المنازل عند الله يوم القيامة ، منها :

(أ) ما رواه الترمذي عن أبى الدرداء – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ

---

(١) رواه البخارى عن عبد الله بن مسعود .

قال : « إن أثقل شيءٍ يوضع فى ميزان المؤمن يوم القيامة خُلقٌ حسن ، وإن الله يَبْغَضُ الفاحشَ البذىء » .

(ب) وروى أحمد والترمذى عن أبي هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « الحياء من الإيمان ، والإيمان فى الجنة ، والبذاءُ من الجفاء ، والجفاء فى النار » .

(جـ)وروى الترمذى وأبو داود والبيهقى ، عن سلمان الفارس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم حَيِىٌّ كريم ، يستحيى من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردَّهما صفراً » .

* * *

وقوله ﷺ : « وتتذكَّر الموت والبلَى » معناه : أن تكون حريصًا على تَذكُّرِهما بحيثُ لا تَغْفَل عنهما إلاَّ وقد أَحْدَثْتَ لنفسك بعد الغفلة ذِكْرًا لهما.

وذلك بأن ينظر المرء فيما يدور حوله ، و فيما فوقه وفيما تحته ، فيذكُرَ قدرةَ الله تعالى أولاً فيما خَلَقَ وبَرَأَ ، ثم يَتَذَكَّر أن هذا الخَلْقَ إلى زوال حتمًا فى يومٍ ما ، ويستعين على تقوية هذا المعتقد بما جاء فى القرآن الكريم من آياتٍ تدُلُّ على ذلك كقوله تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ (١) .

وقوله – جل شأنه – : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ (٢) .

وقــوله ســبحانه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت وإنما تُوَفَّون أجوركم يومَ القيامة فمن زُحْزِحَ عن النار وأُدخِـلَ الجنةَ فـقد فازَ وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغُرورَ ﴾ (٣) .

وقــوله تعالـــى : ﴿ أينما تكــونوا يُدْرِككُم الموت ولو كنتم فى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ (٤) .

---

(١) الإعراف : ٢٩ .
(٢) البقرة : ٢٨ .
(٣) آل عمران : ١٨٥ .
(٤) النساء : ٧٨ .

وقوله تعالى : ﴿ كُل شيء هالكٌ إلا وجهَه له الحَكمُ وإليه تُرجعون ﴾(١).

وقوله جل شأنه : ﴿ كلٌّ من عليها فانٍ ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلال والإكرام ﴾ (٢) .

إلى آخر ما هنالك من الآيات التى تُذَكِّرُ المؤمن بيومه الموعود ، ومصيره المُنْتَظَر ، وتُهَوِّنُ عليه مصائبَ الدنيا ، وتُزَهِّدُهُ فى شهواتها وملذَّاتها ، وتحمِلُه على الاعتدال فى سَيْرِه وسلوكه ؛ فإن القرآن الكريم كتابُ هداية ، ومنهجُ حياة ، يَعظُ الإنسان فى نفسه وعظًا بليغًا ، ويذكّرُه بماضيه ، وحاضِرِه ، ومستقبله كلما غَفِلَ عن ذلك ، أو تَغَافَل .

والناسُ فى تَذَكُّرِ الموت والغَفْلَة عنه أصنافٌ ثلاثة :

(أ) فمنهم مَنْ لا يكاد ينساه ، وهم الأخيارُ من المؤمنين ؛ فإنهم يعتبرون أن نسيان الموت ضُلالٌ مبين ، إذ يجعلُهُم فى شُغْلٍ شاغلٍ بأمور الدنيا ، وهى دارٌ فانية ، وكُلُّ نعيم فيها إلى زوال ، وأنه من جعل الدنيا مبلغ هَمِّه شتت الله شمله ، وجعل فقره بين عينيه ، ولا يأتيه من الدنيا إلا ما قُدِّر له ، بخلاف من جعل الآخرة مبلغ همِّه ، فإن الله - عز وجل - سيجمع له شمله ،ويجعل غناه فى قلبه ، ويجعل الدنيا خادمة له ، فتأتيه وهى راغمة فيزهد فيها لعلمه بدناءتها، وخسَّتها ، وسرعة انقضائها ، وأنها لا تساوى عند الله جناحَ بعوضة .

(ب) ومنهم مَنْ جعل إلهه هواه ، وغفل تمامًا عن ذِكْرِ الله ،وظَنَّ أنه مُخَلَّدٌ فى الدنيا ، وأن الموت لا يأتيه أبدًا ، وقد يمشى فى جنازة وهو يضحك ، ويتكلم مع صاحبه فى أمور الدنيا ، ولا يكاد يفكر فى مصيره المَحْتُوم ، وإن كان يقول : الموت علينا حَقٌّ ، ويعزِّى صاحبه فيقول : كلنا لها ، وربما عَزَّاه بقوله تعالى: ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وهو وأمثالُهُ فى غمرةٍ ساهون .

(جـ) ومنهم مَنْ يذكر الموت تارةً وينساه أخرى ، وهؤلاء نوعان :

---

(١) القصص : ٨٨ . (٢) الرحمن : ٢٦ - ٢٧ .

نوعٌ تَذَكُّرُهُ للموت أكثر من نسيانه له و، هو قريبٌ من الصنف الأول .
ونوع نسيانُه الموتَ أكثر من تَذَكُّره له ، وهذا إلى الصِّنْفِ الثانى أقرب .
ومَنْ استحيا من الله أكثر من تذكُّرِ الموت والبلى .

والبِلى – بكسر الباء – هو فناء الأجساد بعد فسادها بالموت، فتصير عظامًا نخرة ، بل تصير ترابًا مختلطًا بتراب الأرض ، فلا يُعْرَفُ الملكُ من المملوك ، ولا الغنى من الفقير، فالوصف المطابق لحالهم جميعًا أنهم تُرَابِيُّون ، وكفى .

قال مالك بن دينار :

أتيتُ المقابرَ ناديْتَها أيْنَ المُعَظَّـمُ والمُفْتَخِرْ
أين المُدلُّ بسلطانه أين المُزَكَّى إذا ما حَضَرْ
أين المُلَبَّى إذا مادعا أين العزيزُ إذا مَـــا أمَرْ

قال : فسمعتُ مناديًا – ولم أر شيئًا – يقول :

تَفانَـــوا جمـيعًا فـلا مُخْبِرٌ وماتوا جميعًا وهـــذا الخبرْ
تَرُوحُ وتغدو بنـــاتُ الثَّـرَى فَتَمْحُوا مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّوَرْ
وقـــد قُلِّدَ الـقَوْمُ أَعْمَالَهُـمْ فإما نُعــــيمٌ وإمــا سَـــقَرْ
وساروا جميعًا إلى مَلِكٍ قادرٍ عزيزٍ مـــطاع إذا مـا أمـــرْ
فَيَا سَائِلِى عـــن أُنَاسٍ مضَوْا أما لك فيمن مَضَــى مُعْتَبَرْ

نَعَمْ أما لك فيمن مضى معتبر ، وأنت فى تَنَاقُصٍ دائم – تناقص فى العُمُر، وتناقص فى الخلق ، وعُمُرك هو رأس مالك ، إن ضيعته فقد ضَيَّعت كل شىء ، وأنَّ اليوم الذى يمضى لا يعود ، وأن فى قلبك ساعةٌ تدق ، فإذا كفَّت عن الدَّق فقد انتهى أَجَلُكَ ولم يصحبك إلى قبرك إلا عملُك ، إذ يرجعُ أهلُك ومالُك ، فلماذا اتَغْفَل عن ذلك ؟ .

دَقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له
إن الحياةَ دقائقٌ وثوانِ

بل هى أنفاس معدودة ، فى أماكن محدودة ،وحساب ربك ليس بالدقائق ولا بالثوانى ، ولا بالأنفاس ، بل حسابُه بما لا يحيط به علماً إلا هو ،ولكن ليس لنا قانونٌ نَحْسِبُ به أعمارنا إلا الدقائق والثوانى والأنفاس ، فلنعتبر أنفسنا أمواتاً أولاد أموات ، حتى نتمكن من التَّزَوُّد لدار القرار ، وهى الدار التى لا موت فيها أبداً .

فَمَالَكَ ليس ينفعُ فيك وَعْظٌ
ولا زجرٌ كَأَنَّك من جَمَاد
سَتَنْدَمُ إن رَحَلْتَ بغير زاد
وَتَشْقَى إذ يُنَاديك المنادى
تُبْ عَّما جَنَيْتَ وَأنتَ حَىٌّ
وانْتَبِه وَأَفِقْ قبل الرُّقَاد
ولا تأَمَنْ لذِى الدُّنْيَا صَلاحاً
فَإنَّ صَلاحَهَا عينُ الفساد
تَأَهَّب للذِى لا بُدَّ منه
فإنَّ الموتَ مِيقَاتُ العبادِ
أترضى أن تكونَ رفيقَ قومٍ
لهم زادٌ وَأنْتَ بغير زادِ

جلس أربعة من الأخيار ، قيل هم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، فتذاكروا الموت ، ففاضت أعينُهُم بالدمع ، فأنشد الأول :

الموتُ بابٌ وكلٌّ الناسِ داخِلُه
ليت شِعْرِى بعد الموتِ ما الدَّارُ ؟

وأنشد الثانى :

الدَّارُ دارُ نعيم إن عملتَ بما
يُرضى الإلهَ وإن خالفتَ فالنارُ

وأنشد الثالث :

ما للعبادِ سوى الفردوسِ إن عملوا

وإن هُمُوا هفوا هفوةً فالربُّ غفارُ

وأنشد الرابع :

هما مَحِلاَّنِ ما للناس غيرهُمَا

فاخترْ لنفسك أىَّ الدار تَخْتَارُ

والديار أربعة : كل دار لها خصائصها :

الأول : دار الأجنة ، وهى دار لا تكليف فيها .

والثانية : دار الدنيا ، وهى دار التكليف والابتلاء .

والثالثة : دار البرزخ ، وسميت بذلك لأنها هى البرزخ أى الفاصل بين الدنيا والآخرة .

والرابعة : هى دار القرار ، وهى الدار التى فيها الحساب والجزاء ، فيكون الناس فيها فريقين :

فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

والمرء لا ينبغى أن يتمنى الموت لضر أصابه ، أو لخوفِ أَلَمَّ به ، فإن الدنيا مزرعةٌ للآخرة ، وخيرُ الناس مَن طال أجلُهُ وحَسُنَ عمله .

وإن كان ولابد من ذلك فليقل ما أمر الرسول - ﷺ - بقوله : « اللهم أَحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وَتَوَفَّنِي إذا كانت الوفاةُ خيراً لى » (١) .

واعلم أنه ليس كل من مات قد استراح ؛ إذ ربما يكون قد مات كافراً ، أومات على معصية ، فلا ينبغى أن يقول قائل : فلان مات فاستراح ، فَهذا القول رجمٌ بالغيب ، وتَقَوُّلٌ على الله بلا علم .

---

(١) راجع حديث : « لا يتمنيَنَّ أحدُكم الموت » .

ولو أَنَّا إِذا مُتْنَا تُرِكنَا

لِكَانَ الموتُ راحةَ كلِّ حَىْ

ولكنَّا إِذا مُتْنَا بُعِثْنَا

ونُسْأَلُ بعدَ ذا عن كُلِّ شَىْ

* * *

أما قوله ﷺ فى ختام هذا الحديث الجامع لخصال الخير كُلِّها : « ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

فمعناه واضح لا يحتاجُ منا إلى بيان غير أنَّ لنا هنا وقفة أمام قوله : « ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا » فإننا نجد أنفسنا عند التأمل أمام خيارين : دنيا ذاهبة ، وآخرة آتية ، فمــن أراد الدنيا شُغِلَ بها ، ومَن أراد الآخرة سعى لها سَعْيَهَا ، وسَعْيُهَا ترك زينة الدنيا ، وهو بيانٌ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أرادَ الآخرةَ وسعى لها سعيَها فأولئك كان سعيُهم مشكوراً ﴾ (١) .

وترك زينة الدنيا ليس معناه الحرمان التام من طيبات الحياة وزينتها ،وإنما هو عبارة عن ترك ما يؤدى إلى الإسراف ، أو إلى العُجْب والرِياء ، والغرور والخيلاء ، أو يشغَلُ عن ذكر الله ، أو يؤدى إتيانُه إلى مُحَرَّم .

ودليل هذا قوله تعالى : ﴿ قل من حرَّمَ زينةَ الله التى أخرجَ لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصةً يومَ القيامة كذلك نُفَصِّلُ الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرَّم ربى الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ والإثمَ والبغىَ بغيرِ الحقِّ وأنْ تُشركوا بالله ما لم يُنَزِّلْ به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ (٢) .

وقد مضى الكلام عن ذلك بشىء من التفصيل فى حديث : « ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » .

* * *

---

(١) الإسراء : ١٩ .

(٢) الأعراف : ٣٢ - ٣٣ .

والقاعدة الجامعة التى نستَوْحيها من هذا الحديث هى : ألاَّ يراك الله حيثُ نَهَاك ، ولا يَفْتَقِدَك حيث أمرك ، فهذا هو الحياء حقًّا .

فمَنْ كان حالُهُ مع الله موافقًا لهذه القاعدة فقد استحيا من الله حقَّ الحياء ، وبذلك يكون قد أتى بالدنيا من قُرُونهَا ، وأخضَعَها لصلاح أمره فى معاشه ومعاده ، ووَقَى نفسه من شُحِّها ، وَشَرِّهَا ، وَأشَرِهَا ، وبَطَرها ، ورَدَّها إلى خالقها مُطْمئنة راضيةً مرضية .

ومَنْ عَرَفَ نفسه عَرَفَ ربه ، ومن عرف ربه استحيا منه ، ومَنْ استحيا منه لزم طاعته ، ومن لزم طاعته أحبَّه ، ومَنْ أحبَّه أرضاه وجعل الجنة مَثْوَاه .

﴿ ربنا لا تُزغْ قلوبَنا بعد إذ هديتنا وهَبْ لنا من لدُنك رحمةً إنك أنت الوهَّابُ ﴾ (١) .

* * *

(١) آل عمران : ٨ .

(١٩) اتَّقِ اللَّهَ حيثُما كنتَ

عَنْ أبي ذرٍّ جُنْدُب بن جُنادةَ - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : « اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُما كُنْتَ ، وأَتْبعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ،وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسنٍ » (١) .

* * *

هذه الوصية جامعة لحقوق الله ، وحقوق عباده ، فإن حق الله على عباده أن يتقوه حق تقاته ،والتقوى وصية الله للأولين والآخرين .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد وصَّيْنا الذين أوتوا الكتابَ من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ (٢) .

وأصل التقوى أن يجعل العبد لنفسه وقاية من غضب الله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ومراقبته فى السر والعلانية ، والخوف من ذنوبه، والتوبة منها على الدوام ؛ فهو سبحانه أهل أن يُخْشَى ويُهاب ، ويُجلّ ويُعْظم فى صدور عباده حتى يعبدوه ويطيعوه عن حب ورضا .

قال تعالى : ﴿ هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفرة ﴾ (٣) .

وقد روى الترمذى فى تفسير هذه الآية أن النبى ﷺ قال : « قال الله تعالى - يعنى فى الحديث القدسى - : أنا أهل التقوى ، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلهًا آخر فأنا أهل أن أغفر له » .

ويتفاوت الناس فى التقوى كتفاوتهم فى القدرات والأخلاق فمنهم من يقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات ، ومنهم من يؤدى الواجبات ويفعل الكثير من المندوبات ويجتنب المحرمات والمكروهات ،ومنهم من يترك الجائزات خوفًا من الوقوع فى المحرمات ،ومنهم من يزهد فى الدنيا فيقتصر على ما يسد الرمق ويستر العورات .

---

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن ، وفى بعض النسخ : حسن صحيح .

(٢) النساء : ١٣١ . (٣) المدثر : ٥٦ .

والتقوى جماع ذلك كله .

وأصل تمام التقوى أن يعلم العبد ما يُتَّقَى ثم يَتَّقِى .

قال عون بن عبد الله : تمام التقوى أن تبتغى علم ما لم تعلم منها إلى ما علمت منها (١) .

وذكر معروف الكرخى عن بكر بن حُبَيْشَ قال: كيف يكون مُتَّقيًا مَنْ لا يدرى مَا يَتَّقى ؟ .

ومن أعظم وصاياه - ﷺ - فى التقوى ما رواه الترمذى عن يزيد بن سلمة أنه سأل النبى ﷺ قال : يا رسول الله : إنى سمعت منك حديثًا كثيراً أخاف أن ينسنى أوله آخره ، فحدثنى بكلمة تكون جماعًا ، قال : « اتق الله بما تعلم » أى فيما تعلم أنه ينبغى أن تتقى الله فيه .

وقد أمر الله بالتقوى فى آيات كثيرة ، حتى أنه - جل شأنه - قد أمر بها فى الآية الواحدة مرتين ، كما فى قوله - جل وعلا - : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتَنْظُر نفسٌ ما قدمتْ لغدٍ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ (٢) وفى ذلك دليل على أنها أصل أصول الدين ، فهى من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، فمن قال : « لا إله إلا الله » لزمه أن يتقى الله ، فالتقوى برهان على صحة إيمانه ، وسلامة يقينه ؛ ولهذا سماها كلمة التقــوى فى قوله - جل شأنه - : ﴿ إذ جَعَلَ الذين كفروا فى قُلوبهم الحَميَّةَ حَميَّةَ الجاهلية فأنزلَ اللهُ سكينتَه على رسوله وعلى المؤمنين وألزَمهم كلمةَ التقوى وكانــوا أحقَّ بها وأهلَها وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ (٣) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ أى أوجبها عليهم ، وعَمِلَ مفهومُها فى قلوبهم فالتزموها التزامًا تامًّا بقدر طاقتهم البشرية ، فَنُسبَتْ

---

(١) أى أن تطلب كل ما يتعلق بها ، وكل موطن من مواطنها ، وكل دافع يدفعك إليها ويرغبك فيها ، فتضيفه إلى ما قد علمت من ذلك .

(٢) الحشر : ١٨ .　　　(٣) الفتح : ٢٦ .

إليهم هذه الكلمة - كلمة التوحيد - عقيدةً وعملاً وأخلاقًا وسلوكًا ، فكانوا أحق الناس بها على الإطلاق ، وكانوا أهلها حقًّا وصدقًا .

وأهلها هم أهل الله وخاصته ، يتولاهم بعنايته ، ويكلؤهم بحفظه ورعايته ، ويغفرُ لهم ذنوبهم ، ويتغمدهم بواسع رحمته ، فهو أهل التقوى ، وأهل المغفرة ، كما صرح بذلك فى سورة المدثر .

والناس متفاوتون فى التقوى - كما ذكرنا - وقد قال الله عز وجل : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١) .

ولا شك أنه هو محمد ﷺ كما جاء فى الحديث الذى أخرجه البخارى : « أمَا إنى أتقاكم لله وأخشاكم له » .

ويليه فى التقوى صاحبه أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ وسَيُجَنَّبُها الأتقَى الذى يُؤْتى مالَهُ يتزكَّى وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزَى إلا ابتغاءَ وجهِ ربِّه الأعلى ولسوفَ يَرضَى ﴾ (٢) .

وإن صح أن هذه الآية نزلت فيه فإن اللفظ يحتمل غيره لكن بالتبعية لا بالأصالة ؛ لأن إيمان أبى بكر لو وزن بإيمان الأمة لرجح إيمانه على إيمانها - كما جاء فى الحديث .

وأصحاب النبى ﷺ أتقى من التابعين وأجدر بأن تكون التقوى أهلهم ويكونوا هم أهلها ؟ ، وهم كالنجوم يُستضاء بهم فى أمور الدين والدنيا .

ولهذا أمرهم الله - عز وجل - بالتقوى على أتم وجه وأبلغه ، فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ حقَّ تُقَاته ولا تَموُتنَّ إلا وأنتم مُسْلمون ﴾ (٣) .

أى الزموا طاعته لزومًا تامًّا ، ولا تقصروا فى شىء أمركم الله به ، ولا تقربوا شيئًا نهاكم الله عنه ، ولا تَحُومُوا حول الشبهات ، وازهدوا فى الدنيا ، وارغبوا فى الآخرة ، واخشوا ربكم فى سركم وعلانيتكم ، وكونوا قدوة لغيركم فى

---

(١) الحجرات : ١٣ .
(٢) الليل : ١٧ - ٢١ .
(٣) آل عمران : ١٠٢ .

العمل بكتاب ربكم ، وسنة نبيكم على قدر طاقتكم ، وعلى قدر ما وهبكم من العلم والمعرفة ، وبمقتضى ما أنزله فى قلوبكم من السكينة التى تزدادون بها إيمانًا مع إيمانكم كلما تليت عليكم آية من آيات ربكم أو استمعتم إلى كلمة وعظ وتذكير من نبيكم .

ولا يَأْتِيَنَّكُم الموت إلا على الحالة التى أنتم عليها من الإسلام الكامل والخضوع التام لله رب العالمين .

قال ابن مسعود – رضى الله عنه – فى تفسير هذه الآية : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى .

وفى رواية لابن عباس ، قال فى تفسـير الآية : أن يجاهدوا فى سبيله حقَّ جهاده ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم .

وبسط هذا فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربَّكم وافعلوا الخيرَ لعلكم تُفلحون وجاهدوا فى الله حقَّ جهاده هو اجتباكم وما جعلَ عليكم فى الدينِ من حرجٍ ملَّةَ أبيكم إبراهيمَ هو سَمَّاكَمَ المسلمين من قبلُ وفى هذا ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداءَ على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فَنِعْمَ المولَى ونعمَ النصير ﴾ (١) .

* * *

وبعد هذا التَطْواف فى معنى التقوى يجدر بنا أن نتفهم قول النبى ﷺ فى هذه الوصية لأبى ذر – رضى الله عنه – : « اتق الله حيثما كنت » أى فى عموم المواطن ، ومختلف الأحوال ، ومع كل الناس، وفى جميع أمور دينك ، وشئون دنياك ، واجعلها لك صاحباً مُلاَزماً ، واتخذها لك سُلَّماً ترقى عليه إلى أعلى درجات السداد والرشاد ، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، وتحصّن بها من آفات الطيش ، ونزوات النفس ، ونزغات الهوى ، ووساوس الشيطان ، واعتصم بها من

---

(١) الحج : ٧٧ – ٧٨ .

غضب الله تعالى وعذابه ، وراقب ربك فى جميع تصرفاتك ، وحاسب نفسك على كل صغيرة وكبيرة حساباً يردعها عن المعاصى ، وتَعَلَّم أمور دينك حتى لا تقع فى الخطيئة وأنت لا تعلم أنها خطيئة ، إلى غير ذلك مما يحويه هذا الأمر من المعانى التى لا تخرج عما ذكرناه آنفًا ، فَمَعْنى التقوى النجاة كل النجاة – بإذن الله – مما يخاف المؤمن ويحذر .

قال تعالى : ﴿ ويُنَجِّى الله الذين اتَّقَوا بمفازَتِهم لا يَمَسُّهم السُّوءُ ولا هم يَحزنون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ ومن يَتَّقِ اللهَ يجعلْ له مخرجًا ويرزقْه من حيث لا يَحتَسِب ﴾ (٢) .

والله عز وجل مع المتقين يعينهم على التقوى ؛ لأنهم طلبوها لأنفسهم ، ورغبوا فيها ، وسلكوا الطريق إليها ، وهى معية خاصة لا تكون إلا لأوليائه ، وأصفيائه ، وأحبائه .

قال تعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتَّقَوا والذين هم محسنون ﴾ (٣) .

وقال عز شأنه : ﴿ بَلَى مَن أَوْفَى بعهده واتَّقَى فإن الله يحبُّ المتَّقين ﴾ (٤) .

* * *

ولما كان الأمر بالتقوى فى هذا الحديث يوحى للمأمور بها بأنه لا قدرة له على استصحابها فى كل وقت ، وفى كل حال ، حيث إنه عُرضة للزلل والوقوع فى الهفوات ، واقتراف السيئات – أمره النبى ﷺ بأمر آخر يُهَوِّن عليه هذا الشعور الُمخِيفَ ، ويهديه إلى الطريقة الصحيحة التى يداوى بها جراحه ، ويرفع بها الحرج عن نفسه ، ويتلاشى ما وقع فيه من تقصير فى حق ربه – عز وجل – فقال له ولأمثاله :

---

(١) الزمر : ٦١ .　　(٢) الطلاق : ٢ – ٣ .
(٣) النحل : ١٢٨ .　　(٤) آل عمران : ٧٦ .

« واتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُهَا » أى إذا وقعت منك سيئة فافعل فى مقابلها حسنة يغلب على ظنك أنها تكون جبراً عن تفريطك فى حق الله عز وجل ، وسبباً فى قبول توبتك ؛ فإن الحسنة من غير توبة لا تمحو السيئة ؛ لأن شرط العفو عن الذنب أن يندم الإنسان على فعله ، ويعزم على تركه ثم بعد ذلك يتقرب إليه بما يرضيه مما يحسن فعله .

قال تعالى : ﴿ إلا من تابَ وآمن وعَمِلَ عملاً صالحًا فأولئك يُبَدِّلُ الله سيآتِهم حسناتٍ ﴾ (١) .

فالإيمان والتوبة والعمل الصالح شرط فى محو السيئة بالحسنة بمقتضى هذه الآية .

ومعنى التبديل أن يجعل الله مكان السيئة التى محاها الحسنة التى فعلها عبده ، وليس المراد – والله أعلم بمراده – أن الله عز وجل يعطيه بقدر سيئاته التى فعلها حسنات ، اللهم إلا إذا فعل فى مقابل كل سيئة منها حسنة ، وإن كان لا يمتنع فى فضل الله – عز وجل – أن يجعل مكان سيئاته كلها حسنات بحسنة واحدة فعلها . ﴿ وكلُّ شىء عنده بمقدار ﴾ (٢) .

وقوله ﷺ : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وأَقِم الصلاة طَرَفَىِ النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئاتِ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ (٣) .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود – رضى الله عنه – : « أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة ثم أتى النبى ﷺ فذكر ذلك له ، فسكت النبى ﷺ حتى نزلت هذه الآية ، فدعاه فقرأها عليه ، فقال رجل : هذا له خاصة ؟ ، قال : بل للناس عامة » .

لكن هذا مشروط بعدم الإصرار كما هو معلوم من قوله تعالى : ﴿ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ (٤) كما سيأتى بيانه .

---

(١) الفرقان : ٧٠ .
(٢) الرعد : ٨ .
(٣) هود : ١١٤ .
(٤) آل عمران : ١٣٥ .

فمن تاب من ذنبه ثم عاد إليه رغم أنفه أو باختياره في حالة ضعف منه فتاب إلي الله - قَبِلَ منه توبته مهما عاد مادام لا يصر على الذنب ، ولا يَسْتَخِفُ بخطورته .

جاء فى الصحيحين عن النبى ﷺ قال : « إذا أذنب عبدٌ ذنبًا فقال : رب إنى عملت ذنبًا فاغفر لى ، فقال الله : علم عبدى أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، قد غفرت لعبدى . ثم إذا أذنب ذنبًا آخر - إلى أن قال فى الرابعة : فليعمل ما شاء » .

يعنى ما دام على هذه الحال ، كلما أذنب ذنبًا استغفر منه .

وفى الترمذى من حديث أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة » .

وخرَّج الحاكم من حديث عقبة بن عامر « أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أحَدُنَا يُذْنبُ ؟ ، قال : يُكتبُ عليه ، قال : ثم يستغفر منه ، قال : يُغفر له ويُثاب عليه ، قال : فيعود فيذنب ، قال : يُكتبُ عليه ، قال : ثم يستغفر منه ويتوب ، قال : يُغفر له ويُثاب عليه ، ولا يَمَلُّ اللهُ حتى تَمَلُّوا » .

وهناك من يتوب من ذنوبه وهو يعزم على أن يعود إليها ، أو يقول فى نفسه سأعمل الذنب ثم أتوب والله غفور رحيم ، أو يتوب من الذنب عندما لا يجد القدرة علي ارتكابه ، وهذا وأمثاله لا يقبل الله منهم توبة ، بل قد يعاقبهم على هذه التوبة ، وتسمى هذه التوبة توبة المستهزئ بربه - والعياذ بالله تعالى - .

وقد كان بعض الصالحين يقول : « استغفارنا يحتاج إلى استغفار » وهذا صحيح ؛ لأن المسلم مهما جمع قلبه على الله تعالى ، واعتذر إليه ، وقَرَعَ سِنَّ الندم على ما فعل فهو يشعر بأنه مقصر في التوبة أو فى سلوك سبيلها ، ويَتَّهِمُ نفسه دائمًا بالتقصير ؛ولهذا جعل « ابن القيم » من أركان التوبة التوبة من التوبة، أخذًا من قوله تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تُفلحون ﴾ (١) .

---

(١) النور : ٣١ .

فهذه الآية خطاب عام لجميع المؤمنين ، فتشمل بعمومها من تاب ومن لم يتب ، فالتائب يحتاج إلى تجديد التوبة لتحقق الاستمرار عليها إلى آخر العُمُر ، فهى كما يقول العلماء : أول الطريق ووسطه وآخره .

وللتوبة حديث واسع مفصل فى موضع آخر .

* * *

لقد كانت الوصية الأولى حقًّا خالصًا لله ، وكانت الوصية الثانية حقًّا للمُكَلَّف ، وهو حق متصل بحق الله ، ثم جاءت الوصية الثالثة فكانت حقًّا للعباد بعضهم على بعض ، وهى قوله ﷺ : « وخالِق الناس بخُلُقٍ حسن » .

ومعنى قوله : « وخالق الناس ... » أى عاملهم معاملة مرضية ، وعاشرهم بالمعروف معاشرة طيبة ، وشاركهم آمالهم وآلامهم بروحٍ تعاونية ، وسالمهم فى المواطن التى تحسن فيها المسالمة ، وجاملهم فى الأمور التى تحسن فيها المجاملة ، وتسلح فى مخالطتهم بالصبر والحلم ، والعفو والصفح ، وأَحْسِنْ لمن أساء إليك إبتغاء وجه الله تعالى ؛ فأفضل الناس عند الله ذو الخلق الحسن .

روى أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه من حديث أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا » .

وأخرج أحمد وأبو داود النسائى وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك قال : « قالوا : يا رسول الله ما أفضل ما أُعطى المرء المسلم ؟ قال : الخلق الحسن » .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود من حديث عائشة – رضى الله عنها – عن النبى ﷺ قال : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجات الصائم والقائم » .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود أيضًا والترمذى من حديث أبى الدرداء – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « ما من شىء يوضع فى ميزان العبد أثقل من حسن الخلق ، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة » .

وأخرج ابن حبان فى صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « ألا أخبركم بأحبكم إلى الله وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة ؟ . قالوا : بلى ، قال : أحسنكم خُلُقًا » .

والأحاديث فى حسن الخلق كثيرة لا تكاد تحصى ، وسيد الأخلاق الحلم ؛ فهو جماع الفضائل ، وقرينه السخاء فمن جمعهما فقد جمع الخير كلَّه .

* * *

وهذا الحديث بفقراته الثلاثة إجمال لقوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربِّكم وجنَّةٍ عرضُها السماوات والأرض أُعدَّت للمتقين الذين يُنفقون فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكاظمين الغيظَ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظَلَمُوا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفرُ الذنوب إلا الله ولم يُصِرِّوا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ونِعْمَ أجرُ العاملين ﴾ (١) .

فأول صفة من أوصاف أهل الجنة التقوى ، والمتقون هم الذين وصفوا أولاً بالسخاء ، وهو الجود والكرم وبذل المال فى سبيل الله وفى ميادين الخير ، وفى أوقات الرخاء والشِّدَّة ، لا يكفون عن العطاء ماداموا أحياء .

والوصف الثانى لهم : كظم الغيظ ، وهو أول درجات الحِلم ، ومعناه حبس الغضب وكبح جماحه لشدة أخطاره ، وكثرة أضراره ، فإنه لو استحكم الغيظ واشتد الغضب ربما يؤدى إلى إهلاك صاحبه ، كما سنعرف عند الكلام على قوله ﷺ : « لا تغضب » .

والعفو بعد كظم الغيظ هو الحلم فى أسمى معانيه ، ولا سيما إذا كان عن مقدرة ، وهو عزمة من عزمات الله عز وجل .

---

(١) آل عمران : ١٣٣ - ١٣٦ .

أما الإحسان بعد العفو فهو فى الذروة العليا من الكمال الخلقى والنفسى .

وأما الاستغفار من الذنب وعدم الإصرار عليه فهو التوبة النصوح التى ينبغى أن ترافق العبد فى طريقه إلى الله تعالى من أوله إلى آخره .

والمؤمن يراقب ربه فى جميع أحواله ، ويحاسب نفسه على أفعاله كما ذكرنا ، وينتبه بســرعة إلى ما يــريده الشيطان به ، فيبادر إلى تخليص نفسه من هواجسه ، وتمحيص قلبه من وساوسـه ، فلا يعطيه مهــلة ينسيه فيها ذكر ربه عز وجل .

قال تعالى : ﴿ إن الذين اتَّقَوا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون ﴾ (١) .

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق .

* * *

(١) الأعراف : ٢٠١ .

(٢٠) عَلَيْكُم بسُنَّتى

عن العرباضِ بن ساريةَ - رضىَ اللهُ عنه - قالَ : صَلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ ثمَّ أَقْبَلَ علينا فوَعظنا موعظةً بليغةً ذَرَفت منها العيونُ ووجلتْ منها القلوبُ ، فقال قائل :

يا رسولَ اللهِ كأنَّ هذه موعظةُ مودِّع ، فماذا تعهدُ إلينا ؟ ، فقال : « أوصيكم بتقوى اللهِ ، والسمعِ والطاعةِ ، وإن عبداً حبشيًا ؛ فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنَّتى وسنة الخُلَفاء الرَّاشدين المهْديِّين ، تَمَسَّكُوا بها وعَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجذ ، وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكَلَّ بِدْعةٍ ضَلاَلَةٌ » (١) .

* * *

هذه الوصية من الوصايا الجامعة التى تترتب عليها أحكام كثيرة أفاض الفقهاء فى بسطها وإيضاحها ، وفيها من الأخبار التى يجب على كل مؤمن أن يعتبر بها ، ويحسب لها حساباً ويعد نفسه - إن ظهرت فى عصره - للتعايش معها دون مخالفة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

وقد كانت مواعظ الرسول ﷺ موجزة بليغة ، يسهل على الناس حفظها ، واستيعاب ما فيها من المعانى السامية ، والمقاصد الجليلة ، فهو ﷺ قد أوتى جوامع الكلم ، وأمره الله - عز وجل - أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وأن يُحَدِّثَهُم بما ينفعهم ، وأن يقول لهم قولاً يبلغ شغاف قلوبهم .

فقال تعالى : ﴿ أولئك الذين يعلمُ اللهُ ما فى قلوبهم فأعرِضْ عنهم وعِظْهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغًا ﴾ (٢) .

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه ، والبيهقى ، والترمذى وقال : حسن صحيح .

(٢) النساء : ٦٣ .

لكن هذه الوصية التى قصها علينا الراوى كان لها فى نفوس المؤمنين وقع خاص ، فهموا من نبراتها أنها وصية مودع ؛ لأنها موعظة - كما قال الراوى - ذرفت منها العيون - أى فاضت بالدمع - ووجلت منها القلوب - أى خافت وخشعت .

فأفصح عن ذلك قائل منهم فقال : كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ ، أى بماذا توصينا ؟ ، وماذا تريد أن نفعل من بعدك ؟ ، وكأنه قد أراد المزيد من هذه الموعظة ، أو لعله فهم أن من ورائها - لو بُسطَت - خيراً كثيراً لا ينبغى أن يفوتهم ، وقد عرفوا أن الإيجاز من عادته ، والمقام مقام بسط وإيضاح ، فخافوا أن يسكت ، وقد استعذبوا قوله ، واستراحت أنفسهم له ، وخشعت قلوبهم لذكر الله ، وبكت عيونهم من خشية الله ، فأجابهم الرسول ﷺ إلى ما سألوا عنه فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن عبداً حبشيًّا » .

وتقوى الله معناها طاعته والخوف منه ، وهى جماع الدين كلِّه .

وقد عرفها العلماء بتعريفات لا تخرج عما ذكرته .

ويروى بعضهم أن عليًّا رضى الله عنه سئل عن التقوى فقال :

هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وأما السمع والطاعة لولى الأمر وإن كان عبداً حبشيًّا فإنه لا يعنى أن يكون ذلك على الإطلاق ، ولكنه مشروط بطاعته لله ، فإن أطاع الله وجبت علينا طاعته ، وإلا فلا .

فقد أخرج أحمد فى مسنده والترمذى فى جامعه عن أم الحُصَين الأحمسية قالت : سمعت رسول الله ﷺ يخطب فى حجة الوداع فسمعته يقول :

« يا أيها الناس اتقوا الله ، وإن تأمَّر عليكم عبد حبشي مُجْدَع (١) فاسمعوا له وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله » .

---

(١) مجدع مشقوق الأذن والأنف .

وفى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة »(١) .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : « إن خليلى ﷺ أوصانى أن أسمع وأطيع ولو كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف »(٢) .

والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة جداً .

ولا يظن أحد أن الحاكم إذا عصى الله فى شىء أن يترك الناس طاعته تمامًا ؛ فإن ذلك هو عين الفساد فمن ذا الذى يستطيع أن يطيع الله فى كل شىء ، ولكن ينبغى أن يُقوَّم بالمعروف من غير تشهير به ، أو إغلاظ عليه .

ولهذا قال الرسول ﷺ : « فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيراً ؛ فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها وعَضوا عليها بالنواجذ » .

أى إنه سيأتى من بعدى أقوامٌ يختلفون فى الدين اختلافًا كثيراً حتى يُكَفِّرَ بعضُهم بعضاً فعندئذ عليكم بسنتى ، أى الزموها ، وتمسكوا بها تمسكًا شديداً ، كالذى يَعَضُّ على الشىء بأسنانه حرصًا على بقائه ، وخوفًا من انتزاعه .

وسنته دينه الذى أكمله الله لهذه الأمة عقيدة وشريعة ، وأتم به النعمة ، وكشف به الغمة ، وهو المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا غموض فيها ولا التباس .

والمراد بالخلفاء : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى - رضى الله عنهم - فهم الذين تمسكوا بسنة الرسول ﷺ تمسكًايغبطون عليه ، ولم يظهر فى عصرهم من الفرق الضالة إلا القليل ممن كان له يد فى قتل عثمان ،وحرب على - رضى الله عنهما - .

---

(١) أى من شدة سواد وجهه .

(٢) أى مقطوع اليدين والقدمين .

هذا ومن المعلوم أن العبد لا يتولى الإمارة فى أى زمان ، لا فى عصر الخلفاء ، ولا فى العصور التى جاءت بعدهم ، ولكن قال النبى ﷺ : « وإن عبداً حبشيًّا » على الفرض والتقدير ، ولا سيما عند وقوع الاختلاف بين الناس فى أمور الدين ، واستعمال القتل لأتفه الأسباب ، وانتشار الظلم هنا وهناك ، ولا يخفى ما فى ذلك من المبالغة في الحث على التمسك بالسنة عند فساد الأمة ، وعندما يُوَسَّدُ الأمرُ لغير أهله فَيَتَأَمَّرُ على الناس من لا يَسْتَحِقُّ الإمارة .

وقوله فى هذه الرواية : « وإن عبداً حبشيًّا » أى وإن كان الآمِرُ لكم عبداً حبشيًّا غريباً عنكم لا يستحق أن يتأمر عليكم بأى حال .

وفى رواية : « وإن تأمر عليكم عبد » .

فقوله : « فإنه من يعش » إلى آخره – تعليل لقوله : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة » .

وهذا القول يدل على أنه قد أحاط علماً من قبل الله تعالى بما يكون فى أمته إلى آخر الزمان . وهذا من معجزاته – ﷺ – .

* * *

وقوله – ﷺ – : « وإياكم ومحدثات الأمور » أى احذروا كل الحذر من البدع التى يحدثها الناس فى الدين ، وعلل ذلك التحذير بقوله : « فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » . وفى رواية : « وكل ضلالة فى النار » .

* * *

والبدعة هى كل ما لا أصل له فى الدين ترجع إليه ، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعاً ، وإن كانت تسمى بدعة فى اللغة ؛ فالبدعة فى اللغة هى كل أمر مخترع فى العبادات أو فى العادات .

وبدع العادات ثلاثة أنواع :

– نوع يوافق الدين ولا يخالفه فى شىء ، كأخذ الزينة المباحة ، والسكنى فى المنازل الفخمة ، والتنزه فى الحقول والحدائق ، ونحو ذلك مما هو معروف .

– ونوع يكره فعله شرعًا ، كالمبالغة فى زخرفة المساجد والمصاحف وغير ذلك مما نص عليه الفقهاء فى كتبهم .

– ونوع محرَّم ، وهو ما يخالف الدين ، كالتشبه باليهود والنصارى فى أعيادهم وملابسهم التى نهى الإسلام عنها .

وقد كتب الشاطبى كتابًا فى البدع سماه « الاعتصام » عرَّف فيه البدعة بأنها : « طريقة في الدين مخترعة تضاهى الطريقة الشرعية ، يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله سبحانه » .

وهذا عـلى رأى من لا يدخـل العـادات فى معنـى البـدعة وإنما يخصها بالعبادات .

وأما على رأى من أدخل الأعمال العادية فى معنى البدعة فيقول : « البدعة طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الطريقة الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية » .

والبِدَع التى لها أصل فى الدين كثيرة منها : تعلم النحو والصرف ، والبلاغة ، ومفردات اللغة ، وأصول الفقه ، وأصول الحديث ، وسائر العلوم الخادمة للشريعة .

ومثال البدع فى الدين : التشدد فى الدين بوجه عام ، كمن نذر أن يصوم قائمًا فى الشمس ، أو نذر أن يقوم الليل ولا يرقد منه ساعة ،والاقتصار على نوع واحد من الطعام أو الثياب من غير علة ، أو عَزَمَ على أن يعيش من غير زوجة ، أو حرم على نفسه أكل اللحم ، ونحو ذلك مما لا يحصى .

وقد راق لبعض العلماء كالعز بن عبد السلام والقرافى أن يقسموا البدع إلى خمسة أقسام : بدعة محرمة ، وبدعة مكروهة ، وبدعة مباحة ، وبدعة مندوبة ، وبدعة واجبة .

والشاطبى يعترض على هذا التقسيم ويرى أن البدعة نوع واحد ، وهى المحرمة بدليل قوله ﷺ : « وكل بدعة ضلالة » ، ويقول : إن ما وصف بالواجب

والمندوب والمباح هو من قبيل المصالح المرسلة لا من قبيل البدع ، ثم إن البدع فى نظره أخص من المعصية ، فكل بدعة معصية وليست كل معصية بدعة .

وبعض الفقهاء يقسمون البدعة إلى محمودة ومذمومة ، فالمحمود منها ما كان له أصل فى الدين ، كما أشار عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - على المسلمين أن يجتمعوا فى صلاة التراويح على إمام واحد ، وقال : نعمت البدعة هذه .

والمذموم منها ما ليس كذلك .

* * *

ولا أريد أن أتوسع - هنا - فى تعريف البدعة ، أو أجارى بعض العلماء فى تقسيمها إلى حسنة وسيئة ، فتقسيمهم هذا مبنى على حسب تعريف البدعة فى اللغة ، وهى : كل محدث على غير مثال سبق . فيكون كل ما حدث بعد رسول الله ﷺ من أمور الدين والدنيا - على هذا التعريف اللغوى - بدعة .

وبذلك يسوغ تقسيمها إلى : بدعة حسنة وبدعة سيئة .

ولكن إذا نظرنا إليها من حيث ما أحدث بعد رسول الله ﷺ فى الدين فقط ، وعرّفناها بأنها : كل حدث لا أصل له فى الدين ، فلا يسوغ - فى نظرى - تقسيمها إلى حسنة وسيئة .

والمحتجون بقوله ﷺ : « من سنّ سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عملها إلى يوم القيامة » (١) .

المحتجون بهذا الحديث على تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة لم يفهموا الحديث الفهم الصحيح على ما أظن ؛ إذ المراد به - والله أعلم - من ابتدع طريقة فى فعل المعروف ، وامتثال الأوامر ، فله الأجر المذكور ، ومن اخترع طريقة فى

---

(١) رواه مسلم في العلم ١٥ ، وفي الزكاة ٦٩ ، ورواه النسائي فى الزكاة ٦٤ ، وغيرهما .

فعل المنكر ، وارتكاب المعاصـــى ، فتبعـــه الناس فى ذلك ، فعليه الوزر المذكور، وقد قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « انتم أعلم بأمر دنياكم » (١) .

ولقد جاء الدين الإسلامى تامًّا كاملاً ، لا ينبغى لأحد أن يزيد فيه شيئًا ، أو ينقص منه شيئًا .

قال تعالى : ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلامَ دينًا ﴾ (٢) .

وقد حذر النبى ﷺ من الابتـــداع فى الدين ، فقال : « اتبعوا ، ولا تبتدعوا ، فقد كُفيتم » (٣) .

وقال عليه الصـــلاة والســـلام : « من أحدث فى ديننا هذا ما ليس منه ، فهو رد » (٤) أى مردود عليه .

وعن جابر – رضى الله عنه – قال : كان رسول الله ﷺ يقول فى خطبته : « أما بعد . فإن أصدق الحديث كتابُ الله ، وإن أفضل الهَدْى هَدْى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعةٌ ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » (٥) .

وقال الشافعى فى الأم : « كل شىء خالف أمر رسول الله ﷺ سَقْط(٦) . ولا يكون معه رأى ولا قياس ؛ فإن الله تعالى قطع العذر بقول رسول الله ﷺ فليس لأحد معه أمر ولا نهى غير ما أمر هو به » .

* * *

---

(١) رواه مسلم كتاب الفضائل باب ٣٨ حديث ٢٣٦٣ .

(٢) المائدة : ٣ .

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود .

(٤) رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة .

(٥) رواه أحمد ومسلم .

(٦) سقط : أى مهمل ومرفوض شرعًا .

وهذا الحديث بيان لقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتَهُوا واتَّقُوا الله إن الله شديدُ العقاب ﴾ (١) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ فخذوه ﴾ : الزموه ، وامتثلوه ، ولا تخرجوا عنه .

وهو بيان أيضًا لقوله تعالى : ﴿ فاتَّقُوا اللهَ ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفِقوا خيراً لأنفسكم ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ما استطعتم ﴾ تخصيصٌ لقوله – جل وعلا – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاته ولا تَموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ واسمعوا وأطيعوا ﴾ : أى اسمعوا نصح الناصحين ، وأطيعوا أمر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين المهديين ومن اتبعهم بإحسان ، فالسمع والطاعة واجبان على كل من يؤمن بالله ورسوله ، من أجل أن تستقيم أمور الدين وأمور الدنيا ، وينتشر السلام فى ربوع البلاد ، ويستتب الأمن بين الناس .

* * *

ويؤخذ من هذا الحديث فوق ما ذكرناه أربعة فوائد :

الأولى : أنه لابد من عالِمٍ يعظ الناس ، ويذكرهم بالله ويوصيهم بما فيه خير لهم فى دينهم ودنياهم حتى لا تصدأ قلوبهم وتصاب بالقساوة والظلمة ؛ فبالموعظة تَنْشَرِحُ الصدور ، وتستنير العقول ، وتلين الجلود والقلوب لذكر الله جل جلاله .

وخير الوعظ ما كان مستنبطًا من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، لا بتلك القصص المُخْتَلَقَة ، والأحاديث الملفقة ، والأخبار الواردة عن بنى إسرائيل ، وليس لها أصل فى الكتاب والسنة تُرَدُّ إليه .

روى مسلم عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يقول فى خطبته :

---

(١) الحشر : ٧ . (٢) التغابن : ١٦ .

(٣) آل عمران : ١٠٢ .

« إن خير الحديث كتاب الله ، وخيرَ الهَدْى هَدْى محمد - ﷺ - وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » .

وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ أَفَمَن شرحَ اللهُ صدرَه للإسلام فهو على نور من ربِّه فويلٌ للقاسية قلوبُهم من ذِكْرِ الله أولئك فى ضلال مبين الله نَزَّلَ أحسنَ الحديث كتابًا متشابهًا مَثَانِيَ تقشعرُّ منه جلود اللذين يَخْشَون ربَّهم ثم تَلينُ جلودُهمَ وقلوبُهم إلى ذكر الله ذلك هُدَى الله يهدي به من يشاءُ ومن يُضللِ الله فما له من هادٍ ﴾ (١) .

والعَالِمُ العارف بالله هو الذى يشرح القلوب المؤمنة بالمواعظ البليغة التى يَسْتَقيَها منَ القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ويستوحيها من سيرة أصحاب النبى ﷺ وخيار التابعين ، ويستلهمها بعقله الرشيد من الواقع المشاهد ، فيذكرهم بما يدور حولهم وبما يقع فى أرضهم وعصرهم من أحداث سارة أو ضارة ، فيشير إليهم بالعبرة التى يستمدها من هنا وهناك .

لكن لكى يكون علمه نافعًا عليه أن يعمل بعلمه ، وأن يعرف الناس أنه يقول ويفعل ، فالقدوة خير من القول ،والناس يتأثرون بأفعال الرجال الخيرة أكثر مما يتأثرون بأقوالهم النَّيِّرة .

ولهذا توعد الله من يقول : فعلت كذا وكذا ، أو افعلوا كذا وكذا - ولم يفعل بما أخبر به ، ولا بما أمر به .

فقال جل وعلا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كَبُرَ مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ (٢) .

والمقت هو الغضب الشديد ، وسيأتى لهذا مزيد بيان فى وصية أخرى - إن شاء الله تعالى .

الفائدة الثانية : أن يتخير الواعظ الأوقات المناسبة للوعظ والإرشاد ،وأن يكون ذلك فى فترات متباعدة نسبيًا حتى لا يمل الناس من وعظه ويعتادون عليه فيستخفون به بسبب الاعتياد .

---

(١) الزمر : ٢٢ - ٢٣ .   (٢) الصف : ٢ - ٣ .

فقد جاء فى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - قال : « كنت أصلى مع النبى ﷺ فكانت صلاته قصداً وخطبته قصداً » أى وسطاً بين الطول والقصر .

وروى أبو داود عنه أيضاً : « أن رسول الله ﷺ كان لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هى كلمات يسيرات » .

وروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى وائل قال : خطبنا عمار - رضى الله عنه - فأوجز وأبلغ ، فلما نزل قلنا : يا أبا اليقظان ، لقد أبلغت وأوجزت ، فلو كنت تنفست - أى أطلت - ، فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مَئِنَّة (١) من فقهه ، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة ، وإن من البيان (٢) سحراً » .

والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة ، وخير الكلام ما قل ودل .

الفائدة الثالثة : أن يستحضر المؤمن قلبه عند سماع الموعظة كما كان يفعل أصحاب النبى ﷺ بخواطره فى أمور الدنيا ، وإن سرح بخواطره هنا وهناك عاد مسرعاً إلى إحضار قلبه مرة بعد مرة حتى ينتفع بالعلم ويستفيد من الموعظة ، فرب كلمة يسمعها يكون فيها صلاح أمره فى معاشه ومعاده ، فالعلماء يُحْيُون القلوب بعلمهم ووعظهم كما يحيى المطر الأرض الموات .

تَحْيَا بهم كل أرض ينزلون بها

كأنهم فى بقاع الأرض أمطارُ

ولا ينتفع بالذكرى إلا المؤمن الذى يعالج قلبه من الهوى والغفلة بكثرة الجلوس فى مجالس العلم ، أما الغافلون فهم مبعدون عن العلم وأهله ، وإذا قدر

---

(١) المئنة : - بفتح الميم وكسر الهمزة وتشديد النون - معناها العلامة . أى علامة على نبوغه فى الفقه .

(٢) أى إن فى الإيجاز البليغ ما يأخذ بمجامع القلوب ويعمل فيها عمل السحر .

لهم الحضور فى مجلس علم لا تراهم يلقون بالاً إلى ما يسمعون ، ولو سمعوا ما عقلوا ، ولو عقلوا ما عملوا .

يقول الله – عزوجل – : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيدٌ ﴾ (١) .

أى إن فى ذلك الكتاب المبين لعبرة لمن كان له قلب حاضر سليم من آفات الهوى والغفلة ، أو ألقى سمعه إلى من يعظه ويذكره وهو فى حالة حضور قلبه بحيث تكون الأذن صاغية ، والقلب واعياً .

الفائدة الرابعة : أن ينظر المؤمن عالمًا أو متعلماً فى هذا الحديث نظرة تأمل واستبصار ، فيتعلم من الرسول ﷺ كيف يكون التفصيل بعد الإجمال وكيف تبنى النتائج على المقدمات ، وكيف تعلل الأحكام ، وكيف تترتب آثارها عليها ، وهذا النظر لابد له من عُدَّةٍ ومدد ، فكيف ينظر فى مثل هذه الأمور من ليس له خبرة فى العلوم اللغوية والأساليب الكلامية ، فلنكتف بما ذكرناه فيه من شرح وإيضاح .

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل .

* * *

---

(١) سورة ق : ٣٧ .

(٢١) الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم الرَّحْمَنُ

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم الرَّحْمَنُ ، ارحَمُوا مَنْ فى الأرضِ يَرْحَمْكم مَنْ فى السماء ، الرحِمُ شِجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ، فمَنْ وَصَلَها وَصَلَه اللهُ ، ومَنْ قَطَعَها قَطَعَه اللهُ » (١) .

* * *

هذا الحديث يفيض بِرًّا ، وعطفًا ، وحنانًا من قلب هذا الرسول الكريم ﷺ على كل من يتلقى وصاياه الحكيمة ونصائحه الغالية بالقبول الحسن ، ويرهف السمع إلى كل كلمة تخرج من فمه الطاهر ، فيسمعها منه ، أو ممن روى عنه بقلبه مع أذنه ، فيعيها ويتدبرها،ويستعين بالله على العمل بكل ما سمع ووعى .

فمحمد ﷺ - كما نعلم ونعتقد - رسول حكيم رءوف رحيم ، قد تفجرت من قلبه الزكى السليم ينابيع الرحمة ، فسالت أودية بقدرها فى قلوب المؤمنين المخلصين ، فعاشوا بها يتراحمون فيما بينهم تحت مظلة الإيمان متآخين متحابين ، يجتمعون على حب الله - تبارك وتعالى - ويتفرقون عليه ، فكانوا مثلاً لا مثيل له فى تطبيق الشريعة السمحة التى جاء بها هذا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وكانوا صورة حية من حياته السامية - ﷺ - حتى بدا للناس أنهم نجوم الهدى ، ومصابيح الإسلام لكل من أراد الهدى ورغب فى الإسلام .

إن الرسول ﷺ هو المثل الأعلى فى جميع المثُل العليا ، قد تجسدت فيه كل آيات النبل والخلق الرفيع ، فكان أسوة لأصحابه ولمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

---

(١) أخرجه الترمذى رقم ١٩٣٥ فى البر والصلة ، باب : فى رحمة الناس ، وأبو داود رقم ٤٩٤١ فى الأدب ،باب :فى الرحمة ، وهو حديث صحيح بشواهد،انظر مجمع الزوائد ٨/١٨٧ .

والرحمة هى الأصل الأصيل لهذا الدين الحنيف ، وهى كلمة واسعة الدلالة لا تقتصر على رقة القلب ولين الجانب كما يتصور بعض من لا خبرة لهم بلغة الشرع .

إنها صنو العدل ، تلازمه ويلازمها ، لا ينفك أحدهما عن الآخر بحال . فبالعدل قامت السماوات والأرض ، وبالرحمة يسود الحبُّ والوفاء ، والأمن والرخاء .

ولو ذهب العدل لاختلت الموازين المادية والمعنوية ، ولو ذهبت الرحمة ما تعايش الناس على الأرض يوماً من الزمان . على أن الرحمة والعدل إذا بقى أحدهما بقى الآخر ، وإذا ذهب أحدهما ذهب الآخر بالضرورة . فلا عدل بلا رحمة ، ولا رحمة بلا عدل .

ولذلك يجب علينا أن نفهم الحديث على النحو الواسع الذى يحتمله لفظ الرحمة ، فلا نقصره على العطف والحنان ،والبر والصلة ، بل نحمله على عمومه كما سيتضح لنا من خلال شرح هذا الحديث الذى يعتبر أصلاً جامعاً لخصال الخير كلها .

* * *

قول الرسول ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن » معناه واضح لا يحتاج إلى بيان ، لكننا نقف هنيهة عند قوله : « الراحمون » لنعرف من هم على وجه الحقيقة . فنقول :

الراحمون وصف لموصوف من رجال ونساء تأصل فى موصوفه بحيث صار علماً عليه ، فإذا قيل : قال الراحم ، أو ذهب الراحم عُرِف أنه فلان ؛ لأنه لاشتهاره بالرحمة أصبحت الرحمة له كالاسم الذى سماه به أبوه وأمه .

يقول النحويون : الراحم اسم فاعل يدل على الثبات والدوام ، ويزيد عليه علماء البلاغة فيقولون : هو صفة لموصوف نابت عنه فاستُغنى عن ذكره بها . كقوله تعالى : ﴿ ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ إذ المعنى : ولا تزر نفس وازرة وزر نفس أخرى .

ونخلص من هذا إلى أن الراحم هو الذى من شأنه الرحمة ، لا تفارقه ولا يفارقها – هكذا ينبغى أن نفهم مدلول هذا الوصف ، فلا يقال لمن رحم مرة هو رحيم ، أو هو راحم ، فتأمل ذلك ولا تكن عنه من الغافلين .

أما قوله ﷺ : « يرحمهم الرحمن » فإنه يوحى بعظمة الرحمة الصادرة ممن اتسعت رحمته ، فالرحمن هو العلم الثانى للذات العلية ، ومعناه صاحب الرحمة التى وسعت كلَّ شىء ، وما دام هو كذلك فإن رحمته بالرحماء تكون عظيمة موصولة لا تنقطع ، فهو يرحمهم ماداموا متصفين بهذا الوصف .

« وإن الله لا يَمل حتى تَملوا » كما جاء فى الحديث الصحيح . أى لا يزال يعطيكم ويعطيكم من الأجر على أعمالكم الصالحة مادامت موصولة الحلقات .

والفعل المضارع : « يرحمهم » يدل على التجدد والحدوث والاستمرار .

* * *

والرحمن – كما قلنا – هو العلم الثانى للذات العلية ، ترد إليه أكثر الأسماء الحسنى كالرحيم ، والكريم ، والرءوف ، والبَر ، والحليم ، والفتاح ، والباسط ، والتواب .... إلى آخر الأسماء التى فيها معنى الرحمة .

والرسول ﷺ بليغ ، يعبر عن المعانى بأسلوب يشع منه نور النبوة ، فقد آثر التعبير بهذا الاسم ليشعر المؤمن من خلال ذكره بأنه أمام فيض لا ينقطع من الرحمة التى لا منتهى لأصولها وفروعها .

فلو قال : « الراحمون يرحمهم الله » لكان صوابًا ولكنه لا يوحى بالمعنى الذى يريد الرسول ﷺ أن يعمقه فى نفوس المؤمنين .

والرسول ﷺ إنما يقتدى فى ذلك بالقرآن الكريم ، فينسب كل صفة لموصوفها ،وكل فعل لفاعله ، بحيث يظهر من ذكره بالوصف مدى تأثيره فى الفعل ، أو فى المفعول به .

فقولك مثلا : « يرحمنى الرحمن » أبلغ من قولك : « يرحمنى الله » ، وإن كان كلا القولين صحيح .

وتأمل قول الرجل الصالح الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وتتبع حديثه مع قومه لتعرف أن القول السديد هو ما وعظ النفوس وعظًا بليغًا ، وأثر فيها تأثيرًا عميقًا ، وقِفْ عند قوله تعالى : ﴿ إن يُرِدْنِ الرحمنُ بضُرٍّ ﴾ فإنه يوحى بأن الرحمن لا يريد الضر أبداً ،ولا يأمر به ، ولا يليق به – جل شانه – مع المؤمنين بالذات ، فهو رحمن واسع الرحمة ، ولا سيما بمن تعرض لها .

فهذا الرجل – وهو حبيب النجار – كان رحيماً بقومه ، يبغى لهم الهدى، ويرجو لهم الدارالآخرة ، فكيف يريده الله بالضر! ، ولكنه داعية ينتقى من العبارات ما تحيا بها النفوس المريضة ، وترق لها القلوب القاسية .

اقرأ هذه الآيات فى سورة يس من قوله تعالى : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى ﴾ ، إلى قوله : ﴿ قيل ادخُل الجنةَ قال ياليت قومى يعلمونَ بما غَفَرَ لى ربى وجعلنى من المُكرَمين ﴾ [(١)] وتدبرها لتعرف أن الأسلوب القرآنى معجز لا يقبل التحدى ، ولتعلم من خلال ذلك العلم أن الرسول ﷺ قد حاكى القرآن فى أسلوبه ، فكان أسلوبه معجزاً أيضاً ،لكن دون إعجاز القرآن .

وقد أوتى الرسول ﷺ جوامع الكلم خصوصية له ، فَضَّله الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

* * *

وقوله – ﷺ – بعد هذا التمهيد : « ارحموا من فى الأرض يرحمْكم من فى السماء » استجلاب لعواطف المؤمنين ، واستدرار لحنانهم على إخوانهم ؛ إذ هم رحماء فيما بينهم بمقتضى إيمانهم ، كما قال – جل وعلا – فى وصفهم : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداءُ على الكفَّارِ رحماءُ بينَهم ﴾ فهو تذكير بالرحمة لمن لا ينساها مبالغة فى الحث على مداومتها ، والحرص على زيادتها ونموها حتى يبلغ فيها الرجل منهم حد الإيثار .

---

(١) يس : ٢٠ – ٢٧ .

ولقد وصف الله الأنصار – رضوان الله عليهم – بأنهم بلغوا فيه الغاية مع إخوانهم من المهاجرين ، ووصف المهاجرين أيضاً بأوصاف لا تقل عن أوصافهم شأناً : فقال – جل شأنه – : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ويَنْصُرُون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوَّءوا الدارَ والإيمانَ من قبلِهم يُحبُّون من هاجرَ إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجةً مما أُوتوا ويُؤْثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصةٌ ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

ووصف الذين اتبعوه بإحسان بما يدل على حبهم لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان إذ يسألون الله – عز وجل – ألا يجعل فى قلوبهم شيئاً من الغل لإخوانهم ، ويدعون ربهم أن يغفر لهم ولأخوانهم بظهر الغيب ، وهو الأمر الذى يدل على أن التراحم بين المؤمنين موصول لا ينقطع حتى لا يبقى على الأرض مؤمن .

قال تبارك وتعالى عقب الآيتين السابقتين : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربَّنا اغفرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعلْ فى قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ربَّنا إنَّك رءوفٌ رحيمٌ ﴾ .

وينبغى أن نعلم أن هذا الخطاب النبوى ليس قاصراً على المؤمنين ، ولكنه خطاب عام ينتفع به المسلمون وغير المسلمين ممن لهم دين سماوى ، فالرحمة أصل من أصول الدين الذى ارتضاه الله لعباده ، وفطرهم عليه ، واعتصم به المؤمنون ، فهو خطاب للمؤمنين بالأصالة ولغيرهم بالتبعية ، ليعلم كل من له دين سماوى أن محمداً – عليه الصلاة والسلام – جاء متمماً للرسالات السماوية ومؤيداً لها ، وتميزت شريعته الغرَّاء بالسماحة ، واليسر والرحمة ، والعدالة المطلقة ، والمساواة التامة بين الناس فى الحقوق العامة ، فهو – كما أشرنا من قبل – رسول الرحمة والسلام .

* * *

---

(١) الحشر : ٨ – ٩ .

وقوله - ﷺ - فى ختام الحديث : « الرَّحِم شجْنَةٌ من الرحمن فمن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله » يفيد أن أَولى الناس بالرحمة هم الأرحام ، وغيرهم فى ذلك تبع ، فهو من باب التنبيه على وجوب العناية بهم ، وإسداء الخير لهم ، ورعاية حقوقهم ، والمبالغة فى برهم والإحسان إليهم ، والعطف عليهم ، وتحمل ما يصدر عنهم من أذى بصبر وجَلَد .

وهو - ﷺ - بقوله هذا يدعو إلى واجب من أعظم الواجبات الاجتماعية؛ لأن الفرد لَبِنة فى بناء الأسرة ، والأسرة لبنة فى بناء المجتمع ، وبصلاح الفرد تصلح الأسرة ، وبصلاح الأسرة يصلح المجتمع .

وما سميت الأسرة أسرة إلا لارتباطها وتعاونها وانتمائها ، فهى مأخوذة من الأسر ، وهو الشدُّ بالحبل ونحوه - كما جاء فى كتب اللغة - فكل واحد من أفراد الأسرة مشدود إلى الآخر ، مرتبط به ، مشارك له فى آلامه وآماله رضى بذلك أم أبَى .

ومنه قوله تعالى : ﴿ نحن خلقناهم وشَدَدْنا أَسْرَهَم ﴾ (١) .

أى أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق .

وعليه نفهم معنى الرَّحِم ، فنقول : هى كل مجتمع تجمعهم صلة النسب أو المصاهرة ولو من بعيد .

وتوسع الحنفية ومن نحا نحوهم فى معناها ، فقالوا : أفراد القبيلة فى قبيلة أخرى رحم بأن كانوا يسكنون معهم ، وأبناء القرية فى المدينة رحم ، وأبناء القطر فى قطر آخر رحم ، والعرب فى بلاد العجم رحم ، والمسلمون فى بلاد غير المسلمين رحم .

وهذا التوسع محمود على كل حال ، غير أن الرحم لفظ إذا أطلق أُريد به أولاً القرابة من جهة النسب أو المصاهرة قربت أو بعدت ، وما سواها مما ذكره الحنفية وغيرهم يقاس عليها باعتبار أن الغرباء يحتاجون إلى التواصل والتراحم

---

(١) الإنسان : ٢٨ .

فيما بينهم اعتماداً على أى دعامة من الدعامات التى تربط الناس بعضهم ببعض .

ويرى علماء الاجتماع أن الأسرة لها معنى يضيق ويتسع ، فيقتصر على الأبوين ، ثم يتعداهما إلى الأولاد ، ثم إلى الإخوة والأعمام إلى آخره ، ثم يتسع فيقال أسرة المدرسة ، وأسرة النادى ، ثم يتسع حتى يشمل الإنسانية كلها ، فيقال الأسرة الإنسانية .

وهذا المعنى الواسع هو التآخى فى أسمى مظاهره ، وأرقى معانيه ، قد عبر عنه النبى ﷺ بقوله : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » ، وهو تفسير لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شُعوبًا و قبائلَ لتعارفوا إنَّ أكرَمَكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ ﴾ (١) .

* * *

والرَّحِم وثيقة الصلة بالله – عز وجل – فهى « شِجْنَةٌ من الرحمن » كما قال الرسول ﷺ .

والشجْنَة معناها القرابة المشتبكة كاشتباك العروق – كما قال ابن الأثير فى الجامع –والمَعنى أنها أثر من آثار الرحمة،فالقاطع لها منقطع من رحمة الله تعالى .

والشجنة – بكسر الشين وضمها وفتحها – أصلها عروق الشجر المشتبكة ، شبهت بها القرابة لتشابكهم فى النسب أو المصاهرة ، وجعلها الرسول ﷺ موصولة بالرحمن لأنها مشتقة من اسمه – كما سيأتى بيانه – فمن وصلها بالبرِّ والإحسان وصله الله ببرِّه وإحسانه ، ومَن قطعها قطعه الله عن رحمته وبرِّه وإحسانه .

وهذا تهديد شديد ،ووعيد قاس يخشاه كل من كان فى قلبه ذرة من إيمان فكيف بالمؤمنين الأقوياء .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

ومن للعبد إذا تخلى الله عنه ولم يفتح له باباً من أبواب رحمته .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ إن رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين ﴾ (١)

هذا النص أن رحمته بمعزل عن المسيئين ، وهو مفهوم صحيح يؤيده قوله تعالى : ﴿ ورحمتى وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ فسأكتُبُها للذين يَتَّقُونَ ويُؤْتُونَ الزكاةَ والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبىَّ الأُمِّىَّ الذى يَجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمُرُهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحلُّ لهم الطيبات ويُحرِّمُ عليهم الخبائثَ ويضع عنهم إصرَهم والأغلالَ التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعَزَّروه ونصروه واتَّبعوا النور الذى أُنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ (٢) .

رحمة الله إذاً لاينالها إلا الرحماء ، كما دلت عليه هذه الآية وما بعدها ، فلابد من أن يسلك الناس طريق الهدى ويتبعون الرسول فى كل ما أمرهم به ، ويجتنبون كل ما نهاهم عنه وحذرهم من عاقبته .

* * *

وقد ورد فى الحث على الرحمة بالوالدين وبذى القربى واليتامى والمساكين ومن فى حكمهم آيات كثيرة .

فمنها قوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجارِ ذى القربى والجار الجُنُبِ والصاحبِ بالجَنب وابنِ السبيلِ وما ملكت أيمانُكم إن الله لا يحبُّ من كانَ مختالاً فخوراً ﴾ (٣) .

ومن أحق الناس بالإحسان من قدمه الله فى الآية - الوالدة والوالد - ولو كانا مشركيْن بدليل قوله تعالى : ﴿ وإن جاهداك على إن تشركَ بى ما ليس لك به علمٌ فلا تُطعْهما وصاحِبْهما فى الدنيا معروفاً واتَّبعْ سبيلَ من أناب إلىَّ ثم إلىَّ مرجعُكم فأُنبِّئُكم بما كنتم تعملون ﴾ (٤) .

---

(١) الأعراف : ٥٦ .
(٢) الأعراف : ١٥٦ - ١٥٧ .
(٣) النساء : ٣٦ .
(٤) لقمان : ١٥ .

وقد حذَّر الله من تقطيع أواصر الأرحام بقوله : ﴿ واتَّقوا الله الذى تساءَلون به والأرحامَ إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾ (١) أى واتقوا قطيعة الأرحام فإن الله مُطَّلِع عليكم لا تخفى عليه خافية من أمركم .

وأمر بإتيان ذوى القربى حقوقهم والتلطف بهم عند عدم القدرة على قضاء حوائجهم ، فقال - جل وعلا - : ﴿ وآت ذا القربى حقَّه والمسكينَ وابنَ السبيل ولا تبذِّرْ تبذيراً إن المبذِّرين كانوا إخوان الشَياطين وكان الشيطانُ لربِّه كفوراً وإما تُعرِضَنَّ عنهم ابتغاء رَحمةٍ من ربِّك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ (٢) .

وحق ذوى القربى متعدد الأنحاء يقوم على المودة والمحبة والإيثار .

والناس فيه على مراتب ، فمنهم من لا يعطى الحق إلا بشقِّ الأنفس ، ومنهم من لا يؤدى إلا ما وجب عليه أداؤه ، ولا يكاد يزيد على الواجب شيئًا ، ومنهم من يؤدى ما وجب عليه بنفس راضية ويزيد على ذلك ما شاء الله أن يزيد ، ومنهم من يؤثر ذوى قرباه على نفسه ، فيعطيهم مـا هـم فى حاجة إليه ولو كان إليه أحوج .

والخطاب فى الآية للجميع ، والمؤمن إنما يؤدى ما وجب عليه بطيب نفس ولا يدخر وسعًا فى إصلاح ذات البَيْن بكل ما ملكت يداه من خير ، محتسبًا أجره على الله تعالى ، فالمؤمنون هم الرحماء قد هذَّب الإيمان طباعهم ، وزكى نفوسهم ، وقوى أخلاقهم ، وهون عليهم الدنيا ، ورغبهم في الآخرة .

ولا شك أن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

والمسكين قد عُطف فى الآية على ذوى القربى لأنه أولى من غيره بالعطف والرحمة والمعونة .

وكذلك ابن السبيل ، وهو الذى انقطعت به السبل عن أهله وماله ، فإن له على المسلمين حق المعـونة بالمال وغيره حتى يحقق مأربه من سفره ويعود إلى بلده .

---

(١) النساء : ١ .　　(٢) الإسراء : ٢٦ - ٢٨ .

ولعلك تسأل أيها القارئ الكريم عن السر فى النهى عن التبذير مع الأمر بإيتاء ذى القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل – فأقول : نهى الله فى هذه الآية عن التبذير لأنه يؤدى إلى الإفلاس وتضييع حقوق الناس ، فلا يستطيع أن يؤتى حينئذ ذوى القربى حقهم ، ولا يعطى للمسكين شيئاً يقتات به ولا لابن السبيل ما هو فى حاجة إليه .

وقد لا يصاب المبذر بالإفلاس ، ولكن تبذيره يقسى قلبه وينسيه المبادئ الخلقية التى دعا إليها الدين ، ويحمله التبذير أيضاً على اعتزال أقرب الناس إليه خوفاً من أن ينالوا شيئاً من رفده ، ويحرص كل الحرص على تحقيق رغباته الذاتية فتملكه الأثره ، وهى من أقبح الخصال لأنها ضد الإيثار ، فالإيثار فى الثريا والأثرة فى الثرى .

وقد أغنانا القرآن عن تتبع أوصافه الذميمة بوصف جامع لها فقال : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوانَ الشياطين وكان الشيطانُ لربِّه كفوراً ﴾ (١) .

وقد يأتى القريب إلى قريبه فيسأله شيئاً من المال فلا يكون عنده فحينئذ يقوم الكلام الطيب مكان العطاء ، وهو أقل ما يجب عليه فعله فى مثل هذه الظروف ، فيعده وعداً حسناً لحين ميسرة ويعتذر له اعتذاراً جميلاً بلغة مهذبة حتى يخرج من عنده وهو راضى النفس .

وهذا هو معنى قوله جل وعلا : ﴿ وإما تُعرِضَنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) الإسراء : ٢٧ .　　(٢) الإسراء : ٢٨ .

(٢٢) مَنْ أَمَّ بالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ

عن أبى مســعودٍ الأنصــارى قال : جاء رجلٌ إلى رســول الله ﷺ فــقال : « إنِّى لأتأخرُ عن صلاةِ الصبحِ من أجل فلان مما يطيلُ بنا . فما رأيتُ النبىَّ ﷺ غضِبَ فى موعظةٍ قطُّ أشدَّ مما غضبَ يومئذٍ ، فقال : « يا أيها الناس : إن منكم منفِّرين فأيُّكم أمَّ النَّاسَ فليُوجِزْ فإنَّ مِــنْ ورائه الكبيرَ والضــعيفَ وذا الحاجة » [1] .

* * *

كان النبى ﷺ يحب التيسير فى كل شىءٍ ، وكان إذا خُيِّر بين أمرين اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً،وقد عرف أصحابه ذلك فكان إذا رأوا إنساناً يشق عليهم أو على نفسه فى عمل من الأعمال ، أو فى عبادة من العبادات يكرهون ذلك منه،ويستنكرونه،فإذا رأوه قد تمادى فيه شكَوه إلى رسول الله ﷺليهديه سواء السبيل، فحين صلى رجل منهم خلف إمام يوماً فأطال فى صلاته كره أن يصلى خلفه،ولكنه خشى أن يكون تخلفه عن الصلاة مع الجماعة وراء هذا الإمام قَدْحًا فى صلاته،أوفتنةً لمن يصلى وراءه،أو يكونَ بهذا قد شَقَّ عصا الطاعة وخرجَ عن الجماعة التى هو واحد منها،فأتى رسول الله ﷺ يستفتيه فى ذلك ، فقال يا رسول الله : « إنى لأتاخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يُطيل بنا » .

قال الراوى : « فما رأيت النبى - ﷺ - غضب فى موعظة قطُّ أشدَّ مما غضب يومئذ » .

وهذا لا يمنعُ أن يكون الرسولُ ﷺ قد غضب فى مواطن أشدَّ من غضبه هذا ، فإن الراوى قد حدَّث بما رأى ، وعلى كل حالٍ لا يغضب النبىُّ ﷺ إلا لأمرٍ جَلَلٍ يتعلق بضياع حق من حقوق الله ، أو بالتقصير فى واجب من

---

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ ، ورواه غيره بألفاظ متقاربة .

الواجبات ، أو فى تجاوز الحَدِّ الذى حَدَّه الله لعباده فى كتابه ، أو على لسان رسوله – عليه الصلاة والسلام – .

وقد غضب الرسول ﷺ غضباً شديداً لَمَّا بلغهُ أن فلانًا من الناسَ يؤم الناس فيطيلُ بهم طولاً يشق عليهم ، ولا سيما فى الوقت الذى يتهيأون فيه إلى ممارسة أعمالهم اليومية ، فقد روى البخارى ومسلم وغيرهما أن معاذاً – رضى الله عنه – كان يصلى مع النبى ﷺ ، ثم يأتى فيؤمُّ قومه ، فصلى ليلة مع النبى ﷺ العشاء ، ثم أتى قومه فأمَّهم ، فافتتح بـ (سورة البقرة) ، فانحرف رجل ، فسلَّمَ ، ثم صلى وحده ، وانصرف ، فقالوا له : أنافقت يا فلان ؟ ، قال : لا والله ، ولآتينَّ رسول الله ﷺ فلأخبرنَّه ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنا أصحابُ نواضح (١) نعملُ بالنهار ، وإن معاذًا صلى معك العشاء ، ثم أتى فافتتح بـ (سورة البقرة) .

فأقبل رسولُ الله ﷺ على معاذٍ ، فقال : « يا معاذ ، أفتَّانٌ أنت ؟ اقرأ بكذا ، واقرأ بكذا » . وفى رواية قال : « اقرأ : بـ ﴿والشمس وضحاها﴾ ﴿والضحى﴾ ، ﴿والليل إذا يغشى﴾ ، ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ » .

* * *

وقد اعتبر النبى ﷺ تطويل الإمام فى الصلاة سبباً فى تنفير الناس عنها ، وهو أمر ليس بالهيِّن ، فالصلاة عماد الدين ، وركنه الركين ، وهى الرَّوح والريحان بالنسبة للمؤمن يجد فيها أنسه وسلواه إذ يناجى فيها خالقه ومَوْلاه .

ولا شك أن تطويل الإمام يؤدى إلى ذهاب الخشوع من القلوب ، ويحمل بعضَ ضعفاء الإيمان على مفارقته ، ويؤدى إلى إحراج ذَوِى الحاجات من المرضى وكبار السن ، ومَنْ فى حكمهم ؛ لهذا أمر النبى ﷺ الأئمة بأن يُوجزوا فى

---

(١) النواضح : جمع ناضح ، وهو البعير يُستقى عليه .

الصلاة بحيثُ يؤدونها بأركانها وشروطها وآدابها من غير تكلُّف ولا تطويل ممل .

والدين كما نعلم يُسْرٌ لا عسر فيه ولا حرج ، وقد جاء فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال : « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف ، فإن منهم الضعيف ، والسقيم ، والكبير ، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء » .

ولقد كان النبى ﷺ يطيلُ الصلاة إذا كان يصلى بنفسه ، أو يصلى بجماعة يعلمُ أنهم يحبون التطويل ، أما إذا كان يصلي بجمع كبير يعلم أن فيهم من لا يصبر على التطويل فإنه يُوجز فى صلاته رحمةً بالضعفاء ، والمرضى ، والصبيان الذين تصحبهم أمهاتُهم إلى المسجد لعدم وجود من يَعُولُهم .

روى البخارى ومسلم عن أنس – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال : « إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد إطالتها ، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز (١) فى صلاتى مما أعلم من شدة وجد (٢) أمه من بكائه » .

وروى كلاهما عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال : « ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم من النبى ﷺ ، وإن كان ليسمع بكاء الصبى فيخفف مخافة أن تفتن (٣) أمه » .

وروى أن عمر – رضى الله عنه – قال : « لا تُبغضوا الله إلى عباده ، يُطوِّلُ أحدكم فى صلاته حتى يشق على من خلفه » .

والمراد بالتطويل : الزائد عن الحد المعتاد فى القراءة ، فلا ينبغى أن يتخذ الإمام هذه الأحاديث ذريعة لقصر الصلاة،وقد أمرنا النبى ﷺ بالاطمئنان فيها .

فالمطلوب أن يصلى الإمام بالناس صلاة وسطًا ، وخير الأمور أوساطها .

ونحن فى هذا العصر أشدُّ حاجةً إلى التخفيف ممن كان قبلنا ؛ لكثرة

---

(١) أخفف . (٢) حزنها وقلقها .

(٣) تشغل عن صلاتها .

الضعفاء ، والمرضى ، وكثرة الحاجات التى تُلِحُّ على الإنسان أن يقضيَهَا ، ولأن الناس فى هذا العصر لَيْسُوا على المستوى الإيمانى الذى كان عليه أصحاب النبى ﷺ فالتخفيف لهم أولى ، على أن يكون الإمامُ مؤديًا للصلاة على النحو الذى ليس فيه تفريط فى السنن والمُسْتَحبَّاتِ .

والنهى عن التطويل إنما هو فى القراءة ، لا فى الركوع والسجود ، كما هو ظاهر النصوص ، على أن التطويل فى الركوع والسجود إذا زاد عن حده كُرِهَ قياساً على القراءة .

ويقاسُ على التطويل فى الصلاة التطويل فى خطبة الجمعة ، فإنه من جهل الخطيب أن يطيل الخطبة ويُقَصِّرُ فى الصلاة ، وقد كان النبى ﷺ يخطب فيُوجِز ، روى أبو داود فى سننه عن جابر بن سَمُرَةَ – رضى الله عنه – قال : « كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة ،إنما هى كلمات يسيرات » .

وكذلك يُسْتَحَبُّ التقصير فى الموعظة التى اعتاد الوعاظ أن يُلقوها فى المحافل ، والمساجد ، والمنتديات ، حتى لا يَمَلَّها الناس ، وليقتدوا فى ذلك برسول الله ﷺ .

هذا وبالله التوفيق .

* * *

(٢٣) إيَّاكُم والشُّحَّ

عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال : خطب رسـول الله ﷺ فقال : « إيَّاكُم والشُّحَّ ؛ فإنما هَلَكَ مَنْ كانَ قبلَكم بالشُّحِّ ، أَمَرَهم بالبخل فَبَخِلُوا ، وأَمَرَهم بالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وأَمَرَهم بالفُجورِ فَفَجَرُوا » (١) .

* * *

يحذرنا النبى ﷺ من الشح ، ويبين لنا سوء عواقبه ، فيقول : « إياكم والشح » أى : احذروه كل الحذر ، وخلصوا أنفسكم منه ، ولا تستجيبوا له إذا دعاكم إلى البخل بما فى أيديكم ، أو إلى الطمع فيما فى أيدى غيركم ، أو إلى تقطيع أرحامكـم وأواصر الصداقة فيما بينكم ، أو أمركم بالتخلى عن واجباتكم الدينية والدنيوية ؛ فإن الشح داء وبيل ، يصحبه الخسران المبين فى الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلِحون ﴾ (٢) .

ومفهوم هذا الشرط أنه من لم يتق شح نفسه فهو من الخاسرين .

* * *

والشح فى اللغة : غريزة جِبْلِّيَّة فى الإنسان تحمله على البخل والحرص والطمع والحقد ، والحسد والقطيعة ، والفجور ، بدليل ما جاء فى هذا الحديث ، فقد قال النبى ﷺ : « فإنما هلـك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا » .

فمن قال إن الشح هو البخل ، أو هو أشد أنواع البخل لم يكن دقيقًا فى تعريفه ووصفه ، فكيف يكون هو البخل ويأمر به ؟ .

وقد وصف الله المنافقين به ، وعممه فى كل ما لا تجود النفـس به ، فقال :

---

(١) رواه أبو داود فى سننه فى باب الزكاة ، باب فى الشح ؛ وإسناده صحيح .

(٢) التغابن : ١٦ .

﴿ قد يعلمُ اللهُ المعوِّقين منكم والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إلينا ولا يأتون البأسَ إلا قليلاً أَشحَّةً عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدورُ أعينُهم كالذي يُغْشَى عَليه من الموت فإذا ذهبَ الخوفُ سَلَقُوكم بألسنةٍ حدادٍ أَشحَّةً على الخيرِ أولئك لم يُؤمنوا فأحْبَطَ اللهُ أعمالَهم وكان ذلك على اللهِ يسيراً ﴾ (١) .

فالخير فى الآية لفظ عام يتناول بعمومه ما كان ماديًّا وما كان معنويًّا . فهم أشحة على إسداء الخير ، وصنع المعروف بكافة أنواعه .

لا يجودون بكلمة ينتفع بها المؤمنون ،ولا يتعاونون معهم فى شىء ،ولا يدخرون وسعًا فى إيقاع الضرر بهم ، ويتمنون لهم الشر من أعماق قلوبهم .

﴿ هُمُ العدوُّ فاحذرْهم قاتَلَهم اللهُ أَنَّى يُؤْفَكون ﴾ (٢) .

ومن هنا نفهم أن الشح أوسع دائرة من البخل ، فالبخل هو منع الحقوق الشرعية أو التى تقتضيها المروءة ، والشح مركب من مجموعة آفات ، كل آفة أكبر من أختها .

فالبخل داء عضال لا يستطيع المرء أن يتخلص منه إلا بمشقة بالغة وحيلة بارعة ، سنذكرها فيما بعد نقلاً عن الإمام الغزالى بشىء من التصرف .

وأخوه الحرص على ما فى اليد من مال ونحوه مما يستمتع المرء به ، وينتفع بوجوده ،ولا يصبر على بعده عنه ، ولا يسره فراقه بحال .

وربما أدى الحرص بصاحبه إلى تقديس ما يحرص عليه ، حتى يكون منه بمنزلة السمع والبصر ، فيجعله مبلغ همه ، ومنتهى أمله ، فيصير عبداً له ، وينسى معه الوظيفة التى خلقه الله من أجلها ، فلا يقيم الصلاة فى أوقاتها حرصاً على العمل الذى يَدِرُّ عليه الرزق الكثير ، والخير الوفير ، ولا يؤت الزكاة التي افترضها الله عليه اعتقاداً منه أن الزكاة تنقص المال ، ولا يؤت ذوى القربى حقهم بل ولا يذهب لزيارتهم كيلا يسألوه حاجة من حوائجهم ، أو كيلا يحسدوه على ما عنده من خير فيزول هذا الخير بسبب حسدهم .

---

(١) الأحزاب : ١٨ – ١٩ .　　(٢) المنافقون : ٤ .

وربما دفع به حرصه إلى الفجور ، وهو ارتكاب ما لا يحل شرعًا ، من أجل البقاء على ما فى يديه ، والطمع فى زيادته وتنميته بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة ، فهو عبد لما ملك ، وعبد لما يطمع في تملكه . وهذا هو الخسران المبين فى الدنيا وفى الآخرة .

قال ﷺ : « تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم وعبد الخميصة [1] ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » [2] .

والحرص على جمع المال وتنميته ليس مذمومًا فى كل حال ، فالرسول ﷺ لم يقل تعس طالب الدرهم والدينار ، بل قال : « تعس عبد الدرهم والدينار » وهو الذى يؤدى به الحرص إلى ما قد ذكرنا من التقصير فى حق الله وحق الناس وحق نفسه أيضًا .

فإذا اجتمع البخل والحرص والطمع فهو الشح – كما تقدم – .

* * *

وقد أهلك الشح الأمم قبلنا فلا ينبغى أن نكون مثلهم فنحذوا حذوهم ، ونحن خير أمة أعزها الله بكتاب مهيمن على سائر الكتب السماوية : لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأكرمها بنبى هو أكرم الأنبياء ، خلقًا وأرفعهم مقامًا ، فلابد أن نعرف ما تعرضت له الأمم السابقة من مَثُلاَت [3] فلا نتعرض لها بمحاكاتهم فى أخلاقهم وسلوكهم الذى أدى بهم إلى ما أصابهم . والله المستعان .

* * *

---

(١) ثوب نفيس له أعلام .

(٢) رواه البخارى . ومعنى إذا شيك : أى إذا أصابته شوكة لا يجد من ينقشها له .

(٣) عقوبات .

(٢٤) مَنْ رَأَى منْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْه

عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « مَنْ رَأَى منْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْه بيَده ،فإن لم يَسْتَطِعْ فبلسانه ، فإن لم يَسْتَطِعْ فبقلبه ، وذلك أضعفُ الإيمانِ » (١) .

* * *

هذا الحديث عمدة فى أكثر أبواب الفقه ، وقد كتب الفقهاء فيه بحوثًا كثيرة شعَّبوا فيها المسائل ، وأكثروا فيها من ذكر الخلاف حول حكم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وحول الكيفية التى يأمر بها الآمر ، وينهى بها الناهى ، ومن هو الذى يناط به هذا العمل ، وما شروطه ، وما الأحوال التى يُترك فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويُكتفى فيها بإنكار القلب .... إلى غير ذلك من الأحكام والآداب ، وكلهم يدندن حول هذا الحديث ، وينطلق منه ثم يعود إليه ؛ لأنه من جوامع كلمه ﷺ ومن عظيم فقهه بأحوال الناس وبمستجدات الزمان ومتغيراته ، وكيف لا وهو النبى الملْهم ، والرسول الذى يتلقى من ربه العلم والحكمة ، وقد أُنزل عليه كتاب عزيز فيه خبر من قبلنا ، ونبأ من بعدنا وحكم ما بيننا ، وهو الكتاب الفصل الذى لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وله فيها حكم ، وذلك من خلال قواعده الكلية التى يندرج تحتها كل ماجدَّ ويجدُّ من شئون الحياة .

* * *

والنظرة العامة فى هذا الحديث ترينا أن الإسلام دين قد جعل المعروف هو الأصل الأول من أصول الأخلاق والمُثُلِ العليا ، فأمر به أمراً مؤكداً ، وحذر من التخلى عنه مع القدرة على إتيانه ، وجعل الأمر به من أعظم الواجبات لمن كان من أهل الأمر والنهى ، وكان قادراً على ذلك .

---

(١) رواه مسلم .

والمعروف هو كل ما أوجبه الشارع أو ندب إليه ، وضده المنكر وهو ما أنكره الشرع ونهى عنه وحذر منه ، ويتمثل فى ترك الواجب ، وفعل المحرَّم ، وبعضه أشد من بعض فى الجرم والإثم . فالشرك من أعظم المنكرات على الإطلاق ، ويليه قتل النفس ، وشهادة الزور ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والسحر ، وعقوق الوالدين ، وشرب الخمر ، والزنا ، والسرقة ، وقذف المحصنين والمحصنات ... إلى غير ذلك من الكبائر التى وردت فى الكتاب والسنة .

وقد جعل النبى ﷺ الناس فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثلاثة أصناف :

صنف يستطيع أن يغير المنكر بيده كالحاكم ، ورب البيت ، ومن فى حكمهما .

وصنف لا يستطيع أن يغير المنكر بيده ولكن يستطيع أن يغيره بلسانه كالعلماء والوعاظ ومن فى حكمهم .

وصنف لا يستطيع تغيير المنكر بيده ولا بلسانه ولكنه ينكره بقلبه ويتمنى أن لو كان يستطيع أن يفعل شيئاً فى سبيل تغييره ، ويقول فى نفسه وبلسانه : « اللهم إن هذا منكرٌ لا ترضاه » وهذا الإنكار هو أضعف الإيمان ، أى أقل ما يجب على المسلم فعله .

وفى رواية أخرى للحديث قال : « ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

* * *

وإذا ما نظرنا فى الحديث نظرة أخرى تحليلية وجدنا أن هذا الحديث ميدان واسع فسيح يتبارى فيه العلماء فى استنباط الأحكام الخفية ، ويستخرجون منه أقيسة جلية يقيسون بها كل ما لا يجدون له حكماً فى هذا الباب الذى يعد من أعظم أبواب الفقه حساسية ؛ لأن الكلام فيه يتناول الحكام والأمراء والقواد وغيرهم من المسئولين عن شئون البلاد ومصالح العباد ، فإن أكثر المنكرات تقع

على أيديهم ، وتصدر عنهم ، ولا يستطيع أحد أن ينهاهم عنها أو يغير ما فعلوه منها إلا إذا أوتى من القوة المادية والمعنوية ما يحقق له ذلك ، وهو أمر مستبعد فى الغالب .

لهذا ولغيره من الاعتبارات فرض النبى ﷺ تغيير المنكر بالوسيلة الممكنة ، وقَسَّمَ الناس فى تحقيق هذا الفرض إلى ثلاثة أصناف ، فقال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ... » أى من علم منكم منكراً بالبصر أو بالخبر من غير أن يقتحم بيتاً أو يكشف ستراً .

والتغيير باليد يكون بإزهاق المنكر ، كإراقة الخمر ، ورد المسروق إلى صاحبه ونحو ذلك .

وقد يكون بمنع الفاعل من الفعل قبل حدوثه ، بأن يخلصه من ظلمه قبل الوقوع فيه .

والوسائل والحيل فى ذلك كثيرة ، ولكن يستحسن بل يجب أن يكون المغيِّر للمنكر مستوفياً للشروط التى سيأتى ذكرها .

ومن لم يستطع أن يغير المنكر بيده ، فالواجب عليه ألا يقدم على ذلك فيعرض نفسه للوقوع فيما لا تحمد عواقبه ، ولكن يقوم بتغييره بلسانه من غير أن يسبَّ أو يقسو فى القول - كما سنذكر فيما بعد -

فإن عجز عن ذلك فأمره إلى الله تعالى ، ولكن ينبغى أن يسلط عليه من هو قادر على منعه من إتيان المنكر أو الاستمرار فيه .

فإن عجز عن ذلك فلا سبيل له يستطيع التخلص به إلا الاعتذار إلى الله تعالى بالإنكار والغضب على من يأتى المنكر ولا يكف عنه ولا يتوب منه .

* * *

وتغيير المنكر باليد أو باللسان مشروط بشرطٍ لابد من مراعاته ، وهو ألا يؤدى تغيير المنكر إلى وقوع منكر أشد منه أو مساوٍ له ، فالضرر لا يزال بالضرر ، إلا إذا كان الضرر الذى يزال به الضرر أخف منه ، وكان المزيل قادراً على احتماله من غير مشقة بالغة .

والمرء فى هذا – ونحوه – فقيه نفسه .

والظروف تختلف من زمن إلى زمن ، ومن مكان إلى مكان ، كما أن الذى يغير المنكر يختلف حاله من وقت إلى وقت ، ومن مكان إلى مكان ، فلابد أن تُراعى الظروف والأحوال عند الإقدام على تغيير المنكر أو الإحجام عن تغييره .

فالمنكر الذى يقع فى قرية – مثلاً – لها عرفها وتقاليدها وأخلاقها ، والناس يعرف فيها بعضهم بعضاً ، ويحترم فيها بعضهم بعضاً ، ليس كالمنكر الذى يقع فى مدينة لها عادات ليست موحدة ، ولأهلها أخلاق شتى ، ولا يعرف بعضهم بعضاً كأهل القرية ، ولهم من المبادئ الحضارية ما يجعلهم أكثر تحرراً من أهل القرية ، وأقل استجابة لمن يدعوهم إلى التمسك بالدين ومراعاة الأخلاق المتوارثة والعادات المعروفة عند غيرهم ممن لم يختلطوا بالأجانب على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم ؛ فالرجل الذى يعيش فى القرية أقدر على تغيير المنكر بيده أو بلسانه من الرجل الذى يعيش فى المدينة ، فهو أدرى بحاله هنا وهناك ، فلينظر فى أمره قبل الإقدام أو الإحجام ، وليستشر فى ذلك أهل العلم ، ثم ينظر – أيضاً – فى الطريقة التى هى أردع للفاسق وأقرب للتقوى .

وقد عرفنا أن تغيير المنكر واجب ، وأن الناس فى تغييره على درجات ثلاث .

فالحاكم – ومن فى حكمه كرب البيت – يغيره بيده ما لم يؤد تغييره إلى منكر أكثر منه .

والعَالِم – ومن فى حكمه كالمتعلم – يغيره بلسانه ، والضعيف من العوام ينكره بقلبه . لكن هذا يخضع لقدرات الرجال واختلاف الأحوال ، فرب كلام يقوله الرجل فى ردع الفاسق ودفع المنكر فى مكان لا ينفع فى مكان آخر ، وينفع فى إنسان ولا ينفع فى إنسان آخر ، فلكل حال مقال ، ولكل ظرف ما يناسبه فى هذه المهمة فليُفهم ذلك .

* * *

هذا ولابد للحاكم أن يعين جماعة من أهل العلم والخبرة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوة إلى فعل الخير فى القري والمدن، حسبة لله – تعالى –

من جهتهم ، على أن يفرض لكل واحد منهم معونة يتعيش منها . وأقول : معونة ولا أقول : أجراً ؛ لأن الأجر والثواب لا يجتمعان - كما يقول علماء الأصول - قال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أُمَّةٌ يدعون إلى الخيرِ ويأمرون بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عن المنكرِ وأولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

و « من » في قوله : ﴿ منكم ﴾ للتبعيض ، والمعنى : أن الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ينبغى أن يكونوا علماء أو متعلمين ، وليس كل الناس كذلك .

وقيل : « من » فى الآية لبيان الجنس ، أى وليكن كل واحد منكم كذلك .

والأصح - كما ذكر القرطبى - أن « من » فى الآية للتبعيض .

ثم إن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر فرض على الكفاية لا على التعيين - كما يرى جمهور الفقهاء - مع تحفظ يسير ، وهو أنه قد يتعين على الشخص إذا لم يقم به غيره ، أو لم يعلم به سواه .

ويشترط في هذه الأمة التى يعينها الإمام أن يكونوا قدوة لغيرهم - أيضاً - فالعلم وحده لا يكفى فى ممارسة هذه الوظيفة ، وهى ما كانت تسمى بالحِسْبَة .

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ الذين إنْ مكَّنَّاهم فى الأرضِ أقاموا الصلاة وآتَوْا الزكاة وأَمَروا بالمعروف ونَهَوا عن المنكر ولله عاقبةُ الأمورِ ﴾ (٢) .

ولا يصلح أمر الأمة إلا إذا كان فيها أمة - أى جماعة - يناط بها هذا الأمر ، ويكونون أهلاً له ، وقدوة فيه ، قيل : كل بلدة يكون فيها أربعة فأهلها معصومون من البلاء : إمام عادل لا يَظلم ، وعالم على سبيل الهدى ، ومشايخ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويحرصوُن على طلب العلم والقرآن ، ونساؤهم مستورات لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٠٤ . (٢) الحج : ٤١ .

ولكن هل هناك زمن ينقطع فيه هذا الواجب العظيم ، فلا يوجد من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؟ ، وما معنى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم لا يَضُـرُّكم من ضَلَّ إذا اهتديتم إلى الله مرجعُكم جميعًا فينبِّئكم بما كنتم تعملون ﴾(١) ؟ .

أقول : سوف يأتى هذا اليوم الذى ينتكس فيه الناس ، فلا يعرفون من أمور دينهم شيئًا ، بل لا يكادون يسألون عن حكم من أحكامه ، ولو أراد واحدٌ منهم أن يسأل لا يجدُ من يفتيه ، لذهاب العلم بموت العلماء .

وسوف يأتى يومٌ لا يستطيع المؤمنُ أن ينطق بكلمة فيها نصحٌ للمسلمين - إن كان هناك مسلمون بمعنى الكلمة .

روى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : « من يُرد الله به خيراً يفقههْ فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله مُعط ، ولا تزال طائفة من أمتى قائمـة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمرُ الله » .

أى حتى يأتى يومٌ لا يكون هناك من يقول : « لا إله إلا الله » .

أما قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ فإن المفسرين اختلفوا فى تأويلها ، هل هى خطاب للمؤمنين جميعًا فى كل زمان ومكان ، أم هى خطابٌ لمن كان يعيش فى زمن الفتن والمحن والبلاء الشديد بسبب الجهل والسَّفَه واتباع الهوى .

والجمهور يرى أن الخطاب فى الآية عام ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ومن أولى بهذا الوصف من أصحاب النبى ﷺ !! .

وقوله تعالى : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ معناه : الزموها بالإصلاح ، واحملوها على الطاعة ، وقَوِّموها إذا اعْوَجَّت عن الصراط السوى ، واتبعت غير سبيل المؤمنين ، وهذا يُدَلِّلُ على أن الخطاب عام .

وأما قوله تعالى : ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهديتم ﴾ فهو قاعدة عامة من القواعد التى جاء بها القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تَزِرُ

---

(١) المائدة : ١٠٥ .

وازرةٌ وِزْرَ أخرى وإن تَـدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِها لا يُحمَل منه شـىءٌ ولو كان ذا قربى ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ كلُّ امرئٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رهينةٌ ﴾ (٣) .

قال القاسمى فى تفسيره محاسن التأويل : (لا يستدل بالآية على سقوط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ لأن الظاهر من الآية أن ضلال الغير لا يضر ، وأن المطيع لربه لا يكون مؤاخذ بذنوب العاصى ، وإلا فمن تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتدٍ ، وإنما هو بعض الضلال الذى فصلت الآية بينهم وبينه) .

قال الحاكم : (ولو استدل على وجوبهما بقوله تعالى : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ كان أولى ، لأنه يدخل فى ذلك كل ما لزم من الواجبات) .

ونقل الرازى فى تفسيره عن عبد الله بن المبارك أنه قال : (هذه أوكد آية فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) .

وقد روى أحمد فى مسنده عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه وأرضاه - أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنكـم تقـرأون هذه الآية : ﴿ يا آيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ... إلى آخر الآية ﴾ ، وإنكم تضعونها فى غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك أن يعمهم الله - عز وجل - بعقابه » .

وروى الترمذى عن أبى أمية الشعبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنىّ فقلت له : كيف نصنع بهذه الآية ؟ ، قال : أية آية ؟ .

قلت : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ .

قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسـول الله ﷺ فقال :

---

(١) فاطر : ١٨ .
(٢) الطور : ٢١ .
(٣) المدثر : ٣٨ .

« بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شُحًّا مُطاعًا وهوًى مُتَّبعًا ، ودنيا مُؤْثَره ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ، فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً ، يعملون مثل عملكم » .

قال عبد الله بن المبارك : وزادنى غير عتبة : قيل يا رسول الله : أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟

قال : « لا ، بل أجر خمسين منكم » .

وكذا رواه أبو داود وابن ماجه وابن أبى حاتم ، وسيأتى شرحه فيما بعد .

وصفوة القول فى تأويل الآية أن الخطاب فيها عام لجميع المؤمنين فى كل زمان ومكان ، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب ما قَبِل الناسُ ذلك ، فإن جاء زمان أطاع الناسُ فيه الشيطان واتبعوا الهوى وزاغوا عن الحق وجب على كل مؤمن أن يلزم نفسه بالإصلاح والتقويم ، كما أوصى بذلك الرسول ﷺ فى الحديث المتقدم .

وبالله التوفيق .

* * *

(٢٥) عَلَيْكُم أَنْفُسَكم

عن أبى أمامة الشعبانى قال : سألتُ أبا ثعلبةَ الخُشَنِىَّ - رضى الله عنه - قال : قلتُ : « يا أبا ثعلبةَ ، كيف تقولُ فى هذه الآية : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ ؟ .

قال : أما والله لقد سألتَ عنها خبيراً ؛ سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال ائتمروا بالمعروف ، وانتهوا عنِ المنكر ،حتى إذا رأيتم شُحًّا مطاعًا ، وهوى متَّبعًا ، ودنيا مُؤْثَرةً ، وإعجابَ كلِ ذى رأى برأيه ، فعليك بنفسك ، ودع عنك العَوَام ، فإن من ورائكم أيامَ الصبرِ ، الصبر فيهن مثلُ القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثلُ أجر خمسين رجُلاً يعملون مثل عملكم » (١) .

* * *

تقدم القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم لا يضرُّكم من ضلَّ إذا اهتديتم ﴾ (٢) .

وتقدم هذا الحديث هناك ، وهنا بَسْطُهُ وتفسيره وبيانُ معانيه ومراميه بما يفتح الله به علينا .

وأحاديث الفتن كثيرة ،والوصايا النبوية فى مواجهتها عند حدوثها لاتكاد تحصى ، فالرسول ﷺ رءوف رحيم بالمؤمنين ، يَخْشَى عليهم أن يصيبهم فى دينهم فتنة تعكر صفو إيمانهم ، أو يجدون فيها ما يحرجُهُم ويَشُقُّ عليهم احتمالُهُ ، فكان ﷺ يُخْبِرُهُم بما وَقَعَ فى الأمم السابقة وما سيقع بعده من الأمور التى ينكرونها .

وكان أصحابُهُ يسألونه عما سيقعُ فى آخر الزمان فيجيبهم عما سألوا عنه ، ويزيدُهُم علماً فيما لم يسألوا عنه ، وقد كان بعض أصحابه يحرص على حفظ

---

(١) رواه الترمذى رقم (٣٠٦٠) وأبو داود رقم (٤٣٤١) وزاد فى حديثه : « قيل : يا رسول الله ، أجر خمسين رجلاً منا ، أو منهم ؟ قال : بل أجر خمسين رجلاً منكم » .

(٢) المائدة : ١٠٥ .

ما قاله الرسول ﷺ فى الفتن ، ويحدث الناس بها كحذيفة بن اليمان ، وأبى ثعلبة الخُشَنى راوى هذا الحديث ، وغيرهما .

ونحن أحوج ما يكون إلى معرفة الفتن التى نبّأنا بها الله ورسوله لنكون على وَعْىٍ بها وَتَحفُّظٍ منها ، وأخذ الأُهْبة لمواجهتها ، أو الفرار منها .

وهذا الحديث واحد من الأحاديث التى ينبغى علينا أن نضعها نُصْبَ أعيننا ، فنفقه معناها ، ونقف على ما تهدف إليه ، وتشير به ، فالمؤمن القوى حريص على صيانة دينه وعرضه من الأهواء الجامحة والتيارات المنحرفة .

فهو ذو قلب يَقِظ ، وضمير حى ، وبصيرة نافذة ، وحس مرهفٍ ، يتوقع الأمر قبل حدوثه ، ويرى عواقبه بنور الله تعالى ، فيعد العدة لاستقباله على النحو الذى يحبه ربه ويرضاه ، ويتصرف وفق الظروف والأحوال ، فيلبس لكل حالة لَبوسها ، فإذا ما أضاف إلى ما لديه من هذه الخصائص أخبار الصادق المصدوق كان أشدَّ يقظةً ، وأقوى حرصًا ، وأملك لزمام نفسه ، وأشد تمكناً من التوقى ، وأبعد عن كل ما يسوؤه فى دينه ودنياه .

* * *

فإذا وقعت الفتن وأصيب الناس بويلاتها وجب على كل مؤمن يأتمر بالمعروف ، وينتهى عن المنكر بقدر طاقته ، بمعنى : أنه يظل مستمسكًا بدينه ، معتصماً بالله ، مستنصراً به فى كل موطن يخشى فيه على نفسه من الفتنة فى دينه أو عرضه .

ولا بأس أن يختلط بالناس ، على ما بينهم من فساد ، وعلى ما هم فيه من فوضى واستبداد واستخفاف بأمور الدين ، ما دام قادراً على حماية نفسه مما يَتَأَتَّى منهم من الأذى ، وليحتسب أجره على الله إن أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب عليه ما لم يعجز عنه ، كما تقدم بيانه فى الحديث السابق .

* * *

وقد وضع الرسول ﷺ لترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شروطًا فقال : « حتى إذا رأيتم شحًا مطاعاً ، وهوى متَّبعًا ، ودنيا مؤثرة ... إلخ » .

والشح : هو البخل الشديد مع الحرص على طلب الدنيا والاستماتة فى جمع المال ، والطمع فيما فى أيدى الناس .

هذا هو الشحُّ فى اللغة والشرع ، وطاعته : أن يتبع الإنسان هوى نفسه ، وينقاد له إلى حد العبادة ، فلا يستجيب إلى ناصح يُثنيه عن بخله وجشعه وطمعه . وينطبق عليه قول القائل الشحيح :

يا دينار أعجبتنى صفرتُك

لولا الملامة قلت جلَّت قدرتُك

وهو الذى قال فيه ﷺ : « تَعِسَ عبد الدرهم والدينار ، تعِسَ عبد الخميصة [١] ،تَعِسَ وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش [٢] » .

والهوى المتَّبع أعمُّ من الشح المطاع ؛ لأن الشح قاصر على طلب الدنيا ، وكنز المال ، والحرص على تنميته ، وعدم التبرع به لأحد ولو كان من أقرب المقربين ، وعدم الاستعداد إلى معونة إنسان بأى جهد مادى أو معنوى ، بخلاف الهوى المتبع فإنه استغراق تام فى الشهوات والملذات ، والفواحش والمنكرات ، دون وازع من دين أو ضمير .

والشحيح قد يتوب الله عليه من الشح فيتَّقيه فيقع تحت الوعد الذى جاء فى قوله تعالى :﴿ ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون ﴾ [٣] .

أما من اتخذ إلهه هواه فكيف يهديه الله ! ، إنه قد ضل الطريق إلى الله ، وهوت به الشياطين إلى مكان سحيق .

---

(١) الخميصة : ثوب له أعلام .

(٢) انتقش : أى إذا أصابته شوكة لاينقشها له أحد بغضاً له ، والحديث رواه البخارى .

(٣) التغابن : ١٦.

قال تعالى : ﴿ أفرأيتَ من اتَّخَذَ إلهَهُ هواه وأضلَّه اللهُ على علمٍ وخَتَمَ على سمعه وقـلبِه وجـعل على بصره غِشاوةً فمن يَهديهِ من بعدِ الله أفلا تَذَكَّرون ﴾(١) .

وقال تعـالى : ﴿ أرأيتَ مـن اتَّخَذَ إلهَهُ هواه أفأنت تكونُ عليه وكيلاً أم تَحسَبَ أن أكثرَهم يسـمعون أو يَعقِلون إن هـم إلا كالأنعامِ بل هم أضَلُّ سبيلاً ﴾ (٢) .

وقوله ﷺ : « ودنيا مؤثرة » أى مفضلة عند طُلاَّبها يؤثرونها على الآخرة ويحرصون على جمع حطامها ، فهؤلاء لا تنفعهم المواعظ ؛ فقد قست قلوبهم ، وفسدت عقولهم ، وأسلموا قيادهم للشيطان .

يضاف إلى هذه الشروط التى يترك عند وقوعها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – إعجابُ كل ذى رأى برأيه ، فهو الغُرُور بعينه ،والغرور هو الهزيمة الأبدية التى لا نصر بعدها ، وهو الكِبْر بحذافيره ، والمتكبر لا تقوم له قائمة ، ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عَدلاً ، فكيف يقبل النصح من ملأ الزَّهو قلبه ، ونبذ مبدأ الشورى وراء ظهره ، وهو من أعظم المبادئ التى لا تشقى البلاد به ، ولا يستقيم أمر العباد بدونه .

ولذلك أوصى النبى ﷺ كل مؤمن عندئذ أن يلزم نفسه ، فيصلح من شأنها ، ويترك العوام الذين أعمتهم الدنيا ، وأضلتهم أنفسهم ، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، فجعلوا المعروف منكراً ، والمنكر معروفًا ، واعتبروا التمسك بالدين رجعية وتخلفًا ، فلماذا يشغل المؤمن نفسه بهم ؟ ولماذا يذِّكرهم بالله وهم أبعد ما يكون عن الذكرى ؟ .

يقول الله عز وجل : ﴿ وذَكِّرْ فإن الذِّكرى تنفعُ المؤمنين ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ فذَكِّرْ إن نَفَعَتِ الذكرى سَيَذَّكَّرُ من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النارَ الكبرى ثم لا يموتُ فيها ولا يحيا ﴾ (٤) .

---

(١) الجاثية : ٢٣ .
(٢) الفرقان : ٤٣ – ٤٤ .
(٣) الذاريات : ٥٥ .
(٤) الأعلى : ٩ – ١٣ .

فالأشقى هو الأبعد عن الحق الذى يتجنب الذكرى ، ويصم أذنيه عن سماع كل ما يصده عن هواه .

* * *

وقد ختم النبى ﷺ هذه الوصية ببشرى عظيمة يجد فيها المؤمن الرَّوح والإيمان ، ويستهين من أجلها بالشدائد الجسام ، فيقول عليه الصلاة والسلام - معللاً هذه الوصية : « فإن من ورائكم أيام الصبر » ، أى من أمامكم فهى ستأتى تباعًا ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ويَذَرون وراءهم يومًا ثقيلاً ﴾[1] أى أمامهم ، وهو يوم القيامة .

وهذه الأيام هى أيام الفتن التى تموج موج البحر ، ولذلك سميت بأيام الصبر ، أى الأيام التى لا ينفع فيها إلا الصبر حين لا يجد الداعى إلى الخير من يسمعه ويطيعه ، بل يجد من يدفعه ويردعه وقد يقتله ، وهو لا يبالى .

ولذلك كان الصبر فى هذه الأيام مثلُ القبض على الجمر ، وهو تصوير لشدته البالغة حدًّا لا يطيقه إلا أولو العزم من خيرة الرجال .

ولهذا أخبرنا الرسول ﷺ أن للعامل فيهن مثل أجر خمسين من أصحابه ﷺ .

وقد جاء فى رواية أبى داود أن أصحاب النبى ﷺ عندما سمعوه يقول : « للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً » ، قالوا متعجبين لا حاقدين ولا حاسدين : أجر خمسين رجلاً منا ، أو منهم ؟ ، قال : « بل أجر خمسين رجلاً منكم » .

والثواب على قدر المشقة ، وليس معنى هذا أنهم سيكونون خيراً من أصحاب النبى ﷺ على الإطلاق، ولكن صبرهم على المكاره لما كان مثل صبرهم

---

(١) الإنسان : ٢٧ .

على الجمر ضوعف لهم الأجر على هذا الصبر ، ويكون للصحابة سبل أخرى يحصلون منها على أجر أكبر وحظ أوفر ، ويكفى أنهم أنصار النبى ﷺ وحوارييه وخاصته ، وقد أشاد القرآن بذكرهم ، ونَوَّه الرسول ﷺ بفضلهم،ولهم فى سُبُل الخير مجال لا يدانيهم فيها أحد سواهم .

والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *

(٢٦) تَفَسَّحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُم

عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : « لايُقيمَنَّ أحَدُكم رجلاً من مَجْلِسِه ، ثم يَجلسُ فيه ، ولكن تَوَسَّعُوا وَتفَسَّحُوا يَفْسَحِ اللهُ لكم » (١) .

* * *

من الآداب السامية التى يُرَاعيها المسلمُ ويعمل على نشرها بين إخوانه حيث كان أدبُ المجالس ، وهو أدبٌ يَقوم على خمس قواعد أساسية ، وما سواها من القواعد الفرعية تَبَعٌ لها .

وما ورد في هذا الأدب من الأحاديث فإنما هى بيان وتفصيل لقوله تعالى فى سورة المجادلة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفَسَّحُوا فى المجالس فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لكم وإذا قيل انشزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجاتٍ والله بما تعملون خبير ﴾ (٢) .

وقد كان العرب فى الجاهلية لا يعرفون هذه الآداب ، ولو عرفوها ما التزموها ؛ لأن الالتزام يفرضُه الإيمان ،ولهذا خاطب الله المؤمنين بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فهم الذين يمتثلون أوامر الله ، ويجتنبون نواهيه ، ويقتدون بالرسول ﷺ فى عاداته وعباداته ، وشأنه كله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

وقد نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر ، كما يقول قتادة وغيره ،وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضَنُّوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

---

(١) رواه البخارى ١١ / ٥٢ ، ٥٣ فى الاستئذان ، باب « لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه » ، وباب « إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا » ، وفى الجمعة ، باب « لا يقيم الرجل أخاه يوم الجمعة ، ويقعد فى مكانه » ، ومسلم : رقم ٢١٧٧ فى السلام ، باب « تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذى سبق إليه » .

(٢) المجادلة : ١١ .

والمعنى : يا من آمنـــتم بالله حق الإيمان : إذا قيل لكم توسَّعوا فى مجالسكم لتسع أكبر قدر من إخـوانكم فامتثـلوا واسـتجيبوا ؛ لأن فعلكم هذا يؤدى إلى أن يفسح الله تعالى لكم فى رحمته ، وفى منازلكم فى الجنة ، وفى كل شىء تحبونه .

* * *

والحديث الذى نحن بصدده دعوة لأصحاب المروءات أن يُجلَّ بعضهم بعضاً فى المجالس ، فلا يقيم أحدهم أخاه من مجلسه الذى أحرزه لنفسه بالجلوس فيه ثم يجلس مكانه ، فإن ذلك عدوان عليه ، وإحراج له ، وفيه من الأثرة ما لا يحبه الله ورسوله .

وكان من الأولى أن يؤثر أخاه بمجلسه فيقوم ويجلسه لا أن يقيمه من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن من الممكن أن يفسح الجالس لأخيه إذا رآه واقفاً ويوسع له حتى يتمكن من الجلوس بجواره إن وجد لذلك سبيلاً .

فإنْ فَعَلَ أفسح الله له فى الدنيا وفى الآخرة ، فإنه من نَفَّس عن مسلم كربة نَفَّس الله عنه كربة يوم القيـامة ، وكان الله فى عون العبـد ما كان العبـد فى عون أخيه .

ولا شك أن ذلك سيسعده ويدخل السرور عليه ، ويشعر بأن أخاه الذى أفسح له رجل ذو مروءة وإحسان ، فيحبه ويضمر فى نفسه أن يفعل معه مثلما فعل إذا أقبل على مجلسٍ هو فيه .

والخيرُ يبقى وإن طَالَ الزَّمَانُ به
والشَّرُّ أخبثُ ما أوعَيْتَ من زادِ

وقال آخر :

ازرَعْ جميلاً ولو فى غير موضعه
فلن يضيعَ جميلٌ أينما زُرِعَا

وقال آخر :

مَن يَصنعِ المعروفَ لا يُعْدَم جَوَازِيَه
لا يَضيعُ العُرْفُ بينَ اللهِ والنَّاسِ

* * *

وقد جاء رجل إلى النبى ﷺ فقام له رجلٌ آخر من مجلسه ، فذهب ليجلس فيه ، فنهاه رسولُ الله ﷺ (١) .

وروى مسلم وأبو داود عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قام أحدكم من مجلس ثم رجع إليه فهو أحق به » .

وروى أبو داود عن جابر بن سَمُرَة – رضى الله عنهما – قال : « كنا إذا أتينا النبى ﷺ جلس أحدنا حيث ينتهى » .

وروى أبو داود والترمذى عن عمرو بن شعيب عن أمية عن جده أن رسول الله ﷺ قال لا : « يُجْلَسُ بين رجلين إلا بإذنهما » .

من الآية والأحاديث نستطيع أن نسخلص القواعد الخمسة التى تندرج تحتها الأحكام الفرعية ، والآداب المرعيَّة من هذا الباب .

القاعدة الأولى : التفسُّح فى المجالس واجبٌ ما لم تكن هناك ضرورة .

وذلك بألا تكون هناك فُرْجَة تتسع لجلوس رجل آخر فَعندئذٍ يَظَلُّ الرجل واقفاً إن أراد أو ينَصرف .

القاعدة الثانية : توقيرُ الصغير للكبير واجبٌ فى مِثْلِ هذا الباب .

وذلك بأن الرجل إذا وجد رجلاً قد أخذت منه السِّنُّ مأخذاً وهو فى حاجة إلى حضور المجلس لطلب العلم أو لسماع الذِّكْر – قام وأجلسَهُ ؛ لقوله ﷺ : « ليس منا من لم يرحم صغيرَنَا ولم ويُوَقِّر كبيرَنا »(٢) .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمر .

(٢) أخرجه الترمذى ، وقال : حديث غريب .

وكذلك أولو العلم يجب على الناس توقيرُهم وإجلالُهم وإيثارُهم بالمجالس الأمامية .

القاعدة الثالثة : صاحبُ المجلس أحقٌّ به إن عاد إليه .

وذلك بأن وضع فى المكان ما يَدُلُّ القادمَ على عودته ، كأن يضع ثوبًا أو كتابًا وما أشبه ذلك ؛ فإن المجالس العامة لا تُمْلَكُ إلاّ إذا قَضَى العُرفُ بذلك ، أو كان المجلس مستأجرًا .

القاعدة الرابعة : إذا أمر أمير القوم رجلاً بالقيام لرجل آخر وجب عليه أن يقوم .

وذلك عملاً بقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل انشزوا ما فانشزوا ﴾ أى وإذا قيل : ارفعوا عن مجالسكم فارفعوا – هذا هو المتبادر من السياق – ولكنه أمر عام ينبغى أن يُحْمَل على عمومه ،فيكون المعنى : أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف .

قال القرطبى : وهذا هو الصحيح لأنه يعم .

والنشز معناه : الارتفاع ، مأخوذ من نشَزَ الأرض ، وهو ارتفاعها .

القاعدة الخامسة : يجلس الرجلُ حيث انتهى به المجلس لا يزاحم الناس .

وذلك لأن فى المزاحمة إيذاءٌ لا حاجةَ إليه ما دام فى الموضع مكانٌ مُتَبَقٍّ ولقول جابر بن سَمُرة فى الحديث المتقدِّم : « كنا إذا أتينا النبى ﷺ جلس أحدنا حيث ينتهى » .

* * *

ولقد كان أصحاب النبى ﷺ يبالغون فى مراعاة هذه الآداب ولا سيما مع كبارهم وعلمائهم .

فقد ورد فى الصحيح أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – كان يقدِّم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه ، وسألهم عن تفسير : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فسكتوا ، فقال ابن عباس : هو أَجَلُ رسول الله ﷺ أَعْلَمَه اللهُ إياه . فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم .

ولقد غرس النبى ﷺ فى أصحابه هذا التسامح وهذا الإيثار ، وهذا الحب المتبَادَل بأفعاله قبل أقواله .

فقد جاء فى سبب نزول الآية السابقة - ما روى ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان - أنها نزلت يوم جُمُعة وكان رسول ﷺ يؤمئذ فى الصُفَّة ، وفى المكان ضيق ، وكان يُكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء أناس من أهل بدر وقد سُبِقُوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله ﷺ ، فقالوا : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته فرد النبي ﷺ عليــــهم . ثم سلموا على القوم بعد ذلك ، فردوا عليــهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون إن يُوسَّع لهم ، فعرف النبى ﷺ ما يحملهم على القيام ، فلم يُفسَح لهم ، فشق ذلك على النبى ﷺ ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار ، من غير أهل بدر : « قم يا فلان ، وأنت يا فلان » . فلم يزل يقيمهم بعدّة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف النبى ﷺ الكراهة فى وجوههم .

فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ ، والله ما رأيناه قبلُ عدل على هؤلاء ، إن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب لنبيهم ، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه .

فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله رجلاً فَسَح لأخيه » .

فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعًا ، فَتَفَسَّحَ القومُ لإخوانهم .

قال ابن كثير : كان النبى ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، وكان الصحابة - رضى الله عنهم - يجلسون منه على مراتبهم ، فالصِّدِّيق يجلسه عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالبًا عثمان وعلى ؛ لأنهما كانا ممن يكتب الوحى ، وكان يأمرهم بذلك . والله أعلم .

* * *

(٢٧) إيَّاكُم والجُلُوسَ فى الطُرُقَات

عن أبى سـعيد الخـدرى - رضـى الله عـنه - أن رسَـول الله ﷺ قال : « إيَّاكم والجلوسَ فى الطرقات » ، فقالوا : يا رسول الله ، ما لنا من مجالسنا بُدٌّ ، نتحدَّثُ فيـها ، فقال رسـول الله ﷺ : « فإذا أبَيْتُم إلا المجلسَ فَأَعْطُوا الطريقَ حقَّه » . قالوا : وما حقُّ الطريق يا رسول الله ؟ .

قال : « غَضُّ البَصَرِ ، وكفُّ الأذى ، وردُّ السلامِ ، والأمرُ بالمعروفِ ، والنهىُ عن المنكرِ » (١) .

* * *

من الآداب التى يحرص الإسلام على نشرها بين الناس آداب المجالس ، وقد تقدَّم الكلام عن بعضها ، وفى هذا الحديث تتمة لها ، وبيان لحق الطريق إذا اضطر المسلمون للجلوس فيها .

وقوله ﷺ : « إياكم والجلوس فى الطرقات » تحذير من اتخاذها مجالسَ لما يترتب على ذلك من ضرر لهم وللمارة ؛ فإن الجلوس فيها ينشأ عنه النظرَ المحرم للغاديات والرَّائحات ، والنظر إلى أصحاب العيوب فيؤدى ذلك إلى السخرية منهم والاستهزاء بهم ومعايرتهم ونحو ذلك من الأمور التى لا تليق بمسلم .

ويؤدى الجلوس عليها إلى تضيقها على المارة وحبس حُرِّيتهم فى الذهاب والإياب ، ولا سيما النساء والأطفال .

على أن الجلوس على الطرقات فى حَدِّ ذاته يُخلُّ بالمروءة ، ويُذهب الحياء فلا نجد من يجلسُ فى الطريق إلا حثالة الناس وعالتهم ، والجهلة منهم .

---

(١) رواه البخارى : ١١ / ٩ فى الاستئذان ، باب قوله الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم ﴾ ، وفى المظالم ، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات ،ومسلم رقم ٢١٢١ فى اللباس ، باب النهى عن الجلوس فى الطرقات ، وأبو داود رقم ٤٨١٥ فى الأدب ، باب فى الجلوس فى الطرقات .

لكن لا بأس على المضطر أن يجلس على قارعة الطريق أو فى أى مكان منها لأن الضرورات تبيح المحظورات .

ولهذا قالوا : « يا رسول الله ، ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها » ، وهم لا يَعْنُون بهذا أن يعارضوا الرسول ﷺ فى نهيه هذا ؛ولكنهم أرادوا أن يجعل لهم مخرجًا مما لابد لهم منه .

وقد أراد النبي ﷺ بهذا التحذير أن يُعَلِّمَهُم آداب الطريق ، فهو يعرف أنهم فى حاجة إلى الجلوس فيها لضيق مساكنهم .

فقال رسول الله ﷺ فإذا أبيتم إلا المجلس فاعطوا الطريق حقَّه » ؛ ليسألوه عن حق الطريق ، فهو تمهيد لبيان ما يجب عليهم ، أو ما يستحب لهم فعلُه إذا اضطروا إلى الجلوس فى الطرفات ، فسألوه : « وما حق الطريق يا رسول الله ؟» وأَرْهَفُوا السمع إليه لشدة حرصهم على العلم والتَّلَقِّى ، فقال عليه الصلاة والسلام : « غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » .

فهذه خمسة حقوق ينبغى أن نقف عند كل حق منها وقفة ، والله المستعان .

* * *

الحق الأول : غض البصر : أى كفُّه عن النظر إلى ما حرَّم الله النظر إليه .

وليس معنى الغض الإغماض ، وإنما معناه التغاضى عمن يُمرُّ به ، أو يمر عليه ممن لا يباح النظر إليه ، بمعنى أنه إذا أبصر امرأة أجنبية مثلاً وجب عليه أن يتغاضى عنها ، ويشغل نفسه بشىء آخر من المُبَاحات ولا يستحضر ذكرها فى قلبه ، ولا يفكر فى إعادة النظر إليها حتى لا يُصَاب بما يصاب به أولئك المشغولون بالنظر إلى الغاديات والرَّائحات ويقعدون فى الطرقات من أجل ذلك .

وما يقال للرجل يقال للمرأة ، فإنها تشتهى منه ما يشتهى منها ، وقد أمرهما الله – عز وجل – بغض البصر ، كلٌّ نوع على حدَةٍ ، فقال – جل شأنه –

فى سورة النور : ﴿ قُلْ للمؤمنين يَغضُّوا أبصارَهم ويحفظوا فروجَهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقلْ للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارِهن ويحفظنَ فُرُوجَهُنَّ ... الآية ﴾ (١) .

وقد روى الترمذى فى سننه عن بريدة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : « يا على لا تُتْبع النظرةَ النظرةَ ، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة » .

وذلك لأن الأولى غالبًا ما تقع عَرَضًا من غير إعمال فكر ولا انتظار ، فلا يلام عليها حينئذ ؛ ولكن يلام على ما بعدما ، والدين يسر .

وروى مسلم فى صحيحه عن جرير - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفَجْأة ، فقال : « اصْرِفْ بَصَرَك » ، أى حَوِّله إلى شىء آخر ، وتحويل البصر لابد أن يتبعه تحويل القلب ، وإلا فإن القلب سيبعث البصر رسولاً مرة أخرى كما سيأتى بيانه . والنظر بريد الزنا ، ومقدمة من مقدماته ، كما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ ، قال : « كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة : العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه ، الكلامُ ، واليد زناها البطشُ ، والرِجْلُ زناها الخُطا ، والقلب يَهْوَى ويتمنى ، ويُصَدِّق ذلك الفرجُ أو يُكذِّبه » .

قال ابن القيم فى الجواب الكافى : « والنظر أصل عامة الحوادث التى تصيب الإنسان ، فإن النظرة تُولِّد الخَطْرَةَ ، ثم تولِّد الخَطْرَةُ فكرة ، ثم تولِّد الفكرة شهوة ، ثم تولِّد الشهوة إرادة ، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة ، فيقع الفعل ولابد ما لم يمنع منه مانع ، ومن هذا قيل : الصبر على غضِّ البصر أيسرُ من الصبر على ألم ما بعده » .

ولهذا قال الشاعر :

كُلُّ الحَوَادِثَ مَبْـدَؤهَا مِنَ النَّظَرِ ... ومُعْظَمُ النَّارِ من مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

كم نظرةٍ بَلَغَتْ فى قلبِ صاحبها ... كمَبْلَغِ السَّـهمِ بين القوسِ والوترِ

---

(١) النور : ٣٠ - ٣١ .

والعبدُ ما دام ذا طَرْف يُقَلِّبُهُ   فى أعينِ العينِ [1] موقوفٌ على الخطرِ
يَسرُّ مُقْلَتَه ما ضرَّ مهجتَه   لا مرحبًا بسرورٍ عاد بالضَّررِ

وللنظر إلى الحرام آفات كثيرةُ منها :

١ – أنه يُورثُ الحسرات ويُتْعِبُ القلب بما يعتريه من شعور باليأس ، والحرمان من المنظور إليه ، فلا يجدله سبيلاً إلى ما نظر إليه للنَّيْل منه ، ولا هو بقادر على بُعْدِه عنه بعد أن حفر له فى قلبه مكانًا .

قال الشاعر :

وكُنْتَ إذا أرسلتَ طَرْفَكَ رائدًا
لقلبك يومًا أتعبتْكَ المناظرُ
رأيتَ الذى لا كله أنت قادرٌ
عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

٢ – ومنها أن البصر رسولُ القلب إذا نظر إلى محرم أرسل إليه يخبره بما رأى ، فيشغله عن ذكر الله بشىء لو ظل يذكره يذهب إيمانه شيئًا فشيئًا حتى يتلاشى ، والعياذ بالله تعالى .

٣ – وإذا استفحل النظرُ إلى النساء الأجنبيات قسَا القلبُ وساء الخُلُق ، وحَلّ اللؤم محل الحلم ، وذهبت المروءة فلم يبق لها أثر ، وتحول الناظر إلى عربيد أثيم ، وربما أدى به هذا إلى الوقوع فى أفحش الفواحش ، وربما فَقَدَ إيمانه إلى الأبد .

فعلى كل من كان هذا داؤه أن يتوبَ إلى الله توبةً نصوحًا ، ويكثر من الاستغفار بالليل والنهار عسى الله أن يعفو عنه ويتوب عليه .

هذا وفوائد غَضِّ البصر كثيرة :

أولها : أنه امتثال لأمر الله الذى هو غاية سعادة العبد فى معاشه ومعاده ،

---

(١) العين : جمع عيناء ، وهى المرأة الجميلة واسعة العينين .

وليس للعبد فى دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى ، وما سعد مَنْ سعد فى الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره ، وما شقى مَنْ شَقى فى الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

ثانيها : أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذى قد يكون فيه هلاكه إلى قلبه .

ثالثها : أنه يُورث القلب أُنسًا بالله واتصالاً به ، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده عن الله ، وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر ؛ فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه .

رابعها : أنه يقوى القلب ويفرحه ، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه .

خامسها : أنه يكسب القلب نوراً ، كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة .

ولذلك ورد الأمر بغض البصر فى سورة النور ، وجاء فى السورة بعد هذا الأمر قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ والأرضِ مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباحٌ ... الآية ﴾ (١) - أى مثل نوره فى قلب عبده المؤمن الذى امتثل أوامره واجتنب نواهيه .

وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب ، كما أنه إذا أظلم أدبرت وفود الخيرات إليه من كل جانب ، كما أنه إذا أظلم أقبلت إليه سحائب البلاء والشر من كل مكان .

سادسها : أنه لا يورث الفراسة الصادقة التى يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب .

وكان شاه بن شجاع الكرمانى يقول : « من عَمَّر ظاهره بترك الشهوات واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة » ، وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة .

والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله ، ومن ترك

---

(١) النور : ٣٥ .

شيئًا لله عوضه الله خيراً منه ، فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضًا عن حبسه بصره لله ، ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة ، والفراسة الصادقة المصيبة التى إنما تنال ببصيرة القلب .

سابعها : أنه يُفرغ القلب للتفكير فى مصالحه والاشتغال بها ، وإطلاق البصر يشتت ذلك ويحول بينه وبينها ، فتفرط أموره ويقع فى اتباع هواه وفى الغفلة عن ذكر الله .

قال تعالى : ﴿ ولا تُطِعْ من أَغْفَلْنا قلبَه عن ذِكرِنا واتَّبَعَ هواه وكان أمرُه فُرُطًا ﴾ (١) وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة جميعها .

* * *

وأما الحق الثانى من حقوق الطريق فهو كف الأذى ، وهو أعم من الأول ، فإنه يتناول بعمومه غَضَّ البصر وغيره مما يتأذى منه الناس ، كتضييق الطريق على المارة ، وإزعاج الناس بارتفاع الأصوات ، وإحراج الغاديات والرائحات من النساء كما أشرنا ، وما يتركه الناس وراءهم بعد انصرافهم من مجالسهم ، وما يحدث فى هذه المجالس - على الطرقات أيضًا - مما لا يخفى على من جرب ذلك بسبب اختلاط السفهاء بالعقلاء ، والصغار بالكبار ، وربما يكون الجلوس عليها سببًا فى إغلاقها أو تشديد الرِّقابة عليها ، وهو الأمر الذى يَضُر بالسكان عن يمين الطريق وشماله .

وإزاحةُ الأذى من الطريق شعبة من شُعَب الإيمان ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » .

والأذى كلمة تطلق ويراد بها القليل من الضَّرر كما فى قوله تعالى : ﴿ لن يضروكم إلا أذًى وإن يُقاتِلوكم يُوَلُّوكم الأدبارَ ثم لا ينصرون ﴾ (٢) .

وقد يطلق الأذى على القليل والكثير معًا كقوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيضِ قلْ هو أذًى ﴾ (٣) .

---

(١) الكهف : ٢٨ .   (٢) آل عمران : ١١١ .   (٣) البقرة : ٢٢٢ .

فمنهم من قال : أى هو قَذَر ينبغى التنزه عنه ، فيكون من قبيل الضرر القليل .

والأطباء أثبتوا للحيض أضراراً جسيمة ، ولهذا فسروا الأذى بالضَّرر الذى لا يُطاق . والكلمة إنما تُفَسَّر بحسب السياق الذى وردت فيه .

ورُبَّ أذى قليل لا يعبأ المرء به ينشأ منه ضرر كثير ، كقشرة الموز مثلاً إذا وضعت فى طريق الناس ، فقد تكون سبباً فى كسر رِجْل إنسان فيعجز عن المسير ، ويقعد عن العمل .

والإسلام يأمر بالعدل والرحمة ، وهما صنوان متلازمان لا يفترقان ، فمن العدل أن لا يخلِّف الإنسان وراءه أذى بعد انصرافه من مَجْلسِه ، بل يتلاشى ذلك قبل مجلسه وأثناءه وبعده .

ومن الرحمة ألا يجلس المرء على الطرقات إلا إن دعت الضرورة لذلك حتى لا يقع منه أذى .

* * *

وأما الحق الثالث فهو رد السلام على من ألقى عليه السلام .

فإن كانوا جماعة وردَّ واحد منهم كفى ، لقوله تعالى : ﴿وإذا حُيِّيتُم بتحيةٍ فحَيُّوا بأَحسَنَ منها أو رُدُّوهَا﴾[1] .

وإلقاء السلام سنة مؤكدة ، وردّه فرض ، وله أحكام ذكرتها فى الفقه الواضح .

والسلام معناه الأمان ، فأنت عندما تقول : السلام عليكم ، فمعناه : الأمان من الله عليكم ، فيقول من سَلَّمت عليه : وعليكم السلام – بالواو – أىّ: علىَّ وعليك السلام . والمستحب أن تقول : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ؛ ليكون ثوابك أكثر .

وإذا سَلَّم عليك غيرُ المسلم فلا بأس أن تردَّ عليه السلام عند جمهور أهل

(١) النساء : ٨٦ .

العلم ، كما ذكر القرطبى وغيره عند تفسير قوله تعالى فى سورة مريم : ﴿ قال سلامٌ عليك سأستغفرُ لك ربِّى ﴾ (١) فإن إبراهيم عليه السلام قد ألقى السلام على أبيه وهو كافر ، وهذا أحد الأدلة التى استدل بها الجمهور على جواز إلقاء السلام على الكافر وردِّه .

وقد استدلوا أيضاً بعموم قوله تعالى : ﴿وإذا حييتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها ﴾ .

وبعموم قوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدِّينِ ولم يُخرجوكم من دياركم أن تَبَرُّوهم وتُقْسِطوا إليهم إن الله يحبُّ المُقْسِطين ﴾ (٢) .

وأما الأحاديث التى جاء فيها الاقتصار على قوله : وعليكم - فقط - فهو خاص باليهود والذين كانوا يتلاعبون باللفظ ويقولون : السام عليكم .

وأنا أستفتيك أيها الأخ المسلم فى هذه المسألة فأقول لك : لو أنك تزوجت امرأة من أهل الكتاب - وقد أحل الله نكاحها - فماذا تقول لها لو دخلت عليها أو دخلت عليك مُسَلِّمَةً ؛ هل تقول لها : وعليكم ؟ . إنه إذاً جفاء ما بعده جفاء ، أم تقول لها : أهلاً وسهلاً ومرحباً ، أو سعيدة أو ما أشبه ذلك ؟ ، إنك إذاً تكون قد خالفت أصول التحية .

وكيف لو سلم عليك أبوها أو أخوها ، ثم كيف لو دعاك أهل الكتاب إلى طعامهم - وقد أحل الله لنا طعامهم - فبماذا تحييهم ؟ وكيف لو بادروك بتحية الإسلام ، هل من اللياقة والعقل أن تقول : وعليكم ؟ .

اعلم - يا أخى - أن أخذ الحكم من دليل واحد أو مجموعة أدلة من غير نظر إلى ما هنالك من أدلة أخرى معارضة ، أو ما هنالك من عموم وخصوص ، أو دون النظر إلى مناسبة الدليل ، أو الظروف الزمانية والمكانية وغير ذلك مما يضعه المجتهد نُصْبَ عينيه عند الفتوى - جهلٌ بقواعد الفقه وأصوله .

---

(١) مريم : ٤٧ .

(٢) الممتحنة : ٨ .

فتأمل ذلك واخرج من تعصبك البغيض وتقليدك الأعمى لفلان وفلان من الناس ، ولا تقتصر على أخذ العلم من مصدر واحد ، ولا تعرف الحق بالرجال ، ولكن اعرف الحق تعرف أهله ، وبالله توفيقك .

* * *

والحق الرابع والخامس من حقوق الطـــريق : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد تقدم الكلام فيه فلا نعيده هنا ولكن يكفى أن نقول : إن الجالس على الطريق سيتعرض لمساوى كثيرة ، وسيرى مناظر لا تَسُرُّه ، ويسمع كذلك ما يمُجُه سمعه ، فلابد أن يأمر بالمعروف الذى ترتضيه العقول السليمة ، ويقره الشرع الحكيم ، ولابد أن ينهى عن المنكر ، وهو كل ما أنكرته الطباع السليمة ، وخالف الشرع ، ولم يجر على قواعد المروءة والحلم .

وبعد فهذا ما وسعنى إملاؤه فى شرح هذه الوصية السامية ، وسيأتى فى الأحاديث القادمة ما يزيدك فيها علماً وفقهاً .

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

* * *

(٢٨) لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُم شَيْئًا من المعْرُوف

عن أبى ذر الغفارى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَحْقِرَنَّ أحدُكم شيئًا من المعروف ، وإن لم يجدْ فَلْيَلْقَ أخـاه بوجه طلـيقٍ ، وإذا اشتريتَ لحمًا أو طبخت قِدْرًا فأَكْثِرْ مرقته ، واغرفْ لجارِك منه » (١) .

* * *

كان النبى ﷺ فى الجود والسخاء كالريح المرسلة لا يَرُدُّ سائلاً ساله ، ولا يرى محتاجًا إلا أعانه ، تلك خليقةٌ من خلائقه لم يتكلفها ، فهو الكريم ابن الكرام ، لم يدانيه أحد فى هذا المضـمار ، وسحائب جـوده لا تُحْصى ، ولا تستقصى .

لم يمنعه ضيق ذات اليد أن يؤثر أصحابه على نفسه بما هو فى أشد الحاجة إليه ، حتى كان إيثاره مضرب الأمثال ، بل ليس لإيثاره بين الرجال مثال ، ولا عرف الناس فى تاريخ البشرية من يَفْرى فَرْيَه فى هذا المجال .

لهذا كان يوصى أصحابه بأن يقتدوا به فى صنائع المعروف كُلِّها ، كلٌّ بقدر طاقته وجُهْده ، دون أن يقول فى نفسه : ماذا يُغْنى عنِّى ما أقدمه لأخى فهو لا يسد الرمق ولا يستر العورة ، ولا يقضى لُبَانَتَهُ فى شىء ، فإن من أطاع نفسه فى ذلك بخل بالقليل والكثير ، وتعوَّدت نفسُهُ الشح بما عنده ، وأغراه شيطانه بأن يأخذ ولا يعطى ، إذ يجعلُ فقره بين عينيه ، ويقول له الشيطان : من أنت حتى تعطى ، وما الذى تملكه حتى تجود به ؟ وكيف تجود بهذا اليسير فيحتقرك صاحبك ، ويسـخر منـك ، وربما غضب عليك وردك بما أعطيته ، وربما يقول لك : ما احتاجه بيتك أولى مما احتاجه المسجد ، كما يقول العوام - الزيت إن احتاج إليه البيت حَرُمَ على الجامع - إلى آخر ما هنالك من الوساوس الشيطانية والهواجس النفسية ، والمبررات الكاذبة .

---

(١) رواه الترمذى رقم (١٨٣٤) فى الأطعمة ، باب ما جاء فى إكثار ماء المرقة .

ولهذا أراد النبى ﷺ أن يحمل الناس على الجود بما عندهم ولو كان نصف تمرة أو حبة عنب ونحو ذلك ، فيقول : « لا يَحْقِرَنَّ أحدُكم شيئًا من المعروف » وهذا التوجيه الحكيم بيان لقوله تعالى : ﴿ لَا يُكلِّف الله نفسًا إلا وُسعها ﴾ (١) .

وقوله جل شأنه : ﴿ لا يُكلِّف الله نفسًا إلا ما آتاها سيجعلُ الله بعد عسر يسرًا ﴾ (٢) .

وقوله عز من قائل : ﴿ إن الله لا يَظلم مثقال ذرة وإن تَكُ حسنة يضاعفْها ويُؤتِ من لدنه أجرًا عظيمًا ﴾ (٣) .

وقوله سبحانه : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ﴾ (٤) .

إلى آخر ما فى كتاب الله تعالى مما هو فى معناه .

* * *

واحتقار الشىء معناه : الاستخفاف به أو عدم النظر إليه لقلَّته أو تفاهته ، ولكن المراد به هنا معنى آخر يليق بهذا التوجيه الحكيم ، هو ألا يقلل المسلم من شأن صدقته عند الله – عز وجل – فإن الله يضاعفها أضعافًا كثيرة ويُنَميِّها لصاحبها حتى لتكون التمرة كجبل أحد ، كما جاء فى الحديث .

فَرُبَّ لُقْمَةٍ يضعُها المرء فى بطن جائع تكون عند الله أكثر أجرًا ممن بنى مسجداً ، فالتفاوت فى الأجور ليس بقلة الشىء وكثرته ، ولكنه يتفاوت بقدر تفاوت العاملين فى الإخلاص لله رب العالمين .

يقول الله عز وجل : ﴿ من ذا الذى يُقرضُ الله قرضًا حسنًا فيضاعفَه له أضعافًا كثيرة والله يَقبِض ويبسُط وإليه تُرجعون ﴾ (٥) .

ويقول جل شأنه : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .
(٢) الطلاق : ٧ .
(٣) النساء : ٤٠ .
(٤) الزلزلة : ٧ .
(٥) البقرة : ٢٤٥ .

وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابلٌ فآتت أُكُلَها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فَطَلٌ والله بما تعملون بصير ﴾ (١) .

أى فإن لم يصبها مطر غزير أصابها الطَلُّ ، وهو المطر الخفيف الكافى لإنبات الزرع .

وهذا المثل الذى ضربه الله لصدقة المتصدق يستحق منا وقفة تأمل وتدبر .

فالمسلم الذى ينفق ماله كله أو بعضه أو شيئًا منه مهما كان قليلاً ، والحال أنه يبتغى بذلك وجه الله تعالى ، ونفسه ثابتة على التوكل وحسن الثقة بالله تعالى ، لا يخشى الفقر ولا يأمل الغنى – هذا المخلص الذى خلص الله قلبه من شوائب الشرك ونزغات الهوى ، وأخلصه لنفسه ، ينمى الله له صدقاته حتى تكون الحبة جنة ، أى بستانًا على ربوة خصبة مرتفعة جيدة التربة ، تتعرض للشمس والهواء وينزل عليها الغيث فتحيا – بإذن ربها – حياة طيبة وتنبت نباتًا حسنًا ، وتؤتى أُكُلَها ضعفين ، أى تؤتى أكلها على غير العادة المألوفة فى مثلها من الأراضى الخصبة .

وفى هذه الآية من اللطائف ما قد بيَّنا بعضَه فى كتاب الأمثال القرآنية فارجع إليه إن شئت .

* * *

والمعروف ضد المنكر ، وهو : كل ما اعتاده الناس مما لا يخالف الشرع ، ثم أطلق على كل خير يبذل فى سبيل الله .

يقال : صنع فلان فى فلان معروفًا ، أى أسدى إليه شيئًا من المال ، أو أعانه على قضاء حاجة من حوائجه ، أو كلمه كلمة طيبة أسعدته .

ولهذا أمر الله أولياء السفهاء فى سورة النساء بأن يقولوا لهم عند الحجر عليهم قولاً معروفًا يرضيهم ويدخل السرور عليهم ، فقال جل شأنه : ﴿ ولا

---

(١) البقرة : ٢٦٥ .

تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسُوهم وقولوا لهم قولاً معروفًا ﴾ (١) .

وبهذا أيضًا أمر الورثة إذا قسموا المال أن يقولوا لذوى القربى واليتامى والمساكين بعد أن يعطوهم شيئًا مما أعطاهم الله كلامًا مألوفًا تستأنس به النفوس ، وتستريح له القلوب ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكينُ فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفًا ﴾ (٢) .

إن الكلمة الطيبة حسنة من أعظم الحسنات التى ينبغى أن يحرص عليها التاجر مع الله تعالى ، فالكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة .

قال تعالى : ﴿ ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعهُا فى السماء تؤتى أُكُلَها كل حين بإذن ربها ﴾ (٣) .

وقد قال بعض المفسرين : الكلمة الطيبة فى الآية هى كلمة التوحيد ، ولكن النص لا يأبى العموم ، فكلمة التوحيد هى أعلى الكلام الطيب ، وكل ما لا يتعارض معها من الكلام فهو طيب ، يقبله الله ويثيب عليه .

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، ما يُلْقِى لها بالاً ، يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ، لا يُلْقِى لها بالاً ، يَهْوِى بها فى جهنم » .

* * *

والمسلم إن لم يجد شيئًا يتصدق به ولا صنيعة من صنائع المعروف يقوم بها لصاحبه ، يكفيه أن يَبَشَّ فى وجـهه ، فإن البشاشة نوع من الكرم ، وتعبير عن المحبة والمودة ، وفيها مواساة واسترضاء ، ولها فى النفوس سحر خاص .

---

(١) النساء : ٥ .
(٢) النساء : ٨ .
(٣) إبراهيم : ٢٤ – ٢٥ .

ولهذا قال النبى ﷺ : « وإن لم يـــجد فليَلْقَ أخاه بوجه طليق » ، وفى رواية : « بوجه طلق » ، والمعنى واحد .

وطلاقة الوجه إشراقه بالبشر والاستحسان ، والعطف والحنان ، والسماحة التى تُعْرَفُ ولا توصف ، به يلتقى المحبون فينسون همومهم وأحزانهم ، وبه يتعاطفون فيما بينهم .

وقد جاء فى الحديث : « إنكم لا تسَعون الناس بأموالكم فليسَعْهم منكم بسطُ الوجه وحسنُ الخُلُق »[1] .

وكان النبى ﷺ يَبَشُّ فى وجه من يبغضه تكرمًا وتحلمًا .

روى البخارى فى صحيحه عن عائشة – رضى الله عنها – أن رجلاً استأذن على النبى ﷺ فلمّا رآه قال : « بئس أخو العشيرة ، وبئس ابن العشيرة » ، فلما جلس تَطَلَّقَ النبى ﷺ فى وجهه وانبسط إليه ، فلما انطلق الرجل ، قالت له عائشة : يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت[2] له كذا وكذا ثم تَطَلَّقْتَ فى وجهه وانبسطت إليه .

فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة متى عهدتنى فحّاشاً ، إن شرَّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاءَ شره » .

* * *

ويختم الحديث بوصية يظهر فيها مدى ما ينبغى أن يكون بين الناس من تراحم وتعاون وتكافل ، فيقول الرسول ﷺ : « وإذا اشتريت لحمًا أو طبخت قِدْراً فأكثر مرقته ، واغرف لجارك منه » .

ومعنى قوله : « طبخت قدراً » أى طبخت طبخة فى قِدر وبها لحم فأكثر المرق لتغرف منها لجارك – فربما يكـــون فى حاجة إليها – على سبيل الصدقة ، أو على سبيل الهدية .

---

(١) رواه البيهقى عن أبى هريرة .

(٢) أى قلت فى شأنه كذا وكذا ، ولم يُسمعه ذلك .

وقد جاء فى الحديث الصحيح : « تَهادوا تحَابوا » (١) .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى الحث على إكـرام الجار – ذكرنا بعضـها فيما سبق .

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

* * *

---

(١) رواه البخاري فى كتاب الأدب المفرد عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى الأوسط بسند لا بأس به عن عائشة .

(٢٩) عليكَ باليَأْس مما فى أيدى الناس

عن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - أن رجلاً قال : يا رسول الله أوْصنى وأوْجز ، فقال : « عليكَ باليَأْسِ مما فى أيْدى النَّاسِ فإنَّه الغنَى ، وإياكَ والطَّمعَ فإنَّه الفقرُ الحاضرُ ، وصـلِّ صلاتَك وأنت مُوَدِّعٌ ، وإيَّاكَ وما يُعْتَذرُ منه »[١] .

* * *

كان رسول الله ﷺ يتكلم الكلمة فتقع من القلوب موقع الحكمة ، وتجرى بين الأجيال مجرى المثل ، وتصادف قبولاً حسناً عند الخاصة والعامة من المسلمين وغيرهم ؛ لأنه قد أوتى جوامع الكَلِم ، وأنطقه الله بالحق الذى لا يختلف عليه اثنان من العقلاء ، وهو رسول الإنسانية يهدى بإذن الله إلى الصراط المستقيم فى القول والعمل .

كلامه منهج حياة ، ودستور أمة ، وميثاق شرف ، يحتكم إليه الناس فى جميع أمورهم الدينية وجميع شئونهم الدنيوية ، ولا يجدون فى حكمه حرجاً ولا عنتاً بل لا يَسَعهم إلا التسليم به فى طمأنينة وإجلال .

ولقد كان أصحابه يسألونه عما يَعِنُّ لهم فيجدون عنده الجواب الحكيم لكل سؤال له ما بعده ، بأن كان فيه صلاحٌ للفرد وقوامٌ للمجتمع .

وكانوا يفرحون بقدوم الأعراب عليهم لجرأتهم على السؤال فيما يَعْنى وفيما لا يَعْنى ، فكان الرسول ﷺ يجيب على أسئلتهم بالرحب والسعة ولا يسفه رجلاً فى أى سؤال سأله تحلُّماً وتكرُّماً وتقديراً منه لحال الأعراب ، فهم أهل بَدَاوة يجهلون الكثير والكثير من أمور الدنيا فضلاً عن أمور الدين .

ولذلك كان يأتى الرجل منهم مجادلاً بالباطل أحياناً، ويقول قولاً لا ينبغى أن يقال ، ويرتفع صوته فى مجلس النبى ﷺ وهو لا يبالى بمن يُخاطِب ، فيتلقاه

---

(١) رواه الحاكم وصحح إسناده .

النبى ﷺ بوجه طلق وكلام سمح ، ويعطيه العطاء الجزل حتى يرضيه ، ويدخل فى الإسلام بقلبه ولسانه ، ويعمل فيه بكامل قوته ، وينضم فى سلك المجاهدين فى سبيل الله ، فيحسن إسلامه ، ويقوى إيمانه ، ويصدُق فى الله يقينه ، فيزهد فى الدنيا ، ويرغب في الآخرة ، فيسأل الرسولَ ﷺ عن الطريقة المثلى التى يتعامل بها مع الناس حتى لا يَظلم أو يُظلم ، أو يَضل أو يُضل ، أو يَذل أو يُذل ، وعن الطريقة المثلى التى تقربه إلى الله تعالى ، وتدخله الجنة بغير حساب .

هذا رجل منهم يقول : « يا رسول الله أوَصنى وأوَجز » .

ولماذا قال : وأوجز ؛ لأن الإيجاز ضرب من الإعجاز البيانى ، فهو يحمل من المعانى الكثيرة فى طيات ألفاظ قليلة تحفظ بسهولة ويسرٍ ، ولا تكاد تنسى لعذوبتها وبلاغتها .

والإيجازُ من أبلغ الأساليب وأوقعها فى النفوس ، وهو أسلوب القرآن الكريم ، وأسلوب النبى ﷺ ؛ لأن أقواله مع أفعاله بيانٌ لهذا الكتاب المبين .

ومن المعلوم أن كلام الله يخالف كلام البشر من جميع الوجوه ، فلا موازنة ولا معادلة ولا مفاضلة بين كلام الله وكلام الناس .

وكلام الرسول ﷺ فى الذروة العليا من كلام البشر ، فكلامه ﷺ له عطرٌ متميز ، وسَمْتٌ خاص ، ووَقْعٌ مؤثر لا يدانيه فيه كلامُ سائِر البشر .

ولهذا أمره – عز وجل – أن يخاطب الناس على قدر عقولهم كلامًا يبلغ فى القلوب مبلغًا لا يبلغه كلام غيره ، فقال فى سورة النساء : ﴿ أولئك الذين يعلمُ اللهُ ما فى قلوبهم فأَعرِض عنهم وعظْهُمْ وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغًا ﴾ (١) .

ولولا أن الله أقدره على ذلك ما أمره بذلك .

* * *

---

(١) آية : ٦٣ .

وأول شيء أوصاه به الرسول ﷺ هو : اليأس مما فى أيدى الناس ، أى قطعُ الطمع تمامًا عما فى أيديهم مما لا حقَّ له فيه ، زهدًا فى الدنيا ورغبة فى الآخرة .

وقد مر بنا حديث : « ازهد فى الدنيا يحبَّك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبَّك الناس » ، لكننا نجد فى هذه الوصية ما هو أقوى من الزهد ، وهو اليأس مما فى أيدى الناس ، ومآله حتمًا إلى الطمع فيما عند الله ، (وبضدِّها تتميزُ الأشياءُ) .

فقوله ﷺ : « عليك باليأس مما فى أيدى الناس » أى الزمه ولا تفارقه ، ولا تحدث نفسك أن تسأل الناس شيئًا ، وتوكل على الله وحده ، وثق بفضله ، وخذ بالأسباب التى ليس فيها جرح للمشاعر أو إذهاب لشيء من التعفف ،واحفظ على نفسك كرامتها بالقناعة والرضا بالقليل مع الصبر والشكر ، وضع نُصْبَ عينيك قوله تعالى : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ (١) .

وقوله جل وعلا : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حَسْبُه ﴾ (٢) إلى غير ذلك من الآيات التى هى فى معناها .

واعلم أن من اعتمد على الناس وَكَلَه الله إليهم ، ومن توكل عليه كفاه ، فسل الله – عز وجل – ألا يَكِلَك لنفسك طرفة عين .

وانظر كيف جعل النبى ﷺ اليأس مما فى أيدى الناس هو الغنى الكامل ، لأن « أل » حرف كمال كما يقول علماء اللغة .

وسل نفسك كيف يكون اليأس مما فى أيدى الناس هو الغنى الكامل ، أو الغنى الحق ، أو الغنى الذى ما بعده غنى ؟ فإنك ستجد الجواب حاضراً لديك نقلاً وعقلاً ، أما النقل فمنه ما قد ذكر آنفًا مع هذا الحديث وغيره من الأحاديث الدالة على هذا المعنى ، وأما العقل ، فإنه لو كان واعيًا منصفًا ما دلَّ صاحبه إلا على الله ، وما حمله إلا على التوكل عليه، أسوة برسول الله ﷺ وصحبه الكرام ،

---

(١) النساء : ٣٢ .

(٢) الطلاق : ٣ .

فقد ضربوا فى التعفف عما فى أيدى الناس أروع الأمثال ، ولم يكن لهم فى الورع مثال ، وهم من نبيِّهم بمنزلة النجوم من الأقمار .

* * *

وقد زاده النبى ﷺ على هذه الوصية وصية أخرى تؤكدها فى نفسه ، وتغرسها فى طبعه ، فيقول : « وإياك والطمعَ فإنه الفقر الحاضر » .

والطمع هو : السّعى إلى جمع المال وطلب الجاه والمنصب بدافع الرغبة الملِّحة فى إرضاء النفس وإسعادها .

وفى الطمع مَذَلَّةٌ لصاحبه وصَغَارٌ ، وفيه تحطيم لمعنوياته وإذهاب لإنسانيته ، وتقليص لشخصه وهويته ، وفيه ضياع للدين ، ومحق للبركة ، وزوال للنعمة ، فهو الفقر الحاضر حقًّا .

ليس فقرًا فى المال فحسب ؛ بل هو فقر فى كل شىء حسى ومعنوى ، وقد جاء فى الأثر : « من جعل الدنيا مبـلغ همه شتت الله شملَه ، وجعل فقره بين عينيه ، ولا يأتيه من الدنيا إلا ما قُدِّر له ، ومن جعل الآخرة مبلغ همه جمع الله شمله وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة » (١) .

لقد هممت يومًا أن أفعل شيئًا أحصل من ورائه على مال كثير لكن كان فى هذا العمل شبهة ، فجلست أفكر ثم ناولت ابنتى كتاب « عيون الأخبار » لتقرأ لى فيه ما شـاء الله أن تقرأ ، فإذا هى تقرأ أبياتًا كانت هى أول ما وقع بصرها عليه ، فوعظتنى هذه الأبيات وعظًا بليغًا :

حَسْبِى بعلْمِى مَا نَفَعْ ... مَا الذُّلُّ إلا فى الطَّمَعْ

مَنْ رَاقَـبَ اللهَ نَزَعْ ... عن قُبْحِ مَا كَان صَنَعْ

ما طار طـيرٌ وارْتَفَعْ ... إلا كـما طَـارَ وَقَعْ

ثم قرأت بيتًا آخر أبلغ من هذه الأبيات :

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بتَمْزِيق دينِنَا

فلا دِينُنا يبقى ولا مَا نُرَقِّعُ

* * *

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ٥ / ١٨٣ .

والوصية الثالثة فى هذا الحديث تكملة وتوكيد للوصيتين السابقتين مع إضافة أخرى وهى الخشوع فى الصلاة .

فالمسلم لكى تهون عليه الدنيا ويزهد فيها ، ويعفَّ نفسه عما فى أيدى الناس ينبغى أن يصلى الصلاة وكأنها آخر صلاة يصليها ، وذلك بأن يذكر الموت قبل أن يدخلها ، فإذا اعتبر أنها آخر صلاة يُصَلِّيها خَشَعَ فيها ، وابتعدت عنه هواجس النفس ووساوس الشيطان ، وبالغ فى تأديتها على الوجه المرْضِى ، فأطال القراءة والركوع والسجود ، وأكثر من الدعاء وألح فيه وهو بين الرجاء والخوف .

وصلاة كهذه تنهى صاحبها - ولابد - عن الفحشاء والمنكر ، بمعنى أنها تقوى إيمانه بالله ، فيحمله الإيمان القوى على مخالفة الشيطان والهوى .

أما الصلاة التى تخلو من الخشوع والدعاء الخالص ، ولا يكاد صاحبها يذكر منها إلا ربعها أو سدسها فإنها لا تنفعه ولا تُرفع فوق رأسه شبراً ، فالخشوع روح الصلاة ، فما قيمة الجسد بلا روح ! .

﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ (١) .

* * *

ثم أوصاه بوصية رابعة محذراً إياه من الوقوع فيما يحمله على الأسف والاعتذار ، فإن العاقل هو الذى يفكر فى القولَ قبل أن يقوله ، والفعلِ قبل أن يفعله ، فإن رأى فى الكلمة خيراً قالها وإلا حبسها .

قال رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه البخارى وغيره : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وهو تفسير لقوله تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ﴾ (٢) .

ولقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله وقولوا قولاً سديداً يُصلحْ لكم أعمالكم ويَغفرْ لكم ذنوبكم ومن يُطعْ الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ (٣) .

---

(١) المؤمنون : ١ - ٢ . (٢) الأنعام : ١٥٢ . (٣) الأحزاب : ٧٠ - ٧١ .

وإن عزم على أمر لا يقدم عليه حتى يعرف حكم الله فيه فإن كان حلالاً أقدم عليه ، وإن كان حراماً أحجم عنه .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُقدموا بين يَدَىِ الله ورسوله واتَّقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ (١) أى لا تقدموا على عمل قبل أن تعرفوا فيه حكم الله ورسوله ، ولا تُقَدِّموا على حكم الله ورسوله حكم العقل ؛ فإن العقل كثيراً ما يخطئ وليس لديه للخير والشر ضوابط ثابتة .

إن الرسول ﷺ يحذر الرجل من الوقوع فيما يغضب الله وفيما يغضب الناس ، فإن الاعتذار قد يكون لله وقد يكون للناس .

والاعتذار لله لابد منه لأنه توبة ، والتوبة واجبة على كل مسلم ، ومن شأنه أن يكون مصاحباً لها فى جميع أحوالها ، فهى أول الطريق ووسطه وآخره ، كما قال أهل العلم .

وعلى هذا المفهوم يكون التحذير من الذنوب كبيرِها وصغيرِها ، والمعنى إياك والمعاصى ؛ فإنك قد تتمادى فيها فتموتُ عليها فتدخل النار ، وقد تعتذر منها فلا ينفعك الاعتذار ، فالأولى ألا تقدم عليها ، ولا تقرب ما يؤدى إليها .

وأما الاعتذار إلى الناس فإنه أحياناً يكون محمدة وذلك فى الخطأ الذى لم يتعمده المسلم ، فيكون لاعتذاره وجاهة وشأن ، فهو إرضاء للناس وتطييب لنفوسهم ، وبعفوهم يعفو الله - عز وجل - عنه ؛ لأن الخطأ فى حق الناس اعتداء على حقوقهم فإن شاءوا عفوا عنها وإن شاءوا طالبوا بها ، والاعتذار إليهم سبيل إلى التسامح والصفح ، وهو دليل على مكارم الأخلاق ، فإن اعتذر المخطئ فهو إنسان متواضع ، وإن عفا المعتذَر إليه فهو حليم كريم .

وقد يكون الاعتذار مذمة، وهو ما يحذر النبى ﷺ منه ، وهو الاعتذار من الخطأ المتعمد والمتكرر، فقد تتعمد فعل شىء لا يليق بك أن تفعله مع أخيك أو مع جارك ، ففعلته فى ساعة حضر فيها شيطانُك، واستحوذ عليك هواك ،

---

(١) الحجرات : ١ .

فاعتذرت من هذا الخطأ فإن العفو عنك فيه يكون صعب المنال إلا إذا كنت قد اعتذرت لرجل هو من خيرة الرجال ، ولا سيما إذا تكرر منك هذا الخطأ فإنك حينئذ لا تستحق العفو ، بل العفو يكون فى حقك خطأ يقابل الخطأ الذى وقعت فيه ، لأنك تستحق العقوبة على هذا الخطأ المتكرِّر بما يردعك ويوقفك عند حدك .

ومعذرة إن كنت قد تكلمت معك – أيها القارئ – بصيغة الخطاب ، فإنى لا أعنيك ولكنى أعنى من لا يأخذ بنصح رسول الله ﷺ ، فيوقع نفسه فى مازق يصعبُ عليه الاعتذار فيها ، ومهالك لا يمكنه التخلص منها ، فقد يأتى عملاً هو به غير خبير ، وقد يبدى رأياً هو عنه غير مسئول ، وقد تدفعه نفسه الأمارة بالسُوء إلى أقوالٍ وأفعالٍ ينشأ عنها ضرر خطير ما كان يتوقعه أو يحسب له حساباً (ومعظم النار من مستصغَر الشرر) .

فما أحوجنا نحن المسلمين إلى فقه القرآن والسنة على النحو الذى يُمَكِّنُنَا من العمل بتشريعاته وآدابه مع الاحتفاظ التام بخصائصه ومميزاته ، وهى كثيرة منها : السماحة ، واليسـر ، ورفع الحرج ، ودفع المشقة ،وقلة التكاليف ، والحيوية ، والمرونة ، والعدالة المطلقة ، والمساواة التامة فى الحقوق العامة ، والعمومية ، والصلاحية للتطبيق فى كل زمان ومكان .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٣٠) تَعَاهَدُوا هذا القُرآنَ

عن أبى موسى الأشعرى - رضــى الله عنه - قال : قال رســول الله ﷺ : « تَعاهَدُوا هذا القُرآنَ ، فوالذى نَفْسُ محمدٍ بيدِه ، لهو أشدُّ تفَلُّتًا من الإبلِ فى عُقُلِها »(١) .

* * *

القرآن الكريم كتاب هداية ومنهج حياة ، بيَّن الله فيه للناس ما يجب لهم وما يجب عليهم ، وما يحل لهم وما يحرم عليهم ، وذلك فى قواعد كلية يندرج تحتها كل ما جدَّ ويجد من شئون الحياة ، فما من صغيرة ولا كبيرة يحتاج الناس إليها إلا شملها تشريعه ووسعها بيانه .

﴿ كتابٌ أُحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير ﴾(٢) .

وهو الكتاب المهيمن على سائر الكتب السماوية ، جمع ما تفرق منها ، وصحح ما حرفته الأيدى العابثة ، وأظهر ما أنكرته القلوب المريضة ، ورد إليها قداستها بعد أن استخفت بها النفوس الأمارة بالسوء وذلك بأسلوبه البيانى المعجز .

فعرف منه أهل الحق ما أدخله فيها أهل الباطل من زيف وضلال ، فصار القرآن ميزانًا لهذه الكتب السماوية يَزِنُون به ما جاء فيها من أحكام وأخبار ، فما كان موافقًا له كان صحيحًا ، وما كان مخالفًا كان ردًّا على من أتى به إذ الكتب السماوية كلها قد خرجت من مشكاة واحدة لتعبر عن دين واحد هو الإسلام .

وفضائل القرآن على سائر الكتب السماوية أكثر من أن تحصى فلا نطيل الكلام فيها هنا .

---

(١) أخرجه البخارى ٩ / ٧٣٩ فى فضائل القرآن ، باب استذكار القرآن وتعاهده ، ومسلم رقم (٧٩١) فى صلاة المسافرين ، باب الأمر بتعهد القرآن . واللفظ لمسلم ، ولفظ البخارى : « أشدُّ تقصيًا » والمعنى واحد .

(٢) هود : ١ .

ولكن ينبغي أن نبادر إلى القول بأن حفظه من أجل السنن وأسماها ، بل إن حفظه فرض كفاية - إذا قام به البعض سقط عن الباقين .

وحفظ بعضه بالقدر الذى تؤدى به الصلاة واجب على كل مسلم قادر على الحفظ .

ولا شك أن حفظ القرآن كله نعمة من أعظم النعم بعد الإيمان ، فمن مَنَّ الله عليه بحفظه فليتعهده بالتلاوة مع التدبر فى صباحه ومسائه وفى حلِّه وتَرحاله ؛ فإن القرآن يتفلت من صاحبه على حين غفلة منه ، فلا يستطيع رده إلى ذاكرته إلا بمشقة بالغة ، وذلك لأنه كتاب معجز فى فصاحته وبلاغته ، ودقة تعبيره وقوة تصويره وروعة بيانه ، فغاير كلام الناس من جميع الوجوه لا يحفظه إلا من أوتى حظًّا من الفتوح الربانى ، فإذا ما حفظه المسلم ثم هجره عاد إلى ما كان عليه من فراغ القلب والعقل منه ، فلو حاول أن يستذكره عزَّ عليه ذلك واستعجم فاحتاج بالضرورة إلى جهد جهيد لحفظه من جديد ، ولهذا قال النبى ﷺ : « تعاهدوا هذا القرآن » أى : جددوا العهد معه بملازمة قراءته .

فالتعاهد لفظ يقتضى المشاركة ، فكأنه بتجديد تلاوته يعاهد القرآن أن يستمر فى حفظه ، ويعاهده القرآن أن يكون له مجيباً .

وفى رواية للبخارى : « استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيًا[1] من صدور الرجال من النَّعَم » .

ومعنى « استذكروا » : واظبــوا على تــلاوته وأطلبــوا ذكره . فهو بمعنى « تعاهدوا » .

وقوله : « لهو أشد تفلتاً » أى أسرع انصرافًا عن الذاكرة ، فهو نعمة من أجلّ النعم ، والنعمة تستدعى المحافظة عليها باستذكارها وترك التغافل عنها .

وقد شبه تفلته بتفلت الأبل من عقلها ، وهو تشبيه منتزع من الواقع المشاهد عندهم فى شبه الجزيرة العربية ، والتشبيه يجسد المعاني ، ويبرزها فى صور محسة حتى تتضح غاية الاتضاح .

---

(١) التَّفَصِّى - بالفاء -: التَّفَلُّت .

« والعُقُل » – بضم العين والقاف – جمع عِقَال ، وهو ما يربط به البعير .

وفى رواية : « بعقلها » ، و : « من عقلها » والمعنى متقارب .

وقد أقسم النبى ﷺ على ذلك بالقسم الذى اعتاده فى توكيد كل أمر عظيم . وهو قوله : « والذى نفس محمد بيده » ، ولا يخفى ما فى هذا القسم من التسليم لله فى الأمر كله ، وإظهار الخضوع إليه والتواضع لعظمته ، وتمام الافتقار إلى خالقه ومولاه جل شأنه .

* * *

وهذا الحديث توجيه حكيم لكل من أنعم الله عليه بحفظ هذا القرآن العظيم .

فمن أراد الله به خيراً ثبت القرآن فى قلبه وأذاقه حلاوته وعلمه تأويله ، ورزقه حسن التدبر فى معانيه ومراميه ، فأغناه حفظه وتلاوته عن الاشتغال بما سواه مما تطرب به النفوس وتستريح .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويلٌ للقاسية قلوبُهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين الله نَزَّلَ أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانىَ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تَلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله ذلك هُدَى الله يهدى به من يشاء ومن يُضلل الله فما له من هادٍ ﴾ (١) .

وليس هناك ذكر أعظم من تلاوة القرآن ، تنشرح به الصدور ، وتستنير به البصائر ، فهو أحسن الحديث على الإطلاق ؛ لأنه يملك على المرء نفسه وحسه ويتسلل نوره إلى أعماق القلوب وشغافها ، فلا تستجيب بعد تذوق حلاوته إلى حديث سواه .

تشابهت آياته فى فصاحتها وبلاغتها ،وحلاوتها وطلاوتها ، فكان أوله

---

(١) الزمر : ٢٢ – ٢٣ .

كآخره فى الجلال والجمال والكمال ، تقشعر منه الجلود الميتة فتحيا وتنتفخ حتى تعود إلى ما كانت عليه وقد سَلِمَت مما كان يعتريها من لين يعطل وظائفها .

ثم تلين هذه الجلود إذا اضطربت حتى تعود لوضعها المناسب ، وتلين القلوب مع لين الجلود ؛ لأن القلوب السليمة إنما تكون فى الأجساد السليمة .

إن القرآن دواء لكل داء ، فهو شفاء لما فى الصدور ، تستريح به القلوب والجلود المضطربة ، وتحيا به القلوب والجلود الميتة ، فأى حديث أعظم من هذا الحديث ! وأى كتاب سماوى يدانيه فى فضيلة من فضائله !!

إنه لا موازنة ولا مفاضلة ولا معادلة بين كلام الله وكلام البشر ، بل لا موازنة ولا مفاضلة ولا معادلة بين هذا الكتاب والكتب السماوية كلها ؛ فهو المعجزة العقلية الباهرة الخالدة إلى أبد الأبد ، وإنه لنعيمٌ لأهل الجنة فى الجنة ، كما كان نعيمهم فى الدنيا ، فمن داوم على تلاوته بالترتيل مع التدبر فهو فى جنة دنيوية لا يعرف حقيقتها إلا من ماثله فى التلاوة والتدبر .

* * *

وهذا الحديث موافق لقوله تعالى : ﴿ إنا سنُلقى عليك قولاً ثقيلاً ﴾[1] فهو ثقيل فى معانيه ومراميه ، بمعنى أنه عظيم الوقع على القلوب المؤمنة ، تستقبله حين تستقبله وهى وَجِلَةٌ منه ، مُجِلَّة له ، يملكها ولا تملكه ، ويحيط بها ولا تحيط به .

وهذا الحديث موافق – أيضًا – لقوله تعالى : ﴿ ولقد يسَّرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر ﴾[2] إذ يفهم من هذه الآية أن الله – عز وجل – يسر القرآن لمن أراد تلاوته وأقبل عليه بقلبه .

ونفهم من قوله : ﴿ فهل من مدَّكر ﴾ الحث على تلاوته وتعهده بالحفظ والتدبر والاستذكار ، أى ردِّه إلى الذاكرة كلما شرد شىء منه عنها بسبب الغفلة عنه . فتأمل ذلك وبالله توفيقك .

* * *

---

(١) المزمل : ٥ .

(٢) القمر : ١٧ .

(٣١) إذا نَظَرَ أحدُكم إلى مَنْ فُضِّلَ عليه فَلْيَنْظُرْ إلى مَنْ هو أَسْفَلُ منه

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ قال : « إذا نَظَرَ أحدُكم إلى مَنْ فُضِّلَ عليه فى المالِ والخَلْقِ ، فَلْيَنْظُرْ إلى مَنْ هو أَسْفَلُ منه ممن فُضِّلَ عليه »(١) .

* * *

الرسول ﷺ طبيبُ الأطباء ، يشخِّص بحكمته الداء ، ويصف الدواء ، فهو على بصيرة من ربه ، علمه الله من لدنه علماً لم يؤته أحداً من العالمين .

قال تعالى : ﴿ وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾(٢) .

وقد جمع الله له من ألوان المعرفة بطباع الناس ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم ، وأزمانهم ودرجاتهم فى الثقافة والفهم ، ونبأه بكثير من أخبار الأولين والآخرين ، وأعطاه القواعد الكلية التى يندرج تحتها كل ما جدَّ ويجد مما يحتاج الناس إليه فى أمور دينهم وشئون دنياهم ، وزوده بقدرة خارقة يعرف بها أقدار الرجال وأحوالهم فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء لكى يؤدى وظيفته التى بُعث من أجلها ، وهى نشر العلم بين الناس ، وغرس الفضائل فى نفسوهم بعد تخليتها من الرذائل ،وردهم إلى خالقهم بعد أن تخطفتهم الشياطين فى الأرض ، وابتعدت بهم عن الصراط السوى الذى كان عليه الأنبياء والمرسلون والصديقون والصالحون من قبله .

وقد ذكرنا – فيما سبق – أن قلب النبى ﷺ واد قد تفجرت منه ينابيع

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرِقاق ، باب « لينظر إلى من هو أسفل منه » ١١/ ٢٧٦، ومسلم فى الزهد ٢٩٦٣ .

(٢) النساء : ١١٣ .

الحكمة فسالت أودية بقدرها ، بمعنى أن كل قلب أخذ منها بقدر سعته وصلاحيته وسلامته ٠

وهذا الحديث حكمة تستريح لها النفوس المؤمنة ، وتجد فيها العزاء فى كل مصاب ، والهناءة فى كل نعمة مهما قلَّ حجمها ، وهان مقدارها فى نظر الناس ٠

وفيه أدوية شافية لأدواء كثيرة ، سنتعرف على بعضها فى شرحه – إن شاء الله تعالى – ٠

* * *

وقوله ﷺ : « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخَلْق » أى: حين يخطر بقلبه وعقله أن فلانًا يفوقه سَعَة فى المال ، وبَسْطة فى الخلق – فلا يتمادى فى هذا الخاطر ؛ حتى لا يتحول إلى داء وَبيل لا يستطيع معالجته بعد ذلك إلا بمشقة بالغة وتوفيق من الله ، وليفعل ما أمره به النبى ﷺ فور وقوع هذا الخاطر ، فينظر إلى من هو أقل منه مالاً وجمالاً حتى يشعر بالرضا ويحمد الله – عز وجل – على ما آتاه من فضله ، ولا ينظر إلى من هو فوقه حتى لا يستخف بنعم الله عليه وهى كثيرة ، منها ما هو ظاهر يراه ويشعر به ، ومنها ما هو باطن لا يدرك أبعاده ولا يعرف كنهه مع أنه مغمور فيه ٠

يقول رسول الله ﷺ : « انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله » (١) ٠

وازدراء النعمة كفر بها ، والكفر بأنعم الله عاقبته وخيمة فى الدنيا والآخرة ٠

يقول الله – عز وجل – : ﴿ وضرب الله مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعُم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾(٢) ٠

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الزهد عن أبى هريرة رضى الله عنه ٠ والترمذى فى صفة القيامة ٢٦٣٢ ، وقال : حديث صحيح ٠

(٢) النحل : ١١٢ ٠

ومعنى : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ أى : جعلهما ملازمين لمن كفر ، ملاصقين له ملاصقة الثوب للبدن .

والكفر ضد الشكر ، إذ الكفر ستر النعمة واحتقارها والاستخفاف بها ، والشكر امتلاء القلب بالثناء على مُسْدِى النعمة ومعطيها مع تعظيمها والرضا بها ، وهو برهان صادق على صحة الإيمان ، وعنوان صحيح على من صدق يقينه فى الله ، وتم توكله عليه .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ [1] .

ويقول : ﴿ واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾[2] .

والشكر منتهى المقامات ، وهو يبدأ من الصبر وينتهى بالرضا .

فمن نظر إلى من هو دونه فى المنزلة تمكن من الشكر على ما لديه من النعم ،وذلك بأنه سيراها كثيرة وفيرة بالنسبة إلى من هو دونه،وهى كذلك فعلاً .

﴿ وإن تَعُدُّوا نعمة الله لا تُحْصوها ﴾ [3] .

فعندئذ لا يسعه إلا أن يحمد الله - تبارك وتعالى - على أن جعله أحسن من غيره حالاً .

ولكن لو نظر إلى من هو فوقه لم يتمكن من ذلك ، وسيحمله هذا النظر إلى أن يبذل جهده لكى يلحق به ، وما هو بلاحق ؛ لأنه كلما لحق من فوقه نظر إلى من فوقه ، حتى يموت كمداً ، فلا يدرك ما يتمناه ، ويعيش عمره كله يعانى من الحقد والحسد ، والحرص والطمع وغير ذلك من الآفات المهلكة التى تحول بينه وبين الصبر والشكر ، وهما الإيمان كله .

وقد ورد فى صحيح الترمذى حديث عن رسول الله ﷺ يؤيد ما ذكرناه .

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكراً صابراً ،ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً : من نظر فى دينه إلى من هو فوقه

---

(١) البقرة : ١٧٢ .

(٢) النحل : ١١٤ . (٣) إبراهيم : ٣٤ .

فاقتدى به ، ومن نظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه كتبه الله شاكراً وصابراً . ومن نظر فى دينه إلى من هو دونه ، ونظر فى دنياه إلى من هو فوقه فأسِفَ على ما فاته منه – لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً »[1] .

* * *

والناس صنفان :

– صنف لا ينظر إلى نعم الله نظرة إيمانية ، ولا يرضى بها مهما كثرت ، ومهما عظُمت ، بل يستكثر منها بأسلوب يثير الضحك والضجر فى الوقت نفسه ، ولا يكف عن السعى فى طلب المزيد حتى يدركه الموت .

وقد يكون هذا الصنف على علم بأمور الدين ، وعلى دراية بهوان الدنيا وسرعة زوالها ، وهو مع ذلك يلهث ويلهث ، قائماً وقاعداً ، حتى يظن من رآه أنه مجنون ، والجنون فنون .

وفيه يقول الله – عز وجل – : ﴿ واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأَتْبَعَه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلدَ إلى الأرض واتبع هواه فمَثَلُه كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾[2] .

وقد شبهه الله بالكلب فى أسوأ حالاته وهى اللهث ، وذلك لأن الكلب ضعيف القلب ، ضيق التنفس ، يستعين باللهث على حفظ حياته . فتراه يلهث قاعداً وقائماً وماشياً ، فحال من شغلته الدنيا وجعلها مبلغ همه ومنتهى أمله كحال الكلب لا يكف عن اللهث ، ولا ينتهى تطلعه إلى حد يرضى به .

فهو فى لعب دائم ، وشغل شاغل ، لا يخطر له الموت على بال حتى يأتيه بغتة وهو على تلك الحالة ، فيندم ولات ساعة مندم .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتمُ المقابر ﴾[3] .

---

(١) قال الترمذى : حديث غريب ، والغريب ما رواه واحد عن واحد أو اثنين إلى منتهى السند ، وفى سنده المثنى بن الصباح وهو ضعيف .

(٢) الأعراف : ١٧٥ – ١٧٦ .   (٣) التكاثر : ١ – ٢ .

روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » (١) .

وهذا الصنف من الناس فريقان :

كافر يستمتع بطيباته فى حياته الدنيا ،وليس له فى الآخرة من نصيب .

ومنافق يظهر الإسلام ويخفى الكفر ، وهو أشد من الكفار عذابًا ، كما قال - جل وعلا - : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد له نصيراً ﴾ (٢) .

ولكن هناك نفاق فى العمل صاحبه لا يكون كافراً ، ولكن يكون فاسقًا ، ويقال له منافق فى العمل ، وهو الذى إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا خاصم فَجَر ، وإذا عاهد غدر ، إلى آخر ما هنالك من الصفات الواردة فى الأحاديث الصحيحة .

- والصنف الثانى من الناس : ينظر إلى نعم الله نظرة إيمانية على قدر وعيه وإيمانه فيذكر بعض النعم الظاهرة وينسى بعضها .

وهذا الصنف فريقان :

فريق ينظر إلى النعمة من حيث قيمتها ومقدارها ، وهل جاءت فى وقتها أم فى غير وقتها .

وفريق ينظر إلى المنعم - عز وجل - فلا يحتقر نعمة جاءت من قِبَله ، فيفرح بها لأنها منه وكفى .

فالفريق الأول قد جعل النعمة مبلغ همه ومنتهى أمله ، فيفرح بها إن جاءته ، يَحْزَن عليها إن فاتته .

والفريق الثانى قد جعل المنعم - جل شأنه - منتهى نظره وأمله ، فلم يفرح

---

(١) كتاب الإقامة ، باب ما يتقى من فتنة المال ، ح٦٤٣٦ .

(٢) النساء : ١٤٥ .

بالنعمة إذا جاءته من حيث هى نعمة ، ولكنه يفرح بها من حيث إن الله أسداها إليه وجعلها من جملة عطاياه ، ومَنَّ بها عليه دون سواه ، أو مَنَّ بها عليه مع آخرين . وإن فاتته لا يُلقى لها بالاً ولكن يعتبر فواتها نعمة من نعم الله عليه لعلمه أن الله لا يختار لعبده وإلا الخير ، والخير لا يعرفه إلا الله ، ومواطن الخير كثيرة إن لم يدركه الإنسان فى موطن أدركه فى موطن آخر ، ولو علم العبد ما فى الغيب ما اختار إلا ما اختاره الله له ، فهذا الفريق هم العارفون الذين جعلوا رضاهم فى رضا الله ، وفوضوا الأمر إليه فى كل شىء ، وجعلوا التسليم ديدنهم فى جميع الأحوال ، وأخذوا أنفسهم بقول الله تعالى : ﴿ لكيلا تأسَوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ (١) .

وهؤلاء هم الذين عرفوا فلزموا فوصلوا إلى الله من أيسر طريق ، فعاشوا سعداء لا ينظرون إلى ما فى أيدى الناس ، ولا يهتمون بجمع حطام الدنيا ، فأحبهم الله وأحبوه ، فهم أصحاب النفوس المطمئنة التى يناديها ربها عند الموت ويوم القيامة بما جاء فى سورة الفجر : ﴿ يا أيتها النفسُ المطمئنة ارجعى إلى ربك راضيةً مرضيةً فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ (٢) .

فعلينا إذن أن نتمسك بهذه الوصية الغالية التى وردت فى هذا الحديث ، ونجعلها نُصْبَ أعيننا ، فنرضى بما قسم الله لنا ،ولا نحزن على شىء فاتنا ، فما أخطأنا لم يكن ليصيبنا ، وما أصابنا لم يكن ليخطئنا ، والله يختار لعبده الخير حيث كان .

﴿ وربُّك يخلُقُ ما يشاء ويختار ما كان لهم الخِيَرَةُ سبحان الله وتعالى عما يشركون وربُّك يعلم ما تُكنُّ صدورهم وما يُعلنون وهو الله لا اله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه تُرجعون ﴾ (٣) .

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ومن يَعصِ الله رسوله فقد ضل ضلالاً مبينًا ﴾ (٤) .

---

(١) الحديد : ٢٣ .
(٢) الفجر : ٢٧ - ٣٠ .
(٣) القصص : ٦٨ - ٧٠ .
(٤) الأحزاب : ٣٦ .

وقد قال الرسول ﷺ للرجل الذي جاء يسأله عن عمل إذا عمله أحبه الله وأحبه الناس : « ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » .

* * *

واعلم – أخى المسلم – أن الله قسم المعايش على عباده بنسبة مئوية ، فيزيد هذا فى كذا وينقصه من كذا ، فيتساوى الجميع فى نهاية الأمر فى النعم الدنيوية ، فلا يتميز أحد على أحد بكل شىء ، فإن أُعطى شيئاً حُرم الآخر .

وقد رفع الله الناس درجات ليخدم بعضهم بعضًا ، فما من مرفوع فى جهة إلا وهو مخفوض فى جهة .

والعاقل هو الذى يدرك ذلك فلا يجزع لشىء أصابه ، ولا يحسد أحداً على ما آتاه الله من فضله .

قال تعالى : ﴿ نحن قَسَمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضًا سُخْرِيًّا ورحمتُ ربك خير بما يَجمعون ﴾ (١) . والقسمة تقتضى العدل ،والمعايش كل ما يتعيش الإنسان به ويعيش له ويحرص عليه ،ويسعى فى تحصيله فكل أمور الدنيا معايش .

فمنهم من بسط الله له الرزق وحرمه من العلم مثلاً ، أو من الولد ، أو من الذكاء ، ومنهم من وهبه العلم ولم يعطه الكثير من المال . ومنهم ... ومنهم ..وذلك كله بتقدير العزيز العليم .

ورفع الدرجات إنما يكون بالتفاوت فى القوة والضعف ، والغنى والفقر ، والعلم والجهل وغير ذلك ؛ ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً – بضم السين – أى خدماً .

---

(١) الزخرف : ٣٢ .

والعاقل من لا يهتم كثيراً بزينة الدنيا ،ولكنه يسأل الله من فضله العظيم ورحمته الواسعة .

فرحمة الله هى الخير المطلق والنعيم المقيم .

قال تعالى : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يَجمعون ﴾[1] .

* * *

---

(١) يونس : ٥٨ .

(٣٢) ما جاءَك من غيرِ استشْرَاف نَفْسٍ فَخُذْهُ

عن الزهرى قال : حدثنى سالمُ بن عبد الله أن عبد الله بن عمر قال : سمعتُ عمر يقول : كان النبى ﷺ يعطينى العطاءَ فأقولُ : أعطه أفقرَ إليه منى ، حتى أعطانى مرةً مالاً - فقلتُ : أعطه من هو أفقرُ إليه منى ، فقال النبى ﷺ : « خُذْهُ فَتَمَوَّلْه وتَصَدَّقْ به ، ما جاءَك من هذا المالِ وأنت غيرُ مُشْرِفٍ ولا سائلٍ فَخُذْهُ ، وما لا فلا تُتْبِعْه نَفْسَك » (١) .

* * *

كان النبى ﷺ أرحم بأصحابه من أنفسهم على أنفسهم ، كما وصفه ربه - عز وجل - بقوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ (٢) .

ولهذا كانت طاعته واجبة على المؤمنين فى أمور الدين والدنيا ، وكان نصحه وتوجيهه فيما يخص المؤمنين موضع تقدير وتوقير من جميعهم ؛ لعلمهم أنه يقول الحق ويهدى سواء السبيل بأذن الله تبارك وتعالى .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم ممن سبقوا إلى الإسلام ولازموا النبى ﷺ لا يعملون عملاً ولا يقطعون برأى إلا إذا استشاروا النبى ﷺ فيه ، أو تقدم منه نص فيه يأمرهم بالإقدام أو بالإحجام ، واضعين نُصْبَ أعينهم قوله تعالى : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يَدَىِ الله ورسولِه ﴾ (٤) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾

---

(١) أخرجه البخارى بهذا اللفظ فى كتاب الأحكام ، باب رزق الحكام والعاملين عليها ، وفى الزكاة ، باب من أعطاه الله شيئًا من غير مسألة ولا إشراف .

وأخرجه - أيضاً - مسلم فى الزكاة ، باب جواز الأخذ بغير سؤال ولا تطلع .

(٢) التوبة : ١٢٨ . (٣) الأحزاب : ٦ .

(٤) الحجرات : ١ .

أى : هو أحق وأولى بالمحبة والطاعة من أنفسهم لأنفسهم ، فإذا ما دعاهم لأمر ودعتهم أنفسهم إلى خلافه وجب أن يؤثروا ما دعاهم إليه على ما تدعوهم إليه أنفسهم ؛ لأنه ﷺ لا يدعوهم إلا إلى ما ينفعهم ، أما أنفسهم فقد تدعوهم إلى ما يضرهم .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾ أى : لا تسرعوا إلى عمل تعملونه إلا بعد أن تعرفوا حكم الله ورسوله .

وكان الرسول ﷺ يعدل بين الناس كما كان يعطف إليهم ، ويحسن إليهم ويتفقد أحوالهم ، وينشر السلام والحب والوئام بينهم ، ويأخذ من أغنياءهم إلى فقرائهم ، ويقسِّم ما جاءه من الصدقات والغنائم على المهاجرين والأنصار مراعياً فى ذلك الضرورة والحاجة ، وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقيراً لكنه كان يعمل ويتكسب فلا يكاد يجد من عمله إلا القوت الضرورى ، فيكتفى به ولا يسأل الناس شيئاً ، ولا يقبل صدقة من متصدق ، شأنه فى ذلك شأن كثير وكثير من أصحاب النبى ﷺ الذين رسـم الله على وجوههم سـيما القناعة والعـفة والزهد والورع .

ولهذا لم يكونوا يتعرضون للصدقات التى كانت تَرِدُ النبى ﷺ ، بل كانوا يستترون فى بيوتهم تنزهاً عن طلبها فضلاً عن الإلحاح فى المسألة على غرار ما كان يفعل بعض الناس .

ولهذا كان الرسول ﷺ يتتبع أمثال هؤلاء ، ويسأل عنهم ، ويأمر من يأتيه بهم ، وربما ذهب إليهم فى بيوتهم ليعطيهم ما يكفيهم ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ للفقراء الذين أُحْصِروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبُهم الجاهلُ أغنياءَ من التعفف تعرِفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تُنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ (١) .

وقد صادف يوماً أن رسول الله ﷺ أعطى عمر بن الخطاب شيئاً من المال كما كان يعطيه من قبل، فأبى أن يأخذه تعففاً وتنزهاً شأنه فى ذلك شأن الأخيار الذين ذكر الله أوصافهم فى هذه الآية ، وآثر بهذه العطية من هو أشد حاجة إليها

---

(١) البقرة : ٢٧٣ .

منه ، ولكن الرسول ﷺ قال له : « خذه فتموله » أى : تملكه ، « وتصدق به » أى : لك أن تنتفع به ،ولك أن تتصدق به ؛ فالواو بمعنى « أو » – على الصحيح – كما فى رواية أخرى لسالم بن عبد الله بن عمر .

ثم وضع له النبى ﷺ قاعدة فى الأخذ والرد ، فقال : « فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ،وما لا فلا تتبعه نفسَك » أى : ما جاءك من هذا المال الحلال . وهذا هو السر فى اسم الإشارة ، أى من جنس هذا المال الذى بين يدى ، ولا يملك النبى ﷺ إلا الحلال الطيب ، ولا يعطى أصحابه إلا منه ، ولا يأمرهم بأخذ ما سواه .

وهذا هو الشرط الأول فى الأخذ .

والشرط الثانى : فى قوله : « وأنت غير مشرف » أى : وأنت غير متطلعٍ إليه ،ولا مترقب حصوله ، بحيث لو لم يأتك ما غضبت ولا حزنت .

فإن التطلع إلى الشىء والتعرض لأخذه بطريقة ما فيه ما فيه من إذلال للنفس واستخفاف بها ، وهو أمر يتنافى مع العفة والقناعة ، والزهد والورع – على ما سيأتى بيانه .

والشرط الثالث : ألا يسأل الناس شيئًا مهما كان مضطراً إلى ذلك ، وهو أشد من الإشراف والتطلع ، فكل سائل مشرف متطلع وإلا ما سأل ، فالإشراف بالقلب ، والسؤال باللسان ،واللسان ترجمان القلب .

وقد نصح النبى ﷺ عمر فى نهاية الحديث أن يتنزه عن كل ما يأتيه بتطلع وانتظار زهداً فيه وقناعة بما عنده .

وقد عرفنا فيما سبق عند الكلام عن قوله ﷺ : « ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » كيف يكون الزهد ، وكيف تكون القناعة .

هذا هو فحوى الحديث ، ولكن فيه من الأحكام والتنبيهات ما لا غنى لنا عن معرفته ، فلنذكر أهم ما اشتمله هذا الحديث منها .

* * *

فمن الأحكام التى ذكرها الفقهاء أخذاً من هذا الحديث :

١ - أنه يجوز للمسلم أن يأخذ أجرًا على عمل قام به لصالح المسلمين ، وله أن يطالب به ، سواء كان محتاجًا إليه أم لا ، فهو حق من حقوقه ، ولكنهم اختلفوا فى شأن من يأخذ على عمله أجراً هل يثاب على فعله أم لا ؟ .

فمنهم من قال : الأجر والثواب لا يجتمعان ، فمن أخذ على أذانه أجرة أوعلى إمامته أو على جمعه الزكاة لا يثاب على عمله هذا عند الله إلا إذا كان فى حاجة إليه .

والراجح عند العلماء : أن له الثواب مع أخذه الأجر ، سواء كان محتاجاً إليه أم لا ، ولكن ينبغى أن يجعله من قبيل الرزق لا من قبيل الأجر .

بمعنى أنه يعتبر ما جاءه رزقًا ساقه الله إليه لا أجراً ، والفرق بين الرزق والأجر أن الرزق من قبيل الإحسان ، والأجر من قبيل العقود ، والإحسان غير مقدر ، والأجر مقدر .

فإذا اعتبره من قبيل الإحسان لا يبالى أَنَقَصَ أم زاد ، فإن زاد شكر ، وإن نقص لا يطالب بشىء ، بل لو انقطع هذا الرزق لا يغضب ، ولا ينقطع عن العمل لأنه قد جعل الهجرة لله ، والعمل خالصاً لوجهه الكريم ، فما جاءه من غير استشراف نفس أخذه فانتفع به أو تصدق به كله أو تصدق ببعضه ، فإن لم يأته فلا يتبعه نفسه - كما أوصى بذلك النبى ﷺ .

٢ - وينبغى على من كان فى غير حاجة إلى المال أن يتنزه عن أخذ الصدقات .

لقوله ﷺ : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مِرَّةٍ [1] سوىّ » [2] .

ويظهر أن عمر - رضى الله عنه - إنما رفض الأجرة على عمل عمله ، لهذا أوصاه الرسول ﷺ بما أوصاه .

وهذا ما أفادته رواية أخرى أخرجها البخارى - أيضاً - فى صحيحه : « أن

---

(١) المِرة - بكسر الميم - : القوة . (٢) أخرجه أبو داود والترمذى وغيرهما .

عبد الله بن السعدى قدم على عمر – رضى الله عنه – فى خلافته ، فقال له عمر : ألم أحدث أنك تلى من أعمال الناس أعمالاً ، فإذا أُعطيت العمالة كرهتها ؟ . فقلت : بلى . فقال عمر : ما تريد إلى ذلك ؟ .

قلت : إن لى أفراساً وأعبُداً وأنا بخير ، وأريد أن تكون عُمالتى [1] صدقة على المسلمين . قال عمر : لا تفعل فإنى كنت أردت الذى أردت ، فكان رسول الله ﷺ يعطينى العطاء فأقول : أعطه أفقر إليه منى ، حتى أعطانى مرة مالاً ، فقلت : أعطه أفقر إليه منى . فقال النبى ﷺ : « خذه فتموله وتصدق به ، فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وإلا فلا تتبعه نفسك » .

قال الطحاوى : « ليس معنى هذا الحديث فى الصدقات وإنما هو فى الأموال التى يقسمها الإمام ، وليست هى من جهة الفقر ، ولكن من الحقوق العامة ، فلما قال عمر : أعطه من هو أفقر إليه منى . لم يرض بذلك – ﷺ – لأنه إنما أعطاه لمعنى غير الفقر » [2] .

وخلاصة القول : أن المسلم لا يلجأ إلى أخذ شىء من الصدقات إلا عند الضرورة تعففاً وتنزهاً ، وأنه إذا عمل عملاً لوجه الله تعالى فلا يستحب أن يأخذ عليه أجراً ، وإن كان ولابد أن يأخذ شيئاً لحاجته إليه فلينوِ أن هذا الشىء رزق ساقه الله إليه وليس أجراً ، « والأعمال بالنيات » ،والمرء فقيه نفسه ، ولينظر إلى دنياه وآخرته ، وليجعل نظره إلى آخرته مقدماً دائماً على النظر إلى دنياه ، ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾[3] .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

---

(١) العُمالة – بضم العين – : أجرة العمل ، وبفتحها : نفس العمل .

(٢) انظر فتح البارى جـ ٧ صـ ٩٩ .

(٣) الأعلى : ١٧ .

(٣٣) إذا وَقَعَ الذُّبَابُ فى إِنَاءِ أحدِكم فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّه ثم لينزعه

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « إذا وَقَعَ الذُّبَابُ فى إناء أحدكم فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّه ، ثم لِيَـنْزِعْهُ ؛ فإنَّ فى أحدِ جَناحَيْهِ شِفاءً ، وفى الآخرِ دَاءً »(١) .

* * *

هذا الحديث يُعدُّ – بحق – إعجازًا علميًّا لرسول الله ﷺ ، فقد أخبر بما أثبته العلم بالتجربة ، وهو ﷺ ليس من علماء الطب ، ولا من علماء الحشرات ، ولا هو يعتمد فى علمه على الملاحظة والتجربة وفرض الفروض ومناقشتها وفق المنهج الذى وضعه العلماء لسلامة المقدمات وصحة النتائج ، وإنما هورسول بعثه الله لهداية البشر ، وزوده بالعلم والحكمة ، ونبأه ببعض ما فى هذه الكائنات من عجائب وغرائب ، ودلّه على ما فيها من منافع ومضارّ .

* * *

وقد كنت فى شبابى ألقى محاضرة فى نادٍ من النوادى الكبرى فتطرق الحديث إلى هذا الحديث النبوى الشريف ، فقام إلىَّ رجل من كبار رجال الطب، وتناول منى مكبر الصوت ، وأخذ يكيل التُّهم لعلماء المسلمين ، وينكر صحة هذا الحديث ، وأخذ يُعرِّض بى ، ويأمرنى أن أترك هذا الحديث وأنبذه ورائى ولا أذكره أبدًا فى درس من الدروس ، ولا فى محاضرة من المحاضرات ، وقال ما شاء الله أن يقول ، ثم تناولت مكبر الصوت وناديت بأعلى صوتى أنّ هذا الحديث

---

(١) أخرجه البخارى فى آخر كتاب الطب : باب « إذا وقع الذباب فى الإناء » ، وهذا لفظه ، وأخرجه أيضًا فى باب « بدء الخلق » .

وأخرجه كذلك أبو داود رقم ٣٨٤٤ فى الأطعمة ، باب « فى الذباب يقع فى الطعام » بألفاظ متقاربة .

صحيح قد رواه البخارى فى صحيحه ، وأبو داود والنسائى ، وأقره أهل الحديث قاطبة ، ولم ينكره أحدٌ منهم - فيما قد علمت - .

وكان الأولى ألا ينكره العلماء من الأطباء وغيرهم لمجرد أنهم عرفوا مضارّ الذباب ، ولم يعرفوا منافعه ، أو لمجرد أن فلانًا منهم قد أنكره .

ولماذا نسارع إلى الإنكار قبل التأكد من صحة الحديث ، على أن علماء الحديث قد أجمعوا على صحته ، فلم يدعوا ريبة لمرتاب ، إلى آخر ما قلته فى تلك المحاضرة ، ثم توجهت إلى هذا الطبيب ، فقلت له : إن لدى بحوثًا كثيرة تثبت صحة هذا الحديث من الناحية الطبية ، ولكنه تمادى فى الإنكار وولى مدبراً فى عزة وشقاق .

وهذا الموقف جعلنى أفكر بجدية فى أمر هؤلاء المنكرين للأحاديث النبوية من غير تريث ولا تدبر .

ولو أحسنوا الظن برسول الله ﷺ لاستماتوا فى البحث عن صحته من الناحية الطبية ، لم يسارعوا إلى إنكاره ، ولكن الهدى هدى الله .

ولقد أخذت أبحث فى المراجع العلمية عن أضرار الذباب ومنافعه إيمانًا منى بهذا الحديث ، واعتماداً على قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قيامًا وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربَّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فَقِنَا عذاب النار ﴾(١) .

وأخيراً وقع فى يدى بحث علمى نشر فى مجلة الأزهر موثق بالأدلة ، كتبه اثنان من كبار العلماء فى مجال الطب ودراسة الحشرات الضارة والنافعة ، فخفت على هذا البحث من الضياع فنشرته بنصه فى كتابى (الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة) وذلك فى الجزء الأول منه ، وها أنا أذكر لك طرفًا منه .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ - ١٩١ .

قال الدكتور محمود كمال ، والدكتور محمد عبد المنعم حسين فيما قالا تحت عنوان : « كلمة الطب فى حديث الذباب » (١) : كنا نود أن يفهم الحديث على أسس ثلاثة :

١ - عدم التعرض لصحة الحديث ، فهذا من اختصاص فقهاء الحديث والعلماء الذين درسوا العلم والحديث ، وعرفوا كيف يستبعدون الأحاديث المكذوبة .

٢ - محاولة البحث العلمى بافتراض صحة الحديث للوصول إلى حقائق أنبأنا عنها النبى ﷺ : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ .

٣ - عدم الخوض فى موضوع مادة الحديث قبل الرجوع إلى المراجع العلمية الكافية عن الحشرات وعن طفيليات الحشرات .

لهذا وجدنا بعد قراءة الموضوع ، والمجادلات المتبادلة بين الفريقين فى الصحف والمجلات منذ مدة طويلة ، أن نحاول أن نرد الحق إلى نصابه .

ذلك أن بعضنا بعد قراءة آراء فقهاء الحديث عن صحة الحديث لم يتردد فى تصديقه ، وحاول أن يرجع إلى المراجع العلمية التى تؤيد صحة الحديث .

ثم ذكرا البحوث التى أجراها العلماء على جناح الذبابة الأعلى ، فوجدوا أن به فطريات وخمائر تحمل مضادات حيوية كفيلة بقتل ما تحمله الذبابة فى جناحها الأسفل من الجراثيم الخطيرة .

وبعد كلام طويل فى ذكر هذه البحوث قالا :

(فى سنه ١٩٥٧ عزل (موفتيس) مواد مضادة للحيوية من مزرعة الفطريات الموجوده على جسم الذبابة ، ووجد أنها ذات مفعول قوى فى بعض الجراثيم السالبة لصبغة جرام ، مثل جراثيم التيفويد ، لمقاومة الجراثيم التى تسبب أمراض الحميات التى يلزمها وقت قصير للحصانة ، ووجد أن واحد جرام

---

(١) انظر مجلة الأزهر الجزء السابع . رجب سنة ١٣٧٨ ، يناير سنة ١٩٥٩ المجلد الثلاثون .

من هذه المواد المضادة للحيوية يمكن أن يعقم أكثر من (١٠٠٠) لتر لبن من التلوث بالجراثيم المرضية المذكــورة ، وهذا أكبر دليل على القوة الشديدة لمفعول هذه المواد) .

(أما بخصوص تلوث الذباب بالجراثيم المرضية كجراثيم الكوليرا ، والتيفويد ، والدوسنتاريا ، وغيرها ، التى ينقـلها الذباب من المجارى ، والفضلات ، أو البراز من المرضى ، وهى الأماكن التى يرتادها الذباب بكثرة ، فمكان هذه الجراثيم يكون فقط على أطراف أرجل الذبابة ، أو فى برازها ، وهذا ثابت فى جميع المراجع البكتريولوجية ، وليـس من الضــرورى ذكر أسماء المؤلفين ، أو المراجع لهذه الحقيقة المعلومة ، ويستدل من كل هذا على أنه إذا وقعت الذبابة على الأكل ، فستلمس الغـذاء بأرجلها الحاملة للميكروبات المرضية ، وإذا تبرزت على الغذاء سيلوث الغذاء أيضاً – كما ذكرنا – بأرجلها ، أما الفطريات التى تعزز المواد المضادة للحيوية ، والتى تقتل الجراثيم المرضية الموجودة فى براز الذبابة ولا تنطلق مع سائل الخلية المستطيلة من الفطريات والمحتوى على المواد المضادة للحيوية ؛ إلا بعد أن يلمسها السائل الذى يزيد الضغط الداخلى لسائل الخلية ، ويسبب انفجار الخلية المستطيلة واندفاع البذور والسائل .

وبذلك يحقق العلماء بأبحاثهم تفسير الحديث النبوى الذى يؤكد ضرورة غمس الذبابة كلها فى السائل أو الغذاء ، إذا وقعت عليه الجراثيم لإفساد أثر الجراثيم المرضية التى أشار إليها الحديث ، وهى أن فى أحد جناحيها داء (أى فى أحد أجزاء جسمها الأمراض المنقولة بالجراثيم المرضية التى حملتها) وفى الآخر شفاء ، وهو المادة المضادة للحيوية التى تفرزها الفطريات الموجودة على بطنها ، والتى تخرج وتنطلق بوجود سائل حول الخلايا المستطيلة للفطريات) .

* * *

ويقول بعض طلاب العلم : إن غمس الذباب فى الطعام أو الشراب ثم تناوله بعد ذلك أمر مستقذر يمجّه الطبع فكيف يأمر النبى ﷺ به ، ومن الذى يرضى أن يتناول شيئاً سقط فيه الذباب ؟ .

أقول : إن النبى ﷺ لم يأمر بذلك أمر إيجاب ولكنه أمر إرشاد وتوجيه فمن شاء فعل ولا حرج عليه ، ومن شاء ترك ولا حرج عليه ؛ لأن هذا الأمر ليس من الأمور التعبدية ، ولكن من عرف هذه الحقيقة العلمية أدرك صدق النبى ﷺ فيما يبلغ عن ربه من جهة ، واستطاع أن ينتفع بطعامه وشرابه وهو آمن على نفسه من الأضرار التى يحملها الذباب فى جناحه الأسفل من جهة أخرى .

بل ربما كان غمس الذباب فى الطعام والشراب ثم تناوله بعد ذلك من أعظم الفوائد الطبية لما يحمله الذباب فى جناحه الأعلى من المضادات الحيوية القوية .

ولربما يكون فيها دواء ناجع لأمراض كثيرة كانت كامنة فى الجسم وعجز الطب عن علاجها ، كفقدان المناعة مثلاً ، وما يدريك ! لعل الطب يكشف عن حقائق علمية أخرى مذهلة يكون هذا الحديث فاتحًا لأبوابها ، ولو رجعنا إلى الكتاب والسنة لوجدنا الكثير والكثير من الحقائق العلمية التى لا يستطيع البشر أن يكتشفها إلا إذا آمن بالله ورسوله ، فالإيمان هو سبيل التوفيق إلى الكشف والاختراع ، وإلى صلاح أمر الإنسان فى أمور دينه وشئون دنياه .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *

(٣٤) إنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ والدَّوَاءَ

عن أم الدرداء عن أبى الدرداء - رضى الله عنهما - قال رسـول الله ﷺ : « إنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ والدَّواءَ ، وجَعَلَ لكُلِّ دَاءٍ دَواءً ، فَتَدَاوَوا ، ولا تَتَدَاوَوا بِحَرَامٍ » (١) .

* * *

الأوامر والنواهى فى الكتاب والسنة تعبر عن واقعنا أصدق تعبير ، وتطابق ما تقتضيه حياتنا مطابقة تامةً ، وتلبى رغباتنا الدنيـوية والأخروية بأسلوب ميسر ، ومنهج قوى .

فالقرآن الكريم والسنة المطهرة منهاج واضح المعالم ، ومحجة بيضاء ليلها كنهارها ، من تفقه فيهما عرف أنه أمام تشريع حكيم ، تقطعت دونه أعناق المشرِّعين ، وقصرت عن إدراك حكمته العقول الذكية المزودة بالغزير من علوم الدنيا ؛ إذ لا غنى لعلوم الدنيا عن علوم الدين .

إن الإسلام بمنهجه الواقعى يقضى على الخرافات الرائجة بين الجُهال من الأعراب ومن فى حكمهم ، ويردُّ بالحجة القاطعة والبرهان الساطع كل شبهة يمليها الشيطان على أتباعه ، سواء كانوا من المكذبين الضالين ، أم كانوا من الأدعياء الذين يوهمون الناس أنهم من خيار الصالحين المتوكلين .

أمّا المكذبون الضالون فنحن نعرفهم بسيماهم ونعرفهم فى لحن القول ، فنحذرهم ونتقيهم ونجاهدهم حتى يمكننا الله من نواصيهم .

وأمّا الأدعياء الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً بعدم الأخذ بالأسباب الموصلة إلى تحقيق الآمال ، ويزعمون بتواكلهم هذا أنهم من خواصّ الخلق ، وأولياء الرحمن ، وهم يسلبون بهذا خصائص الدين كلها المتمثلة فى المنهج

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب : « فى الأدوية المكروهة » حديث رقم ٣٨٧٤ . وهو حديث حسن وله شواهد تقويه .

الواقعى الذى أشرنا إليه ، وسنشبع الكلام فيه – إن شاء الله – فى هذا الحديث ليكون ذلك توطئة لما بعده .

* * *

إن هذا الحديث قد أيدته أحاديث كثيرة تعاونت معه فى بيان الأحكام والحكم الطبية التى أراد الرسول ﷺ إبرازها للناس ، والتى تنسحب على كل شئون الحياة من حيث إنها تُبيِّن أن الأسباب وسيلة إلى تحقيق المسببات ، وأن ارتباط الأسباب بالمسببات وثيق لا تنفصم عراه إلا بإرادة الله تبارك وتعالى ، إذ وقوع المسببات دون حصول أسبابها من خوارق العادات ، والإسلام لم يُبنَ على خوارق العادات ، ولكنه بُنى على مصالح العباد فى العاجل والآجل ، ومصالح العباد تقوم على تحصيل أسبابها التى أمر الله بتحصيلها .

من هذه الأحاديث التى تعاونت مع هذا الحديث فى إبراز الأحكام والحكم المتعلقة بالطب وغيره مما هو وثيق الصلة به :

١ – ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى الزبير عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال : « لكل داءٍ دواءٌ ، فإذا أُصِيبَ (١) دواءُ الداء برأ بإذن الله عز وجل » .

٢ – وفى الصحيحين عن عطاء عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنزل الله من داءٍ إلا أنزل له شفاء » .

٣ – وفى مسند الإمام أحمد من حديث زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك ، قال : كنت عند النبى ﷺ وجاءت الأعراب ، فقالوا : يا رسول الله أنتداوى ؟ ، فقال : « نعم يا عباد الله تداوَوا ، فإن الله عز وجل لم يضعْ داءً إلا وضع له شفاءً غير داءٍ واحدٍ » . قالوا : ما هو ؟ . قال : « الهَرَمُ » (٢) .

---

(١) أصيب فعل مبنى للمجهول ، أى إذا وفق الطبيب والمريض لبلوغ الدواء الناجع للداء، تقول : أصبت الشيء حصلت عليه وبلغته .

(٢) الهرم : كبر السن .

٤ - وفى المسند أيضًا من حديث ابن مسعود يرفعه : « إن الله عز وجل لم ينُزل داءً إلا أنزل له شفاءً ، عَلِمه من عَلِمه ، وجَهِله من جَهِله » .

٥ - وفى المسند كذلك والسنن : عن أبى خِزامة ، قال : قلت : يا رسول الله ! أرأيت رُقى نسترقيها ودواءً نتداوى به ، وتقاة نتَّقيها ، هل ترد من قَدَر الله شيئًا ؟ فقال : « هى من قَدَرِ الله » .

فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، وإبطال قول من أنكرها .

« وفيها ردٌّ على من أنكر التداوى ، وقال : إن كان الشفاء قد قُدِّر فالتداوى لا يفيد ، وإن لم يكن قد قُدِّر فكذلك ، وأيضًا فإن المرض حصل بقدر الله وقدر الله لا يُدفع ولا يُرد .

وهذه الشبهة هى التى أوردها الأعراب على رسول الله ﷺ ، فدحضها بقوله : « يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داءً إلا وضع له شفاء غير داءٍ واحدٍ » قالوا :ما هو ؟ قال : « الهَرَمُ » ، وبقوله - عليه الصلاة والسلام - إن هذه الأدوية والرُّقى والتُّقى هى من قدر الله ، فما خرج شىء عن قدره ، بل يُردُّ قدره بقدره ، وهذا الردُّ من قدره ، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما ، وهذا كردِّ قدر الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها ، وكردِّ قدر العدو بالجهاد ، وكلٌّ من قدر الله ، الدافع والمدفوع والدفع .

ويقال لمورد هذه الشبهة : هذا يُوجب عليك أن لا تباشر سببًا من الأسباب التى تجلب بها منفعة ، أو تدفع بها مضرة ؛ لأن المنفعة والمضرة إن قدِّرت ، لم يكن بد من وقوعهما ، وإن لم تقدَّرا لم يكن سبيل إلى وقوعهما ، وفى ذلك خراب الدين والدنيا وفساد العالم »(١) .

* * *

---

(١) راجع زادالمعاد جـ ٤ صـ ١٦ .

وقوله ﷺ فى هذه الحديث الذى نحن بصدده : « إن الله أنزل الداء والدواء » معناه قدَّر الدَّاء وهو شر فى الظاهر ، وخير فى الباطن على مقتضى حكمته ، ووفق مشيئته ، وقدَّر الدواء الناجع للداء وفق إرادته النافذة ، وحكمته البالغة ، ولا رادَّ لقضائه ،ولا معقب لحكمه ، وعبر بالإنزال لأن المصيبة تفجأ الإنسان حتى يخيل إليه أنها نزلت عليه من السماء لسرعة إصابته بها ، وكذلك الدواء يصيب الداء فجأة فيبرأ منه المريض فور نزوله عليه .

فهو كقوله تعالى : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [1] .

وقوله – جل وعلا – : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديدٌ ﴾ [2] .

وهكذا يعبَّر عن النعم والنقم بالإنزال للدلالة على مفاجأة ما يفرح وما يغم، فأمر الله إذا جاء لا يُرد ولا يؤخر .

* * *

وقوله : « وجعل لكل داء دواء » يجوز أن يكون على عمومه حتى يتناول الأدواء القاتلة ، والأدواء التى لا يمكن لطبيب أن يبرئها ، ويكون الله – عز وجل – قد جعل لها أدوية تبرئها ، ولكن طوى علمها عن البشر ، ولم يجعل لهم إليه سبيلاً ، لأنه لا علم للخلق إلا ما علَّمهم الله ؛ لذا علق النبى ﷺ الشفاء على مصادفة الدواء للداء فى قوله من حديث آخر : « فإذا أُصيبَ دواءٌ الداء برأ بإذن الله عز وجل » ، فإنه لا شىء من المخلوقات إلا له ضد ، وكل داء له ضد من الدواء يعالج به .

وإذا جاوز الدواء درجـة الداء فى الكيفية ، أو زاد فى الكمية على ما ينبغى ، نقله إلى داء آخر ، ومتى قـصر عنها لم يف بمقاومته ،وكان العلاج قاصراً . ومتى لم يقع المداوى على الدواء ، أو لم يقع الدواء على الداء ، لم يحصل الشفاء ، ومتى لم يكن الزمان صالحًا لذلك الدواء لم ينفع ، ومتى كان

---

(١) الزمر : ٦ .　　(٢) الحديد : ٢٥ .

البدن غير قابل له ، أو القوة عاجزة عن حمله ، أو ثَمَّ مانعٌ يمنع من تأثيره ، لم يحصل البُرء ، لعدم المصادفة ، ومتى تمت المصادفة حصل البرء بإذن الله ولابد .

وقديكون قوله : « لكل داء دواء » من قبيل العام الذى أريد به الخصوص ، ويكون المراد أن الله لم يضع داء يقبل الدواء إلا وضع له دواء ، فلا تدخل فى هذا الأدواء التى لا تقبل الدواء ، وهذا كقوله تعالى فى الريح التى سلَّطها على قوم عاد : ﴿ تدمر كل شىء بأمر ربها ﴾ (١) أى كل شىء يقبل التدمير ، ومن شأن الريح أن تدمِّره ، ونظائره كثيرة .

* * *

« وفى قوله – ﷺ – : « لكل داء دواء » تقوية لنفس المريض والطبيب ، وحث على طلب الدواء والتفتيش عليه ؛ فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يزيله ، تعلَّق قلبه بروح الرجاء ، وبردت عنده حرارة اليأس .

وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه » (٢) .

* * *

وقوله – ﷺ – : « ولا تتداوَوا بحرام » صريح فى الدلالة على أن الأدوية المحرمة لا يجوز تعاطيها ، ولا تسمى فى الحقيقة أدوية ؛ فما جعل الله فى المحرم شفاء لداء ، وهذا هو الراجح من أقوال الفقهاء فى ذلك ، بل هو الصحيح إن شاء الله .

قال – عليه الصلاة والسلام – كما فى صحيح البخارى عن ابن مسعود : « إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرَّم عليكم » .

وفى « السنن » عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : « نهى رسول الله – ﷺ – عن الدواء الخبيث » ، وإسناده قوى – والخبيث هو المحرم – .

---

(١) الأحقاف : ٢٥ . (٢) راجع زاد المعاد جـ ٤ ص ١٦ .

وفى صحيح مسلم – عن طارق بن سويد الجعفى ، أنه سأل النبى ﷺ عن الخمر ، فنهاه ، أو كره أن يصنعها ، فقال : إنما أصنعها للدواء ، فقال : « إنه ليس بدواء ، ولكنه داء » .

والأحاديث فى التحريم كثيرة .

والمعالجة بالمحرمات قبيحة عقلاً وشرعًا ، فلا ينبغى التداوى إلا بما أحل الله تعاطيه .

ففى النهى عن التداوى بالمحرم سر لطيف – كما يقول « ابن القيم » فى زاد المعاد – « فإن شرط الشفاء بالدواء تلقيه بالقبول ، واعتقاد منفعته ، وما جعل الله فيه من بركة الشفاء ، فإن النافع هو المبارِك ، وأنفع الأشياء أبركها ، والمبارَك من الناس أينما كان هو الذى ينتفع به حيث حلّ .

ومعلوم أن اعتقاد المسلم تحريم هذه العين ما يحول بينه وبين اعتقاد بركتها ومنفعتها ، وبين حسن ظنه بها ، وتلقى طبعه لها بالقبول ، بل كلما كان العبد أعظم إيمانًا ، كان أكره لها وأسوأ اعتقاداً فيها ، وطبعه أكره شىء لها ، فإذا تناولها فى هذه الحال كانت داء له لا دواء إلا أن يزول اعتقاد الخبث فيها ، وسوء الظن والكراهية لها بالمحبة ، وهذا ينافى الإيمان » .

* * *

وقد سألنى طبيب مسلم فقال : يأتينى مريض فلا أجد له من الأدوية ما هو خال من الكحول ، فهل أصفه له حيث إن الضرورة تقتضى ذلك ؟ وهل أخبره بذلك أم أكتمه هذا السر ؟ وهل إذا أخبرته بذلك يحرم عليه تعاطيه أم يجوز أن يتعاطاه للضرورة حيث لم يجد البديل عنه ؟

أقول : لا أظن أنه لا يوجد دواء يخلو من الكحول ، وعلى الطبيب المسلم أن يبذل جهده فى معرفة الدواء الخالى من ذلك ، وسيجده إن شاء الله ولو فى الأعشاب التى لم تصنع بعد .

فإن لم يجد إلا دواء فيه نسبة من الكحول جاز أن يصفه له ، وليس من

الضرورى أن يخبره بذلك ، وإن علم المريض بأن هذا الدواء فيه نسبة من الكحول وكان مضطراً إليه جاز ، لعموم قوله تعالى : ﴿ فمن اضْطُر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه إنَّ الله غفور رحيم ﴾ (١) .

هذا ما ذهب إليه كثير من الفقهاء ، ولو أخلص الطبيب فى البحث عن الدواء الخالى من المحرم لوجده – إن شاء الله – فلا ينبغى أن يعتمد على الأدوية المصنعة التى ترد إلينا من الدول الأوربية وغيرها فقط ، ولكن يضيف إلى خبرته بالأدوية المصنعة خبرته بغيرها من الأدوية الطبيعية .

وعلى المريض أن يجتنب هذه الأدوية المحرمة ما لم تكن هناك ضرورة محكمة ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

* * *

---

(١) البقرة : ١٧٣ .

(٣٥) لا عَدْوَى

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا عدوى ولا طِيَرة ولا هَامَة ولا صَفَر ، وفِرَّ من المجذوم كما تَفِرُّ من الأسد » (١) .

* * *

بُعث النبى ﷺ معلماً ومتمماً لمكارم الأخلاق ،ومؤيداً لما شاع بين الناس من مقولات صحيحة ، ومبطلاً لما راج بينهم من مقولات باطلة .

فكان – ﷺ – لا يدخر وسعاً فى القضاء على الخرافات التى توارثها العرب والعجم ،وتناقلوها بينهم جيلاً بعد جيل من غير تعقل ولا نظر ، حتى بلغت منهم مبلغ الاعتقاد الجازم بصحتها .

كالطيرة ، والهامة ، والصفر .

ونبدأ أولاً ببيان هذه الخرافات الثلاثة بإيجاز ؛ لنفرغ إلى ما يعنينا فهمه بالدرجة الأولى ؛ لما يترتب عليه من حقائق علمية وطبية لاغنى لنا عنها .

أما الطيرة فهى التشاؤم ، مأخوذة من تَطيُّر الطير ، فقد كان العرب إذا أراد الرجل منهم سفراً طَيَّر طيراً ، فإذا طار جهة اليمين مضى ، وإن طار جهة اليسار ترك السفر . ولهم فى ذلك أحوال وأحوال ، سنتكلم عنها فى حديث آخر .

وأما الهامة فهى : ما يخرج من الجن فى المكان الذى قتل فيه القتيل بحسب اعتقاد العرب فى الجاهلية ، ويطوف على بيوت ولى المقتول ويقول : اسقونى اسقونى ، أو خذوا بثارى ، أو كما يذكر ابن حجر فى فتح البارى هى : دودة تخرج من رأس المقتول تدور حول قبره تقول : اسقونى اسقونى .

وأما الصفر : فقد اختلفوا فيه اختلافًا كثيراً ، فمنهم من قال : هو التشاؤم

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الطب .

بشهر صفر ، ومنهم من قال : حية فى البطن تقول إذا جاع الإنسان : أطعمونى أطعمونى .

وقيل : هى عقدة يعقدها من أراد سفراً على جذع نخلة عالية ، ثم يمضى، فإذا عاد صعد النخلة ونظر إلى تلك العقدة ، فإن وجدها – كما هى – أيقن أن امرأته لم تخنه ، وإذا لم يجدها – كما هى – فالويل لامرأته منه .

* * *

وأما قوله – ﷺ – فى أول الحديث : « لا عدوى » فقد اختلف فى تأويله العلماء .

فمنهم من قال : لا عدوى تصيب أحداً إلا بإذن الله ، دفعًا لاعتقاد من يظن أن الداء يعدى بنفسه ، فهو رَدٌّ للناس إلى القدر ؛ إذ كثيراً ما يقترب الصحيح من المريض فلا يصاب بدائه .

وهذا صحيح فى التأويل .

وأصح منه عندى أن قوله « لا عدوى » : جملة خبرية فى اللفظ ، طلبية فى المعنى ، أى لا يُعدى أحدكم الآخر بالاقتراب منه إذا كان يحمل داءً يغلب على الظن أنه ينتقل إلى غيره ، بدليل قوله فى آخر الحديث : « وفِر من المجذوم كما تفر من الأسد » فآخره يفسر أوله .

وهذا التأويل هو المناسب للطب ، والموافق للواقع .

أما القدر ، فأمره إلى الله ، وعلينا أن نأخذ بالأسباب ، فإن عدم الأخذ بالأسباب معطل لها ، وهى مرتبطة حتماً بالمسببات ومعطل أيضاً لأوامر الشرع ونواهيه ؛ فهو تواكل وليس بتوكل كما يعتقد كثير من العوام .

وقد عرف العلماء التوكل بتعريف جامع لأركانه ، فقالوا : هو الاعتماد على الله ، والثقة بفضله مع مباشرة الأسباب .

وقد تقدم بسط ذلك فى مواضعه من هذا الكتاب .

وقد جاء فى السنة ما يدعو الناس إلى اتخاذ الحيطة والحذر من الاقتراب من العدوى .

ومنها ما جاء فى الصحيحين : أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بِسَرْغ - قرية فى طرف الشام مما يلى الحجاز - لقيه أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا، فقال لابن عباس : ادع لى المهاجرين الأولين ، قال : فدعوتهم ، فاستشارهم ،وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال له بعضهم : خرجت لأمر ، فلا نرى أن ترجع عنه . وقال آخرون : معك بقيه الناس ، وأصحاب رسول الله ﷺ ، فلا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، فقال عمر : ارتفعوا عنى ، ثم قال : ادع لى الأنصار ، فدعوتهم له ، فاستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عنى ، ثم قال : ادع لى من ها هنا من مشيخة (١) قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم له ، فلم يختلف عليه منهم رجلان ، قالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فأذن عمر فى الناس إنى مصبح على ظهر (٢) ، فأصبحوا عليه ، فقال أبو عبيده بن الجراح : يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله تعالى ؟ ، قال : لو غيرك قالها يا أبا عبيده ! ، نعم نفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديًا له عُدْوَتان ، إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، ألست إن رعيتها الخصبة رعيتها بقدر الله تعالى ، وإن رعيتها الجدبة رعيتها بقدر الله تعالى ؟ ، قال : فجاء عبد الرحمن ابن عوف وكان متغيباً فى بعض حاجاته ، فقال : إن عندى فى هذه علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه » .

(والطاعون وباء قتال ، وهو ورم ردىء يحدث فى ثلاثة مواضع غالبًا : فى الإبط - وخلف الأذن وأرنبة الأنف - واللحوم الرخوة ، وهو مرض يفسد العضو ويغير ما يليه ، وربما رشح دماً وصديداً يؤدى إلى الموت السريع ، وهناك أورام خبيثة لا تقل خطورة عنه، وهناك أوبئة سريعة الانتشار قد ظهرت فى هذا العصر لأسباب كثيرة معروفة ، فكان من الواجب على الإنسان أن يتقيها بكل طريقة

---

(١) المشيخة : كبار السن .

(٢) أى مصبح على سفر فوق الظهر ، وهو البعير ونحوه مما يركب .

ممكنة ، فالمحافظة على الأبدان من الضروريات التي أمر الله بحفظها ، فمن أهمل في صحتة فقد ارتكب إثمًا عظيمًا ، والإسلام دين واقعي صالح لكل زمان ومكان ، يستجيب لمطالب الفطرة ، ويلبى رغبات الإنسان في حدود مصلحته ، فيدعوه إلى تحصيل ما فيه منفعته ودفع ما فيه مضرته بالطرق الممكنة والوسائل المتاحة ، فلا ينبغى لأحد أن يهمل الأسباب ويعطلها - كما أشرنا - فإن ذلك اعتداء على الدين ومخالفة لسنن الله الكونية .

ومن نظر بعين البصيرة ، وفكر بعقله بعيدًا عن الأهواء والتقليد الأعمى أدرك حقيقة ذلك بوضوح) [1] .

والله هو الهادى إلى سواء السبيل

* * *

---

(١) انظر كتابى « بين السائل والفقيه » جـ ٥ صـ ٦١ .

(٣٦) سَمِّ اللهَ وكُلْ بيَمينك وكُلْ مما يَليك

عن عمر بن أبى سلمة – رضى الله عَنهما – قال : كنتُ غلامًا فى حجْر رسول الله ﷺ ، وكانت يدى تَطيشُ فى الصَّحْفَة ، فقال رسول الله ﷺ : « يا غلامُ سمِّ الله ، وكُل بيمينِك ، وكُل مما يَليك » ، فما زالت تلك طِعمتى بعدُ (١) .

* * *

هذا الحديث فيه أدب من الآداب التى جاء بها الإسلام الحنيف تهذيبًا للنفوس ، وتقويما للأخلاق ، وإبطالاً لما كان عليه العرب فى الجاهلية فى مآكلهم ومشاربهم ، وبهذا الأدب وغيره من الآداب فى المأكل والمشرب ، والملبس والمشى ، والجلوس والنوم ، والزيارة والضيافة ، وما إلى ذلك من عادات الناس وأحوالهم – تأدب أصحاب النبى ﷺ .

ولعلنا نعرف أن هناك عادات أقرها الإسلام على ما هى عليه ، وعادات أبطلها ، وعادات عدّلها ، وسنرى ذلك بوضوح فى الأحاديث التى نعرض لها بالدراسة والتحليل .

* * *

وهذا الحديث يتضمن ثلاثة آداب رئيسة للمأكل والمشرب ، وغيرُها من الآداب الأخرى تبع لها .

ونركز هنا على هذه الآداب الثلاثة أولاً ثم نذكر شيئًا من الآداب الأخرى بعد ذلك بإيجاز ، فنقول : عمر بن أبى سلمة هو عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ، وكان عمر بن عبد الله هذا فى كنف النبى ﷺ وحضانته ؛ لأن رسول الله ﷺ قد تزوج أمه أم سلمة بعد وفاة أبيه .

---

(١) أخرجه البخارى ٩ / ٤٥٨ فى الأطعمة ، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين ، وباب الأكل مما يليه ، ومسلم رقم ٢٠٢٢ فى الأشربة ، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما ، والموطأ ٢ / ٩٣٤ فى صفة النبى ﷺ ، باب جامع ما جاء فى الطعام والشراب .

قال - رضى الله عنه -: « كنت غلامًا » أى دون البلوغ ، « فى حجر رسـول الله ﷺ » بفـتـح الحاء وكسـرها مع سـكـون الجيم ، أى فى كفالته وحضانته .

قال : « وكانت يدى تطيش فى الصحفة » أى تذهب فيها هنا وهناك ، فأتناول منها ما أريده ، كما يفعل الصبيان فى الغالب ، وغيرهم ممن لا يعبأ بمن يأكل معه .

والصحفة : إناء يوضع فيه من الطعام ما يكفى خمسة ، بخلاف القصعة فإنها أكبر منها مرتين ، كما أفاده العينى فى شرح صحيح البخارى .

وقد حكى هذه الحال ، ليرتب عليـها ذكر ما أوصاه به النبى ﷺ إذ قال : « يا غلام » وهو خطاب تنبيه يحمل فى طياته حب النبوة والأبوة .

« سَمِّ الله » أى قل فى أول الطعام : « بسم الله » ؛ ليكون الطعام مباركًا نافعًا كافيًا شافيًا .

« وكُل بيمينك » وهو أمر له شأنه ، فإن اليمين قد جعلت لكل ما هو شريف طيب ، ولهذا سميت يمينًا أخذًا من اليمن وهو البركة .

وقوله : « وكُل مما يليك » أى مما هو فى ناحيتك وتحت يدك من الصحفة ، ولا تأكل مما يلى جارك فإن ذلك يتنافى مع الأدب ، والمروءة ، والعفة ، والنبل ، وفيه من الإحـراج التقزز ، وجـرح المشاعر ما فيه ، على ما سنبينه إن شاء الله تعالى .

قال عمر رضى الله عنه وعن أبيه وأمه : « فما زالت تلك طِعمتى بعدُ » أى فقد أخذت بهذا التوجيه الحكيم ، فكنت لا أتناول الطعام إلا بيدى اليمنى بعد التسمية ، ومنعت نفسى من تناوله من أنحائها البعيدة عنى .

والطعمة - بكسر الطاء - اسم هيئة كجلسة ومشية ، أى فمازالت هيئتى فى الأكل على النحو الذى رسمه لى النبى ﷺ . « بعدُ » أى بعد ذلك .

هذا هو فحوى الحديث ، وفيه من الأحكام والمكارم ما سنذكر بعضه الآن إن شاء الله تعالى .

* * *

قال العينى فى عمدة القارى شرح صحيح البخارى : « الأمر بالتسمية عند الأكل محمول على الندب عند الجمهور .

وحمله بعضهم على الوجوب لظاهر الأمر .

وقال النووى : استحباب التسمية فى ابتداء الطعام مُجمع عليه ، وكذا يستحب حمد الله فى آخره .

قال العلماء : يستحب أن يجهر بالتسمية لينبه غيره ، فإن تركها عامدًا أو ناسيًا أو جاهلاً أو مكرهًا أو عاجزًا لعارض ثم تمكن فى أثناء أكله – يستحب له أن يسمى .

وتحصل التسمية بقوله : « بسم الله » فإن اتبعها بالرحمن الرحيم كان حسنًا .

ويُسمِّى كل واحد من الآكلين .

وقال الشافعى : فإن سَمَّى واحد منهم حصلت التسمية » أ . هـ(1) .

أقول : الأصح أن الواحد لو سمى على الطعام لا يكفى عن الجماعة بدليل ما جاء فى سنن أبى داود من قصة الأعرابى والجارية اللذين أخذ النبى ﷺ بأيديهما ،وقال : « إن الشيطان ليستحل الطعام الذى لم يذكر اسم الله عليه » .

ومعلوم أن النبى ﷺ ومن معه كانوا قد سموا على الطعام ، فلو كانت تسمية الواحد كافية عن الجماعة ما أخذ النبى ﷺ بأيدى الأعرابى والجارية .

وإذا خشى الآكل أن ينسى من يأكل معه التسمية ، جهر بها ؛ ليقتدوا به فى ذلك ، فيكون الجهر تعليماً وتذكيراً .

فإن كانوا صالحين ، يعلمون أن التسمية سنة فلا يجهر بها لعدم الحاجة إلى ذلك .

ومن نسى التسمية فى أول الطعام سمى متى ذكر .

---

(1) ج 17 ص 133 .

روى أبو داود والترمذى من طريق أم كلثوم عن عائشة - رضى الله عنها - مرفوعًا : « إذا أكل أحدكم الطعام فليقل بسم الله ، فإن نسى فى أوله فليقل بسم الله أوله وآخره » .

واعلم أن التسمية فى بداية كل عمل له شأن من آكد المستحبات ؛ لقوله ﷺ : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر » .

وكل شىء ببسم الله كان ويكون ، فلا يقع فى ملكه إلا ما يريد .

فمن أراد أن يبارك الله له فى عمله كله فليبتدئه ببسم الله .

والبسملة هى أول آية من آيات القرآن ، وتفتتح كل سورة بها إلا سورة التوبة ؛ لأنها نزلت بالسيف على رقاب المشركين والمنافقين واليهود والنصارى .

* * *

وأما الأكل باليمين فهو سنة من آكد السنن أيضًا ، وبذلك صرح الغزالى فى الإحياء ، والنووى فى الأذكار ، وغيرهما من الأئمة الأبرار ، وقد نص الشافعى فى الأم على وجوبه لظاهر الأمر في هذا الحديث .

أقول : وهو الصحيح الذى تطمئن إليه النفس ما لم تكن هناك ضرورة ؛ لأن الأمر للوجوب على الحقيقة عند جمهور الأصوليين ما لم تصرفه قرينة ،ولا أرى لصرفه قرينة ظاهرة .

وهناك من الأحاديث ما يرجح قول الشافعى ومن نحا نحوه .

فقد جاء فى صحيح مسلم من حديث سلمة بن الأكوع : « أن النبى ﷺ رأى رجلاً يأكل بشماله فقال : كل بيمينك ، قال : لا أستطيع ، فما منعه إلا الكِبْرُ ، فقال : لا استطعت ، فما رفعها إلى فيه بعد » .

وروى أحمد بسند حسن عن عائشة رفعته : « من أكل بشماله أكل معه الشيطان » .

وروى مسلم من حديث جابر عن رسول الله ﷺ قال : « لا تأكلوا بالشمال فإن الشيطان يأكل بالشمال » .

« وقال الطيبى : معنى قوله « إن الشيطان يأكل بشماله » أى يحمل أولياءه من الأنس على ذلك ليضارّ به عباد الله الصالحين .

وقال بعضهم : فيه عدول عن الظاهر . والأولى حمل الخبر على ظاهره ، وأن الشيطان يأكل حقيقة لأن العقل لا يُحيل ذلك ،وقد ثبت الخبر به فلا يحتاج إلى تأويله » (١) .

لكن ماذا يفعل من احتاج إلى استعمال يده اليسرى مع اليمنى ؟ .

يجيب العينى على هذا السؤال بقوله : « فإن احتيج إلى الاستعانة بالشمال فبحكم التبعية » .

وأفهم من كلامه ذلك أنه جائز للضرورة ، وهو كذلك إن شاء الله تعالى .

* * *

وقد اختلف الفقهاء فى حكم من تطيش يده فى الصحفة فتأكل من هنا وهناك ، فمنهم من قال : يكره ذلك ، ومنهم من قال : يحرم ، ومنهم من قال : يجوز ذلك لمن يعلم أن إخوانه لا يكرهون ذلك ، ومنهم من يقول : إذا اختلفت الأصناف فى الصحفة جاز أن يأكل ما شاء من أى ناحية .

وقد ترجم البخارى فى صحيحه لهذا الباب بقوله : باب من تتبع حوالى القصعة مع صاحبه إذا لم يعرف منه كراهية . وذكر حديثًا عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - : « أن خياطًا دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه ، قال أنس : فذهبت مع رسول الله ﷺ فرأيته يتتبع الدُّبَّاء(٢) من حوالى القصعة ، قال : فلم أزل أحب الدُّبَّاء من يومئذ » .

قال العينى : « حمل البخارى الجواز على ما إذا علم رضا من يأكل معه » .

---

(١) انظر عمدة القارى ج ١٧ ص ١٣٤ .

(٢) الدباء : القرع ، وقيل المستدير منه ، وهو اليقطين . قاله ابن حجر فى شرح الحديث .

والراجح عندى والله أعلم أن الأكل من كل ناحية فى الصحفة يحرم إذا تأذى منه من يأكل معه لقوله - ﷺ - فى الحديث الذى أخرجه مالك فى موطئه وابن ماجه فى سننه : « لا ضرر ولا ضرار » ولا شك أن إيذاء المسلم ظلم له والظلم قليله وكثيره حرام .

ونستطيع أن نتصور الإيذاء فى أربعة أمور :

الأول : أن هذا الفعل يسبب لإخوانه التقزز ، ولا سيما إذا كانت يده غير نظيفة ، وكان الطعام مائعًا ، وكان إخوانه الذين يأكلون معه أكبر منه سنًا ، أو كانوا من أهل العلم ، أو من ذوى الجاه والمنصب ، وقد أُمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، فلا نتجرأ عليهم ولا نحرجهم ولا سيما فيما يؤكل ويشرب ؛ لأن نفوسهم تعاف ذلك وتأباه ، وتنفر منه طباعهم .

الثانى : أن هذا الفعل قد يؤدى إلى تناول أكثر الطعام الحسن الذى يرغب فيه إخوانه ويحتاجون إليه ، فلا يخفى ما فى ذلك من اعتداء على حقوقهم وكبت لرغباتهم ، وهو أمر يجعلهم يحتقرونه فى أنفسهم ، ويغضبون منه ، ويسخطون عليه ، ويتحرجون من الأكل معه مرة أخرى ، بل ربما اعتزلوه اعتزالاً تامًا وصار بينهم كالأجرب بين الصحاح .

الأمر الثالث : الذى يؤدى إليه طيشان اليد فى الصحفة فقدان المروءة ، ويكون بفقدانها غير مرضى الشهادة ، وكفى بذلك ظلمًا لنفسه وإهانة لشخصه .

الأمر الرابع : أن هذا العمل يدل على الحرص والطمع والجشع والشح ، وهى من أقبح القبائح فكيف لا يكون هذا العمل حرامًا !

أما إذا كان الرجل بين أصدقائه وكان التكلف بينهم مرفوعًا ، وكانوا فى مستوى واحد أو متقارب فى العلم والخلق ، والمنصب والنظافة والسن ، فإن هذا العمل يكره ولا يحرم ؛ لعدم وقوع أمر من الأمور الأربعة غالبًا .

أما إذا كان الرجل ممن يتبرك الناس به ويحبون أن يأكلوا من بين يده ، ومن

تحتها وعلم منهم ذلك ، وكان الطعام يابسًا ومتنوعًا فلا بأس من أن تجول يد الرجل فى الصحفة .

ولا شك أن النبى ﷺ كان يعلم أن أصحابه يحبون ذلك ويتمنونه ويرغبون فى أن يشربوا بقية شربه ، ويأكلوا من فضلة طعامه بل كانوا - كما ذكر ابن حجر - يتبركون بريقه ومماسة يده ، بل كانوا يتبادرون إلى نخامته فيتدلكون بها .

ونحن كنا ولازلنا نحب أن نقاسم شيوخنا اللقمة بعد أن يضع الواحد منهم طرفًا منها فى فمه تبركًا ومداعبة وكانوا يفرحون بذلك ، ولم يكن بين الشيوخ وتلاميذهم فجوة تجلب النفرة ، بل كان الحب هو السائد بينهم ، به يجتمعون ، وعليه يفترقون .

وذلك أسوة بما كان عليه النبى ﷺ مع أصحابه ، فكان يجيل يده فى الصحفة أحيانًا مداعبة لهم ، وتلبية لرغباتهم ، وتوثيقًا لعرى المحبة بينه وبينهم.

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأطهار وأصحابه الأبرار ، ورضى الله عن التابعين له بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

وبعد أن تكلمنا عن الآداب الرئيسة لتناول الأطعمة يجدر بنا كما وعدنا أن نذكر شيئًا من آداب الأطعمة والأشربة التى تندرج تحت هذه الآداب الرئيسة ، ونبين بعض الأخطاء التى ترد على ألسنة أهل العلم ، ونصحح المفاهيم فى هذا الباب بإيجاز مفيد فنقول :

يتبع هذه الآداب الثلاثة عشرون أدبًا :

الأول : ألا يكون فى الطعام شبهة تجعل الحكم فيه مترددًا بين الحل والحرمة .

لقوله ﷺ : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام » .

وهذا الأدب عام فى الطعام وغيره .

والطعام لا يكون هنيئًا مريئًا إلا إذا كان حلالاً طيبًا لا شبهة فى مصدره ولا فى سبب اكتسابه .

الثانى : غسل اليد اليمنى ، بل واليد اليسرى أيضًا - إذا كان سيعتمد عليها فى معاونة اليمنى - قبل الطعام وبعده .

وذلك لأن اليد غالبًا ما تكون ملوثة بالأتربة وغيرها مما يحمل العدوى ، وتكون ملوثة بعد تناول الطعام أيضًا فلابد من غسلها قبل الطعام وبعده من أجل النظافة ، والنظافة من الإيمان .

وقد ورد فى ذلك عن النبى ﷺ أثر مشهور ، قال ﷺ : « الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر وبعده ينفى اللمم » ، وفى رواية « ينفى الفقر قبل الطعام وبعده » (١) .

الثالث : أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض ، فهو أقرب إلى فعل رسول الله ﷺ من رفعه على المائدة .

« كان رسول الله ﷺ إذا أتى بطعام وضعه على الأرض » كما فى حديث أحمد وغيره ، فهذا أقرب إلى التواضع .

فإن لم يكن فعلى السفرة ، وهى عبارة عن صحفة من جلد أو من خشب أو من معدن .

قال أنس بن مالك - رضى الله عنه - : « ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا فى سكرجة » . قيل : فعلى ماذا كنتم تأكلون ؟ ، قال : على السفرة » (٢) .

والخوان : مائدة مكونة من حامل وصحفة واسعة من نحاس يحمله رجلان .

---

(١) أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب من رواية موسى الرضا عن آبائه متصلاً باللفظ الأول ، وللطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس : « الوضوء قبل الطعام وبعده مما ينفى الفقر » ، ولأبى داود والترمذى من حديث سلمان : « بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه .

لثقله وارتفاعه ، حتى يوضع أمام الملك ، ويصل ارتفاعه إلى عنقه حتى لا يضطر إلى خفض رأسه استعظاماً وتكبراً .

والسُّكرجة : إناء يوضع فيه الزيتون ونحوه من الموالح والمشهيات .

قال الإمام الغزالى فى أول الجزء الثانى من كتاب الإحياء : (واعلم أنا وإن قلنا الأكل على السفرة أولى فلسنا نقول : الأكل على المائدة منهى عنه نهى كراهة أو تحريم ، إذ لم يثبت فيه نهى . وما يقال : إنه ابتدع بعد رسول الله ﷺ فليس كل ما ابتدع منهياً عنه ، بل المنهى عنه بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته .

بل الابتداع قد يجب فى بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب ، وليس فى المائدة إلا رفع الطعام عن الأرض ليتيسر الأكل وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه) .

فليفهم أولئك المتنطعون هذا ، فإنه هو المناسب لسماحة الإسلام ويسره ومرونته ؛ فإن الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان يساير العصور وأعراف الناس من فى كل مكان .

فماذا على المسلم لو دعى إلى مائدة مرتفعة عليها تلك الأدوات التى نعرفها من أطباق وملاعق ، وشوك وسكاكين وما إلى ذلك ، هل من اللائق أن يخالف الناس فيجلس على الأرض وحده ، أو هو ومن على شاكلته بحجة أن هذا هو السنة وما سواه بدعة .

إن البدعة فى العادات ليست ضلالة يدخل بها صاحبها النار ، إذا كانت هذه العادات لا ينكرها الشرع ، وإذا أنكرها الشرع كانت حراماً ولم تكن بدعة فهناك فرق بين البدعة والمعصية ، فكل بدعة معصية وليست كل معصية بدعة كما يقول الشاطبى فى كتاب الاعتصام .

وقد ذكرنا الفرق بين البدعة والمعصية عند الكلام على قوله ﷺ : « إياكم ومحدثات الأمور » فراجعه هناك .

الرابع : أن يحسن المسلم الجلسة على الطعام عند حضوره ، ويستديمها ما أمكن بحيث يتمكن من تناوله من غير أن يضر من حوله ، ودون أن يكون

مخالفاً لما اعتاده الناس عند حضور الطعام وتناوله ، فالمسلم يراعى ما يتقبله الناس عادة ، ويجتنب ما يعيبون عليه فيه ، وذلك فى الطعام وغيره ، فإن مخالفة العادة تتنافى مع المروءة غالباً ، والمروءة صفة يتحلى بها أهل العدل والحلم والعلم ، ويستخف بها أهل الجَوْر واللؤم والجهل .

وقد كان النبى ﷺ إذا حضر الطعام ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه ، وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى ، كما فى سنن أبى داود وغيره .

وربما أكل جالساً مقعياً كما فى صحيح مسلم وسنن أبى داود .

والإقعاء فى الجلوس – كما قال ابن الأثير فى جامع الأصول – : هو أن يلصق الرجل أليتيه بالأرض وينصب ساقيه ويضع يده بالأرض ، وقيل : هو أن يجلس على وركيه وهو مستَوْفِز أى متهيئ للقيام .

وخلاصة القول أنه يجلس جلسة مريحة لا يعاب عليها ، ولا يترتب عليها ضرر له ولا لغيره كما أشرنا .

الخامس : ألا يأكل متكئاً من غير ضرورة ، قال رسول الله ﷺ – كما فى البخارى وغيره – : « لا آكل وأنا متَّكئ » .

وروى أبو داود فى سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « ما رؤى رسول الله ﷺ يأكل متكئاً قط ... » .

وروى أبو داود أيضاً عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – : « أن رسول الله ﷺ نهى عن الجلوس على المائدة يُشرب الخمر عليها ، وأن يأكل رجل أو يشرب منبطحاً على بطنه – وفى نسخة : وجهه – ورخص فى أكل حب مقلى ونحوه متكئاً » .

السادس من الآداب : أن ينوى بأكله التَّقَوِى على طاعة الله تعالى وعبادته حتى يؤجر على كل لقمة يضعها فى فمه ، بل يؤجر على جلوسه للطعام ونظره إليه .

وبالنية يستطيع المسلم أن يجعل أعماله كلها وأنفاسه جميعها لله ، فيؤجر على كل ذلك ، قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

السابع : أن يتذكر أن هذا الطعام من فضل الله عليه ، وأن يتفكر فى عظيم قدرة الله فى صنعه .

الثامن : أن ينظر إلى الطعام ليتعرف أولاً على صلاحيته للأكل ، ويتأكد من نظافته ويعرف محتوياته ، ويتفكر فى أنواعه ليعرف عظيم قدرة الله فيه فيزداد بهذا التفكر إيمانًا ، ويحمله هذا التفكر أيضًا على المبالغة فى شكر المنعم عز شأنه على نعمة الطعام ، ونعمة اليد التى يتناوله بها ، والعين التى يبصره بها، والصحة التى تجعله قادراً على تناوله ، والاستمتاع بطعمه وغير ذلك مما يقود الفكر إليه .

والتفكر فى صنع الله عبادة من أعظم العبادات ، على ما سيأتى بيانه فى حديث آخر إن شاء الله تعالى .

التاسع : أن يتناول من الطعام بقدر ما يقيم صلبه ويدفع عنها غائلة الجوع والوهن ، ولا يشبع شبعًا يعوقه عن العبادة ، وعن مزاولة الأعمال الضرورية ، فالجوع شرٌّ والتخمة شرٌّ ، وخير الأمور الوسط .

وقد حذر النبى ﷺ من التخمة ومن الجوع أيضًا ، ونصح الناس بأن يكتفوا بما يقويهم على العمل ولا يضرُّ بالصحة .

روى الترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم بسند صحيح عن مقدام بن معديكرب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

العاشر من الآداب : أن يقنع بما أحضر إليه من الطعام ، ولا يطلب المزيد منه إلا لضرورة ، ولا يبالغ فى تعدد الأصناف كما يفعل الأثرياء والمتكبرون ؛ فإن ذلك يتنافى مع الزهد فى الدنيا ، ولا يتفق مع الوسطية التى دعا إليها الإسلام ،

وربما أدت كثرة الأصناف إلى التخمة المفاجئة ، فإن النفس الأمارة بالسوء تغرى صاحبها بألا يترك شيئًا إلا ذاقه ، فيذوق هذا ، ويذوق ذاك ، وهو لا يدرى ، حتى يقع في المحذور فيصاب بأمراض كان من الواجب عليه أن يتقيها ؛ فالوقاية خير من العلاج .

الحادى عشر : أنه إذا حضر الطعام ، وحضرت الصلاة قدم الصلاة على الطعام ما لم يكن جائعًا ، أو خشى على الطعام من الفساد ونحو ذلك من الأعذار فعند ذلك يقدم الطعام على الصلاة على سبيل الإباحة أو الاستحباب .

فالأصل تقديم الطعام على الصلاة عند عدم الجوع أو خوف فوات الطعام بالفساد أو بأكل حيوان له أثناء صلاته ونحو ذلك .

وقوله ﷺ فى الحديث الذى رواه الشيخان عن أنس : « إذا قُدِّم العشاء فابدأوا به قبل صلاة المغرب ولا تعجلوا عن عَشَائكم » . فمحمول على من كان جائعا أو خائفاً على الطعام من التلف ، وليس هو الأصل فى ذلك عند الحنفية والشافعية وكثير من أهل العلم .

الثانى عشر :ألايذم مأكولاً قدم إليه ، فإن أعجبه أكله ، وإن لم يعجبه تركه ، فقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « ما عاب النبى ﷺ طعاماً قط ، إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه » .

الثالث عشر : ألا ينفخ فى الإناء الذى فيه الطعام والشراب الحار بل ينتظر حتى يبرد ؛ فإن ذلك يجلب الأمراض ، وهو مما تعافه النفس وتأباه ، ويكره ذلك كراهة شديدة إذا كان معه من يأكل من هذا الطعام .

وقد ورد النهى عن ذلك فى أحاديث كثيرة رواها أحمد ، وأبو داود والترمذى وابن ماجه ، ومالك فى الموطأ .

الرابع عشر : ألا يأكل أو يشرب واقفاً ؛ فقد نهى النبى ﷺ عن ذلك كما فى صحيح مسلم ، من حديث أنس وأبى سعيد وأبى هريرة ، لكن ورد فى الصحيحين أنه شرب واقفاً ، ولعله فعل ذلك بعذر أو لبيان الجواز .

الخامس عشر : ويستحب أن يشرب الماء مصًّا لا عبًّا ، فقد قال - ﷺ - : « مصوا الماء مصًّا ولا تَعُبُّوه عبًّا » (١) .

السادس عشر من الآداب : أن يدار الإناء الذى فيه اللبن ونحوه على الحاضرين ، على الأيمن فالأيمن ولو كان صغيراً .

لما رواه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أُتى بشراب فشرب منه ، وعن يمينه غلام - وفى رواية : أصغر القوم - وعن يساره الأشياخ ، فقال للغلام : أتأذن لى أن أعطى هؤلاء ؟ ، فقال الغلام : والله يا رسول الله ، لا أوثر بنصيبى منك أحداً ، فَتَلَّه (٢) رسول الله ﷺ فى يده » .

وزاد رزين : « والغلام : الفضل بن العباس » .

وفى هذا الحديث يعلمنا الرسول ﷺ العدل والنظام ، ورعاية الحقوق فى المجالس ، وغيرها ، وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على أن النبى ﷺ كان لا يفضل على الأيمن شيخاً كبيراً ولا غيره من السابقين إلى الإسلام ، بل كان يبدأ بمن عن يمينه فيعطيه الإناء ليشرب ثم يعطيه لمن بعده .

منها ما رواه البخارى ومسلم عن أنس من حديث طويل جاء فيه أن النبى ﷺ تناول القدح فشرب وعن يساره أبو بكر وعن يمينه أعرابى ، فأعطى الأعرابى فضلته ، ثم قال : « الأيمن ، فالأيمن » .

السابع عشر : أن يجمع على طعامه وشرابه من هو فى حاجة إلى الطعام والشراب ولو فى الأسبوع مرة ، ولو من أهله وولده وجيرانه .

قال ﷺ : « اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه » (٣) .

الثامن عشر : أنه إذا فرغ من طعامه يستحب أن يلعق أصابعه ويلعق ما فى الصحفة فإن فى ذلك بركة .

---

(١) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس .

(٢) فتله : أى ألقاه إليه .

(٣) أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث وحشى بن حرب بإسناد حسن .

وقد وردت فى هذا الأدب أحاديث كثيرة ، منها ما رواه مسلم والترمذى عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ أمر بلعق الأصابع والصحفة وقال : « إنكم لا تدرون فى أى طعامكم البركة » .

التاسع عشر : أن يحمد الله بقلبه ولسانه بعد الفراغ من الطعام بالوارد عن رسول الله ﷺ .

روى أبو داود والترمذى فى الشمائل عن أبى سعيد الخدرى - رضي الله عنه - أن النبى ﷺ كان إذا فرغ من طعامه قال : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » .

وروى أبو داود والنسائى بالإسناد الصحيح عن أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ إذا أكل أو شرب قال : « الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجاً » .

وروى الترمذى وابن ماجه وأبو داود عن معاذ بن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أكل طعاماً فقال الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غُفر له ما تقدم من ذنبه » .

والحمد بأى صيغة هو المستحب ، وأحب منه الحمد بالدعاء الوارد .

العشرون : أن يدعو بعد الحمد بما شاء من الدعاء .

ويستحب بما جاء فى سنن أبى داود والترمذى وعمل اليوم والليلة لابن السنى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أكل أحدكم طعاماً - وفى رواية ابن السنى : من أطعمه الله طعاماً - فليقل : اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه ، ومن سقاه الله تعالى لبناً فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ؛ فإنه ليس شىء يجزئ من الطعام والشراب غير اللبن » .

ويستحب أن يدعو الضيف لأهل البيت أو لمن أطعمه بوجه عام بالدعاء الوارد عن رسول الله ﷺ بمثل ما جاء فى مسلم من حديث طويل عن عبد الله بن بُسر : « اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم » .

وما ورد فى سنن أبى داود عن أنس - رضى الله عنه - : « أن النبى ﷺ

جاء إلى سعد بن عبادة – رضى الله عنه – فجاء بخبز وزيت ، فأكل ثم قال النبى ﷺ : « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة » .

وروى أبو داود عن رجل عن جابر – رضى الله عنه – قال : صنع أبو الهيثم ابن التيهان للنبى ﷺ طعاماً ، فدعا النبى ﷺ وأصحابه فلما فرغوا ، قال : أثيبوا أخاكم » قالوا : يا رسول الله ، وما إثابته ؟ . قال : « إن الرجل إذا دخل بيته فأُكل طعامه وشُرب شرابه فادعوا له ، فذلك إثابته » .

هذه هى أهم الآداب التى سنها الإسلام فى هذا الباب ، وهى فى جملتها تدل على عظمة الإسلام فى تشريعه الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يحتاج الناس إليه ومما فيه سعادتهم إلا بينها بياناً شافياً .

نسأل الله تبارك وتعالى أن ينفعنا بما علمنا وأن يهدينا سواء السبيل .

* * *

(٣٧) لا تمنعوا إماءَ اللهِ مساجدَ اللهِ

عن عبـد الله بن عمـــر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « لا تمنعوا إماءَ اللهِ مساجدَ اللهِ » (١) .

* * *

النساء شقائق الرجال ، أمرهنّ الله بما أمرهم به ، إلا فيما لا تستطيعه إحداهن ، أو لا يتناسب مع حالها ووضعها ، وجعل لها من الأجر ما جعله للرجل فى الأعمال الصالحة ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ فاستجاب لهم ربُّهم أنى لا أُضِيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ (٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أَعَدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ (٣) .

* * *

والصلاة عماد الدين وركنه الركين ، وهى برهان صحة الإيمان بل هى الإيمان نفسه ، كما قال تعالى فى آية القبلة من سـورة البقرة : ﴿ وما كان الله ليُضِيع إيمانَكم ﴾ (٤) أى صلاتكم .

وهى الصلة الوثيقة بين العبد وربه ، يعبر له فيها عن كمال عبوديته

---

(١) أخرجه البخارى فى الجمعة ، باب « على من يشهد الجمعة غسل » ، وفى صفة الصلاة ، باب خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس ، وباب استئذان المراة زوجها بالخروج إلى المسجد ، وفى النكاح ، باب استئذان المرأة زوجها فى الخروج إلى المسجد وغيره ، وأخرجه مسلم فى الصلاة ، باب خروج النساء إلى المسجد فى (٤٤٢) واللفظ له .

(٢) آل عمران : ١٩٥ .　　　　(٣) الأحزاب : ٣٥ .

(٤) البقرة : ١٤٣ .

وخضوعه لعظمته ، ومدى افتقاره إليه ، ويثنى عليه فيها بما هو أهله ، وهى - فى الحقيقة - محل الحمد والثناء وموئل الضراعة والدعاء .

فاقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد كما جاء فى الحديث ،والصلاة فى جماعة فرض كفاية ، أو هى سنة مؤكدة - على الخلاف فى ذلك بين الفقهاء - على الرجال دون النساء .

ولكن يجوز لهن أن يشاركن الرجال فى حضورها معهم فى المساجد ، وحضور مجالس العلم ، بشرط أن يكن مستترات غير متبرجات ولا متعطرات ، ولا مزاحمات للرجال .

وقد نهى النبى ﷺ الأزواج والأولياء ومن فى حكمهم أن يمنعوا النساء من المساجد بوصفهن إماء [1] الله - أى عبيد له مثل الرجال .

وهذا الحديث ردٌّ على من يقول : إن العصر قد اختلف والحال قد تبدل ، والفساد قد انتشر فمنعهن من الخروج إلى المساجد صار ضرورة ، صيانة لهن عن الوقوع فى الفتنة ، وصيانة للرجال - أيضاً - من الوقوع فى فتنتهن .

وقد روى أبو داود فى سننه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن تفلات » ، أى غير متعطرات .

فإذا خرجت متعطرة منعت وإلا فلا ؛ فإن العطر نوع من الفتنة ، فهو يدل عليها ، ويحمل الرجال على تتبعها ، والنظر إليها ، فالستر مع العطر يكاد يكون فى حكم العدم .

وقد روى أحمد وأبو داود : أن عائشة - رضى الله عنها - أنكرت خروج النساء إلى المساجد بعد عصر النبى ﷺ فقالت : « لو أدرك رسول الله - ﷺ - ما أحدث النساء بعده لمنعهن المساجد كما منع نساء نبى إسرائيل » .

---

(١) الإماء : جمع أمة ، وهى من سبيت فى حرب دينية ، والمراد بها هنا المتعبدات لله تعالى .

وهى فى نظرى لا تنكر خروجهن إلى المساجد ولكن تنكر ما يفعلنه فى أنفسهن من الزينة والتبختر ، ونحو ذلك مما يلفت أنظار الرجال إليهن ، وكأنها تنهاهن عن ذلك بهذه الصيغة الرادعة ، وتوحى إلى أوليائهن أن يحملوهن على التأدب بأدب الإسلام حالة خروجهن إلى المساجد ورجوعهن منها إلى بيوتهن ، ولا يكن مثل نساء بنى إسرائيل .

* * *

وصلاة المرأة فى بيتها أولى من صلاتها فى المسجد كما جاء فى السنة ، فكلما استترت عن الرجال كان ذلك أصلح لها وللرجال .

وروى أحمد والطبرانى عن أم حميد الساعدية أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إنى أحب الصلاة معك ، فقال ﷺ : « قد علمت ، وصلاتك فى حجرتك خير لك من صلاتك فى مسجد قومك ، وصلاتك فى مسجد قومك خير لك من صلاتك فى مسجد الجماعة » .

ولهذا لم تجب عليها صلاة الجمعة ، ولكن يستحب فى حقها أن تصلى مع الناس صلاة العيد لتبتهج مع المبتهجين ولتشهد الخير مع المسلمين بشرط ألا يترتب على خروجها فتنة ، وألا تكون معتدة عدة وفاة [1] .

فقد روى البخارى ومسلم عن أم عطية – رضى الله عنها – قالت : أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرجهن فى الفطر والأضحى ، والعواتق والحيّض ، وذوات الخدور . فأما الحيض فيعتزلن الصلاة ، ويشهدن الخير ، ودعوة المسلمين . قلت يا رسول الله : إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : « لتلبسها أختها من جلبابها » ، وفى رواية لمسلم وأبى داود : « والحيّض يكن خلف الناس ، يكبِّرن مع الناس » .

* * *

---

(١) عدة الوفاة هى : أن تمكث المرأة التى توفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام بلياليها دون أن تتزين أو تخرج من بيتها إلا لضرورة ودون أن تعرض نفسها للأزواج .

وإذا نظرنا إلى النساء فى عصرنا هذا ، وما يفعلنه فى أنفسهن من الزينة ووسائل الفتنة ، لجاز لنا أن نمنعــهن من المساجد وغيرها ونحن مطمئنون إلى هذا ؛ لكن هناك ما يجعلنا نفضل عدم المنع على المنع ، وهو حاجتهن إلى العلم والتهوية التى يحرمن منها بسبب ضيق المساكن ، وعدم فراغ الرجال لتعليمهن ، أو لعدم قدرتهم على ذلك لجهلهم ، ولعلهن يجدن فى الخروج إليها شيئًا من الترويح على النفس ، وربما يجدن من بينهن من ترشدهن إلى الطاعة وتدعوهن إلى الخير .

وفى المساجد أماكن قد خصصت لهن والحمد لله ، وذلك يجعلنا نسمح لهن بالخروج إليها عن طيب نفس ، والأمر فى هذا وذاك موكول للرجال ، فمن علم أن امرأته على هدى وخير ، وأمن عليها من الأذى واطمأن أنها لا تخرج متبرجة بزينة ، فليأذن لها بالخروج ، وإلا منعها .

والله ولى التوفيق .

* * *

(٣٨) عليك بكثرة السُّجود لله

عن معدان بن أبى طلحة اليعمرى ، قال : لقيت ثوبانَ مولى رسول الله ﷺ فقلت : أخبرنى بعمل أعمله يدخلنى الله به الجنة . أو قال قلت : بأحب الأعمال إلى الله . فسكت . ثم سألته فسكت . ثم سألته الثالثة ، فقال : سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال :

« عليك بكثرة السجود لله ، فإنك لا تسجد لله سجدةً إلا رفعك الله بها درجةً وحطَّ عنك بها خطيئة » .

قال معدان : « ثم لقيت أبا الدرداء فسألته . فقال لى مثل ما قال لى ثوبان » [١] .

* * *

تكلمنا عن فضل الصلاة أكثر من مرة فى هذا الكتاب ، ولكن لم نقل كل شىء عنها ، فهى الإيمان فى أسمى صوره ، وهى العبادة فى أرقى معانيها ، وهى الصلة الوثيقة بين العبد وخالقه ، فيها يجد روحه وريحانه ، بل فيها يجد فطرته التى فطره الله عليها ؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وترد العبد إلى عقله الذى به يعرف الله بأوصافه الكمالية ، ونعوته الجليلة ، فيخشع له فى صلواته وخلواته خشوع الخاضعين لعظمته ، الشاكرين لنعمائه ، المتجهين إليه بقلوبهم الواعية التى خلصت بفضل الصلاة من شوائب الشرك الجلية والخفية ، وطهرت من الشبهات العقدية ، والنزعات الشيطانية ، ومُحِّصت لتكون وعاء للإيمان والعلم .

إن الصلاة ذكر وفكر .

أما كونها ذكرًا فلاشتمالها على كلِّ أنواعه القلبية واللسانية ؛ فالقلب يذكر ، واللسان يترجم عنه ، والجوارح تتأثر بهذا الذكر حتى تلين وتستقر ،

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الصلاة ، باب فضل السجود والحث عليه ح ٤٨٨ .

ويظل العبد يزداد إيمانًا مع إيمانه بالسكينة التى أنزلها الله فى قلبه لما أكثر من السجود إليه عن حب ورغبة حتى تحولت أهواؤه من أهواء نفسية إلى أهواء ربانية – إن صح هذا التعبير .

والرسول ﷺ قد قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » (١) .

فمن الناس من جعل إلهه هواه ،ومن الناس من جعل هواه فى الله .

إن الصلاة فرار إلى الله . والفرار إلى الله ثلاثة أقسام :

– فرار من الكفر إلى الإسلام ، والصلاة ركن من أركانه ،وبرهان على صحته .

– وفرار من المعصية إلى الطاعة ،والصلاة تبعد العبد عن المعصية ، وتقربه إلى الطاعة ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ (٢) .

– وفرار منه إليه ، بمعنى أنه يقول بقلبه ولسانه كما كان الرسول ﷺ يقول : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (٣) .

والصلاة هي الفرار الحقيقي إلى الله – عز وجل – وهى الملاذ لكل عبد منيب يعتمد على ربه فى كل شىء ، ويثق بفضله ثقة لا حدود لها ، فيهرع إلى الصلاة رغبة ورهبة لكى يكون مستجاب الدعوة .

« كان النبى ﷺ إذا حَزَبه أمر هُرع إلى الصلاة »(٤) .

أى كان إذا أهمه أمر من أمور المسلمين ، ولم يجد حلاً لمشكلة من

---

(١) قال النووى فى الأربعين : هذا حديث حسن صحيح رويناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح ، وهو للمقدسى ، وفى الحديث كلام ينظر فى جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٤٧٩ .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

(٣) اخرجه مسلم فى كتاب الصلاة ، ومالك فى الموطأ ، باب ما جاء فى الدعاء .

(٤) رواه النسائى فى المواقيت ٤٦ ، وأحمد فى مسنده ١ / ٢٠٦ ، ٢٦٨ .

المشكلات يفزع إلى الصلاة يدعو ربه وهو واضع جبهته وأنفه على الأرض تذللاً وتمسكنًا لمن خلقه فسواه ، ويعلم سره ونجواه ، يقول النبى ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء فيه فقَمِنٌ - أى جدير - أن يستجاب لكم » (١) .

وروى مسلم فى صحيحه عن على - كرم الله وجهه - أن رسول الله ﷺ كان إذا سجد يقول : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه فصوره فأحسن صوره ، فشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وروى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال وهو يصف صلاة النبى ﷺ فى التهجد : « ثم خرج إلى الصلاة فصلى ، وجعل يقول فى صلاته أو سجوده : اللهم اجعل في قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوقى نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، وعظم لى نوراً » (٢) .

ومن أوصاف عباد الرحمن أنهم كانوا يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، وأنهم كانوا يدعون ربهم في صلواتهم وخلواتهم بخالص الدعاء النافع فى الدنيا والآخرة ، هذا مع تواضعهم لله وكف أيديهم عن أذى الناس ، وتركهم المعاصى صغيرها وكبيرها ، واشتغالهم بتلاوة القرآن وسماعه .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يَبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يَخِرُّوا عليها صمًّا وعُمياناً والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً أولئك يُجزَون الغُرفةَ بما صبروا ويُلَقَّون فيها تحية وسلاماً خالدين فيها حَسُنَتْ مستقراً ومُقاماً ﴾ (٣) .

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود .

(٢) وقد جاء هذا الحديث فى باب « الدعاء فى صلاة الليل وقيامه » بروايات مختلفة وألفاظ متقاربة .

(٣) الفرقان : ٦٣ - ٧٦ .

واقرأ قول الله - تبارك وتعالى - فيهم : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خَرُّوا سُجَّداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يَدعُون ربهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم ينُفقون ﴾ (١) .

واقرأ قوله - عز من قائل - : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ (٢) .

إن الله - عز وجل - جعل الصلاة أعظم تعبير عن شكره فأمر بها من أنعم عليهم بأعظم النعم . وذلك فى آيات كثيرة .

فقد أمر الله مريم البتول - رضى الله عنها - بعد أن ذكرها بنعمه عليها بأن تقوم له فى صلاتها قياماً طويلاً ، وأن تركع له وتسجد تذللاً وتضرعاً .

﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقْنُتي لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ (٣) .

وزكريا - عليه السلام - لما جاءته آية من ربه تبشره بحمل امرأته خرج على قومه من محرابه ، وأشار إليهم بيده إشارة يأمرهم بها أن يصلوا لله شكراً له على نعمائه ، وعلى نعمة الولى الذي سيخلفه فيهم من بعده ، وهو يحيى عليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام .

أوحى إليهم أن يسبحوا ربهم صباح مساء مخلصين له الدين خاشعين خاضعين .

قال تعالى : ﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سَبِّحوا بُكْرَةً وعشيًّا ﴾ (٤) .

والتسبيح يطلق ويراد به الصلاة - أحياناً - ولذا سميت الصلاة في اللغة تسبيحاً .

---

(١) السجدة : ١٥ - ١٦ .

(٢) الذاريات : ١٥ - ١٩ .

(٣) آل عمران : ٤٢ - ٤٣ .

(٤) مريم : ١١ .

وقد فرض الله على نبيه أن يصلى من الليل ثلثيه أو نصفه أو ثلثه بقدر طاقته وجهده ، وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس .

قال تعالى : ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفَه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً إنا سنُلقى عليك قولاً ثقيلاً إن ناشئة الليل هى أشد وطئًا وأَقْوَمُ قيلاً ﴾ (١) .

وقيل : إن قيام الليل كان واجبًا على النبـى ﷺ بعد فرض الصلوات الخمس ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجدْ به نافلة لك عسى أن يبعثَك ربك مقاماً محموداً ﴾ (٢) .

وكان أصحابه – رضوان الله عليهم – يقتدون به فى قيام الليل فيصلون ما شاء الله أن يصلوا ، وهم فى غاية السـرور والحبور يستعذبون طول القيام ولا يملونه .

ففى الصلاة غذاء الروح فإن قويت الأرواح قويت الأبدان ، وإن ذاقت الأرواح حلاوة المناجاة أنست أبدانها متاعبها .

وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثُلُثَىِ الليل ونصفَه وثلثَه وطائفةٌ من الذين معك والله يُقَدِّر الليل والنهار ﴾ (٣) .

* * *

وقد كان التابعون يسألون أصحاب النبى ﷺ عن أفضل الأعمال كما كان أصحابه يسألونه عن ذلك ، وأهل الإيمان حريصون على أن ينالوا أرفع الدرجات عند ربهم بفضل ربهم ،ويحبون أن يسلكوا أيسر المسالك ، وأقربها إلى مرضاة الله – عزَّ شأنه وجل جلاله .

إن الله وصفهم بما يحملهم على ذلك بقوله : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون

---

(١) المزمل : ١ – ٦ .

(٢) الأسراء : ٧٩ .

(٣) المزمل : ٢٠ .

والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾ (١) .

وهذا واحد من التابعين يسأل ثوبان مولى النبى ﷺ - أى خادمه - عن أفضل الأعمال التى تقربه من الله - عز وجل - ويلح عليه فى السؤال ، وثوبان ساكت لا لأنه يبخل عليه فى الإجابة ، ولكن ليرى مدى اهتمامه بهذا الطلب الجليل . فلما سأله الثالثة أجابه بأنه قد سأل عن ذلك رسول الله ﷺ - فهو لا يفتيه عن رأيه ، وإنما يجيبه بما أجابه النـــبى ﷺ - فيقول : « عليك بكثرة السجود لله » .

وهو أسـلوب إغراء ، ومعناه : إلزم وداوم على كثرة السجود، أى كثرة الصلاة ، فعبر عنها بأهم ركن من أركانها ، من إطلاق الجزء وإرادة الكل - كما يقول علماء البلاغة - .

ثم يبشره بنتاج عمله هذا لو داوم عليه وأخلص فيه فيقول : « فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحطَّ عنك بها خطيئة » .

والمراد بالدرجة : زيادة الإيمان شيئًا فشيئًا حتى يملأ كيان صاحبه ، فيكون هو القوة الفعالة التى بها يسمو إلى الدرجات العلى فى الجنة .

وذلك لأن فى الصلاة تزكية للنفوس وتقويم للأخلاق - كما أشرنا - والله عز وجل يقول : ﴿ قد أفلح من زكَّاها ﴾ (٢) .

ويقول حكاية عن المؤمنين من سحرة فرعون : ﴿ ومن يأته مؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العُلى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تَزَكَّى ﴾ (٣) .

وكلما ارتفع المؤمن درجة فى الإيمان تلاشت سيئاته وبدلت حسنات ، فإنه إذا تاب وأناب واتجه إلى الله بقلبه مُحيت سيئاته شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى لها وجود ولا أثر .

---

(١) المؤمنون : ٥٧ - ٦١ .
(٢) الشمس : ٩ .
(٣) طه : ٧٥ - ٧٦ .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ وأقم الصلاة طَرَفَى النهار وزُلفًا من الليل إن الحسنات يُذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ (١) .

وقال رسول الله ﷺ فى الحديث الذى أخرجه الترمذى : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وأكد الراوى صحة الحديث وشهرته بين أصحاب النبى ﷺ بما جاء فى آخره ، وهى شهادة أبى الدرداء لصدق ثوبان فيما روى . وهم أهل الصدق كله ؛ لأنهم على مثال الخلق الفاضل ، والكمال الوافر ، وصفهم الله – فى سورة الحشر – بأوصاف لم يدانيهم فيها أحد .

قال تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ ومن يُوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) .

وكان التابعون لهم بإحسان خير خلف لخير سلف ، وصفهم الله بقوله بعد الآيتين السابقتين :

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

* * *

(١) هود : ١١٤ .

(٢) الحشر : ٨ – ٩ .

(٣٩) أَعنِّى على نفسك بكثرةِ السُّجود

عن أبى فراس ربِيعة بن كعب الأَسـلمى خادم رسول الله ﷺ ، ومن أهل الصُّفة - رضى الله عنه - قال : كنتُ أَبيتُ مع رسول الله ﷺ ، فآتيه بوَضوئه وحاجته ، فقـال : « سَلْ » فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة . فقال : « أَوَ غيرَ ذلك ؟ » قلت : هو ذاك ، قال : « فأَعنِّى على نفسِك بكثرةِ السُّجودِ » (١) .

* * *

كان النبى ﷺ يبالغ فى إكرام مَنْ خدَمه وأسدى إليه معروفًا ، فيعطيه أكثر مما أعطى ، ويوليه عناية خاصة ، ويفضله بالقرب منه والدخول عليه والجلوس معه ، وقد يرفع الكلفة بينه وبينه ، ويعفو عنه إن أخطأ ويثنى عليه إن أصاب ، لا لأنه يخدمه فحسب ؛ ولكنه يفعل ذلك معه مثوبة له على إخلاصه فى حبه له وطاعته لله - عز وجل - وتأدبه فى حضرته ومع أهل بيته ، بالإضافة إلى خصائص مشرفة قد عرفوا بها ، ومميزات قد فاق فيها غيره من أصحابه الذين هم فى منزلته من الإسلام .

ولقد كان النبى ﷺ فى سياسته العامة يعرف أقدار الرجال ، ويَسبُر غَورهم ، ويضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ،ويعطى كل ذى حق حقه من الماديات والمعنويات ، بحيث لا يشعر أحد بأنه مهضوم الحق فى أى جهة من الجهات أو فى أى شأن من الشئون .

وكان ﷺ على درجة لا تدانى من الخلق الفاضل والكمال الوافر ، يخفض جناحه لجميع المؤمنين ، فلا يتعالى على أحد منهم مهما كان شأنه فى الناس ، فالناس عنده سواسية كأسنان المشط ، وهذا معروف من سيرته ﷺ لا يحتاج منا إلى بيان .

فهذا هو خادمه ربيعة بن كعب يَبيتُ معه ليقضى له حاجته ، فأجلسه

(١) رواه مسلم (٤٨٩) .

يوماً بالقرب منه وقال له : سَلْ . أى اطلب ما تشاء منى ، وهو واثق – بالله عز وجل – أنه مهما طلب فإنه ﷺ سيكون عند حسن ظنه به ، فيدعو الله – عز وجل – أن يحقق له مطلبه – وهو يحسن الظن بربه – فيستجيب له فيه .

والرسول ﷺ يعلم أن خادمه لا يطلب من أمور الدنيا شيئاً لزهده وتقواه ، ولو طلب منها شيئاً فلا يطلبه إلا لله ، ولو طلب شيئاً لله استجاب الله له فيه تحقيقاً لوعده فى محكم التنزيل .

فما كان من هذا الخادم العاقل النبيل إلا أن طلب مطلباً هو من أعظم المطالب على الإطلاق وهو الجنة ، نعم الجنة ليس إلا .

وكيف لا ، والجنة دار رحمة الله ، لا يدخلها إلا من أحبه الله ورضى الله عنه . فهل هناك سوى الجنة مطلب !! .

والرسول ﷺ قد أعجب بهذا الطلب أيما إعجاب ولم يفجأه هذا الطلب لعلمه أنه ليس لخادمه سواه مطلب ، فهو رجل قد شغلته العبادة عن دنياه وجعل الآخرة منتهى بغيته ، ومحط آماله ، لذلك قابل الرسول ﷺ هذا المطلب بسؤال يعرف الجواب عنه ، فيقول وهو فى غاية السرور : أو غير ذلك ؟ أى هل أنت راغب فى الجنة رغبة تامة مؤكدة لا تطلب سواها شيئاً من أمور الدنيا ، فهو لايثنيه عن عزمه ، ولكنه يستوثق منه ، ويطمئن إلى قوة عزمه ، وحزمه ، ويستنهض همته إلى ما يقربه منها ، فإن الجنة عروس يغلو مهرها ويعز وصلها إلا على من صحت نيته فى خطبتها ، وسلم قلبه فى حبها ،وكان مهيئاً لدفع صداقها .

وصداقها أن يجاهد المرء نفسه فى طاعة ربه عز وجل ، ويسهم بنصيب وافر فى الميدان الذي يجيد الإسهام فيه .

إما أن يجاهد فى سبيل الله فيَقتل ويُقتل فيستحق وعد الله تعالى الوارد فى قوله جل شأنه من سورة التوبة : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلون وعداً عليه حقاً فى التوراة

والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) .

وإما أن يلزم محرابه فيكثر من الصلاة ولا سيما فى جوف الليل .

ولله سبل كثيرة فى إرضائه ، وبلوغ درجات القرب من ساحة رحمته .

قال تـعالـى : ﴿ والذين جاهـدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ (٢) .

وكان هذا الخادم – رضوان الله عليه – من أهل الصفة ، وهم الذين كانوا يسكنون المسجد ويجعلون بينهم وبين الناس صفة – أى ساترًا يسترهم – ولا مال لهم ، ولا قدرة لهم على الكسب ، فوصف له الرسول ﷺ ما يناسب حاله من الجهاد ، فقال له : « فأعنى على نفسك بكثرة السجود » .

أى فإن كنت تريد ذلك حقًا وصدقًا من أعماق قلبك فإنى سأدعو لك الله أن يحقق رجاءك بشرط أن تعيننى على نفسك الأمارة بالسوء بكثرة السجود ، أى : بكثرة الصلاة .

وقد عبر عنها بالسجود لأن السجود أشرف ركن فيها ، فهو الوسيلة المثلى التى يعبر بها العبد لربه عن خالص حبه وكمال عبوديته ، ومنتهى خضوعه وتمسكنه وتواضعه ، وافتقاره لخالقه ومولاه .

* * *

---

(١) آية : ١١١ .

(٢) آخر العنكبوت .

(٤٠) ديارَكُم تكتبْ آثارُكم

عن جابر بن عـــبد الله - رضى الله عنه - قال : خلت البقاع حول المسجد . فأراد بنو سَلِمَة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال لهم : « إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قربَ المسجد » قالوا : نعم يا رسول الله ! قد أردنا ذلك . فقال : « يا بنى سَلِمَة ! ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم ، ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم » (١) .

* * *

لمَّا هاجر النبى ﷺ إلى المدينة وبنى مسجده التفَّ المهاجرون حوله وبنوا بيوتهم بالقرب منه ، وفعل كثير من الأنصار مثل فعلهم ليكونوا بجوار النبي ﷺ فيصلوا معه الصلوات الخمس ويتمتعوا بالنظر إليه ، ويتعلموا منه عن قرب أحكام دينهم ، ثم انتقل بعضهم من جوار المسجد لمَّا ضاق المكان بأهله إلى أماكن أخرى لا تبعد كثيراً عن المسجد ، فخلت البقاع حوله ، فأراد بنو سلمة أن يتحولوا من ديارهم إلى هذه البقاع الخالية ؛ لأن مساكنهم كانت بعيدة عن المسجد ، فبلـغ ذلك رسـول الله ﷺ وكان يحب أن تظل هذه البقاع خالية لينتفع بها المسلمون فى أغراض أخرى كالتدريب على القتال ، وربط الأسرى ، وغير ذلك .

فقال لهم : « بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد » ليتأكد منهم من صحة ما بلغه ، وليرشدهم إلى ما ينبغى أن يفعلوه .

قالوا : نعم . يا رسول الله ! قد أردنا ذلك .

أكدوا كلامهم « بقد » الدالة على قوة العزم وانتظار الأمر ، فمن معانى قد أنها توحى بوقوع ما ينتظر وقوعه ، كقوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قولَ التى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٦٦٥) ، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد .

تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ﴾[1] ، فإنها كانت تنتظر أن يَبُتَّ الله فى شكواها .

وكقول المؤذن : قد قامت الصلاة ، أي وقع ما كنتم تنتظرونه .

فقال عليه الصلاة والسلام : « يا بنى سلِمة دياركم تكتب آثارُكم » .

أى الزموا دياركم ولا تفارقوها فإن الله يكتب لكم آثاركم ، أى خطواتكم إلى المسجد . ففرح بنو سلمة بهذه البشرى وحمدوا الله على أنهم لم يتحولوا عن ديارهم ، كما جاء فى رواية أخرى لمسلم : « قالوا: ما كان يَسُرُّنا أنَّا كنا تحولنا » .

* * *

وقد وردت فى فضل كثرة الخطا إلى المساجد أحاديث كثيرة منها :

١ – ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أعظم الناس أجراً فى الصلاة أبعدُهم إليها ممشًى، فأبعدُهم. والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذى يصليها ثم ينام » .

وفى رواية أبى كريب : « حتى يصليها مع الإمام فى جماعة » .

٢ – وروى مسلم أيضاً عن أبى بن كعب قال : كان رجل لا أعلم رجلاً أبعد من المسجد منه ، وكان لا تخطئه صلاة . قال : فقيل له ، أو قلت له : لو اشتريت حماراً تركبه فى الظلماء وفى الرمضاء ، قال : ما يسرنى أن منزلى إلى جنب المسجد ، إنى أريد أن يكتب لى ممشاى إلى المسجد ، ورجوعى إذا رجعت إلى أهلى . فقال رسول الله ﷺ : « وقد جمع الله لك ذلك كله » .

٣ – وروى مسلم كذلك عن أبى هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من تطهر فى بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ؛ ليقضى فريضة من فرائض الله ، كانت خُطْوَتَاه إحداهما تحط خطيئة ، والأخرى ترفع درجة » .

---

(١) المجادلة : ١ .

٤ - وروى مسلم أيضاً عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له فى الجنة نُزُلاً كلما غدا أو راح » .

* * *

والمؤمن الحق يحب من أعماق قلبه ارتياد المساجد والجلوس فيها للذكر وقراءة القرآن ، وحضور مجالس العلم ، وانتظار الصلاة ، ولا يكاد يخرج من المسجد حتى يشتاق إليه ؛ لأنه يجد فيه روحه وريحانه ، ويشعر بأنه يجاور ربه أو أنه ينزل فى ضيافته حتى يخرج منه ، ويرجو من الكريم جل شانه أن يفيض عليه من فيض رحماته ما يعيش به سعيداً فى دنياه وأخراه .

لهذا ورد فى الحديث الصحيح المتفق على صحته أنه يكون فى ظل الله يوم القيامة ، أى فى أمنه وتحت عرشه ، لا يفزع إذا فزع الناس .

« سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، شاب نشأ فى طاعة ربه ، ورجلان تحابًا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذاتُ منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق صدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه » .

إن القلب إذا تعلق بالمساجد طهر من الشبهات والشهوات ، ونزلت سكينة الله فيه ، واستنار بنوره العظيم ، فأضحى قلبًا ربانيًا حيًّا مزهراً يعقل عن الله ما لا يعقله غير من القلوب التى هى دونه .

يقول الله عز وجل فى سورة التوبة : ﴿ لمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أول يوم أحقُّ أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهرين ﴾(١) .

ويقول الله عز وجل في سورة النور : ﴿ فى بُيوت أَذن الله أن تُرفع ويذكر فيه اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تُلهيهم تجارَة ولا بيع عن ذكر الله

---

(١) التوبة : ١٠٨ .

وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيَهم الله أحسن ما عملوا ويزيدَهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (١) .

روى الترمذى وغيره عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » .

قال الله عـز وجل : ﴿ إنما يَعمُرُ مساجدَ الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ (٢) .

وروى الطبرانى فى الكبير والأوسط ، والبزار بسند حسن عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المسجد بيت كل تقى وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح (٣) والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله إلى الجنة » .

وكان أصحاب النبى ﷺ يلزمون المساجد في وقت فراغهم ، أو عند وقوع البلاء اعتصامًا بالله ، وتوددًا إليه ، وهربًا من الهم والحزن ، ومما يشغلهم عن ذكره وشكره . كما سيأتى بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

* * *

هذا وفى قوله ﷺ لبنى سلمة : « دياركم تُكتَبُ آثارُكم » فوق ما ذكرناه فائدة أخرى ينبغى التفطُّن إليها ، وهو أن المحبين للمساجد إذا اقتربت بيوتهم منه فضلوها على بيوتهم قطعًا فسكنوها ، وإذا سكنوها وقع منهم من الأفعال ما ينبغى أن تتنزه عنه المساجد ، وربما شاركهم فى سكناها أزواجهم وأولادهم فوقع منهم ما لا ينبغى أن يقع فيها ، فأراد النبى ﷺ أن يبتعد الناس عنها ولو قليلاً ؛ حتى تظل مرفوعة منزهة مطهرة ، يأتيها الناس عن حب وشغف ، ويجدون فى الإتيان إليها لذة ومتعة ، وأنسًا لم يجدوه لو كانوا بجوارها .

---

(١) الآية : ٣٦ ، ٣٨ . (٢) التوبة : ١٨ .

(٣) الروح : الحياة الصِّحيَّة المشوبة بالسعادة .

وهناك فائدة أخرى لا بأس من ذكرها هنا ، وهى ما يسمى بالتوزيع السكانى فى هذا العصر ، بحيث تعمر الأرض بالناس هنا وهناك ، ليتمكنوا من زراعتها ، واستخراج معادنها ، والبناء عليها ، وليجد كل إنسان متنفساً خالياً من الزحام والضوضاء والاختلاط المؤدى إلى الضيق والحرج .

والله – عز وجل – يعطى الثواب على قدر المشقة ، وعلى قدر الإخلاص فى العمل ، فإذا ابتعدت الديار عن المساجد ارتفعت أجور الغادين إليها والرائحين منها ﴿ وكل شىء عنده بمقدار ﴾[1] .

يقول الله عز وجل : ﴿ إن الله لا يَظلم مثقال ذرة وإن تَكُ حسنة يضاعفها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيماً ﴾[2] .

* * *

(١) الرعد : ٨ .

(٢) النساء : ٤٠ .

(٤١) سَدِّدُوا وقَارِبُوا

عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها كانت تقول : قال رسول الله ﷺ : « سَدِّدُوا وقَارِبُوا ، وأبشروا ، فإنه لن يُدخل الجنة أحداً عملُه » قالوا : ولا أنت يا رسول الله . قال : « ولا أنا ، إلاَّ أن يتغمدنى الله منه برحمة ، واعلموا أن أحبَّ العمل إلى الله أدومُه وإن قلَّ »(١) .

* * *

كان النبى ﷺ كثيراً ما يوصى أصحابه بالسداد فى القول والعمل تأكيداً لما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ (٢) .

وتأكيداً لقوله جل وعلا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تُقاته ولا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٣) ، ويوصيهم بالمقاربة عند عجزهم عن السَّدَاد .

وتوكيداً لقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ (٤) .

والسداد فى القول هو الصدق فيه ، والسداد فى الفعل هو إصابة وجه الخير فيه .

والمقاربة فى القول تَحرِّى الصدق بقدر الوسع بغير تكلُّف ولا اعتساف ولا تحريف ، فهى صدق على قدر درجة المتكلم ، كما سنبينه هنا إن شاء الله .

والمقاربة فى الفعل : هى تحصيل بعض الخير منه ، فما فات جُلُّه لا يترك كله .

وبيان ذلك أن السداد فى اللغة : هو وضع الشىء فى موضعه تماماً ،

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨١٨) باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى .

(٢) الأحزاب : ٧٠ .

(٣) آل عمران : ١٠٢ .

(٤) التغابن : ١٦ .

والمقاربة وضع الشيء فى موضعه على جهة تقارب الكمال ، سواء كان ذلك فى الأقوال أم فى الأفعال .

فالشهادة مثلاً ينبغى أن تؤدى على أكمل وجه وأتمه من غير تحريف ولا التواء ، ولا مجاملة ولا محاباة ، وأن تكون خالصة لوجه الله ، لقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ (١) . أى قوِّموها تقويمًا لا عوج فيه ، واجعلوها مستقيمة على الطريق السوى ، والزموا فيها العدل الدقيق ، وهو ما أطلق القرآن عليه لفظ القسط ، والقسط ميزان محرر ليس فيه تفاوت بزيادة أو بنقصان .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدَين أو الأقربين إن يكن غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تَتَّبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تَلْوُوا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾(٢) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا ﴾ .

أى وإن تلووا ألسنتكم بالشهادة فتؤدوها ناقصة أو محرفة عن وجهها أوتعرضوا عنها فلا تؤدوها مطلقًا ، فإن الله لا تخفى عليه خافية من أمركم ، وسوف يجازيكم على أعمالكم بحسب نياتكم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

والمقاربة فى الشهادة ليست شهادة إلا إذا لم تؤد إلى ضياع حق أو النقصان منه ، وكان القصد منها العدلُ والنصرة ، ولم يكن هناك من يعترض على هذه الشهادة لعدم ظهور الميل فيها .

ولذلك لا يؤدى الشهادة على وجهها إلا الخبير بضروب الكلام وفنون القول ومجريات الأمور وتغير الأحوال ، وغير ذلك مما هو فى طريقها من الثبات وحسن المواجهة ، والرغبة الملحة فى إحقاق الحق وإبطال الباطل من غير أدنى محاباة أو هوى .

وما يقال فى الشهادة يقال فى تأدية الفرائض والواجبات من عبادات

---

(١) الطلاق : ٢ .
(٢) النساء : ١٣٥ .

ومعاملات ، فإن السَّداد فيها مطلوب بالأصالة ، والمقاربة مطلوبة عند العجز عن السداد كما ذكرنا .

والعاقل من درَّب نفسه على التزام السداد في الوفاء بالعهد والوعد والدين وسائر الحقوق العامة والخاصة ، بحيث لا يرضى من عمله إلا ما كان تامًّا ، إرضاءً لله تعالى ، وطمعاً فى ثوابه .

وقد جاء فى الحديث : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه » (١) .

والمقاربة دُرْبَةٌ على تحصيل السداد ، فمن سار على الدرب وصل ، ومن أدلج بلغ المنزل ، فلا يرضى المسلم بسفساف الأمور ، بل يطلب معاليها بالجد والعمل وتصحيح النية ومخالفة الهوى،فإن فى طلب المعالى صلاح الحال والمآل .

فقد قال الله عز وجل عقب قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ قال : ﴿ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يُطِعِ الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾(٢) .

وسيأتى الكلام عن السداد والمقاربة فى حديث : « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا » فانتظره هناك ، واضمم إليه ما هنا تكتمل الفائدة ، إن شاء الله تعالى .

* * *

وأما قوله ﷺ : « وأبشروا » فمعناه توقعوا الخير بعد السداد أو المقاربة ، واستحضروا الرجاء فى ثواب الله تعالى ، ولا تيأسوا من رحمة الله ، ولا تغتروا بعملكم ، ولكن استبشروا به وكفى ؛ لأن العمل الصالح لا يدخل الجنة بذاته ، ولكن هو جلب لرحمة الله ، وطلب لها بالوجه الصحيح ، فإن من عمل عملاً صالحًا يُرْجَى له الجنة برحمة الله وفضله .

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان .

(٢) الأحزاب : ٧١ .

وذلك لأن العمل مهما عظم شأنه لا يساوى ذرة فى نعمة من نعم الله علينا فى الدنيا .

ولو كان العمل يدخل صاحبه الجنة بذاته لكان أولى بذلك رسول الله ﷺ .

فلا ينبغى لأحد أن يعتمد على عمله فى دخول الجنة أبدًا ، فإن الاعتماد على العمل ينقص الرجاء فى رحمة الله تعالى .

قال ابن عطاء الله فى الحِكَم : « من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند الزلل » .

وقول النبى ﷺ بعد الإيصاء بالسداد والمقاربة والاستبشار : « فإنه لن يدخل الجنة أحداً عملُه » فيه إرشاد عظيم لكل من أراد أن يصل إلى أعلى درجات المعرفة بالله ليتأدب معه في شأنه كله ، فلا يرى لنفسه فضلاً فى أى عمل صالح يقوم به ويُوفَّق إلى الإتيان به على أحسن الوجوه وأكملها .

وليعلم كلٌّ من أراد أن يعلم أنه لن يعمل عملاً صالحًا إلا بتوفيق الله تعالى، وتوفيق الله نعمة تتطلب الشكر ، والشكر على نعمة التوفيق نعمة أخرى تتطلب الشكر ، فلا تنتهى النعم ولا ينتهى طلب الشكر ، فكيف يدعى العبد أن له عملاً يدخله الجنة بذاته ، والفضل من الله أولاً وآخراً .

ومنتهى التوحيد ألا يرى العبد لنفسه شيئاً مع الله تعالى ، فلا يسعه إلا أن يفوض الأمر إليه ، وأن يرضى ما قسمه الله له ، فإن يعذبه فذاك محض عدله ، وإن يثبه فذاك محض فضله .

والإسلام الخالص يقتضى التسليم الخالص من كل شوائب الشرك الجلى والخفى ، وهذا هو رسول الله ﷺ يضرب لنا المثل الأعلى فى الإسلام الخالص فيقول عندما قالوا : ولا أنت يا رسول الله « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة » وفى رواية أخرى : « برحمة منه وفضل » [1] .

---

(١) هذه الرواية من صحيح مسلم أيضاً عن أبى هريرة .

أى إلا أن يلبسنى الله بشىء من رحمته ، من قولهم : أغمدت السيف ، أى ألبسته غمده وسترته به ٠

وكأنى برسول الله ﷺ يشير إلى قوله تعالى : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يَجمعون ﴾ (١) ٠

فهو ﷺ بعد أن أوصاهم بالسداد والمقاربة والاستبشار وجَّه همتهم إلى الطمع فى رحمة الله ، وحذرهم – بطريق غير مباشر – من الاعتماد على العمل ؛ لما فيه من الرياء والغرور والجهل بسنن الله التى خلت فى عباده وما إلى ذلك مما يشتد خطره ويعظم ضرره ٠

ومن أَحسن الظن بالله لم يعتمد على عمله ، ولم ييأس من العفو والمغفرة ٠

وقد جاء فى الحديث الصحيح : « وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » (٢) ٠

وفى رواية قالوا : إذًا نترك العمل يا رسول الله ، قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ، ويؤيدها ما ورد فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال : قال رجلٌ : يا رسول الله أيُعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ ٠ قال : نعم ٠ قال : فلمَ يعمل العاملون ؟ قال : كل يعمل لما خلق له – أو : لما يسر له – » ٠

وبهذا الحديث يعالج النبى ﷺ مرضين خطيرين هما الغرور واليأس ، فيقول للذى يعمل بعمل أهل الجنة : لا تغتر بعملك ، ويقول للذى يعمل بعمل أهل النار : لا تيأس من رحمة الله، فيلتقى كل منهما على الخوف والرجاء،

---

(١) يونس : ٥٨ ٠

(٢) رواه البخاري ومسلم ٠

ويكون لكل واحد منهما قسط منهما ، فالمغرور يخاف من سوء العاقبة ، ويرجو رحمة الله ، واليائس يخلط الخوف من عذاب الله بالطمع فى رحمته ، وهذا هو الصراط المستقيم .

وليعلم كل مسلم أن الأعمال بخواتيمها ، فعجبًا لمن يسأل الله الرزق وهو مضمون له ، ولا يسأل الله حسن الخاتمة وهى أمر غير مضمون له .

صحيح أن الأمور مقدرة ، وأن القدر لا ينخرم ، ولكن المسلم يعمل ، ويعمل سواء أثابه الله أم عذبه ، فقدر الله - عز وجل - لا يحملنا على الطاعة ولا المعصية ، فلندع المقادير تجرى فى أعنتها ونعمل ما وسعنا الجهد وليكن ما يكون فى علمه .فعلى العبد أن يسعى وليس عليه تحصيل المطالب .

وجماع الخير فى الصبر والشكر والرضا بالقضاء والقدر ، فإن ذلك هو سبيل النجاة من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة .

واعتبر بما حكاه الله - جل شأنه - فى محكم التنزيل عن مؤمن آل فرعون ، فإنه قد بذل جهده فى هداية قومه ثم ختم حديثه معهم بقوله كما حكى الله عنه : ﴿فستذكرون ما أقول لكم وأفوِّض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾ (١) .

فكانت عاقبته ما بينه الله بقوله : ﴿ فوقاه الله سيئاتِ ما مكروا وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب﴾ (٢) .

* * *

وعلى العبد أن يداوم على ما اعتاد على عمله بالليل أو بالنهار ، ولا يقطعه حتى لا تنقطع روافده الآتية من قبل الله تعالى ، فإن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل ، كما قال الرسول ﷺ .

وكان النبى ﷺ يحب إذا عمل عملاً أن يتقنه وأن يداوم عليه ، وكان

---

(١) غافر : ٤٤ .
(٢) غافر : ٤٥ .

أصحابه يقتدون به فى ذلك ، فإن للعمل الدائم حلاوة يتذوقها المؤمن ويستمرئها فلا يسهل عليه الاستغناء عنه بحال .

وإن حملته الضرورة على تركه بادر بفعل ما يماثله مما يسهل عليه .

ولا يزال العبد يعمل من الصالحات فيعطيه الله الأجر ما دام يعمل ، « والله لا يمل حتى تملوا » أى لا يزال يعطيكم ويعطيكم مادمتم تواصلون الطاعة ، وتداومون عليها ، والله واسع الفضل والرحمة .

* * *

(٤٢) إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « إن الدينَ يسرٌ ولن يُشادَّ هذا الدينَ أحدٌ إلا غلبه ، فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والرَّوحة وشيءٍ من الدُّلجة » (١) .

* * *

هذا الحديث من جوامع كلمه – ﷺ – جمع فيه خصائص الدين كلَّها فى كلمة واحـــدة ، وبيَّنَ أنَّه الغالب لكل مَنْ همَّ أن يُغَالبَهُ بأى نوع من أنـواع المغالبة ، ثم أوصى أتباعه بأربع وصايا هُنَّ من أمهات التـقويم الفردىّ ، والإصلاح الاجتماعىّ .

أمَّا الكلمة التى بيَّن فيها خصائص الدين كلَّها فهِىَ اليسر .

وما اليُسْرُ ؟

إنه يتمثل فى رفع الحرج ، ودفع المشقة ، وقلة التكاليف ، وحيوية التشريع ومرونته وعدالته المطلقة ، ومساواته التامة فى الحقوق العامة ، ومراعاته لأحوال الناس فى كلِّ زمان ومكان ، والتخفيف عنهم بأنواع الرُّخص المعروفة فى الفقه ، هذا مع الترغيب فى ثواب الله تعالى بمضاعفة الأجر على الأعمال الصالحة ، وفَتْح أبواب التوبة على مصاريعها لكل مَنْ أراد أن يتوب إليه – جل شأنه – توبةً نصوحًا . إلى آخر ما هنالك مما يدخل تحت هذا المفهوم .

وقد بالغ النبى ﷺ فى التعبير عن يسر الدين فجعله نفس اليسر . فقال : « إن الدين يسر » ، ولم يقل : « إن الدين ذو يسر » ؛ كأن اليسر هو الدين ، والدين هو اليسر .

ومفهومه أنه من طلب اليسر فى غيره فلن يجده ، ومن تمسك بالدين

---

(١) أخرجه البخارى كتاب الإيمان ، باب الدين يسر .

وحاول أن يتشدد فيه لأمر ما فى نفسه فلن يستطيع أن يسلبه خصائصه المتمثلة فى يسره .

ولهذا قال ﷺ : « ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه » ، فهذا القول توكيد للجملة الأولى ، وبيان لمضمونها ومفهومها .

والمشادة هى المغالبة بأى نوع من أنواعها ، إفراطًا أو تفريطًا .

والمعنى : ولن يغالب هذا الدين أحد كائنًا من كان فى أى أمر كان ، مخالفًا له فى تشريعاته العامة والخاصة ، وفى مبادئه وقيمه إلا غلبه هذا الدين بيسره وسماحته وقوة حجته ، وملائمة تشريعاته لجميع شئون الحياة فى كل زمان ومكان .

وسيأتى الكلام عن الغلو فى الدين فى الحديث الذى بعده إن شاء الله تعالى .

* * *

وبعد أن وضع النبى ﷺ هاتين القاعدتين أمر المسلمين بالسداد فى القول والعمل ، والمقاربة فيها عند عدم التمكن من السداد ، فقال : « فسددوا وقاربوا » ، أى : الزموا السداد فى جميع أمور الدين والدنيا بقدر وسعكم وطاقتكم .

والسداد هو الصدق مع الله ، ومع النفس ، ومع الناس فى الأقوال والأفعال والنيات ، وإصابة الحق فى جميع الأحوال ، والتزام العدل فى الأحكام ، ووضع الأمور فى موضعها من غير قصور أو تقصير .

كل هذه المعانى مرادة بقوله ﷺ : « فسددوا » وهو تفسير لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يُصلحْ لكم أعمالكم ويغفرْ لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ (١) .

---

(١) الأحزاب : ٧٠ – ٧١ .

فالسداد هو التزام طاعة الله – تعالى – والوفاء بعهده على أكمل وجه بقدر الطاقة البشرية .

ويليه المقاربة فى ذلك عند العجز عن السداد بمعناه الأمثل .

وقد يكون معنى المقاربة التوسط فى الأمور .

يقال : فلان قارب الهدف ، أى انتهى إليه . فيكون التعبير بالمقاربة كناية عن الوصول للهدف من أيسر طريق وهو التزام الوسطية .

والوسطية هى العدل فى أسمى صوره ، وهى فضيلة بين رذيلتين ، الإفراط والتفريط .

وعلى هذا المعنى الثانى يكون السداد والمقاربة متلازمين لا ينفك أحدهما عن الآخر . فيكون المعنى : الزموا السداد والمقاربة فى كل شىء ، فإن السداد إنما يكون مع الوسطية لا يفارقها ولا تفارقه ، فمن خرج عن الوسطية فقد خرج عن السداد .

وهذا المعنى أولى بالقبول لموافقته للقاعدتين المتقدمتين فى أول الحديث ، ولأن الرسول – ﷺ – قد جمع بينهما بواو العطف المقتضية للتشريك فى الحكم، ولو أراد المغايرة لقال : « فسددوا أو قاربوا » .

وقد يقال : إن المعنى الأول أولى بالقبول من الثانى ؛ لأن السداد هو المطلوب بالأصالة ، والمقاربة مطلوبة عند ، العجز عنه فجمع الرسول ﷺ بينهما بواو العطف لاشتراكهما فى الأجر ، بمعنى أن من عجز عن السداد وأخذ بالمقاربة كان له أجر السداد كاملاً ، كمن عجز عن القيام فى الصلاة فصلى قاعداً .

والجمع بين القولين حينئذٍ يكون أولى ، وهو كذلك إن شاء الله .

* * *

وقوله ﷺ : « وأبشروا » بعد أن قال : « فسددوا وقاربوا » وعدٌ من الله لهم ، أجراه على لسانه لمن التزم السداد والمقاربة فى أقواله وأفعاله ، وكان على الطريق السوى فى شأنه كله .

والمعنى : أحضروا فى قلوبكم البشرى فى عاجل أمركم وآجله ، وانتظروها وتعايشوا بها ، واطمعوا فى فضل الله – عز وجل – ولا تيأسوا من روحه إن عجزتم عن شيء كلفتموه ؛ فإن الدين يسر .

وهذه البشرى خاصة بالمؤمنين ، كما جاء فى القرآن الكريم . من ذلك قــوله تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديلَ لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ [1] .

* * *

وقوله ﷺ : « واستعينوا بالغَدوة والروحة وشيء من الدلجة » أى اطلبوا العون من الله تعالى على السداد والمقاربة فى أول النهار وآخره وفى الثلث الأخير من الليل ؛ لأنها أوقات تذكر العبد بأول عمره وآخره ودخوله فى قبره ، فأول النهار شبابه ، وآخر النهار شيخوخته ، وظلمة الليل قبره .

والغدوة – بفتح الغين – أول النهار وهى وقت نشاط يجد العبد فيه نفسه مقبلاً على العمل ، فليكن أول عـمل يبدأ به – طلب الاسـتعانة من ربه بركعتين يصليهما .

والروحة : آخر النهار ، وهو وقت نشاط أيضًا ، وفيه صلاة العصر وهى صلاة مشهودة ، وفيه ينظر العبد إلى الشمس وقد آذنت بالغروب ، فيذكر بهذا المظهر أفول عمره وقربه من لقاء ربه عز وجل .

وأما آخر الليل فهو من أعظم الأوقات قدراً ، فيه يتجلى الله على عباده ويقول : هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من كذا هل من كذا . حتى يطلع الفجر .

* * *

---

(١) يونس ٦٢ – ٦٤ .

ويؤخذ من هذا الحديث :

١ – أن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده وفطرهم عليه وتعبدهم به ، ولن يقبل من أحد ديناً سواه .

﴿ ومن يبتغِ غيرَ الإسلام دينًا فلن يُقبلَ منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ (١) .

٢ – وأن هذا الدين هو اليسر كله ، قائماً بالقسط لا تزيغ به الأهواء ، ولا يضل من اعتصم به ، ولا يجد المتحدّى به قدرة على تحديه ، ولا يستطع أحد كائنًا من كان أن يلَبِّس فيه أو يزيد أو ينقص ، فهو محجة بيضاء ليلها كنهارها ، وهو كامل فى عقائده وتشريعاته ، يرفض التعديل والتقويم لأنه القيم الذى يهدى إلى الرشد ويدعو إلى الخير ، ويسمو بالنفوس البشرية إلى أسمى آيات الكمال الخلقى والروحى .

﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضِيتُ لكم الإسلام دِينًا ﴾ (٢) .

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفًا فِطْرَتَ الله التى فطر الناس عليها لا تبديلَ لخَلْقِ الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٣) .

٣ – وأنه جديرٌ بأن يلزم الناس فيه السداد والمقاربة ؛ لأنه دين الهداية ومنهج الحياة بيَّن الله لهم فيه ما يحل لهم ، وما يحرم عليهم ، ولبَّى جميع رغباتهم التى تسعدهم فى قواعد كلية يندرج تحتها كل ما جدَّ ويجدُّ من شئون الحياة . فما من شىء يحتاجون إليه إلاَّ شمله تشريعه ووسعه بيانه .

قال تعالى : ﴿ ونَزَّلنا عليك الكتاب تِبيانًا لكل شىء وهدًى ورحمةً وبشرى للمسلمين ﴾ (٤) .

٤ – وما على المسلم إلا أن يستبشر خيراً إن اتقى الله حق تقاته ، وجاهد

---

(١) آل عمران : ٨٥ .
(٢) المائدة : ٣ .
(٣) الروم : ٣٠ .
(٤) النحل : ٨٩ .

فى الله حق جهاده بقدر طاقته ووسعه ، فإن الله – عز وجل – قد وعد المؤمنين وعداً حسناً فى كتابه العزيز وعلى لسان نبيه ﷺ ولن يخلف الله وعده .

٥ – أن لربنا فى أيام دهرنا نفحات ، وأن هناك أوقاتاً يكون الدعاء فيها أقرب للإجابة كالأوقات التي أشار إليها النبى ﷺ فى الحديث ، فعلى العبد أن يتعرض لهذه النفحات فى مثل هذه الأوقات .

٦ – والعبد عاجز كل العجز عن تحقيق مراده فليستعن بالله على ذلك ، ولا يعتمد على قوته وجهده ، فمهما كانت عزيمته صلبة وهمته عالية فإنه لا غنى له البتة عن طلب العون من الذى خلقه وسواه ، وأمده بالقوة والعزم والهمة ؛ إذ لا قدرة لمخلوق مع قدرته ، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد .

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجنى عليه اجتهادُه

نسأل الله العلى القدير أن يوفقنا لطاعته ويهدينا سواء السبيل .

* * *

(٤٣) إنَّ هذا الدينَ متينٌ

عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :

« إن هذا الدينَ متينٌ فأوغِل فيه برفق ؛ إن المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى » (١) .

* * *

كان النبى ﷺ يلاحق أولئك الذين يرهقون أنفسهم فى التعبد إرهاقًا شديداً غير مبالين بحق أجسامهم فى الراحة ولاحق أزواجهم فى المتعة فيقضون النهار فى الصيام والليل فى القيام ، ويزهدون فى طيبات الحياة ويكتفون من دنياهم بما يسد الرمق ويستر العورة .

كان عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى الرفق بأنفسهم وبأزواجهم والاعتدال فى عباداتهم لئلا يملّوها فينقطعوا عنها ، فيخالفون بذلك ما يحبه ربهم ويرضاه .

وقد قال النبي ﷺ : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » (٢) .

وقال : « اكلفُوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يَمل حتى تملوا » (٣) .

والإسلام دين الوسطية لا إفراط فيه ولا تفريط ، دين قويم يهدى للتى هى أقوم ، ويغلب بيسره وسماحته كل متنطع ، ويقهر كل متهاونٍ مستهتر .

فهو دين متين ، أى قوى غاية القوة فى حججه وبراهينه ، عدل فى أوامره ونواهيه ، شديد على من يعاديه أو يغلو فيه ؛ فإن الذى يغلو فيه هو عدو له فى صورة حبيب ، ينطبق عليه عموم قوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿ قل هل

---

(١) رواه البزار بسند ضعيف ، وأخرجه أحمد فى مسنده بلفظ : « فأوغلوا » ، ودون قوله : « إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى » وقال السيوطي فى الجامع : صحيح .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والنسائى .

نُنَبِّئُكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيُهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالُهم فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزنًا ﴾ (١) .

فهذه الآية تتناول بعمومها أربعة أصناف من الناس :

١ - اليهود الذين شددوا على أنفسهم فحرَّموا على أنفسهم كثيرًا مما أحلَّه الله لهم ، وفرضوا على أنفسهم أنواعًا من العبادة لم يكلفهم الله بفعلها ، وبالغوا فى إطراء أحبارهم وأطاعوهم طاعة عمياء ، وزعموا أنهم يقرّبونهم إلى الله ويشفعون له عنده .

٢ - النصارى الذين شددوا على أنفسهم أيضًا بالرهبانية والعزوف عن الزواج وعن كثير من طيبات الحياة ، وفرضوا على أنفسهم من الأعمال ما لم ينزل به الله سلطانًا على رسولهم عيسى عليه السلام .

وقد بالغوا في إطرائه ورفعوه إلى درجة الألوهية .

فمنهم من قال : هو الله .

ومنهم من قال : هو ابن الله .

ومنهم من قال : هو وأمه إلهان من دون الله .

ومنهم من قال : هو ثالث ثلاثة .

قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحقَّ ﴾ (٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا فى دينكم غيرَ الحقِّ ولا تَتَّبعوا أهواء قومٍ قد ضَلُّوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلُّوا عن سواء السبيل ﴾ (٣) .

٣ - أهل البدع الذين تشددوا فى الدين حتى ذهبوا بأهم خصائصه وهى

---

(١) سورة الكهف : ١٠٣ - ١٠٥ .

(٢) النساء : ١٧١ .　　　(٣) المائدة : ٧٧ .

اليسر والسماحة ، والوسطية والحيوية ، والمرونة ورفع الحرج ، وقلة التكاليف ، وما إلى ذلك مما نص عليه الفقهاء فى كتبهم .

وهؤلاء قوم يقرأون القرآن ولا يتجاوز حناجرهم ، وإنهم ليمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، كما قال الرسول ﷺ فى الحديث الذى أخرجه البخارى فى صحيحه .

فهم يخرجون من الدين دون أن يصيبوا منه خيراً كما يخرج السهم من جسم الحيوان الذى يرمى به قبل أن ينهار الدم فلا يلوّث به ، فينظر فيه المرء من أعلاه ومن أسفله فلا يرى فيه أثراً للدم ، وهو كناية عن الخروج من الدين بأقصى سرعة . نسأل الله السلامة من شرهم .

٤ – أدعياء الزهد والصلاح والتقى .

وهؤلاء لو أنصفوا ما شددوا على أنفسهم ، ولا بالغوا فى حرمانها من الطيبات ، ولكن الجهل بسماحة الدين ويسره قد حملهم على ذلك .

وقد كان منهم من يعيش فى زمن النبى ﷺ ، فكان يلاحقهم كلما رأى منهم تشدداً ، كالثلاثة الذين طافوا على بيوت نسائه – ﷺ – فسألوهن عن عبادته ، فأُخبروا بها ، فكأنهم تقالُّوها ، فقالوا : أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال أحدهم : أنا أصوم النهار ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أقوم الليل ولا أرقد ، وقال الآخر : وأنا لا أتزوج النساء .

فجاءهم رسول الله ﷺ حين علم بأقوالهم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا !! ، أما إنى أخشاكم لله وأتقاكم له ، وأنا أصوم وأفطر ، وأقوم الليل وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

ونص الحديث فى البخارى وقد تقدم ذكره عند الكلام فى الزهد .

وقد رأيت فى هذا الزمان قومًا صغار الأسنان سفهاء الأحلام يدَّعون العلم والمعرفة بأمور الدين وأحكامه وهم يجهلون أصوله وفروعه ، ويقلدون البدو فى فتاويهم ، ويأخذون العلم ممن لا علم له فيَضلون ويُضلون .

وإذا قلت لأحدهم : قال الله وقال الرسول ، قال : فلان يقول كذا ، وفلان يقول كذا ، وهم عندنا من الأئمة الأعلام .

وصدق فيهم المثل القائل : (أعور فى حارة العمى سموه كحيل العيون) .

ويصدق فيهم قول الشاعر :

إذا قالت حزامِ فصدقوها

فإن القول ما قالت حزام

* * *

وقوله - ﷺ - في الحديث : « فأوغل فيه برفق » أى توغل فى معرفة أحكامه وتعاليمه ، وانهض فى تأدية ما وجب عليك لكن برفق ، بحيث لا تكلف نفسك فوق طاقتها ، فإن التشدد فى الدين أخطر من التهاون فيه ، كما ذكرنا أكثر من مرة .

والفضيلة وسط بين رذيلتين هما الإفراط والتفريط .

قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطًا ﴾ [1] . أى خيارًا عدولاً .

وكان النبى ﷺ إذا خير بين أمرين اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا ، كما ثبت فى الحديث الصحيح .

ومن أجل الرفق بالنفس شرع الله الرُّخص لأصحاب الضرورات الشرعية ؛ ليعلم كل مسلم أن من شادّ الدين بغلوه وحماقته غلبه الدين بيسره وسماحته .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

وقد تمثل النبى ﷺ – فى حديث البزار – بهذا المثل العربى : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ليبرز المعانى التى تضمنها قوله فى صور محسّة مبالغة فى توكيدها وتقويتها فى الذهن ، وتعميقها فى القلب .

والمثل ما سمى مثلاً إلا لأنه يحفر له فى الذهن مكاناً فلا يكاد ينسى .

والمنبت : هو المسرع الذى يأخذ الأمور بحماقة وتعجل فلا يصل إلى غرضه وربما يهلك نفسه ويكون سبباً فى إهلاك غيره .

يقال : إن رجلاً كان يسير مع القافلة فسولّت له نفسه أن يسبق الناس ليصل إلى الهدف قبلهم فينال ما لا ينالون ، فأسرع بجمله واشتد عليه فسقط الجمل به فمات هو والجمل ، فجاء الركب فوجدوه هالكاً هو والجمل ، فقال قائلهم : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » فصُيِّر هذا القول مثلاً تناقلته الأجيال جيلاً بعد جيل .

* * *

(٤٤) يَسِّرا ولا تُعسِّرا

عن سعيد بن أبى بردة ، عن أبيه قال : بعث النبى ﷺ جده أبا موسى ومعاذًا إلى اليمن فقال : « يسِّرا ولا تُعسِّرا ، وبشِّرا ولا تنفِّرا وتطاوعا » ، فقال أبو موسى : يا نبى الله ، إن أرضنا بها شراب من الشعير المِزْرُ ، وشراب من العسل البِتْعُ ، فقال : « كل مسكر حرام » ، فانطلقا . فقال معاذ لأبى موسى : كيف تقرأ القرآن ؟ ، قال : قائماً وقاعداً وعلى راحلتى ، وأتفوَّقه تفوُّقا . قال : أما أنا فأنام وأقوم ، فأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى . وضَرَب فسطاطًا فجعلا يتزاوران ، فزار معاذ أبا موسى ، فإذا رجل مُوثَقٌ ، فقال : ما هذا ؟ ، فقال أبو موسى : يهودى أسلم ثم ارتدَّ ، فقال معاذ : لأضربن عنقه » (١) .

* * *

بعث النبى ﷺ أبا موسى الأشعرى – عبد الله بن قيس جَدُّ سعيد بن أبى بُردة راوى الحديث – ومعاذ بن جبل واليين فى مقاطعتين من أرض اليمن ، وأوصاهما – كعادته عند بعث الولاة والقُوَّاد – بخمس وصايا جامعة للخصال الخلقية التى ينبغي أن يتحلى بها الولاة والحكام والقضاة والمفْتُون .

كل وصية تؤكد أختها وتقويها .

ونحن لا نقف طويلاً أمام هذه الوصايا ، لأننا أشبعنا القول فى يسر الإسلام وسماحته عند شرحنا لأحاديث التيسير التى مضى ذكرها .

* * *

قوله ﷺ : « يسِّرا ولا تعسِّرا » . معناه : الزما اليسر فى الأحكام ، وفى

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ، باب « بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع » .

الأوامر والنواهى والفتاوى ، وتقسيم الأرزاق والصدقات ، والإمامة بالناس فى الصلوات ، والجلوس مع الناس ، والسير بهم في مواطن القتال ، وغير ذلك مما يتطلب اليسر .

وحذرهما من التعسير توكيداً للأخذ بالتيسير، فإن النهى عن الضد مؤكد للأمر بضده ، فهو من الطباق المحمود الذى يزيد الأذن إمتاعاً والعقل إقناعاً، ويثير فى النفوس العواطف الكامنة، ويشعر السامع بجدية الأمر وأهميته.

ولعل النبى ﷺ أوصاهما بهاتين الوصيتين لعلمه أنهما كانا يحبان أن تؤدى حقوق الله – تعالى – على النحـو الأكمل ، وذلك ليس فى وسع كل الناس ، ولعلمه أنهما كانا يحبان الإطالة فى الصلاة ،وكان الوالى يؤم الناس ، وفى الناس الضعيف والسقيم وذو الحاجة ، وقد حذر النبى ﷺ معاذاً من قبل من إطالة الصلاة بالناس ، وقال له : « أفَتَّانٌ أنت يا معاذ ؟ » كما سبق بيانه فى حديث « من أمَّ بالناس فليخفف » .

وكان أبو موسـى رجلاً يحـب قراءة القـرآن ، وقد خصـه الله بصـوت جميل .

وكان معاذ بن جبل يحب – أيضاً – قراءة القرآن ، وله فيه دوىٌّ كدوىِّ النحل ، فأوصاهما الرسول ﷺ باليسر فى جميع الأمور ، ولو كان ذلك غير موافق لرغبتهما فى بعض الأحيان .

* * *

وقوله ﷺ : « وبشرا ولا تنفرا » أى رغِّبا الناس فى ثواب الله – تعالى – وحذراهم من عذابه بألفاظ غير منفرِّة ، بمعنى أن كلاً منهما يعظ ويذكر متبعاً فى ذلك أسلوب القرآن وأسلوب النبى – عليه الصلاة والسلام – من غير تكلف ولا اعتساف ، فلا يقنطهم من رحمة الله ، ولا يقسو عليهم فى العتاب ، ولا ينذرهم بالويل والثبور وعظائم الأمور إن هم خالفوا أمر الله فى شىء، ولكن يجعل للناس مخارج يخرجون منها عن المعاصى إلى الطاعات بأيسر طريق، عملاً

بقوله تعالى فى سورة النحل : ﴿ ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلْهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (١) .

والحكمة هى : القصد فى الأمور ، وإصابة الهدف من غير تكلف ، ووضع كل شىء فى موضعه من غير تعسف .

والموعظة الحسنة هى : القول البليغ الذى يرقق القلوب ، ويجمع الناس على الله ، ويجعلهم منه على خوف ورجاء .

والمجادلة بالحسنى تكون : بإقامة الحجة والبرهان من غير شدة ولا عنف ، ويكون القصد منها إحقاق الحق وإبطال الباطل وهداية الضالين .

والتبشير والتحذير من غير تنفير هو سبيل النبى ﷺ فى دعوته ، وسبيل المؤمنين معه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

قال تعالى فى سورة يوسف – عليه السلام – : ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ (٢) .

والبصيرة : هى تشخيص الداء ووصف الدواء .

وتشخيص الداء مقدم – بالطبع – على وصف الدواء ، وكل منهما يقوم على حجة ويحتاج إلى خبرة .

وأصحاب النبى ﷺ هم نجوم الهدى ، بهم تكون القدوة ، وبهم يهتدى السائرون إلى الله عز وجل ؛ لأنهم جسدوا لنا أخلاق النبى ﷺ بقدر طاقتهم البشرية ، وأبرزوا لنا أهم أوصافه السامية ، ومثله العليا .

* * *

وقوله ﷺ : « وتطاوعا » معناه : تلاينا ، واتفقا ، وليطع كل منكما أخاه فى العمل بما يرضى الله تعالى ؛ فإن التعاون على البر والتقوى لا يتم بينكما إلا إذا لان كل منكما لأخيه ، وترك النزاع واللجاجة ، والجدل العقيم .

---

(١) النحل : ١٢٥ .　　(٢) يوسف : ١٠٨ .

وكأنى برسول الله ﷺ كان يعلم أن بكل منهما حدَّة ، خلقها الحرص الشديد على دين الله تعالى ، فهى حدَّة محمودة إذا لم يَشُبْهَا شىء من الاعتزاز بالرأى ، واللدد فى الخصومة .

وهذه الوصية تؤكد الوصايا الأربعة ، وتجمع بينها فى إطار واحد ، وهو الاتفاق التام على ما ينفع المسلمين فى دينهم ودنياهم .

وهذا الاتفاق إنما يُبنى على إنكار الذات ونبذ الأثرة ، والتخلى عن التعسير والتنفير ، فإذا اتفقا على شىء خَفَّ عليهما ثقله ، وهان عليهما فعله إن كان فى فعله خير ، وسهل عليهم تركه إن كان فى فعله شر .

* * *

وقد قال أبو موسى – رضى الله عنه – بعد سماع هذه الوصايا من رسول الله ﷺ : يا نبى الله : « إن أرضنا » – يعنى اليمن فهو منها – « بها شراب من الشعير المِزْرُ » ، يعنى يسمى بهذا الاسم ، وهو ما نسميه البيرة ، « وشراب من العسل البِتْعُ » يسأله عن حكم شربهما فإن كانا حلالاً يسرا لهم فيهما ، وإن كانا حراماً فلا يُسر حينئذٍ ، بل الشدة كل الشدة على من يتعاطى واحداً منهما .

فقال – عليه الصلاة والسلام – : « كل مسكر حرام » .

وهى قاعدة عامة فى كل مسكر .

ومن عظمة الرسول ﷺ تقعيد القواعد التى تندرج تحتها فروع كثيرة فى كلمات قليلة ، فهو – ﷺ – فى البلاغة لا يدانى ، وقد خصَّهُ الله بجوامع الكلم .

نعم ، كل مسكر حرام ، أى شىء كان .

* * *

قال الراوى : « فانطلقا » : أى إلى اليمن ، فقال معاذ لأبى موسى : « كيف تقرأ القرآن ؟ » .

إنه يسأله عن روحه وريحانه ، وقرة عينه ونور فؤاده ، وقد كان كل منهما

يحب تلاوة القرآن على نحو لا يعبر عنه قلم ولا لسان ، شهد لهما بذلك الكثير من رواة الأحاديث وأصحاب السير .

قال أبو موسى مجيباً عن هذا السؤال :« أقرأه قائماً وقاعداً وعلى راحلتى »، أى على كل حال تسمح لى بقراءته .

قال : « وأتفوقه تَفَوُّقًا » أى : ألازم قراءته ليلاً ونهاراً شيئًا بعد شىء ، وحيناً بعد حين ، مأخوذ من فواق الناقة ، وهو أن تحلب ثم تترك ساعة حتى تدر ، ثم تحلب ، وهكذا دائماً .

قال معاذ : « أما أنا فأنام وأقوم ، فأحتسب نومتى كما أحتسب قَوْمَتِى » .

أى أنا لا أفعل مثل فعلك فأقسو على نفسى بل أترفق بها ، فأنام إذا غلبنى النوم ، فذلك من حق الجسد علىّ ، وكيف أقرأ القرآن والنوم يغلبنى ، وأقوم حيث أنشط للقيام فأقرأ القرآن فى صلواتى وخلواتى ، وأحتسب أجرى على الله فى نومتى وقومتى معاً .

فإن النوم من أجل الراحة والنشاط لما بعده من العبادة عبادةٌ .

وهذا - والله - هو القصد المطلوب شرعاً فى العبادة وغيرها ، وهو التيسير بعينه .

ولست أدرى أيهما أحسن حالاً ومقالاً من صاحبه ، هذا الذى جعل القرآن ورده فى كل وقت وعلى كل حال مرضية ، أم ذاك الذى كان يأخذ نفسه بما تستطيع ، فلا يقسو عليها ، ولا يلين لها وثوقًا بالله ، واعتماداً على فضله وكرمه ، وطمعاً فى واسع رحمته .

ولست أدرى أيهما أعلم من الآخر بالله - نعم لست أدرى - ولكن الله يدرى ، فهما خلاصة الخلاصة من أصحابه - ﷺ - الكرام البررة بعد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى .

* * *

وينتهى هذا الحديث الشريف بقول الراوى : « فضرب فسطاطًا » أى أقام كل واحد له خيمة له ولعسكره وعماله ، وقد كانت مقاطعة كل منهما قريبة من الأخرى ، « فكانا يتزاوران » لما بينهما من حب ووفاق فى الشخصية ، واتفاق على الطاعة ، ولما بينهما من ودٍّ للقرآن قد جمع بينهما فى بوتقة واحدة على أعظم مائدة سماوية عرفتها الدنيا .

قال الراوى : « فزار معاذ أبا موسى ، فإذا رجل موثق » أى مقيد بالحبال فقال : « ما هذا ؟ » أى ما الذى فعلته بهذا الرجل ؟ وما الذى فعل ؟ حتى تقيده بالأغلال ؟ .

« فقال أبو موسى : يهودى أسلم ثم ارتدَّ » .

أى ارتد عن الإسلام وأبى أن يتوب عن ردته ، فأنا قد أوثقته لأقتله حداً على ردته .

وفى رواية أخرى للبخارى : « قال له معاذ : يا عبد الله بن قيس ، أَيَّمَ هذا ؟ » أى أى شىء هذا الذى أراه .

« قال : هذا رجل كفر بعد إسلامه ، قال : لا أنزل حتى يقتل ، قال : إنما جىء به لذلك فانزل ، قال : ما أنزل حتى يُقتل ، فأمر به فَقُتل » .

رضى الله عن معاذ وصاحبه أبى موسى وجميع أصحاب النبى ﷺ ، وجمعنا بهم فى جنات النعيم .

* * *

(٤٥) لا يتناجَ اثنان دونَ الآخر

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسولَ الله ﷺ : « إذَا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس ؛ من أجل أن يحزنه » (١) .

* * *

فى هذا الحديث أدب من آداب الصحبة فى الطريق وغيرها – له أبعاده الاجتماعية ، فإن من حسن الصحبة أن يلتقى المسلمون على خير ، وأن يتعاملوا فيما بينهم على المعروف ، وأن يحرص كل واحد منهم على مشاعر الآخر فلا يحرجه بقول أو فعل ، ويحافظ على ما يسعده ويرضيه ، ويجتنب ما يغضبه ويؤذيه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، كما جاء فى حديث : « المسلم أخو المسلم » ، وقد تقدم بيانه فى هذا الكتاب .

وهذا الأدب يعرفه أصحاب الأذواق السليمة والهمم العالية ، فهم الذين يميزون بين ما هو ضار وما هو نافع ، وما هو مقبول وما هو غير مقبول .

ولن نجد نظاماً متكاملاً للعلاقات العامة والخاصة يدانى النظام الذى وضعه الإسلام لو أحسنَّا فهمه ، وفقهنا مراميه وأبعاده .

* * *

وقوله ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الآخر » معناه : لا يتحدث رجل مع رجل بصوت خافت ، فهذا هو معنى المناجاة .

والنهى للكراهة إذا كانت المناجاة لم تطل ولم تكن عن قصد ، ولم يكن فيها ما يوهم الثالث بتوقع شىء يخافه أو يغضبه .

أما إن كانت المناجاة على العكس من ذلك فإنها تحرم لوجود الضرر .

وقد بين النبى ﷺ علة النهى بقوله : « من أجل أن يحزنه » أى فَعَلَ ذلك

---

(١) رواه مسلم واللفظ له في كتاب السلام ، باب « تحريم مناجاة الاثنين دون ثالث بغير رضاه » حديث رقم (٢١٨٣) ، ورواه البخارى فى الاستئذان باب « إذا كانوا أكثر من ثلاثة .. إلخ » ، وأبو داود رقم (٤٨٥١) فى الأدب ، باب « فى التناجى » ، والترمذى رقم (٢٨٢٧) فى الأدب .

مع الثانى من أجل أن يحزن الثالث ، فهو إذًا شيطان إنسى يتعاون مع شيطان الجن فى إدخال الحزن على المؤمنين . قال تعالى فى سورة المجادلة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجَوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تُحشرون إنما النجوى من الشيطان ليَحزُنَ الذين آمنوا وليس بضارِّهم شيئًا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (١) .

وفى رواية قال : « فإن ذلك يحزنه » .

وبين الروايتين فرق ، فالأولى تدل على أنه لو قصد ذلك وتعمده أثم ، والثانية تدل على ما تؤدى إليه هذه المناجاة قَصَدَ الإضرار بالثالث أم لم يقصده ، فإن قصده أثم وإن لم يقصده لم يأثم ، على ألا يتكرر منه ذلك .

وقوله ﷺ : « حتى يختلطوا بالناس » غاية ينتهى عندها النهى ، فإذا اختلطوا بالناس فلا بأس أن يتناجى اثنان دون الآخر ؛ لوجود الأنس بالناس ، فإن الثالث يستطيع أن يتحدث مع الآخرين ؛ ولهذا نقل ابن حجر فى فتح البارى رواية للبخارى في الأدب المفرد وأبى داود عن ابن عمر مرفوعًا : أنه قال للنبى ﷺ : فإن كانوا أربعة ؟ ، قال : « لا يضره » .

* * *

وقد يراد بالمناجاة التحدث مطلقًا ولو بصوت مرتفع .

وقال أهل العلم : لو كان يكلم هذا مرة وذاك مرة فلا بأس ، وإنما البأس فى عزل الثالث والتقدم عليه أو التأخر عنه .

فإن كان هناك عذر كضيق الطريق ، أو المسارة بحديث لا يحب أحدهما أن يسمعه الثالث وليس فيه ما يحرجه ولا ما يخجله ولا ما يخيفه فلا بأس .

والمرء فقيه نفسه معه عقله وقلبه وإن أفتاه الناس وأفتوه .

---

(١) المجادلة : ٩ – ١٠ .

والرسول ﷺ مُشَرِّع بأمر الله تَعالى ، ومُعَلِّم بأقواله وأفعاله لكى يكون الناس على بصيرة من أمرهم ، فليسوا جميعًا على مستوى واحد فى ملاحظة ما يعاب به فى هذا وذاك ، فكان لابد للمسلم مهما أوتى من العلم والحكمة والذكاء والفطنة من الرجوع إلى الكتاب والسنة ليطمئن قلبه لمعرفة الطريق وتحديد المسار ، والله ولى القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل .

* * *

(٤٦) لا تُطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم

عن عمـر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن رسـول الله ﷺ قـال : « لا تُطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابنَ مريم ؛ فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبدُ الله ورسولُه » (١) .

* * *

كان النبى ﷺ متألقًا فى أخلاقه العلية ، متلألئًا فى شمائله السنية ، مكتملاً فى خصاله الذاتية ، معصومًا من جميع ما يعاب به الناس فى الخَلْقِ والخُلُق .

لقد أثنى الله عليه فى كتابه العزيز ثناءً ما بعده ثناء ، ورفع من شأنه فى الأولين والآخرين ، فقال جل شأنه : ﴿ وإنك لعلى خُلُق عظيم ﴾ (٢) أى : وإنك على وجه الخصوص لعلى خُلُق عظيم فاق خلقُ جميع الخلَق .

وقد أكد ذلك بأبلغ أدوات التوكيد ، وهى كاف الخطاب الدالة على التخصيص ، و (إن) و (اللام) ، و (على) الدالة على الاستعلاء والتمكن ، وتنكير (خُلُق) للمبالغة فى التعميم والتعظيم ، ووصف (الخُلُق) بالعظمة ، ومهما مدحه المادحون فلن يصلوا لشىء ذى بال مما مدحه الله به .

وصدق البوصيرى حيث يقول فى الهمزية :

كيف تَرقى رُقيّك الأنبياء	يا سماء ما طاولتها سماءُ
لم يساووك فى علاك وقد	حال سنًا منك دونهم وسناءُ
إنما مثلوا صفاتك للنا	س كما مثل النجومَ الماءُ

فالماء يبين لنا لمعان النجوم فنحسبها فى الماء وهى فى السماء .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء ٤ / ٢٠٤ .

(٢) القلم : ٤ .

وسيد الأخلاق كلها هو التواضع ؛ ولهذا ذكره الله فى أول صفات عباده ، فقال فى سورة الفرقان : ﴿ وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا ﴾ (١) .

والمعنى : يمشون على الأرض بين الناس فى تواضع وحلم وأناة ، وإذا خاطبهم الجاهل بحالهم أو الجاهل بأمور دينه ، أو الجاهل بعواقب الأمور - قالوا له قولاً فيه سلم وعفو وأدب .

والمتواضع إنسـان تتمثل فيه الإنسانية كلها فى أسمى مظاهرها ، وأرقى معانيها .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعـلو بنفسه على طبقات الجو وهو وضيع

* * *

ومن فرط تواضعه ﷺ وكماله فيه أنه كان ينهى أصحابه عن المبالغة في تعظيمه إلى الحد الذى يرفعونه إلى ما لا يرتفع به ؛ لأنه إنما يرتفع إلى الله بقدر تواضعه لله ، ويرتفع شأنه بين الناس بقدر تواضعه للناس .

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على أنه كان يعتبر نفسه واحداً منهم يشاركهم آلامهم وآمالهم ، ويسـهم معهم بنصيب وافر فى أعمال السلم والحرب ، ويتحمل من الأعباء ما يتحملون وأكثر مما يتحملون .

وفى هذا الحديث ينهاهم عن أخطر أنواع الإطراء فيقول : « لا تُطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم » (٢) أى لا تقولوا فىَّ مثل ما قال النصارى فى عيسى ابن مريم تقصدون بذلك مدحى والثناء علىّ ، فأنا عبد الله ورسوله ، فقولوا ذلك ، ولا تقولوا قولاً يتعارض مع هاتين الصفتين - العبودية والرسالة - وهما أعظم الصفات على الإطلاق .

فالعبودية وظيفة الخلق أجمعين ،والرسـالة اصطفاء لمن شـاء الله من عباده المخلصين .

---

(١) الفرقان : ٦٣ .

والله واحد لا شريك له ولا ولد ، له الكمال المطلق والتنزيه التام ، فلا ينبغى أن يقال إلا ما أمر الله بقوله .

فلا تكونوا كالنصارى فإنهم قد ضلوا سواء السبيل ،ورفعوا عيسى ابن مريم إلى ما ليس له بمقام ، فوضعوه من حيث أرادوا أن يرفعوه ، وهو برىء مما قالوه فيه ونسبوه إليه .

وأصحاب النبى ﷺ لم يفعلوا شيئًا من ذلك ، وإنما حاول بعضهم أن يبالغ فى تعظيمه ﷺ بنحو ما كانت تفعله العامة بملوكهم ، فخشى عليهم أن تؤدى بهم هذه المبالغة إلى الخروج عن العقيدة الصحيحة شيئًا فشيئًا حتى يبالغوا أيضًا فى تعظيم أئمتهم وخلفائهم ، فيجعلون أقوالهم نصوصًا شرعية ملزمة ،وأفعالهم سنة متبعة ، ويعتقدون فيهم العصمة – كما فعل الشيعة – فيضلون مثل ضلال اليهود والنصارى ، الذين قال الله فيهم : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيحَ ابن مريم ﴾ (١) .

ومعنى ﴿ أربابًا ﴾ : قدوة . فأطاعوهم طاعة عمياء ، وبهذه الطاعة المبالغ فيها كأنهم رفعوهم إلى مصاف الآلهة ، فهم لم يقولوا إنهم آلهة ولكنهم زعموا أن عيسى هو الله أو هو ابن الله على اختلاف فيما بينهم .

* * *

ويؤخذ من هذا الحديث أن حب النبى ﷺ – وإن كان فرضًا علينا – لا يحملنا على أن نبالغ فى إطرائه إلى الحد الذى يخرجه عن بشريته وعبوديته ورسالته ، ولا يحملنا أيضًا على أن نأتى بأفعال كان يفعلها الأعاجم مع ملوكهم ، فالرسول ﷺ عبد رسول وليس ملكًا متوجًا .

حتى ولو كان ملكًا متوجًا لا ينبغى أن نعظمه كما تعظم الأمم ملوكهم ، فإن تواضعه الذى هو أساس رفعته يأبى عليه ذلك .

كذلك لاينبغى أن نبالغ فى تعظيم العلماء والأولياء والأمراء إلى الحد الذى يخرجنا عن العقيدة الصحيحة بحيث يحملنا تواضعنا للعلماء أن نأخذ أقوالهم

---

(١) التوبة : ٣١ .

قضايا مسلمة من غير تمحيص ولا تحقيق ، فذلك لا يعتبر تواضعًا بل هو من باب التقليد المرذول .

ولا يحملنا تواضعنا للأولياء إلى الحد الذى نجعل لهم مع الله فى ملكه شأنًا فنتوسل بهم إلى الله ، أو نذهب إليهم نطلب منهم الدعاء اعتقاداً منا أنهم واسطة بيننا وبين الله وننسى قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريبٌ أُجيبُ دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرشُدُون ﴾ (١) .

وإن طلبنا منهم الدعاء وهم أحياء من غير أن نعتقد أنهم واسطة بيننا وبين الله فلا بأس – إن شاء الله .

ولا يحملنا تواضعنا للأمراء على مداهنتهم ، ونفاقهم ، وطاعتهم فى معصية الله .

والرسول ﷺ هو المثل الأعلى والأسوة الحسنة ، وهو المعلم الأول ، بعثه الله هدى ورحمة للعالمين .

وسيأتى فى أحاديث أخرى كلام مستفيض عن تواضعه ﷺ وخفض جناحه للمؤمنين كما أمره ربه عز وجل .

فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

---

(١) البقرة : ١٨٦ .

(٤٧) أمرنا رسول الله بسبع ونهانا عن سبع

عن البراء بن عازب – رضى الله عنه – قال : أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع ، أمرنا بعيادة المريض ، واتِّباع الجنازة ، وتشميت العاطس ، وإجابة الداعى ، وإفشاء السلام ، ونصر المظلوم ، وإبرار المقسِم ، ونهانا عن خواتيم الذهب ، وعن الشُّرب فى الفضة – أو قال : آنية الفضة – وعن المياثر ، والْقَسِّىِّ ، وعن لُبْسِ الحرير ، والدِّيباج ، والإسْتَبْرَق »[١] .

* * *

فى هذا الحديث سبعة أشياء أمز الرسول ﷺ بفعلها ؛ لأنها من باب البر والصلة والتأدب ، والتراحم ، والتعاون على البرِّ والتقوى .

وهذه السبعة بعض من كل ، فما أكثر الآداب التى حثنا النبى ﷺ على التحلى بها ، ولكن الراوى يذكر ما حفظ منها ، أو أنه يذكر العدد ليحفظ تأسياً برسول الله ﷺ فى كثير من أوامره ونواهيه ووصاياه .

وهذه السبعة تدخل فى أبواب المروءات والمجاملات ، وتدخل فى باب العبادات أيضًا ، ولها فى النفوس تأثير عميق ، فهى تعبر عن الحب والرحمة والمودة والتآخى بين الناس .

* * *

أول هذه الأوامر : عيادة المريض ، وهى سنة مستحبة ولا سيما إذا كان المريض قريبًا ، أو جاراً ، أو كان من العلماء ، أو من الصالحين ، أو كان يعاني من مرض شديد يُخشى أن يموت فيه ، فإنه حينئذ تكون الزيارة آكد ، بل تكون واجبة شرعًا وعرفًا .

---

(١) أخرجه البخارى بهذا اللفظ فى كتاب الأشربة باب ٢٨ ، وأخرجه أيضًا بتقديم وتأخير وحذف فى الجنائز باب ٢ ، والمظالم باب ٥ ، والنكاح باب ٧١ ، وأخرجه الترمذى فى كتاب الأدب باب « ما جاء فى كراهية لبس المعصفر للرجل والقسِّىِّ » حديث رقم (٢٨٠٩) .

ومن قصَّر فى مثل هذا الواجب لا يكون مسلمًا حقًّا ؛ لأنه قد ترك أمرًا فيه تنفيس للكربات ، وفيه التواصى بالصبر مع المواساة فى المصيبة والمجاملة التى لا ينساها المسلم لأخيه ، إلى غير ذلك من الفوائد التى تعود على الزائر والمزور .

وقد وردت فى فضل عيادة المريض أحاديث كثيرة منها :

(أ) ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « حَقُّ المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » .

وقوله : « حق المسلم على المسلم » يفيد أن التقصير فى هذه الأمور ظلم من المسلم لأخيه المسلم ، وأن فى أدائها نوعًا من الوفاء يجزى عليه المسلم أحسن الجزاء فى الدنيا وفى الآخرة .

(ب) وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أيضًا أن النبى ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدنى ؟ ، قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ ، قال : أما علمتَ أن عبدى فلانًا مَرِضَ فلم تَعُده ، أما علمت أنك لو عُدته لوجدتنى عنده .

يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ؟ ، قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ ، قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى .

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ؟، قال : يا رب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ ، قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى » .

وهذا الحديث حديث بليغ مؤثر يفيد أن الدعاء عند المريض مجاب ، وأن الرحمة تنزل على من يَعُوده ، وكذلك من سقى الناس أو أطعمهم فدعا لنفسه عند السقيا والإطعام ، أو دُعى له .

وفيه عتاب من الله تبارك وتعالى لمن قصر فى قضاء حوائج الناس ، وعيادة المرضى .

(جـ) وروى أحمد والبزار وابن حبان عن أبى سعيد الخُدْرِىّ – رضى الله عنه – قال : قال رسـول الله ﷺ : « عودوا المرضـى ، واتبـعوا الجنائز ؛ تذكركم الآخرة » .

(د) وروى ابن حبان فى صحيحه عنه أيـضًا أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « خمس من عملهن فى يوم كتبه الله من أهل الجنة : من عاد مريضًا ، وشهد جنازة ، وصام يومًا ، وراح إلى الجمعة ، وأعتق رقبة » .

(هـ) وروى ابن خزيمة فى صحيحه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصبح منكم اليوم صائمًا ؟ ، فقال أبو بكر : أنا .

فقال : من أطعم منكم اليوم مسكينًا ؟ ، فقال أبو بكر : أنا . فقال : من تبع منكم اليوم جنازة ؟ ، فقال أبـو بـكر : أنا . قال : من عاد منكم اليوم مريضًا ؟ ، قال أبو بكر : أنا . فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمعت هذه الخصال قط فى رجل إلا دخل الجنة » .

(و) وروى ابن ماجه فى سننه – واللفظ له – والترمذى وحسنه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من عاد مريضًا ناداه منادٍ من السماء : طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منزلاً » .

(ز) وروى مالك بلاغًا وأحمد فى مسنده والبزار وابن حبان بأسانيد صحيحة عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – قال : قال رسـول الله ﷺ : « من عاد مريضًا لم يزل يخوض فى الرحـمة حتى يجـلس ، فإذا جلس اغتمس فيها » .

هذا ، ولزيارة المريض آداب كثيرة أفردها العلماء بالتصنيف كابن حجر الهيتمى ، نذكر لك هنا شيئًا منها ، فنقول :

(أ) أن يزور المسلم المريض فى الأوقات التى يغلب على ظنه أنه مهيأ فيها لاستقبال الزائرين ، فهذا أدب معروف لا يحتاج إلى بيان ، والمسلم كيِّس فطن .

ويستحب أن يسأل : هل فلان يسمح للناس بزيارته أم لا ؟ .

(ب) وإذا زار المسلم أخاه المريض واساه ، ووعظه بكلام رقيق رفيق ، وأعطاه الأمل فى الشفاء ، ودعى له به .

روى أبو داود والترمذي وحسنه ، والنسائى وغيرهم عن ابن عباس – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ قال : « من عاد مريضاً لم يحضر أجله فقال عنده سبع مرات : أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك – إلا عافاه الله من ذلك المرض » .

(جـ) ويستحب للزائر أن يطلب من المريض أن يدعو له .

فقد روى ابن ماجه عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال : قال النبى ﷺ : « إذا دخلت على مريض فَمُرْهُ يدعو لك ؛ فإن دعاءه كدعاء الملائكة » .

(د) ويستحب أن يقوم الزائر بخدمة المريض إن احتاج إلى ذلك ، وأن يسأله عن حاجته إن لم يعلم بها ، فذلك من المروءة .

(هـ) ويستحب ألا يمكث عنده طويلاً ، فإن ذلك يحرجه ، إلا إذا كان المريض يستمهله ليستأنس به ، وعلم صدق ذلك منه .

(و) ويستحب ألا يكلفه شيئًا من طعام أو شراب ، لكن لو جىء له بشىء ، وعلم أنه لو لم يتناوله حزن المريض تناوله تطييباً لنفسه ، ولا يسقط ذلك من أجره شيئًا ، (والأمور بمقاصدها) ، و (الأعمال بالنيات) .

(ز) وينبغى عليه أن يذكره بخير إذا خرج من عنده ، ولا يخبر بما رآه من سوء ، فإن ذلك يحبط أجره .

(ح) هذا ويكره للزائر أن يذكر للمريض ضعفه ، واصفرار وجهه ، وما يراه عليه من أثر المرض ؛ فإن ذلك يدخل فى قلبه اليأس ، والذعر ، ويتمنى المريض ألا يعوده بعد ذلك هو ولا أمثاله .

وقد كان بعض الصالحين إذا زاره إنسان فى مرضه ، وذكر له ما يراه عليه من أثر المرض يقول له : لا تعدنى بعد اليوم . روى هذا عن الشافعى وغيره .

(ط) ويكره أن ينظر فى بيته يميناً وشمالاً ؛ فإن فى ذلك كشفاً للعورات ،

وإساءة لرب المنزل ، ولا سيما إذا كان فى البيت نساء ، أو فيه ما يحرج المريض من رؤيته .

(ى) ويكره أن يذكر لأهل المريض ما رآه على مريضهم من الضعف والنحول ، فهم أدرى بذلك منه ، وكلامه حينئذ يكون ثقيلاً عليهم ، فيبغضونه ويكرهون زيارته .

(ك) هذا ويكره للمسلم أن يقول فى نفسه فلان لم يزرنى فى مرضى فلا أزوره فى مرضه ، فهذا هو الإمعة الذى يقول : أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنت ، وإن أساءوا أسأت .

نعم لا يقول فى نفسه ذلك ، بل يذكر ما قاله على - رضى الله عنه - أَحْسِنْ لمن أساء إليك تكن أعبد الناس .

والمؤمن يعامل ربه ولا ينظر إلى الناس أحسنوا إليه أم أساءوا .

* * *

٢ - أما اتباع الجنائز فأجره عظيم كما جاء فى الأحاديث الصحيحة .

فقد روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من شهد الجنازة حتى يُصلَّى عليها فله قيراط ، ومن شهـدها حتى تُدفن فله قيـراطان ، قيل : وما القيـراطان ؟ قال : مثل الجبلين العظيمين » .

وفى رواية البخارى : « من اتَّبَع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً ، وكان معها حتى يُصَلَّى عليها ، ويفرغ من دفنها ، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين ، كل قيراط مثل أُحد ، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تُدفن فإنه يرجع بقيراط » .

وروى مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنهما - أنه كان قاعداً عند ابن عمر - رضى الله عنهما- إذا طلع خَبَّابٌ صاحبُ المقصورة، فقال : يا عبد الله بن عمر ألا تسمع ما يقول أبو هريرة ؟ يقول إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من خرج مع جنازة من بيتها وصلى عليها واتبعها

حتى تُدفن كان له قيراطان من الأجر ، كل قيراط مثل أُحُدٍ ، ومن صلى عليها ثم رجع كان له من الأجر مثل أحد » ، فأرسل ابن عمر خباباً إلى عائشة – رضى الله عنها – يسألها عن قول أبى هريرة ثم يرجع إليه فيخبره بما قالت ، وأخذ ابن عمر قبضة من حَصَى المسجد يُقلِّبُها فى يده حتى يرجع ، فقال : قالت : عائشة : صدق أبو هريرة . فضرب ابن عمر بالحصى الذى كان فى يده الأرض ، ثم قال : لقد فرَّطنا فى قراريط كثيرة » .

ولا شك أن تشييع الجنازة يذكِّر بالآخرة ، ويزهِّد فى الدنيا ، ويدفع إلى العمل الصالح والتخفف من المعاصى ، وفيه أيضاً طمأنية وسكينة وانشراح صدر يجد ذلك من كان يؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً قوياً .

* * *

٣ – وأما تشميت العاطس فهو سنة من آكد السنن ، وقيل هو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين .

ولا يكون كذلك إلا لمن حمد الله – عز وجل – أمّا إذا لم يحمد العاطس ربه – تبارك وتعالى – فلا يسن تشميته .

فقد روى البخارى فى صحيحه عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال : عَطَسَ رجـلان عند النبى ﷺ فشمَّت أحدهـما ولم يُشمِّت الآخر ، فقيل له ، فقال : « هذا حمد الله ، وهذا لم يحمد الله » .

وكذلك الكافر لا يجب تشميته ولا يسن ؛ لأنه لا يستحق الدعاء له بالرحمة ، ولكن يجوز أن يقال له ولأمثاله : يهديكم الله ، ونحو ذلك .

أخرج أبو داود – وصححه الحاكم – من حديث أبى موسى الأشعرى قال : كانت اليهود يتعاطسون عند النبى ﷺ رجاء أن يقول : يرحمكم الله ، فكان يقول : « يهديكم الله ويصلح بالكم » .

ويشمَّت العاطس مرتين أو ثلاثة ، فإن عطس الرابعة قيل له : أنت مزكوم ونحو ذلك .

روى مسلم فى صحيحه وأبو داود والترمذى عن سلمة بن الأكوع : أنه سمع النبى ﷺ ، وعطس عنده رجل ، فقال له : يرحمك الله . ثم عطس أخرى فقال له رسول الله ﷺ : « الرجل مزكوم » .

وهناك أمور أخرى لا يسن التشميت فيها ، منها : أن يكون العاطس على الخلاء ، أو من سمع عطاسه ، فإنه لا يشمته إلا بعد أن يفرغ كل منهما ، بأن يقول العاطس بعد فراغه : الحمد لله ، فيقول له أخوه : يرحمك الله .

ومنها إذا كان الخطيب على المنبر ، فإن أخاه لا يشمته إلا بعد الفراغ من الخُطبة .

* * *

٤ – وأما إجابة الداعى إلى وليمة أو عقيقة ونحوهما فإن من العلماء من أوجبها بشرط ألا يكون فيها محرم ، ومنهم من قال هى سنة من السنن ، بشرط أن يكون وقته يسمح بذلك ، وإلا قدَّمَ اعتذاراً مهذبًا ، ولا ينبغى أن يَعِد بالحضور وهو لا يريده ، فإنه بذلك يكون مُخْلِفًا للوعد ، متسبباً فى قطيعة الداعى له وغضبه منه ، وخلف الوعد كما تعلم علامة من علامات النفاق .

ومن العلماء من يرى أن إجابة الداعى فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين .

والراجح عندى – والله اعلم – أن إجابة الدعوة واجبة ما لم يكن فيها ما يخالف الشرع ، ولم يكن هناك عذر .

لما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دُعى أحدكم إلى وليمة فليأتها » .

ولما رواه البخارى أيضًا عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله » .

* * *

٥ - وأما رد السلام فواجب على من أُلقى عليه السلام ، بدليل هذا الحديث ، ولقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ وإذا حُيِّيتُم بتحية فحيُّوا بأحسنَ منها أو ردُّوها إن الله كان على كل شيء حسيبًا ﴾ (١) .

وإلقاء السلام سنة مؤكدة لا ينبغى تركها ، لما فيها من توثيق الأواصر بين المسلمين ، وتعميق جذور الحب بينهم ، وإدخال الطمأنينة على الخائف منهم ، فالسلام معناه الأمان .

روى مسلم في صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تُؤْمنُوا حتى تحابُّوا ، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ ، أفشوا السلام بينكَم » .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل إلقاء السلام وردِّه ، منها ما رواه الترمذى فى سننه عن أبى يوسف عبد الله بن سلام - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا أيها الناسُ أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصَلُّوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

وروى مالك فى الموطأ بإسناد صحيح عن الطُّفيل بن أبيّ بن كعب أنه كان يأتى عبد الله بن عمر فيغدو معه إلى السوق ، قال : فإذا غدونا إلى السوق ، لم يمر عبد الله على سَقَّاطٍ ولا صاحب بَيعة ، ولا مسكين ولا أحد إلا سلم عليه ، قال الطُّفَيْلُ : فجئتُ عبد الله بن عمر يومًا ، فاستتبعنى إلى السوق ، فقلت له : ما تصنع بالسُّوق ، وأنت لا تقف على البيع ، ولا تسأل عن السلع ، ولا تَسُومُ بها ، ولا تجلس فى مجالس السوق ؟ ، وأقول : اجلس بنا ههنا نتحدث، فقال : يا أبا بطن - وكان الطفيل ذا بطن - إنما نغدو من أجل السلام ، فنسلم على من لقيناه » .

والسلام اسم من أسماء الله الحسنى ، فهو الذى يبعث الأمان فى نفس المؤمنين ، وينشر بينهم الحب والوئام ، وهو الذى يأمن الخلق عنده من الظلم ، فإنه الحكم العدل ، الذى حرم الظلم على نفسه ،وجعله بين عباده مُحَرَّمًا .

---

(١) آية : ٨٦ .

وعلى المسلم إذا لقى أخاه فى الطريق ، أو فى أىّ مكان أن يقول له : السلام عليكم . ولو قال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - كان أفضل .

وعلى من أُلْقِىَ عليه السلام أن يقول : وعليكم السـلام ، ليكون اسم الله (السلام) فى البدء وفي الختام ، ليشْعُرَ المسلم أن الله هو الأول والآخر .

ولو رَدّ عليه بقوله : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته - كان أكمل ؛ لقوله تعالى فى الآية السابقة : ﴿ فحيُّوا بأحسن منها ﴾ .

روى أبو داود والترمذى عن عمران بن الحُصَيْن - رضى الله عنهما - قال : « جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : السلام عليكم ، فردَّ عليه ثم جلس ، فقال النبى ﷺ : عشرٌ ، ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكـم ورحمة الله ، فردَّ عليه، فجلس ، فقال : عشرون ، ثم جاء آخـر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فردّ عليه فجلس ، فقال : ثلاثون » .

ويكره كراهة تنزيه [1] أن يقول المسلم : عليك السلام ، لما روى أبو داود والترمذى عن أبى جُرَىٍّ الهُجَيْمى - رضى الله عنه - قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : عليك السلام يا رسول الله ، قال : « لا تقل عليك السلام ، فإن عليك السلام ، تحية الموتى » .

قال ابن علاَّن فى دليل الفالحين :

يستحب أن يقول المبتدئ بالسلام : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فيأتى بضمير الجمع ، وإن كان المُسَلَّمُ عليه واحداً ، ويقول المجيب : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فيأتى بواو العطف فى قوله وعليكم . أ . هـ [2] .

لعل الحكمة فى السلام بلفظ الجمع المبالغة فى التعظيم والتكريم ، والإيناس وإدخال الأمن والسرور عليه .

---

(١) كراهة التنزيه هى ما خالف الأولى ، وكراهة التحريم أشد منها وهى ما قاربت الحرمة .

(٢) انظر جـ ٣ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

ولعل الحكمة من ذلك أيضاً إلقاء السلام عليه وعلى من معه من الملائكة ، وكذلك الرَّدُّ بلفظ الجمع يفيد ذلك .

والحكمة فى التَّلَفُّظِ بالواو أن يكون بهذا العطف قد سلم على نفسه وعلى أخيه ، وأعلن أنه قبل منه السلام ، فيكون المعنى : عليَّ وعليكم السلام . والله أعلم .

وأما قول النبى ﷺ فى الحديث السابق : « فإن عليك السلام ، تحية الموتى » ، فهو فيما يبدو لى إخبار عما كان يجرى على ألسنة العرب فى الجاهلية ، فإنهم كانوا يسلمون على ملوكهم وشيوخهم بهذه الصيغة ،وجرى عليه الشعراء كثيراً .

قال الشاعر :

عليك سلام الله قيس بن عاصم   ورحمته ما شاء أن يترحما

وليس ما قال الرسول ﷺ من باب التشريع، بل هو من باب الإخبار عن الواقع .

والشرع يستحب البدء باسم السلام على الأحياء والأموات ، فيقال للأموات :السلام عليكم ، ولا يقال : عليك السلام ، أو عليكم السلام ؛ فقد صح أنه ﷺ قال فى تحية الموتى : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » .

(وهنا نكتة لطيفة بديعة ينبغى التيقظ لها ، هى أن السلام شرع على الأحياء والأموات بتقديم اسمه على المُسَلَّم عليهم ، لأنه دعاء بخير ، والأحسن تقديم المدعو به ، إذا كان خيراً ، كقوله تعالى: ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ ، وتأخيره إذا كان شراً كقوله تعالى لإبليس : ﴿ وإن عليك لعنتى ﴾ .

وسر ذلك – والله أعلم – أن الخير لما كان محبوباً قُدِّم المدعو به وهو الرحمة ، وقدم المدعو عليه فى الشر – وهو اللعنة – للإيذان بتخصيصه بذلك ، فكأنه قيل لإبليس : عليك وحدك لعنتى لا شريك لك فيها غيرك) [1] .

---

(١) راجع هذه المسألة فى شرح الأذكار لابن علان ج ٣ ص ٣٢٢ وما بعدها .

هذا وللسلام آداب ينبغى مراعاتها ، منها :

(أ) أن يحرص كل مسلم على أن يكون هو البادئ بالسلام ، لقوله ﷺ كما فى سنن أبى داود والترمذى عن أبى أمامة : « إن أَوْلَىَ النـاس بالله من بـدأهم بالسلام » .

وفى رواية أخرى للترمذى عن أبى أمـامة - رضى الله عنه - : قيل يا رسول الله ، الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام ، قال : « أولاهما بالله تعالى ».

(ب) لكن يستحب أن يُسَلِّم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير ، كما جاء فى كتب السنة عن رسول الله ﷺ .

(ج) ويستحب إعادة السلام على من تكرر لقاؤه ولو على قرب ، بأن دخل ثم خرج ثم عاد فى الحال ، أو حال بينهما حائل كشجرة ونحوها .

فقد روى أبو داود عن أبى هريرة - رضـى الله عنه - عن النبـى ﷺ قال : « إذا لقى أحدكم أخاه فليسلم عليه ، فإن حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر ثم لقيه فليسلم عليه » .

(د) ويستحب للمسلم إذا دخل بيته أن يسلم على من فى البيت ، فإن لم يكن فيه أحد سلَّم على نفسه ، لقوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتًا فسلِّموا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركةً طيبةً ﴾ (١) .

وقد روى الترمذى فى سننه عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا بُنَىَّ إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك » .

(هـ) ويستحب السلام على الصبيان لتعويدهم على إلقائه وردِّه ، ولغرس نوازع الرجولة فيهم .

روى البخاري ومسلم أن أنس بن مالك - رضى الله عنه - : « مَرَّ على صبيان فسلم عليهم ، وقال : كان رسول الله ﷺ يفعله » .

---

(١) النور : ٦١ .

(و) ويستحب السلام على المحارم من النساء ، وعلى الأجنبية أيضًا ، إذا لم يُخشَ منها الفتنة ، ولهن أن يسلمن على الرجال بهذا الشرط .

فقد روى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد – رضى الله عنه – قال : « كانت فينا امرأة – وفى رواية : كانت لنا عجوز – تأخذ من أصول السِّلْقِ فتطرحه فى القدر وتُكَرْكِرُ[1] حبات من شعير ، فإذا صلينا الجمعة انصرفنا نسلم عليها فتقدمه إلينا » .

وروى أبو داود عن أسماء بنت يزيد – رضى الله عنها – قالت : « مر علينا النبى ﷺ فى نسوة فسلم علينا » .

وفى رواية للترمذى : « أن رسول الله ﷺ مَرَّ فى المسجد يومًا وعصبة من النساء قعود فالوى بيده بالتسليم » .

(ز) واختلف فى السلام على الكافر على قولين ، والأصح الجواز ؛ لعموم قوله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردُّوها ﴾ .

ولعموم قوله تعالى أيضًا : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تَبَرُّوهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾[2] .

وقد رجح القرطبى الجواز على المنع عند تفسير قوله تعالى فى سورة مريم : ﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربى ﴾[3] .

فإذا ألقى عليك السلام كافر ، فقل : وعليكم السلام ، واقصد بذلك الملائكة الذين معه .

ويجوز أن نبدأهم بالسلام أيضًا لما أخرجه الطبرى من طريق ابن عيينة قال : « يجوز ابتداء الكافر بالسلام ، لقوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم .. الآية ﴾ وقول إبراهيم – عليه السلام – لأبيه : سلام عليك » .

---

(١) تكركر : أى تَطْحَنُ .
(٢) الممتحنة : ٨ .
(٣) آية : ٤٧ .

(و) ويستحب السلام على المحارم من النساء ، وعلى الأجنبية أيضًا ، إذا لم يُخشَ منها الفتنة ، ولهن أن يسلمن على الرجال بهذا الشرط .

فقد روى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد - رضى الله عنه - قال : « كانت فينا امرأة - وفى رواية : كانت لنا عجوز - تأخذ من أصول السِّلْق فتطرحه فى القدر وتُكَرْكِرُ(١) حبات من شعير ، فإذا صلينا الجمعة انصرفنا نسلم عليها فتقدمه إلينا » .

وروى أبو داود عن أسماء بنت يزيد - رضى الله عنها - قالت : « مر علينا النبى ﷺ فى نسوة فسلم علينا » .

وفى رواية للترمذى : « أن رسول الله ﷺ مَرَّ فى المسجد يومًا وعصبة من النساء قعود فألوى بيده بالتسليم » .

(ز) واختلف فى السلام على الكافر على قولين ، والأصح الجواز ؛ لعموم قوله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أورُدُّوها ﴾ .

ولعموم قوله تعالى أيضًا : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تَبَرُّوهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ (٢) .

وقد رجح القرطبى الجواز على المنع عند تفسير قوله تعالى فى سورة مريم : ﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربى ﴾ (٣) .

فإذا ألقى عليك السلام كافر ، فقل : وعليكم السلام ، واقصد بذلك الملائكة الذين معه .

ويجوز أن نبدأهم بالسلام أيضًا لما أخرجه الطبرى من طريق ابن عيينة قال : « يجوز ابتداء الكافر بالسلام ، لقوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم .. الآية ﴾ وقول إبراهيم - عليه السلام - لأبيه : سلام عليك » .

---

(١) تكركر : أى تَطْحَنُ .

(٢) الممتحنة : ٨ .

(٣) آية : ٤٧ .

وروى البيهقى أن أبا أمامة - رضى الله عنه - كان يسلم على كل من لقيه ، فسئل عن ذلك ، فقال : إن الله تعالى جعل السلام تحية لأمتنا وأمانًا لأهل ذمتنا .

وقيل : يسلم المسلم على الكافر لو كان له حاجة عنده ، فإن لم يكن له حاجة كره .

والأحاديث الواردة فى عدم الرد عليهم إلا بقوله : وعليكم ، محمولة على أن اليهود كانوا إذا حيّوا مسلمًا لم يقولوا له : السلام عليكم ،ولكن يقولون : السّام عليكم .

أخرج مالك فى الموطأ عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن اليهود إذا سلم عليكم أحدهم فإنما يقول : السام عليكم ، فقل : عليك » .

وأخرج البزار وابن حبان فى صحيحه عن أنس : مر يهودى بالنبى ﷺ وأصحابه فسلم عليهم فرد عليه أصحابه ، فقال : « هل تدرون ما قال » ، قالوا : نعلم سلم علينا ، قال : « فإنه قال : السام عليكم ، أى تسامون دينكم ، ردوه » أى قولوا : وعليكم ، يعنى بمثل ما قلتم .

ومعنى تسامون دينكم : تخسرونه ، وقيل السام : الموت .

وسماحة الإسلام تقتضى أن يعامل أهل الكتاب بالحلم ،واللين ، والحكمة إذا عاشوا بيننا على العهد ، ولم يغدروا بنا .

وقد أباح الله لنا أن نأكل ذبائحهم ، وأن نتزوج من نسائهم ، فقال جل شأنه فى سورة المائدة : ﴿ اليومَ أُحِلَّ لكم الطيباتُ وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامُكم حلٌّ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا مُتَّخذى أخدان ومن يكفُر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ [1] .

---

(١) المائدة : ٥ .

وعليك أيها الأخ المسلم أن تسأل نفسك ، لو أن رجلاً من أهل الكتاب دعاك إلى طعامه ، ورحَّب بك وحيَّاك ، وأدخلك بيته وأكرم مثواك ، وألقى عليك السلام فماذا تقول له وهو يعلم أن هناك حديثًا يمنع المسلم من رد السلام على اليهود والنصارى ، فماذا يكون حاله معك بعد هذا ؟ إنه سينقبض صدره ويضيق بك ذرعًا ، وبالإسلام أيضًا ، وينفر منه ومن معتنقيه .

وكيف لو كان هذا الداعى إلى طعامه أبًا أو أخًا لزوجتك الكتابية ، أفكُنْتَ تفعل معه هذا باسم الإسلام ؟ .

أظن أنك معى فى أن هذا العمل يتنافى مع البر والإقساط اللذين أمر الله بهما فى الآية السابقة من سورة الممتحنة ، والآية التى فى سورة النساء .

فأى حديث ورد فى النهى عن إلقاء السلام وردِّه على أهل الكتاب فهو محمول على من كان يقول : السام عليكم ، أو هو محمول على من بيننا وبينه عداوة ، كيهود المدينة ، فإنهم كانوا يتربصون بالمسلمين ،ويدبرون لهم المكائد ، ويضمرون لهم السوء ليلاً ونهاراً ، فكان على المسلمين أن يعاملوهم بالمثل .

فكن – يا أيها المسلم – سمحاً مع المسلمين وغيرهم فأنت عنوان دينك ، وأنت الدال عليه ،والداعى إليه بخلقك الفاضل وسلوكك النبيل .

* * *

٦ – وأما نصر المظلوم فهو من أوجب الواجبات وأعظمها أجرًا عند الله عز وجل ، وهو مروءة لا يتخلى عنها المؤمن ما دام فيه عرق ينبض ، وهو التعاون على البر والتقوى فى أسمى مظاهره ،وأرقى معانيه ، وهو العدل الذى قامت به السماوات والأرض .

وقد وردت فى نصر المظلوم أحاديث كثيرة منها :

(أ) ما رواه البخارى فى صحيحه عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قالوا : يا رسول الله هذا ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا ، قال : تأخذ فوق يديه »(١) أى تضع يديك

---

(١) البخارى ج ٣ باب ٤ « أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا » .

فوق يديه ، وتمنعه من ضرب أخيه ، وفى رواية للترمذى : قال : « تكفه عن الظلم فذاك نصرُك إياه » (١) .

(ب) وروى البخارى أيضًا عن أبى موسى الأشعرى – رضي الله عنه – أن النبى ﷺ قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا ، وشبك بين أصابعه » (٢) .

أى إن المؤمن عون لأخيه المؤمن في السراء والضراء ، فهو لبنة فى بناء شامخ بعضه آخذ بحُجُز بعض ، لا تستغنى لبنة عن الأخرى ، فهى مشدودة برباط واحد لا فرق بين لبنة عن الأخرى .

فالمؤمنون إخوة جمعتهم كلمة الإيمان ، ووحدت صفوفهم قبلتهم فكانوا جميعًا رجلاً واحداً على من يعاديهم ، وقلبًا واحداً يشعر كل بشعور أخيه ، ويحس تجاهه بالألفة الروحية فيجتمعون على حب الله تعالى ، ويتفرقون عليه ، فلابد أن ينصر المؤمن أخاه فى جميع المواطن على من يعاديه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وينصره – كذلك – على من ظلمه من المؤمنين أنفسهم .

قال تعالى فى سورة الحجرات : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيءَ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخوَيْكم واتقوا الله لعلكم تُرحمون ﴾ (٣) .

وسيأتى الكلام عن نصر المظلوم بأوسع من ذلك فى حديث آخر إن شاء الله تعالى .

* * *

٧ – وأما قوله : « وإبرار المقسم » فمعناه : الاستجابة له فيما طلبه وأقسم عليه إن كان ما طلبه فى قدرته ، ولم يكن محرَّمًا ، ولا منافيًا للمروءة ، وكان

---

(١) الترمذى ج ٤ باب ٦٨ حديث رقم ٢٢٥٥ .

(٢) البخارى ج ٣ باب ٥ « نصر المظلوم » .

(٣) الحجرات : ٨ – ٩ .

المقسم رجلاً صالحًا ، وإلا لم يلزمه البر بقسمه لا على سبيل الوجوب ولا على سبيل الندب .

والمسلم مطواع لأخيه المسلم ، يكون عند حسن ظنه دائمًا ، لا يخيب رجاءه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، ولا يحرجه ، ولا يجد منه ما ينقبض له صدره ، على أنه لا ينبغى للمسلم أن يحلف بالله على كل شىء يريد فعله أو تركه ، فإن ذلك يُعدُّ استخفافًا بالمُقْسَم به - تعالى الله عن ذلك علواً كبيرًا - وحاشانا أن نضل بعد الهدى ، أو نجعل الله عرضة لأيماننا ، فقد نهانا الله عن ذلك بقوله فى سورة البقرة : ﴿ ولا تجعلوا الله عُرْضَةً لأيمانكم أن تَبَرُّوا وتتقوا وتُصلحوا بين الناس والله سميع عليم ﴾ (١) .

أى لا تعرضوا اسم الله للحلف به ، أن تبروا بوعد ، أو توفوا بعهد ، أو تتقوا شيئًا كنتم تفعلونه ، أو أن تصلحوا بين متخاصمين .

أو المعنى : لا تجعلوا الله عُرْضة لأيمانكم لئلا تبروا بأقربائكم وأصدقائكم وجيرانكم ، أو ألا تتقوا شيئًا أمرتم باتِّقائه وتركه ، أو ألا تصلحوا بين الناس اتقاءً لشرهم ، وابتعاداً عنهم ، فإن ذلك لا يليق بالمسلم .

قال ابن كثير فى تفسير الآية : ﴿ لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها ، كقوله تعالى : ﴿ ولا يأتلِ أولوا الفضل منكم والسَّعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ (٢) . فالاستمرار على اليمين آثمُ لصاحبها من الخروج منها بالتكفير كما قال البخارى أ ه .

فقد روى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « والله لأن يَلِجَّ أحدكم بيمينه فى أهله آثمُ له عند الله من أن يُعطى كفارته التى افترض الله عليه » (٣) .

---

(١) البقرة : ٢٢٤ .   (٢) النور : ٢٢ .

(٣) رواه البخارى كتاب الإيمان : ٨ / ١٦٠ ، ورواه مسلم أيضا فى كتاب الإيمان ٥ / ٨٨ .

ومعنى يلج فى يمينه : يتمادى فى الأمر الذى حلف عليه ولو تبين له خطؤه .

وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : « إنى والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيتُ الذى هو خير وتحللتها » .

وقد حلف أبو بكر - رضى الله عنه - ألا ينفق على مُسْطح بن أثاثة ؛ لأنه اشترك مع المروجين لحديث الإفك ، فنهاه الله عز وجل أن يتمادى فى الأمر الذى حلف عليه ، ورغبه فى فعل الخير ،والعفو والصفح ،ووعده على ذلك بالمغفرة والرحمة ، فأعاد الإنفاق عليه ،وكفَّر عن يمينه ، وفى شأنه أنزل الله الآية السابقة وهى قوله تعالى : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ﴾ أى : ولا يحلف أولو التَّفَضُّل والإنعام والسعة فى المال أن يمنعوا رفدهم عن ذوى القربى ، والمساكين ،والمهاجرين فى سبيل الله .

وكان مسطح بن أثاثه ابن خالته ، وقد عطف الله قلبه عليه بعد أن أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة وصفوان بن المعطل ، وطابت النفوس المؤمنة ، واستقرت وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه .

* * *

وبعد أن أمر النبى ﷺ أصحابه بهذه الأوامر السبع نهاهم عن سبع :

١ - فقد نهاهم عن خواتيم الذهب ،والنهى للرجال دون النساء ، لما رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وأحمد عن على - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ أخذ حريراً فجعله فى يمينه ، وذهباً فى شماله ، ثم رفع بهما يديه فقال : « إن هذين حرام على ذكور أمتى حل لإناثهم » .

وقد حرّم الله لُبْسَ الذهب على الرجال لئلا يَتَشَبَّهُوا بالنساء ، ولما فيه من خيلاء وعجب .

* * *

٢ – ونهى الرسول ﷺ عن الشرب فى آنية الفضة لما فيها من إسراف وبذخ ، ولأن الفضة إنما جعلت أثمانًا للمشتريات لا لتجعل أوان يشرب فيها ، ولأن فى استعمالها كسر لقلوب الفقراء .

وكذلك أوانى الذهب ، بل هى أشد حرمة ، فلا يجوز للرجال ولا للنساء أن يشربوا فى أوانى الذهب والفضة للعلة التى ذكرناها .

* * *

٣ – ونهى الرسول ﷺ عن المياثر – جمع مِيثرة ، بكسر الميم – ومعناه : اللين ، وهى فراش تضعه النساء لأزواجهن على السروج ، يصنعنه من الحرير ، وقيل كن يصنعنه من جلود السِّباع ، والأصح الأول .

ولا يخفى ما فى اتخاذ هذه المياثر من الخيلاء ، وحب الظهور ، والإسلام حريص على أن يتواضع المسلم لله فى جميع مظاهره ، ويتواضع للناس فى غير منقصة ولا مذلة .

* * *

٤ – ونهى عن « القسِّيِّ » – بتشديد السين وكسرها وتشديد الياء – وهى : ثياب مضلعة بالحرير ، أو هى كما يقول العينى فى عمدة القارى بشرح صحيح البخاري : ثياب من كتان مخلوط بحرير يؤتى بها من مصر ، نسبت إلى قرية على ساحل البحر قريباً من تنيس يقال لها :القَسُّ ،بفتح القاف وتشديد السين .

* * *

٥ – ونهى عن لُبْس الحرير ؛ لما فيه من نعومة لا تناسب خشونة الرجال ، ولأنه يجلب عليهم الخمول والكسل ،وفيه تَشَبُّه بالنساء ،ولكن يجوز لمن كانت به حكة فى جسمه ولا يستطيع لبس الخشن من الثياب ؛ لما رواه مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ : « رخص لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام فى القُمصِ الحرير في السفر من حكّة كانت بهما ، أو وجع كان بهما » .

* * *

٦ - ونهى عن لُبس الديباج ، وهو نوع من الحرير ، ولكن يعفى منه ما يُكَفُّ به الثوب ، وما يصنع منه جيب للقميص ونحوه بقدر أربع أصابع .

لما جاء فى صحيح مسلم من حديث عمر أنه كتب إلى عتبة بن فرقد بأذربيجان كتابًا قال فيه : « وإياكم والتنعم وزى أهل الشرك ، ولبوس الحرير ، فإن رسول الله ﷺ نهى عن لبوس الحرير ، قال : إلا هكذا ، ورفع لنا رسول الله ﷺ إصبعيه الوسطى والسبابة وضمهما » .

وجاء فيه أيضًا : « أن أسماء - رضى الله عنها - قد أخرجت جبة رسول الله ﷺ لمولاها عبد الله لها لِبْنة ديباج ، وفرجاها مكفوفان بالديباج » .

واللبنة - بكسر اللام وسكون الباء -: رقعة فى جيب القميص ، والديباج هو الحرير .

وقد قَصَدَتْ بإخراجها أن هذا القدر من الحرير ليس محرمًا لأنه قليل جدًا .

* * *

٧ - ونهى عن الإستبرق ، وهو نوع من الديباج الغليظ ، يصنع فى بلاد فارس ، ويباع شىء منه فى أرض العرب ، ويلبسه السادة منهم للخيلاء .

ومن هذا يتبين لنا أن الإسلام وسط بين الإفراط والتفريط ، فهو ينهى عن كل ما فيه اختيال وتفاخر ،ولا ينهى عن الثياب التى ليس فيها شىء من ذلك مهما ارتفع ثمنها ، كالصوف ، وسائر الأنواع المعروفة بالجودة ، ما لم تكن فى نعومة الحرير .

ونهى عن استعمال الأوانى من الذهب والفضة ، ولم ينه عن الأوانى التى تدانيها فى القيمة ، أو ترتفع عنها بسبب الخامة أو جودة الصناعة ؛ لأن الذهب والفضة أثمان ينبغى استغلالها وتنميتها ، واستعمالها يُعَطِّل نموها ، ويفوِّت على الناس الانتفاع بها فى الصناعة والتجارة ونحو ذلك من وجوه المنفعة .

والله هو الهادى إلى سواء السبيل .

* * *

(٤٨) بادروا بالأعمال سبعًا

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « بادرُوا بالأعمال سبعًا : هل تَنْتَظِرُون إلاَّ فَقْرًا مُنْسيًا ، أو غنىً مُطْغيًا ، أو مَرَضًا مُفسدًا ، أو هرمًا مُفندًا ، أو موتًا مُجهزًا ، أو الدَّجَّال ، فشرٌّ غائب يُنْتَظَرُ ، أو الساعةَ ، فالساعة أَدْهى وأَمَرُّ » (١) .

* * *

وهذه وصية من رسول الله ﷺ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

وهى وصية واضحة المعالم أكدَّها النبى ﷺ بأسلوب الاستفهام المفيد للتحريض على العمل الصالح ، والحض على المبادرة إليه من غير توانٍ ولا خمول ، قبل أن تأتى أمور شاغلة ملهية ، محيِّرة معجزة ، مذهبة للقوة ، مهلكة للبدن ، لا ينفع بعدها الندم .

فقوله ﷺ : « بادرُوا بالأعمال سبعًا » أى سابقوا إلى الأعمال الصالحة باغتنام الفرص السانحة فى طلبها ، وتتبع مواطنها ، واختيار السبل الموصلة إليها ، وتخير أحسنها ، وأقومها ، وأكثرها ثوابًا ، وأعظمها منفعة لكم فى دنياكم وآخرتكم ، وأخلصوا لله فيها .

فهذا كله يتسع له مفهوم المبادرة ، ويتسع مفهومها أيضًا لمعانٍ أخر كالمنافسة ، والمعاونة ، والمسارعة ، والمناهضة وما إلى ذلك مما فى معنى السباق واللحاق والاتجار مع الله عز وجل فى ميادين العبادات والمعاملات والمجاهدات البدنية والروحية .

والمبادرة فى اللغة تعنى وقوع البدار من طرفين ، فالرجل يبادر عمره بالعمل ، والعمر يبادره بالنقصان ، فإذا اغتنم المرء عمره فعمل فيه عملاً صالحًا

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٠٦) بسند حسن ، ورواه الحاكم فى المستدرك .

فإنه يغالب عمره بالزيادة العملية ، فى مقابل مغالبة عمره له ، فيكون عمره العطائى يساوى عمره الزمنى ، بل ربما يفوقه بكثير .

فكم من رجل لم يعمّر طويلاً ، ومع ذلك ملأ البلاد رخاءً وعلمًا ، وتزود من دنياه لآخرته بما لم يتزوده من عاش بعده ضعف عمره أو أكثر .

وكم من رجل عمَّر طويلاً ولم يترك وراءه من العمل الصالح ما يُذْكَرُ به ، ولم يتزود لآخرته من دنياه ما يحقق له الأمل فى النجاة من عذاب الله ـ عز وجل ـ .

مَاتَ قَوْمٌ وما مَاتَتْ مَكَارِمُهُمْ

وَعَاشَ قومٌ وهم فى الناس أمْواتُ

والعاقل من لا يترك ساعة تمر دون أن يعمل فيها عملاً صالحًا يقربه إلى الله ، ولا يدخر وسعًا فى طلب أسباب الخير له ولغيره من المسلمين ،ولا يكف عن ذكر الله ؛ فإنه خير معوان له على ذلك .

وليعلم كل امرئ أن عمره محسوب بالأنفاس وما هو أقل منها ، فهو كما قالوا : أنفاس معدودة فى أماكن محدودة .

يقول الله عز وجل : ﴿ وما تدرى نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ [١] .

وخيركم من طال أجله ، وحسُن عمله ، وشركم من طال أجله ، وساء عمله . كما جاء فى الخبر [٢] .

والمبادرة إلى الأعمال الصالحة توفيق من الله تعالى ، ليس للإنسان فيها فضل فلا يقولن قائل : أنا فعلت كذا وكذا ، وأنا سارعت إلى الخيرات بجهدى واجتهادى ، وأعنت فلانًا وفلانًا بمالى وعلمى ، وخبرتى وشفاعتى له عند فلان وفلان . إلى غير ذلك من الدعاوى العريضة التى تدل على الجهل المطبق بأسرار

---

(١) لقمان :٣٤ .

(٢) الحديث رواه الترمذي وأحمد بن حنبل والحاكم فى المستدرك بسند صحيح .

العقيدة الصحيحة ؛ فالمؤمن الحق هو الذى لا يرى لنفسه فضلاً فى شىء ، بل يرى الفضل كله لله ، والخيركله من عند الله ، والتوفيق كل التوفيق من الله ،كما علمنا ربنا عز وجل – فى كتابه العزيز – بقوله جل شانه حكاية عن شعيب عليه السلام : ﴿ إن أُريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب ﴾ (١) .

وإرادة الإصلاح من قبل العبد لا تكفى بل لابد من عملين آخرين :

أحدهما : التوكل على الله ، وهو ثمرة من ثمرات الإيمان ، ومعناه الاعتماد على الله والثقة بفضله مع مباشرة الأسباب .

والثانى : الإنابة إلى الله ، وهى التوبة النصوح الخالية من شوائب الشرك ، ونزعات الهوى .

هذا ما أفادته الآية ، فتأمل ذلك ولا تكن من الغافلين .

واعلم أن العمل لا يدخل صاحبه الجنة ، فمن اعتمد عليه ضل وذل ، وإنما دخول الجنة برحمة الله ، كما مر فى حديث سابق .

واعلم أنه ليس من العقل أن تؤخر عمل اليوم إلى الغد ، فكل يوم له عمل يجب عليك أن تقوم به ، فإن عجزت عن عمل يومك فأنت عن عمل الغد أعجز ، إذ تتراكم عليك الأعمال فلا تقدر عليها جميعاً فتتركها جميعاً ، فقَاتَل الله الكسل أينما كان ، إنه العدو اللدود الذى يَحْرِم صاحبه من خيرى الدنيا والآخرة .

ولقد كان النبي ﷺ يعلِّم أصحابه دعاءً يلهجون به صباحًا ومساءً وهو من أنفع الدعاء : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحَزَن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال » وسيأتى هذا الحديث مشروحًا إن شاء الله تعالى .

---

(١) هود : ٨٨ .

والفرصة بنت وقتها نَنْتَظِرُهَا ولا تنتظرنا ، فإن فاتت ذهبت بخيرها وخلَّفت وراءها ندمًا يحيط بمن ضَيَّعها ، والندم على ما فات نوع من الحماقة ،قال الشاعر :

ما فات مات والمُؤَمَّلُ غَيْبٌ
ولك الساعةُ التى أنت فيها

وقال آخر :

وما لابد أن يَأْتِى قريبٌ
ولكن الذى يَمْضِى بَعِيدُ

وقال آخر :

دقاتُ قلب المرء قائلةٌ له
إن الحياةَ دقائقٌ وثَوَانى
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثانى

بل هو أنفاس معدودة - كما قلت - لا يحسب بالدقائق والثوانى ، ولكن دقات القلب نذير من النذر المحذرة من التقصير فى اغتنام العمر .

* * *

وقد ذكر النبى ﷺ سبعًا مما ينبغى أن نبادره بالعمل الصالح ، وهى من العوائق وليست هى كل العوائق ، وإنما كان النبى ﷺ معلمًا يَذْكُرُ العدد ليحفظ فلا ينسى ، وحتى إذا نسى رجل منها شيئًا سأل عنه من كان قد سمعه منه ﷺ .

العائق الأول من هذه العوائق السبع : الفقر الشديد الذى ينسى معه الإنسان من يعوله ، وينسى أصحاب الحقوق عليه ، وينسى كثيرًا من المبادئ الاجتماعية ، والقيم الخلقية ، وربما ينسيه نفسه فيحتقرها ويزدريها ويتمنى لها الموت يأسًا من الحياة ، واليأس أخو الكفر ، لهذا ذمه أهل الصلاح والتقى ، واستعاذوا بالله منه ، فقد ورد أن عليًا - رضى الله عنه - قال : « لو كان الفقر رجلاً لقتلته » .

وأن معاذ بن جبل – أو غيره – قال « كاد الفقر أن يكون كفراً » .

وقال على أيضاً – رضى الله عنه – : « الفقر يخرس الفتى عن حجته ، ويجعله غريباً فى بلدته » .

وقال شوقى :

إن الدراهم فى الأماكن كلها

تكسوا الرجال مهابةً وجمالا

فهى اللسان لمن أراد فصاحةً

وهى السلاح لمن أراد قتالا

إن الغنى إذا تكلم بالخطا

قالوا أصبت وصَدَّقُوا ما قالا

وإذا الفقير أصاب قالوا

كلهم أخطأت يا هذا وقلت ضلالا

نعم قالوا كلهم دون استثناء ، لأن الجميع مبغض له ، أو بعبارة أخرى مبغض لما هو فيه ، وهم يقـولون : أخطأت يا هذا . كراهة أن يذكروا اسمه مبالغة فى احتقاره ، والاستخفاف به .

ومثل هذا ما قاله شاعر آخر :

يؤذَى الفقير وكل شىء ضده

ويرى العداوةَ لا يرى أسبابَها

وتراه ممقوتاً وليس بمذنبٍ

والناس تغلق دونه أبوابَها

حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة

خضعت إليه وحركت أذنابَها

وإذا رأت يومًا فقيرًا ماشيًا

نَبَحَتْ عليه وكشَّرت أنيابَها

ولا نطيل هنا فى ذم الفقر ، فيكفى فى ذمه اسمه ، فهو مأخوذ من فَقْر الظهر أى كسره ، فالفقير مُشَبَّه بمكسور فقرات الظهر ؛ لشدة ما يحمله من الهم والحَزَن ، ولكثرة ما يجده من الناس من ذل واستخفاف ، ولعدم توفر أسباب الحياة الكريمة له ولأولاده وغير ذلك مما يعانيه ، فهو إذًا داء دفين ، وشر وبيل ، ومرض قتَّال نعوذ بالله منه .

* * *

والعائق الثانى من العوائق السبع : الغنى المطغى الذى لا يقل خطورة عن الفقر المدقع ، فخير الأمور أوساطها .

والغنى سلاح ذو حدَّين ، فإن كان ذو المال رجلاً صالحًا ، فنعم المال الصالح للرجل الصالح – كما جاء فى الحديث الذى تقدم عند الكلام عن الزهد .

وإن كان ذو المال رجلاً فاسقًا كان المال فتنة له ، ووبالاً عليه ، واستدراجًا من الله له ولأمثاله ، نسأل الله السلامة والعافية .

وكثرة المال أشد بلاءً من قلته ، وقد يتساويان ، فكل منهما يؤدى إلى نسيان الواجبات ، وكفران النعم .

واعتبر – يا أخى – بما جاء فى القرآن الكريم عن الأغنياء كقارون وصاحب الجنتين وغيرهما .

أما قارون فقد طغى وتكبَّر وقال : ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يَتَجَلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة .

وأما صاحب الجنتين فقد وردت قصته فى سورة الكهف ، وما أكفره إلا ماله ، فأحاط الله بثمره فأصبح يقلب كفيه ندمًا وأسفًا على حاله حين كفر ، وحاله حين أحيط بثمره وباء بغضب من الله ، مثله فى ذلك كمثل الكثير ممن أطغاه ماله وغرَّه شيطانه .

* * *

والعائق الثالث : المرض الذى قد يأتى بغتة فيفسد على الإنسان جسده ، وعقله ، ويقعده عن تحقيق مآربه والقيام بواجبه فيندم على تفريطه فى وقت صحته ندماً شديداً يزيد فى مرضه ، وقد يموت من هذا المرض فيلقى الله مفلساً ليس له عمل صالح ينفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون ، وقد مر بنا قوله ﷺ : « اغتنم خمساً قبل خمس » منها : « صحتك قبل مرضك »فلا نعيد الكلام فيه .

وربما يكون المرض سببه الخمول ، والكسل ، والبطالة ، وكثرة الوقوع فى المعاصى نسأل الله السلامة والعافية .

* * *

العائق الرابع : الهَرَم المفْند ، وهو كبر السن المفرط الذى يؤدى إلى الفَنَد ، وهو التخريف فى القول ، والإتيان به على غير وجهه ، بحيث لا يكون فى الغالب مطابقاً للحقيقة ، فيتهمه الناس بالكذب ، وهو فى الحقيقة لا يكذب ، لكن تخونه ذاكرته فيحدِّث بما يعرف ولا يعرف ، ويقول ما لا يصدق فيه من غير قصد إلى الكذب .

والناس يعرفونه بذلك فلا يأخذون منه قولاً ، ولا يقبلون منه نصحاً ، ويعاملونه كما يعاملون الطفل الصغير إذ صار مثله فى الضعف والوهن ، وضيق الفكر ، فَأَوَّلُنَا ضعف وآخرنا ضعف .

يقول الله عز وجل فى سورة الروم : ﴿ الله الذى خلقكم من ضَعْفٍ ثم جعل من بعد ضَعْفٍ قوةً ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبةً ﴾ (١) .

ويقول الله عز وجل فى سورة الحج : ﴿ ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العُمُر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه فى سورة يس : ﴿ ومن نُعَمِّرْهُ ننكِّسْه فى الخَلْقِ أفلا يعقلون ﴾ (٣) .

وأصل الفند فى اللغة : الكذب ، بقصد أو بغير قصد .

والمسلم العاقل من يغتنم شبابه وقوته قبل أن يبلغ السن التى تقعده عن كثير من العبادات والمجاهدات ، وتعوقه عن المنافسة فى فعل الخير .

---

(١) الروم : ٥٤ .　(٢) الحج : ٥ .　(٣) يس : ٦٨ .

واليوم الذى يذهب لا يعود ، فكيف يفوت المسلم على نفسه أيامه وهى رأس ماله ، وسوف يحاسبه الله يوم القيامة عن شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه . ومن نوقش الحساب هلك ، نسأل الله السلامة والعافية .

* * *

والعائق الخامس : الموت الذى يجهز على الإنسان فجأة وهو يعيش فى أمانيه ، ويحلم بمستقبل زاهر فى حياة لا يدرى أنها قد أذنت بالانتهاء ، فيقول لملك الموت : أخرنى سنة أتوب فيها إلى ربى ، أخرنى شهراً ، أخرنى يوماً ، أخرنى ساعة . وملك الموت مأمور ليس يملك له تقديماً ولا تأخيراً ، فماذا يكون حال العبد إذا آذَنَتْ روحه بالفراق، فليعمل لهذا الموعد وذاك اللقاء ، إنه لقاء الله الحكم العدل ، الذي يجزى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، وكل شىء عنده بمقدار .

وأغزر الناس عقلاً أكثرهم للموت ذكراً ، وأكثرهم لما بعده استعداداً ، ونسيان الموت فى زحمة الحياة ضلال مبين .

وما من إنسان يموت إلا ويندم ، فالمسىء يقول : ليتنى أحسنت ، والمحسن يقول : ليتنى زدت فى الإحسان . ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ .

* * *

والعائق السادس من العوائق التى أمرنا النبى ﷺ أن نبادرها بالعمل الصالح قبل مجيئها : المسيح الدجال ، وهو فتنة للناس وعلامة على قرب الساعة ، لا ينجو من فتنته إلا من كان على درجة عظيمة من الإيمان ، وقد وردت فيه أخبار كثيرة ، سنذكرها فى حديث آخر إن شاء الله .

وسُمى المسيح – بالحاء غير المنقوطة – لأن عينه اليسرى ممسوحة ، ولقّب بالدجال لأنه يكذب على الله ، ويدّعى أن الخير يتبعه ، ولقّب بذلك أيضاً تمييزاً له عن المسيح ابن مريم عليه السلام .

* * *

والعقبة الكئود هى الساعة ، فإنها القاضية والواقعة ، أى الداهية العظيمة ، وهى الحاقة ، والطامة ، والصاخة ، والقارعة .

فإن كان العبد قد عمل عملاً صالحًا ومات تائبًا ، فهو إلى الجنة برحمة الله تعالى ، وإلا فهو إلى النار .

يقول الله عز وجل فى سورة الشورى : ﴿ فريقٌ فى الجنة وفريق فى السَّعير ﴾ (١) .

وقد تذاكر أربعة من خيار الصالحين الموت ففاضت أعينهم بالدمع ، وأَنْشَدَ كل منهم بيتًا يُعَبِّرُ به عما يجيش فى نفسه .

فقال الأول :

الموتُ بابٌ وكل الناس داخله

فليت شِعْرِىَ بعد الباب ما الدارُ

وقال الثانى :

الدارُ دارُ نعيم إن عملتَ بما

يرضى الإله وإن خالفتَ فالنارُ

وقال الثالث :

ما للعباد سوى الفردوسِ إن عملوا

وإن همو هفَوا هفوةً فالربُّ غفارُ

وقال الرابع :

هما مِحِلاَّنِ ما للناس غَيْرُهُمَا

فاختر لنفسك أىَّ الدار تختارُ

---

(١) الشورى : ٧ .

وقيل الذين قالوا ذلك على الترتيب : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، رضى الله عنهم جميعاً .

وبعد ، فإن لهذا الحديث حرارة تسرى فى العروق سريان الدم ؛ لما يشتمله من العظات البليغة التى يوحى بها هذا الاستفهام فى قوله : « هل تنتظرون إلا كذا وكذا » ، مما يحذره العقلاء وتَشِيبُ له الولدان .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا للعمل الصالح ويهدينا سواء السبيل .

* * *

(٤٩) بادِروا بالأعمالِ فِتَنًا كقِطَعِ الليلِ المظْلِمِ

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « بادِرُوا بالأعمالِ فِتَنًا كقِطَعِ الليلِ المظلمِ . يصبحُ الرجلُ مؤمنًا ويُمسى كافرًا ، أويمسى مؤمنًا ويصبحُ كافرًا . يبيعُ دينَهُ بعَرَضٍ من الدنيا » (١) .

* * *

هذه الوصية هى التى وردت فى الحديث السابق بنصها إلا أنها جرت فى مجرى آخر أعم وأشمل ، فقد قال فى الحديث السابق : « بادروا بالأعمال سبعًا » ، وقال فى هذا الحديث : « بادروا بالأعمال فتنًا » دون أن يذكر عددها ، والتنكير يوحى بكثرتها وتداخل بعضها فى بعض ، ويشعرنا بشدتها وقسوتها ، فهى فتن تسلب لبَّ الرجل الحليم ، وتحمله على ارتكاب الأُحْمُوقة فى تصرفاته كلها إلى الحد الذى يفقد إيمانه بربه فى صباحه أو مسائه ، فهى فتن كقطع الليل المظلم لا يجد المرء فيها بارقة أمل للنجاة ، ولا يرى فيها الحق حقًّا فيتبعه ، ولا الباطل باطلاً فيجتنبه .

* * *

ومعنى : « بادروا بالأعمال فتنًا » أى اسبقوها بالأعمال الصالحة قبل إبَّانها ، واغتنموا أوقاتكم قبل أن تشغلوا بها عن العمل الصالح ، واسلكوا مسالك الأبرار قبل أن تحملكم الفتن على السير فى مسالك الفجار ، وتحرَّوا مواطن الخير قبل أن تفقدوها ، أو تعجزوا عن تَحَرِّيها ، واحرصوا على التحلى بالفضائل قبل أن تسلبكم الفتن العقل والحلم فلا تجدوا أنفسكم قادرين على العفو والصفح وحسن المعاشرة بالمعروف ؛ فإن الفتن محن بعضها فوق بعض تموج

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب « الحث على المبادرة بالأعمال قبل ظهور الفتن » . رقم (١١٨) ، والترمذى رقم (٢١٩٦) فى الفتن ، باب « ستكون فتن كقطع الليل المظلم » .

موج البحر ، كل فتنة تأتى أشد من الأخرى إلى الحد الذى قد يفقد المرء معه إيمانه كله أو بعضه ، فلا يكون له ثبات عليه ، ولا يجد له فى قلبه حلاوة ، ولا يشعر معه بالسكينة ولا بالطمأنينة ، وذلك لأن إيمانه يكون فى التناقص بسبب هذه الفتن التى تبادره وتلاحقه .

والدنيا فى ذاتها فتنة تغرُّ وتمرُّ ، وتزهو ثم تنكمش ، وتأتى بوجه وتُعْرِض عن صاحبها بوجه آخر ، فهى كما قال الشاعر :

هى الدنيا تقول بملء فِيهَا حذارِ حذارِ من بطشى وفتكى

ولا يغرركمو منى ابتسامٌ فقولى مضحك والفعل مبكى

والشيطان للإنسان بالمرصاد يغريه بما فيها من حطام زائل ، ويمنّيه بطول الأمل ، ويضلّه عن سواء السبيل .

﴿ إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخِذوه عدوًّا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (١) .

والنفس أمارة بالسوء ، وتتحالف مع الشيطان ضد صاحبها فتأتمر بأمره ، وتنتهى بنهيه ، إلا من عصمه الله من كيده وكيدها .

﴿ إن النفس لأمَّارةٌ بالسوء إلاَّ ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم ﴾ (٢) .

والهوى معبود الأشرار فى كل زمان ومكان ، يسلبهم عقولهم فلا تكون لهم إرادة حُرَّة ، ولا عزيمة فى أى أمر من الأمور النافعة ، ولا رغبة فى أى فعل من أفعال الخير ، ولا تكون لهم بين الناس مكانة ولا كيان .

﴿ أرأيتَ من اتَّخَذَ إلهَهُ هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسَبُ أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً ﴾ (٣) .

فالدنيا والشيطان والنفس والهوى ينابيع الفتن كلها لا يسلم منها أحد إلا من كتب الله له السعادة وتولاه بعنايته ورعايته ، والله تبارك وتعالى خير حافظًا وهو أرحم الراحمين .

---

(١) فاطر : ٦ . (٢) يوسف : ٥٣ . (٣) الفرقان : ٤٣ - ٤٤ .

إنى بُليتُ بأربعٍ ما سُلِّطوا — إلا لشدةِ شِقْوتى وعَنائى

إبليسُ والدنيا ونفسى والهوى — كيف الخلاصُ وكلُّهم أعدائى

* * *

والفتن التى ظهرت بعد النبى ﷺ – ولا تزال تظهر – كثيرة ذكرها النبى ﷺ لأصحابه واحدة بعد الأخرى ، فحفظ منهم من حفظ ، ونسى منهم من نسى .

روى مسلم فى صحيحه عن حذيفة – رضى الله عنه – قال : « قام فينا رسول الله مقامًا ما ترك شيئًا يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلاَّ حدَّث به ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشىء قد نسيته فأراه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه » .

وروى أيضًا عن أبى زيد عمرو بن أخطب قال : صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر ، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى غربت الشمس . فأخبرنا بما كان وبما هو كائن ، فأعلمنا أحفظنا » .

ولم تظهر الفتنة فى عصر أبى بكر ولا فى عصر عمر – رضى الله عنهما – إلا بالقدر الذى يفتن الرجل فيه بأهله وماله ، فلما استشهد عمر أطلت الفتن برءوسها وخرجت من مكامنها،وتتابعت فتنة بعد أخرى كما يتتابع القطر (١) .

فعن حذيفة بن اليمان – رضى الله عنهما – قال : « كنا عند عمر ، فقال : أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ فى الفتنة ؟ ، فقلت : أنا أحفظه كما قال ، قال : هات ، إنك لجرىء ، وكيف قال ؟، قلت : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « فتنة الرجل فى أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

---

(١) القطر : المطر .

فقال عمر : ليس هذا أريد ، إنما أريد التى تموج كموج البحر ، قال : قلت : ما لك ولها يا أمير المؤمنين ؟ إن بينك وبينها بابًا مغلقًا ، قال : فيكسر الباب أو يفتح ؟ ، قال : قلت : لا ، بل يكسر ، قال : ذاك أحرى أن لا يُغْلَقَ أبدًا ، قال : فقلنا لحذيفة : هل كان عمر يعلم من الباب ؟ ، قال : نعم ، كما يعلم أن دون غد الليلة ، إنى حدثته ليس بالأغاليط ، قال : فَهِبْنَا أن نسأل حذيفة : من الباب ؟ ، فقلنا لمسروق : سَلْهُ ، فسأله ، فقال : عمر » (١) .

ومما وعظ النبى ﷺ به أصحابه فى شأن الفتن وكيفية مواجهتها ما رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه لم يكن نبى قبلى إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها فى أولها ، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمور تنكرونها ، وتجىء فتنة فيُزْلِقُ بعضها بعضًا ، وتجىء الفتنة ، فيقول المؤمن : هذه مهلكتى ، ثم تنكشف ، وتجىء الفتنة ، فيقول المؤمن : هذه هذه ، فمن أحب إن يُزحزح عن النار ، ويُدْخَلَ الجنة ، فلتأته مَنِيَّتُهُ وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر ، قال : فدنوت منه ، فقلت : أنشدك الله ، أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ ، فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه ، وقال : سمعته أذناى ، ووعاه قلبى » (٢) .

وسيأتى فى الفتن حديث آخر يوصى فيه الرسول ﷺ بما ينبغى فعله عند اختلاف الناس على مذاهب شتى بحسب أهوائهم فانتظره .

* * *

---

(١) أخرجه البخارى ٢ / ٧ فى مواقيت الصلاة وفى مواضع أخرى ، ومسلم رقم (١٤٤) فى الفتن ، وغيرهما .

(٢) هذا طرف من الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الإمارة رقم (١٨٤٤) .

ويبقى لنا فى هذه الوصية قوله ﷺ : « يبيع دينه بعَرض من الدنيا » أى بمتاع زائل مما يغتر به من لا إيمان له .

وهذه الفقرة من الحديث توضيح لمعنى قوله : « يصبح الرجل مؤمنًا ويمسى كافرًا ، أو يمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا » فهو يبيع دينه فى صباحه أو مسائه متى وجد الفرصة سانحة لبيعه ، ولا يبالى لمن باعه ، فهو يدين بالإسلام تقليداً لأسرته ، ولا يعتنقه بقلبه لأنه لا يعرف من أحكامه ومبادئه شيئًا يذكر ؛ لأنه لم يجلس إلى معلم ، ولم يسأل عنه خبيراً به ، وإذا دعى إلى مجلس علم أعرض عنه ونأى بجانبه ، وسخر من رجال الدين واستهزأ بهم ، ووصفهم بالتخلف والرجعيَّة ، واتهمهم بالجهل والضلال ، وقال فيهم ما لا ينبغى أن يقال .

لهذا لا يبالى فى طلب الدنيا بفضيلة أن يتخلى عنها ويستبدلها برزيلة يدّعى أنها عين الفضيلة ، فهو يرى بحماقته المعروف منكراً ، ويرى المنكر معروفًا، ويحسب أن الغاية تبرر الوسيلة فى كل الأمور ، فيسعى جاداً كادحًا فى طلب المال والجاه والسلطان من أىّ طريق وبأى حيلة ، فيداهن الأشرار وينافقهم ويمالئهم على الظلم ويركن إليهم ، ويسير سيرهم ، ويعرف من أين تؤكل الكتف ، وكيف يصيب الهدف ، حتى إذا انتهى إلى غرض من أغراض الدنيا حسب أن الدنيا دانت له ، وأنه قد أتى بها من قرونها فيزداد غيًّا وبغيًا ، ويمضى فى طلبها حثيثًا فتزهو له ساعة من نهار فيغترّ ويشترّ ، ويحسب أنه فى جنة رضوان ، ثم تنقلب عليه الدنيا رأساً على عقب ، وتطلع عليه بوجهها البشع فتنقشع عنه العتامة التى جسمت على عينيه زمنًا طال أم قصر ، فيبصر كل شىء على حقيقته ، ويعلم أنه كان ضالاً مُضلاً ، أذل نفسه وأضاع دينه ، وفَقَدَ الثمن الذى باعه به ، وما ربح شيئًا فى دنياه ولا فى آخرته ، وجاءه الموت من كل مكان ، وقد يندم كثيراً حيث لا ينفعه الندم ، أو يموت دون أن يندم قبل موته فتكون عاقبة أمره خُسْراً . نسأل الله السلامة والعافية .

ولست أرى أمرَّ ولا أخطر ولا أشد نكراً ومنكرًا من النفاق ، إنه نارٌ تلظى يعيش فيها صاحبها يتقلب فى جمرها حتى يلقى الله فيعذبه العذاب الأكبر .

قال تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدَّرْكِ الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأَخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يُؤتِ الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ (١) .

إن المنافق لا يميز بين الخير والشر ، ولا بين الفضيلة والرذيلة ، ولا بين الصالح والطالح ، ولا ينظر ما تحت قدميه ، ولا يبصر الحق في مواطنه فيتبعه ، ولا يرى الباطل باطلا فيجتنبه .

جهـله مركّب لا يخـرج منه أبداً ، وعداوته للمـؤمنـين يعـجز عن وصـفها الواصفون .

يقــول الله – عــز وجــل – : ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلَهم الله أنَّى يُؤْفَكون ﴾ (٢) .

ولقد وصفهم الله فى كتابه العزيز بأوصاف كثيرة لا تكاد تحصى ترجع كلها إلى وصفين رئيسين ، من تحلَّى بهما فَقَدَ هويَّتَهُ وفاتته إنسانيته ، وغلبته حيوانيته فكان أضل من الأنعام سبيلاً .

الوصف الأول فى قوله تعالى : ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ (٣) .

والثانى فى قوله تعالى : ﴿ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ (٤) .

وماذا تنتظر من قوم لا يفقهون حديثًا ولا يعلمون من الدين شيئًا .

وماذا ترجو من قوم اتبعوا أهواءهم فكان أمرهم فرطًا . ﴿ أولئك الذين اشْتَرَوُا الضلالة بالهدى فما ربِحت تجارتُهم وما كانوا مهتدين ﴾ (٥) .

نسأل الله حسن الخاتمة .

* * *

---

(١) النساء : ١٤٥ – ١٤٦ .
(٢) المنافقون : ٤ .
(٣) المنافقون : ٧ .
(٤) المنافقون : ٨ .
(٥) البقرة : ١٦ .

(٥٠) ستكون بعدى أَثَرة

عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال لنا رسول الله ﷺ : « أنكم سترون بعدى أثرة وأموراً تنكرونها » .

قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ .

قال : « أدّوا إليهم حقهم ، وسلوا الله حقكم » (١) .

* * *

الأثرة ضد الإيثار ، فهى فى الثرى والإيثار فى الثُّريّا .

الأثرة : انحطاط فى الخلق ، وسوء فى الطبع ، وخراب فى الذمم ، وكفر بالنعمة ، وخروج عن الفطرة .

وهى الشح المطاع والهوى المتبع ، إنها الشر كُلُّه وإن اختلط بشىء من الخير للنفس التى جبلت عليها .

ويقال لها : حب الذات ، وتسمى فى لغتنا الحديثة بالأنانية ، وهو لفظ منسوب إلى الضمير « أنا » ، بمعنى أن الشحيح يقول : أنا ، أنا ، أى نفسى نفسى ، لا أحب سوى نفسى ، ولا أخدم أحداً سواى .

وقد أخبر الرسول ﷺ بأنه ستكون بعده أثرة ، أى لابد أن تقع ؛ لأن السين للتحقيق كما يقول علماء اللغة .

وأما فى عصره ﷺ فقد كان الإيثار هو المهيمن على أخلاق أصحابه الكرام البررة مهاجرين وأنصار .

قال تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ويَنصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الفتن باب سترون بعدى أموراً تنكرونها .

حاجةً مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

فقد وصف الله الأنصار بالإيثار مع شدة الحاجة إلى ما يؤثرون به إخوانهم المهاجرين ، ولكن لا تظن أنهم خُصّوا بذلك دونهم ، فهم إلى الإسلام أسبق وبالإيثار أحق .

فوصف الأنصار به لا ينافى أن يكون لغيرهم أيضًا ، ولا سيما الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق وآثروا الرسول ﷺ على أنفسهم بكل ما ملكت أيديهم .

وقد وصفهم الله بالصدق فقال : ﴿ وأولئك هم الصادقون ﴾ ، أى فى أقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم ، فهم قد صححوا النية وأصلحوا الطوية ، وأتوا بأعمال البرّ كلها .

ولقد بين الله هذه الأعمال فى قوله – جل وعلا – : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ ثم ختم الآية بقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين صَدَقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (٢) .

والأثرة : أول شيء من الفتن قد ظهر بعد استشهاد عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – .

فقد أشرأبّ إلى الخلافة بعده أقوام يبتغون فيها العزّة وهم يعلمون أنها عبء ثقيل ، ومسئولية خطيرة ، لكنها الدنيا قد انفتحت عليهم ، وهى أخشى ما كان يخشاه الرسول ﷺ عليهم .

أخرج البخارى فى صحيحه عن حذيفة بن اليمان – رضى الله عنهما – من حديث طويل فى الفتن قال فى آخره لعمر : « إن بينك وبينها بابًا مغلقًا ، قال عمر : أيكسر الباب أم يفتح ؟ ، قال : بل يكسر ، قال عمر : إذًا لا يُغلق ابداً ، قلت : أجل » .

* * *

(١) الحشر : ٨ – ٩ .   (٢) البقرة : ١٧٧ .

وقوله : « وأمورًا تنكروها » ، أى لا تقرونهم عليها ؛ لعدم موافقتها لأمور الدين ، أو عدم نفعها للناس في الدنيا ، أو تنكرونها لعدم موافقتها للعرف القائم بين الناس - كل هذا مراد بقوله : « تنكرونها » .

وهذه الأمور التى تكون موضعًا للإنكار كثيرة لا تحصى .

منها : التشوف للإمارة ، واشتغال الولاة بالتجارة والصناعة وغيرها من الحرف ، وإهمال ما ولّوا فيه ، والتقصير فى حق الرعيّة ، وقبول الرشوة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والاستبداد بأموال المسلمين ، والغلول فى الغنائم ، وميل الحكام والأمراء إلى الغناء والمعازف وسائر الملاهى المذمومة شرعًا وعقلاً ، ووضع الرجل فى مكان لا يناسبه ولا يجيد العمل فيه ، ومدح الناس بما ليس فيهم ، وإكرام الرجل مخافة شرّه ، ولبس الحرير وشرب الخمور ، ولعن بعضهم بعضًا على المنابر فى المساجد ، وقصر الأموال على طبقة الحكام والأمراء والوزراء ، ومن على شاكلتهم من السادة والأشراف ، والأخذ بالشبهات والاختلاف فى أمور الدين الظاهرة ، والتقليد الأعمى لأصحاب المذاهب الهدامة ، إلى غير ذلك مما نراه فى عصرنا ورآه من قبلنا من بعد استشهاد عمر بن الخطاب إلى يومنا هذا .

ومن يعش بعدنا فسيرى اختلافًا كثيرًا وفتنًا يكون القائم فيها خير من الماشى ، والقاعد فيها خير من القائم ، والنائم فيها خير من القاعد .

وكل ما نراه اليوم هو من علامات الساعة حتى يخيل إلينا أنه لم يبق منها إلا العلامات الكبرى كطلوع الشمس من مغربها ، وظهور المسيح الدجال ، ونزول عيسى ابن مريم ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج الدابة ، وغيرها مما تُؤذن بقيام الساعة .

* * *

وعندما سمع أصحابه ﷺ بهذا الخبر الصادق الذى تلقاه من ربِّه بالوحى - قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ ، أى بأى شيء تأمرنا فى مواجهة هذه الأثرة المستشرية ، وهو سؤال يفرض نفسه عليهم ؛ لشدة حرصهم على النجاة من هذه

البلية التى لم يعهدوها فى أخلاقهم ، وهم الذين آخى النبى ﷺ بينهم أخوة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً من قبل ولا من بعد .

فقال رسول الله ﷺ : « أدوا إليهم حقهم ، وسلوا الله حقكم » .

وحقهم عليهم الطاعة فى غير معصية الله تعالى ، وعدم مناوشتهم أوتأليب الناس عليهم ؛ فإن ذلك يجلب فتنة أكبر من هذه الأثرة ، وتتيح لأصحاب الأهواء الجامحة والتيارات المنحرفة أن تنال من المسلمين نيلاً ، ربما لا تقوم لهم بعده قائمة .

وعليهم أن يصبروا حتى يأتى الله بأمره ، ويسألوا الله من فضله أن يأخذ لهم بحقهم منهم يوم القيامة .

ودعوة المظلوم تفتح لها أبواب السماء ، وليس بينها وبين الله حجاب .

وقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسـول الله ﷺ قال : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم [1] الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى آخر ، وإنه لا نبىّ بعدى ، وسيكون بعد خلفاء ، فيكثرون [2] . قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : أوفوا ببيعة الأول ثم أعطوهم حقهم ، واسألوا الله الذى لكم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم » .

وقد روى البخارى ومسلم عن أبى يعلى معقل بن يسار - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة » .

وقد روى مسلم فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول - فى بيتى هذا - : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئًا فرفق بهم فارفق به » .

---

(١) تسوسهم : تدبر أمرهم ، وترعى شئونهم .

(٢) فيكثرون : يكثرون من الأموال ويؤثرون بها أنفسهم ، ويكثرون من الخطايا والوقوع فى الفتن .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى مواجهة الحكام بالصبر والجَلَد إذا بغوا وظلموا ، ما داموا يقيمون الصلاة ، ويحكمون بكتاب الله تعالى فى الحدود وسائر الأمور العامة ، بقدر طاقتهم البشرية مع وجود الأثرة التى تدفعهم إلى ظلم الرعية فى كثير من الحقوق الدنيوية .

نسأل الله السلامة والعافية .

* * *

(٥١) الزم جماعة المسلمين وإمامَهم

عن أبى أدريس الخولانى أنه سمع حذيفة - رضى الله عنه - قال : « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى ، فقلت : يا رسول الله إنا كنا فى فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ ، قال : نعم ، قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ ، قال : نعم ، وفيه دَخَنٌ . قلت : وما دخنه ؟ ، قال : قوم يستنون بغير سنتى ، ويهدون بغير هديى ، تعرف منهم وتنكر ، فقلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ ، قال : نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها ، فقلت : يا رسول الله صفهم لنا ، قال : هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا . فقلت : يا رسول الله فما ترى - وفى رواية : فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟ - قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ؟ ، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ .

قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك »[١] .

* * *

حذيفة بن اليمان صحابى جليل له فى العلم قدم راسخ ، أسلم هو وأبوه حسيل بن جابر العبسى[٢] ، وقد أرادا حضور غزوة بدر فمنعهما المشركون من ذلك ، وحضرا معًا غزوة أحدٍ ، ومات أبوه بـها ، وشهد حذيفة الخندق وما

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه شرح كتاب الفتن ، باب الأمر إذا لم تكن جـماعة ، رقم ١١ جزء ٨ ، ورواه مسلم فى كتاب الإمارة باب ١٣ رقم ٥١ جـ / ٣ .

(٢) اليمان لقبه قد اشتهر به ، لأنه حالف اليمانيّين فى الجاهلية .

بعدها ، وشهد فتوح العراق وله بها آثار شهيرة ، واستعمله عمر على المدائن عاصمة الفرس فلم يزل بها حتى مات بعد بيعة على بأربعين يومًا - رضى الله عنه - وأرضاه .

* * *

يخبر حذيفة عن نفسه أنه كان يسأل النبى ﷺ عن الشرّ ، بينما كان الناس يسألونه عن الخير مخافة أن يدركه فَيَهُولُهُ ويزعجه ، ولا يستطيع أن يدفعه عن نفسه إذا نزل به ، فالمرء إذا عرف الشرّ قبل نزوله هيّأ نفسه لاستقباله بما ينبغى أن يستقبل به ، وأعدّ العدة لتحاشيه وتلاشيه ، وتوقّى الأسباب المؤدية إليه .

والعاقل من يعرف الشر لا للشر ولكن لتوقيه ، وأخذ الحيطة من الوقوع فيه .

ومعرفة الشرّ مقدمة على معرفة الخير ؛ لأن دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح كما يقول علماء الأصول .

وقد قال علماؤنا الأبرار : التخلية مقدمة على التحلية .

والمراد بالشرّ فى هذا الحديث : الفتن التى تقع بعد وفاة رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة .

ولم يرد حذيفة أن يتعالى على أصحابه ، أو يتظاهر بما خصه الله به ، ووفّقه إليه ، فذلك ليس من شأنه وهو حافظ سر النبى ﷺ ، قد ميَّزه عن غيره بأمارات يعرف بها المنافقين ، وأمدّه بكثير من العلم ، ومات وهو راض عنه ، وأحبه أصحابه حبًّا جمًّا ،وكان عمر - رضى الله عنه - لا يصلى على أحد مات من المسلمين حتى يصلى عليه حذيفة إذا كان حاضراً ، وكان عمر يسأله قائلاً : يا حذيفة هل ترى فِىَّ علامة من علامات النفاق ، فيقول : لو أعلم فيك شيئاً من النفاق لأخبرتك به .

وأكبر الظن أنه أخبر عن نفسه بما أخبر به ليثق الناس فى روايته فيحذروا مما أمروا أن يحذروا منه ، ويقفوا على جليّة الأمر فيعدّوا له عُدّته ، حتى لا يدركهم الشرّ وهم عنه غافلون فلا يستطيعون له دفعاً .

إن حذيفة – رضى الله عنه – قد حمل أمانة العلم ، وأخذ على عاتقه أن يروى لأصحابه كل صغيرة وكبيرة سمعها من رسول الله ﷺ ، ويقصّ عليهم ما رآه من أفعاله التى يتعلق بها التشريع الحكيم .

* * *

قال حذيفة : يا رسول الله ، إنا كنا فى جاهلية وشرّ فجاءنا الله بهذا الخير .

والمعنى : إنا كنا نعانى ما نعانى من الجهل المُطْبَق الذى انتهى بنا إلى السفه والحمق ، فبلغ الشر بيننا حدَّه حتى لم يعد أحدنا يميز بين الخبيث والطيب ، وطغت علينا حمية الجاهلية ، والعصبية القبليّة فلم تضع الحرب بيننا أوزارها ، وكنّا نعبد أصنامًا لا تسمع ولا تبصر ، ولا تنفع ولا تضرّ ، ولا تغني عنا شيئًا ، فبعثك الله إلينا هاديًا ومرشدًا ، ومبشّرًا ونذيرًا ، وأنزل عليك كتابًا فيه الخير كله ، فآمنا بك وبما أنزل إليك من ربك ، فبدل الله عسرنا يسرًا ، وخوفنا أمنًا ، وأخرجنا الله بك وبالكتاب الذى أنزل إليك من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان .

هذا كله ترجمة لقول حذيفة – رضى الله عنه – فقوله هذا قليل الألفاظ كثير المعانى ، والإيجاز سمة من أبرز سمات البلاغة .

وهذا القول تمهيد لسؤال يوحى بما يضمره حذيفة فى نفسه من الخوف على ذهاب هذا الخير ، أو ذهاب شىء منه ، أو تعكير صفوه بعد وفاة النبى ﷺ فيقول : هل بعد هذا الخير من شر ؟ .

أى : هل بعد هذه النعمة التى أظلتنا بظلها ، وغمرتنا بخيرها من شر نتوقعه فنتوقاه إن نزل بنا بقدر طاقتنا ، وبالأسلوب الذى تشير به علينا .

وجاء فى سؤاله بالحرف « من » للدلالة على عظيم خشيته من الشر بجميع صوره كبيره وصغيره ، لأن هذا الحرف بعد النفى أو الاستفهام يدل على الاستغراق إذا دخل على نكرة .

فأىّ شر مهما قَلّ حجمُهُ يُعَكِّرُ على الناس صفو الحياة ، ويكدر جلوة الإيمان .

يجيبه النبى ﷺ على هذا السؤال بقوله : « نعم » ، فما اكتمل شيء إلا أخذ فى النقصان ، كما قال عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يوم أنزل الله قوله جل شأنه : ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (١) .

إذ فهم من هذه الآية دنوّ أجل النبى ﷺ .

* * *

ويسأل حذيفة رسول الله ﷺ سؤالاً آخر فيقول : وهل بعد ذلك الشرّ من خير ؟ .

وهو سؤال يدل على غزارة علمه بسنن الحياة ، فإن دوام الحال من المحال ، والشر والخير يتعاقبان فلا يبقى أحدهما على حاله .

يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ (٢) .

ويقول جل شأنه : ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ (٣) .

وأكبر الظن أن حذيفة كان يتوقع الجواب لكنه يسأل ليطمئن قلبه ، ويزداد بسماع الجواب أنسه وسلواه .

وقد قال النبى ﷺ فى الجواب : « نعم ، وفيه دَخَنٌ » .

وعندئذ يشتدّ حرص حذيفة على معرفة الدَّخَن ما هو ؟ .

هل هو الحقد والحسد والصراع على مطالب الحياة والتكالب على مطالب الدنيا .

هل هو الأثرة وحب الذات والنفاق والغش والخداع .

هل هو ظلم الأمراء وطغيان الحكام وتقصيرهم فى واجباتهم نحو الرَّعية .

هل هو انصراف الناس عن الدين وبعدهم عن الصراط المستقيم .

---

(١) المائدة : ٣ . (٢) آل عمران : ١٤٠ .

(٣) الشرح : ٥ – ٦ .

هل هو عقاب من الله سينزل بهم بذنوبهم ، أم ماذا يكون هذا الدَّخَنُ ، فيسأل رسول الله ﷺ عنه ، فيجيبه الرسول ﷺ إجابة كافية شافية ، ويُحَدّد له من يصدُر منهم الدَّخَن وإليهم يعود ، فيقول : « قوم يستنون بغير سنتى ، ويهدون بغير هديى تعرف منهم وتنكر » .

فالدَّخَنُ إذًا كناية عن قوم حجبوا بدخان شبهاتهم وشهواتهم نور الله عن أعين الناظرين وعن قلوبهم ، فَنَزَّلوا البدع منزلة السنن ، واقتدوا بأئمة الضلال من البدو وغيرهم ممن على شاكلتهم ، وتمسكوا بالتقليد الأعمى ، وعرفوا الحق بالأشخاص ولم يعرفوا الحق بالحق ، وتفرقوا بسبب ذلك إلى مذاهب شتى ، كل طائفة تلعن أختها وتُفَسِّقُها أو تكفرها .

وقد كثرت هذه الطوائف كثرة لا يحصيها العادّون إلا بعد جهد جهيد .

فهناك الخوارج وهم أكثر من عشرين طائفة .

وهناك الشيعة وهم أكثر من خمسين طائفة .

وهناك المعتزلة والجهمية والمعطلة .

وهناك الصوفية وهم أكثر من خمسمائة طائفة أو تزيد .

وكل يدَّعى أنه على الحق ، وأنه هو المؤمن بحق .

ومصيبتهم جميعًا أنهم يستـــدلون على إيمانهم وكفر غيرهم بالقرآن والسنة ، والقرآن حَمَّال أوجه ، كما يقول على – رضى الله عنه – ، ولكنّ كتاب الله لا تناقض فيه ولا اختلاف ، ولا زيغ فيه ولا انحراف .

﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ﴾ (١) .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عنـــد غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا ﴾ (٢) .

---

(١) فصلت : ٤١ – ٤٢ .

(٢) النساء : ٨٢ .

فالدخن : هو عبارة عن الشبهات التى يثيرها هؤلاء وهؤلاء لنصرة مذهبهم بأىّ طريقة ، وبأى وسيلة .

قال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محْكَماتٌ هن أم الكتاب وأُخَرُ متشابهاتٌ فأما الذين في قلوبهم زيغ فَيَتَّبِعُون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويلَه إلا اللهُ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذَّكر إلا أولوا الألباب ﴾ (١) .

ومعنى قوله ﷺ : « تعرف منهم وتنكر » أى ليسوا سواء فى الخير ولا فى الشر ، ولكن تعرف منهم من وجوه الخير ما تعرف ، وتنكر منهم من وجوه الشر ما تنكر ، فهم قد خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيّئًا ، وبدّلوا دينهم ، فجعلوا السنة بدعة والبدعة سنة ، وحرّفوا الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظًّا مما ذكروا به حتى التبس على الناس أمرهم ، فتارة يقول قائلهم : هم من المسلمين ، وتارة يقول قائلهم : هم كفار فى صورة مسلمين ، ولا يعرف الناس جَلِيَّة أمرهم فيغترّ بهم قوم ويفرّ منهم آخرون .

* * *

ولمّا سمع حذيفة هذا الجواب لم يكفّ عن السؤال ، فقال : هل بعد ذلك الخير من شرّ ؟ .

قال رسول الله ﷺ : « نعم ، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها » .

يا له من تصوير بلغ الغاية فى دقة التعبير . إنهم دعاة أدعياء قد نصبوا أنفسهم أئمة يدعون إلى النار ، ويأمرون الناس بالمنكر وينهونهم عن المعروف ، قد نسوا الله فنسيهم وأنساهم أنفسهم فخرجوا من الإسلام من حيث لا يشعرون .

لا يكفون عن دعوة الناس إلى جهنم ، وكأنهم بهذا يقفون على أبوابها إذ

---

(١) آل عمران : ٧ .

لا يلبسون إلاّ عشية أو ضحاها حتى يجدوا أنفسهم فيها هم ومن أجابوهم إلى ما دعوهم إليه .

﴿ إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوًّا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (١) .

نعم أولئك دعاة على أبواب جهنم ليس بينهم وبينها إلاّ مصيبة الموت ، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد .

* * *

ولا يزال حذيفة يسأل والرسول ﷺ يجيب .

قال : يا رسول الله ، صفهم لنا .

مع أن الوصف السابق كان كافيًا ولكن حذيفة يريد أن يستوثق من أوصافهم بالبسط والتحليل .

وكأنى برسول الله ﷺ قد فطن إلى ما يبتغيه حذيفة – إنه كان يريد أن يعرف هل هم من العجم أم من العرب ، فأجابه الرسول ﷺ بقوله : « هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا » ، فعلم حذيفة أن الفتنة تخرج من العرب وإليهم تعود ؛ لأن الدنيا تنفتح عليهم فيتنافسونها ، ويتقاتلون على حطامها ، ويتسابقون إلى الإمارة والملك ، ولا يرقبون فى سبيل ذلك إلاًّ ولا ذمة (٢) ، ويعودون إلى حميتهم الجاهلية ، وعصبيَّتهم القبليَّة بسبب هذا التنافس المحموم ، ويقتل بعضهم بعضاً لأتفه الأسباب ، ويتركون أهم فريضة تحفظ عليهم أموردينهم ودنياهم ، وهى الجهاد فى سبيل الله .

فإذا ما أهملوا هذه الفريضة استبدّ بهم عدوهم فشتت شملهم وفرق جمعهم ، وزلزل أقدامهم وألقى الرعب فى قلوبهم ، فلا يزالون يخشون بأس

---

(١) فاطر : ٦ .

(٢) الإلّ : القرابة ، والذمة : العهد .

عدوهم حتى يأتى الله بقوم آخرين يطبقون شريعته ، ويجاهدون فى سبيله حتى يأتى أمر الله .

يقول الله عز وجل : ﴿ إن يشأ يذهبْكم أيها الناس ويأتِ بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ (١) .

ويقول جل شانه : ﴿ إن يشأ يذهبْكم ويأتِ بخَلْقٍ جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ وإن تتولَّوا يستبدلْ قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ (٣) .

ويقول عز من قائل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يَرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ (٤) .

* * *

وبعد أن عرف حذيفة ما عرف أتبع حديثه مع رسول الله ﷺ بسؤال كان ولابد له أن يعرضه على رسول الله ﷺ إذ هو الغرض من الأسئلة السابقة كلها .

قال : يا رسول الله ، فما ترى ، وفى رواية : فما تأمرنى إن أدركنى ذلك؟ .

فقال رسول الله ﷺ : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » .

أى : تتمسك بما يتمسكون به من الخُلُق الفاضل والسلوك النبيل ، وتنهج نهجهم فى عباداتهم ومعاملاتهم .

و « تلزم ... إلخ » :جملة خبرية فى اللفظ طلبية فى المعنى،فهى بمعنى: الزم ، كأن اللزوم أمر مفروغ منه عند وجود هؤلاء الأشرار على حد قوله تعالى: ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ﴾ ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ .

---

(١) النساء : ١٣٣ .
(٢) فاطر : ١٦ – ١٧ .
(٣) محمد : ٣٨ .
(٤) المائدة : ٥٤ .

وجماعة المسلمين : هم أولئك الذين عرفوا الإسلام من مصادره الأصلية ، وعملوا بما جاء فى الكتاب والسنة فى الوقت الذى عاد فيه الإسلام غريباً كما بدأ .

وهم جماعة لا يكاد المرء يعرفهم لقلتهم وانحصارهم فى مكان ما ، لعله يكون ما بين مكة والمدينة ، كما جاء فى صحيح مسلم وغيره عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، وهو يأرزْ (١) بين المسجدين كما تأرز الحية فى جحرها » .

وإمام المسلمين يومئذ : هو أعلمهم وأتقاهم قد تولى أمرهم برضاهم وبقناعة منهم .

* * *

قال حذيفة - رضى الله عنه : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ .

أى : إن لم يكن لهم رابطة تجمعهم ، ولا مكان يضمهم ، ولا إمام يأتمون به لقلتهم يومئذ وضعف شأنهم بين الناس ، فماذا أفعل ؟ .

قال رسول الله ﷺ : « فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » .

أى اعتزل بقلبك وقالبك تلك الفرق الضالّة كلها ، ولا تركن إلى فرقة منهم فيضلّوك عن سبيل الله ، ولو أدى بك الأمر إلى أن تعض بأصل شجرة ، وهو كناية عن اشتداد الأمر ، وحصول المشقة البالغة فى العزلة والبعد عن الناس ، فالعزلة - كما نعلم - ضد رغبة الإنسان ، وضدّ طبيعته ، فالإنسان مدني بالطبع - كما يقول ابن خلدون فى مقدمته - لا يستطيع أن يعيش بعيداً عن أبناء جنسه ، لأنه فى حاجة إلى التمدين ، وهو : الاجتماع والتعارف والائتلاف .

ومن أجل ذلك خلق الله الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل .

---

(١) يأرز : أى ينضم ويجتمع .

والعض معناه : اللزوم وشدة التمسك ، كما فى قوله ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين من بعدى عَضوا عليها بالنواجذ » .

أى : بالأسنان والأضراس .

وأصل الشجرة : أسفلها ، فيكون المعنى : ولو أدى بك الأمر إلى أن تجلس تحت شجرة فَتَنْحنِى على جذعها من شدة الإعياء والتعب فراراً بدينك من هذه الفتن التى تموج موج البحر ، ولا ينجو منها إلاَّ من اعتزل الناس وترك لهم دنياهم بأسرها ، وبقضها وقضيضها .

نسأل الله السلامة والعافية فى الدين والدنيا والآخرة .

* * *

(٥٢) توبوا إلى الله

عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنه – قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : **« يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا ، وصِلُوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة فى السر والعلانية تُرزقوا ، وتُنصروا ، وتُجبروا »** (١) .

* * *

هذه وصية جامعة لخصال الخير كلها ألقاها النبى ﷺ على مسامع الناس لتكون نبراساً لهم فى حياتهم ومصباحاً ينير لهم طريقهم إلى الله – عز وجل – .

وقد بدأ بالتوبة ؛ لأنها أول الطريق إلى الله ووسطه وآخره يصحبها المؤمن فى حِلّه وترحاله ، ويعيش فى ظلها ليله ونهاره ، ويستحضرها فى قلبه كلما شعر بذنبه ويتخذها سكناً له تُهدئ من روعه إذا شعر بالخوف من عذاب ربه ، وتبعث فيه الرجاء فى رحمته ، وتطرد عنه شبح اليأس كلما لاح له واقترب منه .

ومعنى قوله ﷺ : « توبوا إلى الله قبل أن تموتوا » : بادروا بالتوبة قبل أن يبادركم الموت ، ولا تغفلوا عنها وأنتم تعلمون أن الفلاح فيها .

وهذا الأمر عام يشمل من تاب ومن لم يتب ، فمن تاب ينبغى أن يجدد التوبة ، ولا يركن إلى توبته السابقة ، بل يتوب من التوبة نفسها ، إذا ربما تكون توبة قاصرة ، أو حدث فيها ما يخل بالأدب .

وهذا ما فهمه بعض العلماء من قوله تعالى من سورة النور : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ (٢) .

فلفظ ﴿ جميعاً ﴾ فى الآية يشمل : من تاب ومن لم يتب . ولو كان

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه ،كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب (٧٨) .

(٢) النور : ٣١ .

المراد به من لم يتب فحسب لقال : وتوبوا إلى الله أيها المؤمنون ، فعندئذ يجوز انصراف الخطاب إلى من لم يتب دون من تاب .

وبناءً على هذا الفهم جعل ابن القيم – رحمه الله – من أركان التوبة : التوبة من التوبة [١] ، فما أعظم هذا الفهم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

وتجديد التوبة الفينة بعد الفينة يساعد العبد على الإسراع فى مرضاة الله عز وجل ، والمضى قُدُمًا فى الطريق الموصل إليه ، ويحول بينه وبين الذنوب التى تهفو النفس إليها ، ويوسوس الشيطان له بها .

وتجديدها يكون بمحاسبة النفس أولاً بأول على ما قدمت وأخرت من خير وشر ، بحيث إذا رأى أنها قد فعلت خيراً لامها على عدم المزيد منه ، وإذا رأى أنها قد اقترفت إثمًا عاقبها على سوء صنيعها بما تستحقه من العقاب ، وذلك بأن يكلفها من الأعمال الصالحة ما يكون سبباً فى محو ذنوبها بعد أن يظهر الندم على ما فَعَل ، ويبكى على خطاياه ، فإن لم يسعفه البكاء تباكى .

فإن فعل ذلك بدّل الله سيئاته حسنات كما وعد فى قوله جل شأنه : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يُبَدِّلُ اللهُ سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيمًا ﴾ [٢] .

ويشترط فى صحه التوبة :

أن تكون خالصة لوجه الله تعالى ، فهى التى يتقبلها الله من عباده ، ويكفر بها السيئات ، ويرفع بها الدرجات فى جنة عرضها السماوات والأرض .

يقول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحًا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يُخزى اللهُ النبىَ والذين آمنوا معه نورُهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾ [٣] .

---

(١) انظر مدارج السالكين باب التوبة .

(٢) الفرقان : ٧٠ .

(٣) التحريم : ٨ .

والنصوح فى اللغة : الخالص الذى لا غش فيه ، يقال : عسل نصوح ، ولبن نصوح أى : خالٍ من الخلط والغش .

وثوب نصوح : أى محكم النسج ليس فيه تفاوت ولا خلل .

والتوبة النصوح لها أركان وشروط .

وأركانها خمسة :

الركن الأول : العلم بخطورة الذنب ، فمن لم يعلم بخطورة الذنب لا يستعظمه ، ومن لم يستعظم الذنب فكيف يتوب منه ، ولو تاب منه لا تقبل توبته ؛ لتهاونه فيه واستخفافه به .

يقال : إن رابعة العدوية سمعت رجلاً يستغفر الله وقد أحست أنه ليس جاداً فى استغفاره ، فقالت : إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار .

وقد قسم العلماء الذنوب إلى كبائر وصغائر ، وهذا التقسيم صحيح ، ولكن الراسخين فى العلم يقولون : « لا تنظر إلى صغر الذنب ، ولكن انظر من عصيت » ، فعندئذ يعظم الذنب فى نفسك ، فتتوب منه بقدر ما تشعر بخطره ، وبقدر ما تتوقع العقوبة منه .

ولكى تُرَسّخ هذا المفهوم فى ذهنك ينبغى عليك أن تتفكر فى عظمة الخالق عن طريق النظر فى آياته الكونية وفى نفسك بالذات ، ثم تقف عند آيات الرحمة وآيات العذاب ؛ لكى تتقلب بين الخوف والرجاء ، فتخاف تارة ، وترجو تارة أخرى ، فتجد نفسك عند الوقوع فى الذنب خائفاً من عذابه الأليم ، وتجد نفسك عند التوبة منه طامعاً في رحمته ، طامعاً في عفوه ، فتتوب من ذنبك عن رغبة ورهبة .

واذكر دائماً قوله تعالى فى آخر سورة الأنعام : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفورٌ رحيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) الأنعام : ١٦٥ .

واذكر أيضاً قوله تعالى فى سورة الحجر : ﴿ نبِّئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ (١) .

وقوله تعالى فى سورة الزمر : ﴿ قل يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تُنصرون واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقولَ نفسٌ يا حسرتَى على ما فرطتُ فى جنب الله وإن كنتُ لمن الساخرين أو تقولَ لو أن الله هدانى لكنتُ من المتقين أو تقولَ حين ترى العذاب لو أن لى كَرَّةً فأكونَ من المحسنين ﴾ (٢) .

الركن الثانى : المبادرة بها ، وعدم الإصرار على الذنب ، فمتى وقع منه وعلم به فقد وجـب عليه التوبة منه ؛ فالإصـرار على الذنب الصغير يُصَـيِّره كبيراً .

قال العارفون بالله : لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار .

وقد شرط الله لقبول التوبة : المبادرة بها فى قوله – جل وعلا – : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفرُ الذنوب إلا الله ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ (٣) .

الركن الثالث : العزم على عدم العود إلى الذنب ، فإنه من تاب وهو عازم على الوقوع فيما تاب منه كان كالمستهزئ بربه – والعياذ بالله – .

فإن تاب العبد من الذنب ثم وقع فيه تاب منه مرة أخرى حتى يقوى على مفارقته ، ولا ييأس من رحمة الله ما دام يخلص التوبة فى كل مرة .

---

(١) الحجر : ٤٩ – ٥٠ .

(٢) الزمر : ٥٣ – ٥٨ .

(٣) آل عمران : ١٣٥ – ١٣٦ .

فقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن عبداً أصاب ذنبًا ، فقال : يا رب إني أذنبت ذنباً فاغفره ، فقال ربه : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبًا آخر - وربما قال : ثم أذنب ذنبًا آخر - فقال : يا رب إنى أذنبت ذنبًا آخر فاغفره لى ، قال ربه : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به ، فغفر له ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبًا آخر - وربما قال : ثم أذنب ذنبًا آخر - فقال : يا رب إنى أذنبت ذنبًا فاغفره لى ، فقال ربه : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به ، فقال ربه : غفرت لعبدى فليعمل ما شاء » .

ومعنى قوله : فليعمل ما شاء ، أى : ما دام يتوب توبة نصوحًا ثم يقع فى الذنب مرغمًا ، أو من غير سبق إصرار ، بأن غلبه الهوى وغرّه الشيطان ، ولم يقو على دفعه فإنه كلما تاب يتوب الله عليه ، ولو وقع فى الذنب مائة مرة ما لم ييأس من رحمته .

ولا يخفى ما فى هذا القول من طرد لشبح اليأس عن التائبين ، فإن الشيطان يقول لمن تكرر منه الوقوع فى المعصية : لا توبة لك ، وقد عصيت الله أكثر من مرة ، فمتّع نفسك بهذه الشهوات المتاحة ما دام باب التوبة قد أغلق دونك ، ونحو ذلك من المثبِّطات والمغريات .

والمؤمن لا يعرف الطريق إلى اليأس ولا يعرف اليأس الطريق إليه : ﴿ إنه لا ييأسُ من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون ﴾ (١) .

وقد اجتهد النبى ﷺ فى طرد شبح اليأس من نفوس المؤمنين بكل سبيل ، ووردت عنه أحاديث كثيرة فى ذلك منها :

(أ) ما رواه مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أشد فرحًا بتوبة عبده ، حين يتوب إليه ، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة ، فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك

---

(١) يوسف : ٨٧ .

إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح »[1] .

(ب) وروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن نبى الله ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ؟ ، فدل على راهب ، فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً ، فهل له من توبة ؟ ، فقال : لا . فقتله ، فكمّل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ؟ ، فدل على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ ، فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ ، انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ،ولا ترجع إلى أرضك ، فإنها أرض سُوء . فانطلق حتى إذا نصف الطريق ، أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله .

وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملك فى صورة آدمى ، فجعلوه بينهم . فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلي الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » .

وفى رواية :« فلما كان فى بعض الطريق أدركه الموت فناء بصدره نحوها» .

وفى رواية : « فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر ، فجعل من أهلها» .

وفى رواية : « فأوحى الله إلى هذه : أن تَبَاعدى ، وإلى هذه أن تَقَربى . وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجد إلى هذه أقرب بشبر »[2] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه رقم (٢٧٤٧) .

(٢) انظر البخاري ٦ / ٣٧٣ ، ٣٧٤ فى الأنبياء ، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ، ومسلم رقم (٢٧٦٦) فى التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ، وانظر جامع الأصول لابن الأثير كتاب التوبة رقم (٩٨٧) صـ٥١٣ ، ٥١٤ .

(جـ) وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه » [1] .

الركن الرابع من أركان التوبة : العزم على قضاء ما فات من الصلاة والصوم والزكاة وغير ذلك ، وتدارك ما وقع في عبادته من تقصير ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

فإن مات ولم يقض كل ما فاته عفا الله عنه برحمته الواسعة ، إنه رحيم ودود .

الركن الخامس : رد المظالم المادية إلى أصحابها إن علم بوجودهم ، وإلا ردّها إلى ورثتهم ، فإن لم يعلم لهم ورثةً تصدق بها على ذمتهم .

فإن كان فقيراً تصدق بها على نفسه وعلى أولاده ، ووهب ذلك لهم ، فيقول : ما أطعم به نفس وأولادى فهو صدقة لأصحاب الحقوق علىّ .

أو ينوى أنه متى أيسر سدد ما عليه من الحقوق لأصحابها إن علم بهم أو بورثتهم أو تصدق بها على ذمتهم ، كما قال بعض أهل العلم ، أو يضاعف من الحسنات ، فيعمل من الصالحات بمقدار تلك السيئات التى ارتكبها فى حقوق العباد المالية وغيرها .

فليقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين منهم ، أو بالاعتذار إليهم إن أمكنه ذلك من غير مضارّة .

والحقوق ثلاثة :

(أ) حق لله خالصاً : وهذا يعفى عنه لمن قصر فيه بالتوبة النصوح .

(ب) وحق للعباد خالصاً : وهذا لا يغفر لمن قصر فيه إلا برد المظالم إلى أهلها ، أو طلب العفو فيها ، فإن لم يستطع ذلك وتاب توبة نصوحاً ، فعسى الله أن يتوب عليه ويُرضى خصومه يوم القيامة .

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٧٠٣) فى الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار .

(جـ) وحق مشترك بين العبد وربه : وهــذا الحق يكفَّر بالتوبة ورد المظالم معًا ، أو الاعتذار لأصحابها وطلب العفو منهم كما قلنا فى الحق السابق .

وقد تكلم علماء الأصول عن هذه الثلاثة بإفاضة ، ولعلنا نعرض لها بشىء من التفصيل فى كتابنا هذا إن شاء الله .

والناس فى التوبة على أربعة أقسام :

الأول : توبة أصحاب النفوس المطمئنة ، وهم الذين يتوبون إلى الله توبة نصوحًا ويستقيمون عليها إلى آخر العمر ، ويتداركون ما فرطوا فيه ، ولا يحدثون أنفسهم بالعودة إلى الذنوب ، ولا إلى الذلات التى لا ينفك عنها البشر فى العادات .

وأولئك هم السابقون في الخيرات - جعلنا الله منهم .

يناديهم ربهم عند موتهم بقوله - جل شأنه - : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضيةً مرضيةً فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ (١) .

ويناديهم بذلك أيضًا يوم القيامة بلا صوت ولا حرف يسمعونه ، بلا كيف ولا مَثَل ، لا نسأل كيف يسمعون فذلك أمر لا نعلمه ، ولو علمناه لا نقدر على فقهه واستيعابه ، ولكن من ذاق عَرَف - كما يقولون - .

وهؤلاء يختلفون فيما بينهم ، فمنهم من سكتت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ، ومنهم من تنازعه نفسه فهو مشغول بمجاهدتها .

الثانى : توبة أصحاب النفـوس اللوامة ، وهم الذين تابوا إلى الله توبة نصوحًا ، وسلكوا الطريق المستقيم فى أمهات الطاعات ، وتركوا الكبائر ، ولم يقعوا فى الصغائر عن عمد ، وكلما أتوا شيئًا منها لاموا أنفسهم ، وندموا وعزموا على الاحتراز من أسبابها ، ولم يستخفوا بها ، ولم يصروا عليها ساعة من نهار ، وأخذوا بالقــول الذى تقـدم ذكره : « لا صغيره مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار » ، ووضعوا أنفسهم موضع الاختيار فحاسبوها أولاً بأول ، فأولئك هم أصحاب اليمين .

---

(١) الفجر : ٢٧ - ٣٠ .

وهؤلاء لهم من الله حسن الجزاء ، وإن قل عن درجة السابقين .

الثالث من الأقسام : أصحاب النفوس المسولة ، التى تغلب صاحبها كثيراً فيكبح جماحها تارة ويعجز عن ذلك تارة أخرى .

وهؤلاء يتوبون إلى الله توبة نصوحاً ، ثم تغلبهم شهواتهم فيقترفون بعض الذنوب ، وقد تكون من الكبائر ، إلا أنهم مع ذلك يواظبون على تأدية الواجبات ، فيصلون ويصومون ويزكون ويحجون ، ويجاهدون فى سبيل الله ، ويبرون آباءهم وأمهاتهم ، ويكرمون الضيف ، ويحسنون إلى الجار ، وما إلى ذلك من الواجبات والسنن والمستحبات .

وهؤلاء قد خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا فعسى الله أن يتوب عليهم توبة السابقين ، أو توبة أصحاب اليمين .

فأمر هؤلاء إلى الله فإن شاء عفا عنهم وإن شاء عاقبهم ، وهم إلى العفو أقرب - إن شاء الله - كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحًا وآخرَ سيِّئًا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴾ (١) .

وعسى فى جانب الله تفيد تحقيق الوقوع ، فالله عند ظن عبده به إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كما قال ﷺ فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

وقد قال ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » ، وقد تقدم هذا الحديث فراجعه إن شئت .

الرابع من الأقسام : أصحاب النفوس الأمارة ، وهؤلاء يتوبون من ذنوبهم توبة لا يصحبها عزم على ترك الذنب ، ولا عزم على تدارك ما فات ، ثم ينهمكون فى الذنوب ولا يُحدثون أنفسهم بعد ذلك بتوبة .

فهؤلاء من المُصرِّين على الذنوب ، لا تقبل توبتهم إلا إذا تركوا الإصرار ،

---

(١) التوبة : ١٠٢ .

وأكثروا من الاستغفار مع الندم على ما فات ، والعزم على عدم العود ، وبذل الجهد فى العمل الصالح .

ويخشى على هؤلاء من سوء الخاتمة : ﴿ إن النفسَ لأمارةٌ بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم ﴾ (١) .

وإن مات واحد من هؤلاء على التوحيد يرجى له الخلاص من النار ، ولو بعد حين .

* * *

وأما قوله ﷺ : « وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا » ، فهو أمر بتحصيل برهان صحة التوبة ؛ لأن التوبة النصوح مقرونة بالعمل الصالح ، وذلك فى جميع آى القرآن التى تتحدث عن التوبة والتائبين ، وقد مرت بك بعض الآيات الدالة على ذلك ، فلا توبة بلا عمل ، فالتوبة كالسفينة والتائب ربانها ، والعمل كالماء بالنسبة لها ، فكيف ترجو أن تنجو من عذاب الله من غير عمل .

تَرْجُو النَّجَاةَ ولم تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا

إن السفينَةَ لا تجرى على اليَبَسِ

يقول الله - عز وجل - فى سورة طه : ﴿ وإنى لغفارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى ﴾ (٢) أى ثم لازم الهدى إلى نهاية عمره .

وقد يعترى التائب ظرف يشغله عن العمل ، أو يعوقه عن الوفاء به ، فعليه أن يغتنم شبابه قبل هَرَمه ، وغناه قبل فقره ، وصحته قبل مرضه ، وفراغه قبل شغله وحياته قبل موته ، كما جاء فى حديث سبق شرحه .

فالشواغل كثيرة ،والعزائم قد يصيبها الوهن فى بعض الأحيان ، فما على المسلم إلا أن يقسم أوقاته ، فيجعل وقتًا لربه ، ووقتًا لنفسه ، ووقتًا لأهله ، وليؤثر ما يبقى على ما يفنى ، وليتزود من الدنيا بزاد ينفعه للآخرة .

---

(١) يوسف : ٥٣ .

(٢) طه : ٨٢ .

﴿ وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى واتقونِ يا أولى الألباب ﴾ (١) .

والتقوى : هى طلب الوقاية من عذاب الله تعالى بفعل الطاعات واجتناب المحرمات .

والعاقل حقًا من زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة ، ولم يدخر وسعًا فى تحرير نفسه من عبودية الشهوات والملذات الفانية ، واتجه بقلبه إلى خالقه ومولاه ووهب أنفاسه لله .

﴿ قل إن صلاتى ونُسُكى ومحياىَ ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين ﴾ (٢) .

والأمر فى هذه الآية للرسول ﷺ بالأصالة ولأمته بالتبعية ، إلا أن المسلم لا يقول : وأنا أول المسلمين ؛ فذاك هو محمد عليه الصلاة والسلام – ولكن يقول : وأنا من المسلمين .

والقول لا يكون باللسان وحده ولكن يكون بالقلب واللسان معًا ، والعمل يصدق ذلك أو يكذبه .

نسأل الله أن يجعلنا من الصادقين فى أقوالنا وأفعالنا .

* * *

وأما قوله ﷺ فى الحديث : « وَصِلُوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا » فهو بيان لمواطن البر ومصارفها ، وتنبيه على أفضل الأعمال التى تصل العبد بربه ، وتجعله سعيداً فى دنياه وآخرته .

أما ذكر الله : فهو الروح والريحان ، وهو الأمن والإيمان ، وهو نعيم الدنيا والآخرة .

قال رجل من الصالحين : عجبت لقوم خرجوا من الدنيا ولم يستمتعوا

---

(١) البقرة : ١٩٧ .

(٢) الأنعام : ١٦٢ – ١٦٣ .

﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾ (١) .

والتقوى : هى طلب الوقاية من عذاب الله تعالى بفعل الطاعات واجتناب المحرمات .

والعاقل حقًّا من زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة ، ولم يدخر وسعًا فى تحرير نفسه من عبودية الشهوات والملذات الفانية ، واتجه بقلبه إلى خالقه ومولاه ووهب أنفاسه لله .

﴿ قل إن صلاتى ونُسُكى ومحياىَ ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين ﴾ (٢) .

والأمر فى هذه الآية للرسول ﷺ بالأصالة ولأمته بالتبعية ، إلا أن المسلم لا يقول : وأنا أول المسلمين ؛ فذاك هو محمد عليه الصلاة والسلام – ولكن يقول : وأنا من المسلمين .

والقول لا يكون باللسان وحده ولكن يكون بالقلب واللسان معًا ، والعمل يصدق ذلك أو يكذبه .

نسأل الله أن يجعلنا من الصادقين فى أقوالنا وأفعالنا .

* * *

وأما قوله ﷺ فى الحديث : « وَصِلُوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا » فهو بيان لمواطن البر ومصارفها ، وتنبيه على أفضل الأعمال التى تصل العبد بربه ، وتجعله سعيداً فى دنياه وآخرته .

أما ذكر الله : فهو الروح والريحان ، وهو الأمن والإيمان ، وهو نعيم الدنيا والآخرة .

قال رجل من الصالحين : عجبت لقوم خرجوا من الدنيا ولم يستمتعوا

---

(١) البقرة : ١٩٧ .

(٢) الأنعام : ١٦٢ – ١٦٣ .

بنعيمها !! قيل : أو فى الدنيا نعيم يا رجل ؟! ، قال : نعم . فيها نعيم يعدل نعيم الجنة . قالوا : وما هو ؟ ، قال : ذكر الله .

إنه الصله الوثيقة بين العبد وربه حقًّا ؛ إذ يبادله ذكرًا بذكر وحبًّا بحب .

يقول الله – عز وجل – فى الحديث القدسى : « أنا عند ظن عبدي بى ، وأنا معه إذا ذكرنى . فإن ذكرني فى نفسه ذكرته في نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إليّ ذراعًا تقربت منه باعًا ، وإذا أتانى يمشى أتيته هرولة » (١) .

وهذا الحديث تفسير لقوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أَذكرْكم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ (٢) .

وبيان لفحوى قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ اتلُ ما أوحىَ إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكْرُ الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ (٣) . أى : ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه .

والذكر لا يقتصر أمره على التسبيح ، والتحميد ،والتهليل والتكبير ، وقراءة القرآن ، ولكن يكون أيضًا بتدبر القرآن والتفكر فى مخلوقات الله – عز وجل – بل إن التدبر فى الآيات القرآنية ، والتفكر فى الآيات الكونية هو المعوّل عليه في الذكر ، فلا يكون لبيبًا من لم يأخذ من كتاب ربه العظة والعبرة ، ويأخذ البرهان الساطع على التوحيد الخالص من نفسه أولاً ومن الكون الذى هو ذرة منه ثانيًا .

يقول الله عز وجل : ﴿ إن فى خلقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولى الألباب الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) البقرة : ١٥٢ .

(٣) العنكبوت : ٤٥ .

ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ (١) .

ويقول جل شأنه : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبينَ لهم أنه الحق أو لم يَكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ (٢) .

فالذكر والتفكر قرينان متلازمان ، والمؤمن لا يذكر الله بلسانه فحسب ولكن يذكره بعقله وقلبه ذكراً يهتز له كيانه كله .

وقد أمر الله المؤمنين بالإكثار من ذكره ، ووعدهم على ذلك أجراً عظيماً ، فقال فى سورة الأحزاب : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبِّحوه بُكرةً وأصيلاً هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً تحيتهم يوم يلقونه سلامٌ وأَعَدَّ لهم أجراً كريماً ﴾ (٣) .

ومعنى : ﴿ اذكروا الله ﴾ فى الآية : تفكروا فى مخلوقاته وفى آلائه ، واشكروه على وافر نعمه .

ومعنى قوله : ﴿ وسبحوه ﴾ : نزهوه عن كل ما لا يليق بذاته بألسنتكم وقلوبكم ، واشهدوا له بالوحدانية كما شهدت به جميع الكائنات ، فما من شيء فى هذا الوجود إلا وهو يوحده ويُسبح بحمده .

ومعنى قوله : ﴿ يصلي عليكم ﴾ : يرحمكم ، ويبارك لكم فيما وهبكم، ويعفو عنكم إذا ما ذكرتموه ذكراً كثيراً وسبحتموه بكرة وأصيلاً .

والصلاة من الملائكة دعاء واستغفار .

ولا شك أن ذكر الله يشرح الصدر ويُنيرُه ، ويرقق القلب ويثبته على الإيمان الكامل واليقين الصادق .

قال تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبُهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ﴾ (٤) .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ – ١٩١ .
(٢) فصلت : ٥٣ .
(٣) الأحزاب : ٤١ – ٤٤ .
(٤) الزمر : ٢٢ .

أى أفمن وسع الله صدره وأناره بالعلم والذكر كمن تركه ضيقًا حرجًا ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فمن يُرد الله أن يهديَه يشرحْ صدره للإسلام ومن يُردْ أن يُضلَّه يجعلْ صدره ضيقًا حرجًا كأنما يَصَّعَّدُ فى السماء كذلك يجعل الله الرِّجس على الذين لا يؤمنون ﴾ (١) .

وأعظم ما ينشرح به الصدر تلاوة القرآن ، فقد قال الله — عز وجل — بعد قوله : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

والتلاوة التى يتأتى منها ذلك هى التى يصحبها التَّدبر الأمثل المبنى على الفقه الدقيق لمعانى الألفاظ ومراميها .

يقول الله — عز وجل — : ﴿ كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ليدَّبَّروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب ﴾ (٢) .

أما القراءة وحدها فإنها ذكر يؤجر المرء عليه ، ولكن لا يكون الأجر أتم وأكمل ، ولا يكون النفع أعظم وأجل إلا مع التدبر .

وقد قال النبي ﷺ فى الحديث الصحيح : « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

* * *

وأما الإيصاء بكثرة الصدقة فى السر والعلانية بعد الإيصاء بالتوبة والذكر فلأنه من لوازمهما .

فالصدقة تطفئ غضب الرب — تبارك وتعالى — كما يطفئ الماء النار .

وما سميت صدقة إلا لأنها تترجم عن صدق صاحبها ، وتعبر عن إخلاصه وشكره لخالقه ومولاه .

---

(١) الأنعام : ١٢٥ . (٢) ص : ٢٩ .

وقد جاء فى الحديث الصحيح الذى أخرجه مسلم : « والصدقة برهان » . أى برهان على صحة الإيمان .

والإنسان يحب المال بطبعه ، فإذا زعم أنه يحب الله فليبرهن على ذلك بإخراج شيء مما يحب من أجل من يـحب ، فإن فعل فهو صادق فى حبه وإلا فلا ، فالبر كل البر فى الإنفاق بعد تحصيل الإيمان .

قال تعالى : ﴿ ليس البرَّ أن تُوَلُّوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفـون بعـهدهـم إذا عاهـدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (١) .

ومنع الزكاة والبخل بالصدقات يكاد يكون كفراً بالله وكفراً بأنعمه .

قال جل شأنه فى وصف المشركين : ﴿ وويلٌ للمشركين الذين لا يُؤتُون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ (٢) .

وليس هناك تجارة مع الله بعد الإيمـان به أعظم من تلاوة كتـابه والإنفـاق فى سبيله .

قال جل شأنه : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفِّيَهم أجورهم ويزيدَهم من فضله إنه غفور شكور ﴾ (٣) .

ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله رجل تصدق صدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه .

وبالإنفاق ينشرح الصدر ، ويعظم الأجر ، ونفوز بالنصر ، ويتسع علينا الرزق ، كما أخبرنا الرسول ﷺ بذلك فى هذا الحديث .

---

(١) البقرة : ١٧٧ .　(٢) فصلت : ٦ - ٧ .

(٣) فاطر : ٢٩ - ٣٠ .

قال تعالى فى جزاء المحسنين : ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجرُ العاملين ﴾ (١) .

وقال جل شأنه : ﴿ وما أنفقتم من شىء فهو يُخْلِفُه وهو خير الرازقين ﴾ (٢) .

وقال عز من قائل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدُلُّكم على تجارة تُنجيكم من عذابٍ أليمٍ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون يَغفرْ لكم ذنوبكم ويُدخلْكم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ومساكنَ طيبةً في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصرٌ الله وفتحٌ قريبٌ وبَشِّر المؤمنين ﴾ (٣) .

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعلنا منهم .

* * *

(١) آل عمران : ١٣٦ .
(٢) سبأ : ٣٩ .
(٣) الصف : ١٠ - ١٣ .

(٥٣) اتَّقُوا دعوةَ المظلوم

عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن ، فقال : « اتَّقِ دعوةَ المظلوم ، فإنَّها ليس بينها وبين الله حجاب » (١) .

* * *

كان النبى ﷺ يحذّر أصحابه تحذيراً شديداً من الوقوع فى الظلم ، وينَفِّرهم من عواقبه الوخيمة ، وآثاره المؤلمة ، ويدعوهم إلى نصرة المظلوم بشتى الوسائل المشروعة ، ويَحُضُّهم على رعاية الحريات وصيانة الأعراض والأموال ، وإقامة العدل بين الناس في جميع الأحوال ، ويخبرهم أن أبواب السماء مفتوحة لدعوة المظلوم فلا تُرَدُّ أبداً ؛ لأن الله حرّم الظلم على نفسه ، وجعله بين الناس محرّماً ، فمن ظلم فظلمه يعود عليه ويحيق به .

وقد بعث معاذاً بن جبل إلى اليمن والياً ، وكان رجلاً صالحا زاهداً تقيًّا ورعًا ، ومع ذلك أوصاه بهذه الوصية ليكون غيره بها أجدر ، فقال له : « اتق دعوة المظلوم » ، أى اجعل لنفسك وقاية من عواقبها بترك الظلم ، والتخلى عن أسبابه ووسائله ، ولا تحم حوله من قريب ولا من بعيد ، ولا تعن ظالمًا على ظلم أحد ، ولا ترض به إن وقع ، وكن للمظلوم ناصراً ومعيناً له على أخذ حقّه ممن ظلمه بالحسنى ، أو بالقوة إن استدعى الأمر ذلك ، وأقم شرع الله بين الناس ، واحكم بينهم بالحق ، وكن قوّامًا عليهم بالقسط ، ولا تُحَابِ أحداً فى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، واحرص كل الحرص على طاعة الله حيثما كنت ، واعلم أن الله مع المظلوم حتى تنصفه ، فإن لم تنصفه فانتظر ما يحل بك إن دعا عليك .

---

(١) رواه البخارى فى المظالم ، والترمذى فى البر والصلة ، وأبو داود فى الزكاة ، وغيرهم .

كل ما قلته تحمله هذه الوصية ؛ لأن التقوى صفه جامعة لذلك وغيره ، فهى طلب الوقاية من كل ما من شأنه أن يُتقى .

وطلب الوقاية إنما يكون بتحصيل أسبابها ووسائلها .

والوسائل والأسباب تتمثل كلُّها فى ترك المعاصي وفعل الطاعات .

والظلم من أكبر الكبائر والعدل من أعظم الطاعات ، وهو أساس الملك ؛ لأن الله – عز وجل – قد أقام الوجـــود كله عليه ، فلا ترى فى خلق الله من تفاوت ، ولا ترى فى شرعه من تناقض ، ولا ترى فى حكمه من قصور ، ولا ترى فى شأنه كله مع عباده إفراطًا ولا تفريطاً .

هذا هو معنى قولهم : العدل أساس الملك .

وجماع أمر الإســـلام كـــله فى آية واحــدة : ﴿ إن الله يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغيِ يعظُكم لعلكم تَذكَّرون ﴾ (١) .

وقد وردت أحاديث كثيرة تؤكد أن دعوة المظلوم لا تُرَدُّ منها :

ما رواه الترمذى وأبو داود عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا تُرَدُّ دعوتهم : الصائم حين يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزَّتى لأنصرَنَّكِ ولو بعد حين » .

وفى رواية : « ثلاث دعوات مستجابات ، لا شكَّ فى إجابتهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على الولد » .

وقال رسول الله ﷺ : « اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة » (٢) .

---

(١) النحل : ٩٠ .

(٢) رواه الحاكم عن ابن عمر ، ورواته متفق على الاحتجاج بهم ، إلا عاصم بن كليب فاحتج به مسلم وحده ، ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب .

ومعنى قوله ﷺ فى هذه الوصية : « فإنها ليس بينها وبين الله حجاب » أنها مستجابة من غير قيد ولا شرط ، وأنها ترفع إلى الله مباشرة ليقضى فيها بالحق ، وأنه لا يمنع من قبولها مانع إذا ما دعا المظلوم وهو موقن بالإجابة .

روى أحمد فى مسنده عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « دعوةُ المظلوم مستجابة ، وإن كان فاجراً ، ففجورُهُ على نفسه » .

وروى أحمد فى مسنده أيضاً عن أبى عبد الله الأسدى قال : سمعتُ أنس ابن مالك – رضى الله عنه – يقول : قال رسول الله ﷺ : « دعوة المظلوم ، وإن كان كافراً ، ليس دونها حجاب » [1] .

وروى ابن حبان والحاكم بسند صحيح حديثاً طويلاً سيأتى ذكره بتمامه فى موضع آخر من هذا الكتاب ، وقد جاء فيه أن أبا ذرٍ – رضى الله عنه – قال : قلت : يا رسول الله ، ما كانت صحف إبراهيم ؟ ، قال : « كانت أمثالاً كُلُّهَا : أيُّها الملك المسلط المبتلى المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أَرُدُّها وإن كانت من كافر ... » .

* * *

روى أن ملكاً من ملوك بنى إسرائيل بنى قصراً منيفاً فزينه وجمَّله ، ولم ير فيه عيباً إلا أن بجواره كوخاً لمرأة عجوز فهدمه ، وكانت فى حاجتها ، فلما جاءت ورأته مهدوماً سألت عمَّن هدمه ، فقيل : إنه الملك ، فلما أقبل الملك فى زينته وحشمه تعرضت له ، فقالت : أأنت هدمت كوخى ؟ فقال : نعم ، فقالت : وأين حقى ؟ ، قال : لا حق لك عندى ، قالت : والله لأدعون عليك دعوة تنصفنى منك ، فسخر منها ، فرفعت بصرها إلى السماء ، وقالت : اللهم إنى كنت غائبة وأنت حاضر فانتصف لى منه .

---

(١) قال المنذرى في الترغيب : رواته إلى عبد الله محتج بهم فى الصحيح ، وأبو عبد الله لم أقف فيه على جرح ولا تعديل .

فلما جَنَّ الليل ونامت الأعين دكَّ الله القصر على من فيه ، ووُجد مكتوبًا على أحد جدرانه :

أتهـزأ بالدعـاء وتزدريه ... وما يدريك ما صنع الدعاء

سهام الليل لا تخطئ ولكن ... لها أمد وللأمد انقـضاء

وقد حكـم الإله بما ترى ... فما للحـكم عندكم بقاء

* * *

وقد علّم النبى ﷺ المظلوم دعوات يلهج بها عند اشتداد الكرب نذكر لك هنا بعضها تتمّة للفائدة .

عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « إذا تخوَّف أحدكم السلطان فليقُل : اللهمَّ رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، كن لى جاراً من شر فلان ابن فلان،يعنى الذي يريده، وشرِّ الجن والإنس وأتباعهم أن يَفْرُط علىَّ أحدٌ منهم، عز جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك » (١) .

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : « إذا أتيت سلطاناً مهيباً تخاف أن يسطو بك فقل : الله أكبر ، الله أعز من خلقه جميعًا ، الله أعزُّ مما أخاف وأحذر ، أعوذ بالله الذى لا إله إلا هو الممسك السماوات أن يقعن على الأرض إلا بإذنه من شر عبدك فلان وجنوده وأتباعه وأشياعه من الجن والإنس ، اللهم كن لى جاراً من شرِّهم ، جل ثـناؤك ، وعزَّ جارك ، وتبـارك اسمُك ، ولا إله غـيرك . ثلاث مرات » (٢) .

---

(١) رواه الطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح إلا جناد بن سلم ، وقد وثق ، ورواه الأصبهانى وغيره موقوفًا على عبد الله لم يرفعوه . ذكره المنذرى .

(٢) قال المنذرى فى الترغيب : رواه ابن أبى شيبة موقوفًا ، وهذا لفظه وهو أتم ، ورواه الطبرانى ، وليس عنده : « ثلاث مرات » ، ورجاله محتج بهم فى الصحيح .

وعن أبى مِجْلَزٍ ، واسمه لاحقُ بن حميْدٍ رضى الله عنه ، قال : « من خاف من أمير ظلماً فقال : رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا ، وبالقرآن حَكَماً وإماماً نجّاه الله منه »(١) .

نسأل الله لنا ولكم النجاة فى الدنيا والآخرة .

* * *

(١) قال المنذرى فى الترغيب : رواه ابن أبى شيبة موقوفًا عليه ، وهو تابعيٌّ ثقة .

(٥٤) من أحيا سنتى فقد أحبنى

عن أنس – رضى الله عنه – قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا بنى إن قدرت أن تصبح وتمسى ليس فى قلبك غش لأحد فافعل . ثم قال لى : يا بنى وذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة » (١) .

* * *

لقد سَعِد أنس بن مالك – رضى الله عنه – بصحبة النبي ﷺ ، ونال شرف خدمته وهو ابن عشر سنين لمدة عشر سنين ، وفاز فوزاً عظيماً بوصاياه الحكيمة ، وحرص كل الحرص أن يعيى ويحفظ كل ما سمع منه ، ويعمل به .

والعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر كما يقولون ، ولا سيما أنه كان يتمتع بروح طيبة ، ونفس مطمئنة ، وذكاء حادٍ ، فكان فى طفولته رجلاً ملء السمع والبصر – يمشى مع النبى ﷺ حيث كانً ، ويجلس عنده رهن إشارته ، ولا يدخر وسعاً فى تحقيق مآربه الشخصية ، وغير الشخصية فى ليل أو نهار .

وكان النبى ﷺ يسمح له بدخول حجراته على نسائه بالقدر الذى يسمح به الشرع ، وتدعو إليه الضرورة ، ولم يكن هذا متاحاً لغيره من خيرة أصحابه ﷺ .

وقد كان النبى ﷺ يُولْيه عناية خاصة ، ويُعنى بتربيته عناية فائقة ، ويُعدّه للإسلام ذخراً ، ويُملى إليه من وصاياه ما تزكو به نفسه ، وتقوى به همّته ، فيروى عنه ما سمعه منه بأمانة وإخلاص ، ولا يكتم شيئاً مما سمعه أو رآه إذا كان يتعلق بذكره فائدة عامّة للمسلمين .

---

(١) رواه الترمذى بسند حسن .

وهذه وصية من وصاياه ﷺ لهذا الرجل الكريم ، والصحابى الجليل ، والخادم المِطْوَاع ، يرويها لنا ؛ لنشاركه العمل بها ، فنحظى بما حَظِى به من صلاح الأمر فى الدين والدنيا .

يقول له فيها : « يا بنى إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس فى قلبك غش لأحد فافعل » .

والمعنى واضح مشرق لا يحتاج منا إلى بيان ، وإن كان - ولابد - من بيان فإننا ينبغى أن نقف معجبين من هذا الخطاب الحانى الصادر من قلب رءوف رحيم لننظر ما يحتويه هذا الخطاب من بلاغة وأدب .

١ - حين ينادى العظيم خادمه بقوله : يا بنى ، يدل ذلك على تواضعه الجم .

والتواضع أول صفة من أوصاف عباد الرحمن .

قال تعالى : ﴿ وعبادُ الرحمن الذين يمشُون على الأرض هونًا ﴾ (١) ، أى : متواضعين ، لا يستخفون بإنسان ، ولا يتعالون على مخلوق مهما كان شأنه ، ولا يغترّون بما لديهم من مال ونَشَب ، ولا يعتزّون بما فضلهم الله به من حسب ونسب ، ولا يحملون فى قلوبهم غلاً ولا حقداً ولا حسداً ولو لعدو ، ولا يغضبون إلا لله .

فهم كالنجم فى السماء يُرى لمعانه فى الماء .

وخير المتواضعين على الإطلاق : محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - فهو اتقى البشر ، وأتقاهم سريرة وأحمدهم سيرة ، وأعظمهم خُلُقاً وخَلْقًا ، جَمّله الله وكمّله ، فكان سماءً ما طاولتها سماءُ .

فانظر بقدر عقلك وعلمك كيف يقول لخادمه : يا بنى ! إيناساً له ، وتطييباً لنفسه ، واستحضاراً لقلبه ، واستجلاباً لانتباهه .

---

(١) الفرقان : ٦٣ .

٢ – إنه نداء عظيم من رجل عظيم يفيض حنانًا وحيوية ، ويسكب فى القلوب الرحيمة لبان الرحمة ، فيرتشف منها أنس بن مالك ، فيصفو قلبه ويشتد عزمه ، ويزداد إيمانه بالله ورسوله .

٣ – إن فى هذا النداء تعميق لأواصر الحب والقرب حتى يشعر أنس أنه ابنه ، نعم إن لم يكن هو ابنه من صلبه ، فهو ابنه فى العلم والإيمان .

وقد قال الله – عز وجل – : ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتَمَ النبيين ﴾ (١) ، بينما قال : ﴿ النبىُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ (٢) ، فهو ليس أبًا لأحد يتبناه ، كما كان يقال : زيد بن محمد ، ولكنه أعظم من الآباء عطفًا وحنانًا ، ورأفة ورحمة .

يقول الله – عز وجل – فى سورة التوبة : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ ﴾ (٣) .

٤ – وهذا الخطاب ينزل بردًا وسلامًا على أنس بن مالك ، وينال إعجاب المؤمنين بهذا التواضع الفريد ، والسلوك النبيل ، فيحاكونه فيه ، كُلٌّ بقدر طاقته وطبعه ، ويقتدون به فى حسن المقال وبراعة الاستهلال .

والكلام كما هو معلوم لدى علماء البلاغة : يعرف حسنه بحسن مطلعه ، فيكون المطلع كالهلال الذى يبشر الناظرين بقدوم الشهر ، وبزوغ القمر .

وإنى – والله – لكأنى أسمع هذا النداء بقلبى كما يسمعه أنس – رضى الله عنه ، فأجدنى مصغيًا من تلقاء نفسى إلى ما بعده من نصح، وإرشاد ، وتوجيه، وتقويم .

* * *

وقوله ﷺ : « إن قَدَرْت » – بفتح الدال – أى : إن استطعت بلا تكلف ولا تصنع ألا تحمل فى قلبك فى جميع أحوالك – مصبحًا أو ممسيًا – غشًا لأحد

---

(١) الأحزاب : ٤٠ .
(٢) الأحزاب : ٦ .
(٣) التوبة : ١٢٨ .

فافعل ، ولا تدخر وسعًا فى تطهير قلبك من كل ما يُعكر صفو إيمانك ، واحرص كل الحرص على أن تلقى أخاك بوجه بشوش وقلب سليم ، فلا تعاقب ، ولا تعاتب ، ولا تجادل ، ولا ترائي ، ولا تنافق ، ولا تداهن ، ولا تقولن ما لا تفعل ، وليكن ظاهرك كباطنك ، لك قلب واحد ووجه واحد ، لا تأتينَّ الناس بوجه وتعرض عنهم بوجه آخر ، ولا تجامل أحدًا بغير حق ، ولا تشمت بأحد على ما ابتلاه الله وأنت تدعى أنك معه بقلبك ، فتواسيه وتسليه وأنت تفرح لما وقع له أو أصيب به .

هذا هو معنى الغش الذى نهى النبى ﷺ عنه ، وحذّر منه .

وتخليص القلب من هذا أمر صعب المنال إلا على قوم اعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم له ، وزهدوا فى الدنيا ، ورغبوا فى الآخرة ، وأعدوا لها العُدّة ، وتزودوا بالتقوى فكانت لهم شفاءً من كل داء .

وقد كان النبى ﷺ يجد فى أنس هذه الصفات الخيّرة ، فطمع فى حصوله على هذه الدرجة العَليّة ، فأوصاه بهذه الوصية مستخدمًا أسلوب الشرط ؛ لما فيه من شحذ العزائم واستنهاض الهمم وتهييج العواطف لمثل هذا التمحيص الذى لا يقدر عليه العبد إلا بتوفيق الله تعالى وحده ، فهو القادر على تزكية النفوس ، وتطهير القلوب ، وتقويم الأخلاق .

* * *

وقد أخبر النبى ﷺ أنسًا بأن هذا العمل - الذى أوصاه به - هو من سنته أى : من شأنه دائمًا فى جميع أحواله ، وأنس يعلم ذلك ، ولكن الرسول ﷺ أراد أن يُذكره بهذا ، وأن يزيده فيه بيانًا ؛ لكى يرتب على هذا قوله : « ومن أحيا سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة » .

ومعنى : « أحيا سنتى » : عمل بها ، وحافظ عليها ، وكان للناس قدوةً فيها ، حُبًّا فيه ، وطاعة له ﷺ .

وإذا كان المرء على دين خليله - كما يقول رسول الله ﷺ - فالمسلم الحق

من كان على دين نبيه ، أى على ديدنه فى البأساء والضراء ، والشدة والرخاء،وعلى طريقته فى معاملة الناس ، ومعاشرتهم ، لا يظلمهم ولا يخذلهم، ولا يسخر منهم ولا يستهزئ بهم .

فإحياء السنة برهان على صحة الإيمان ، ودليل على الحب القوىّ الخالص لصاحب السُّنَّة ﷺ .

ومن إحياء السنة أن يصونها عن البدع ؛ فإن كثيراً من الناس يخلطون بين السنن المتبعة والبدع المخترعة حتى تحلّ البدعة محلّ السنة ، ويعمل الناس بها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ويتمسكون بها كما يتمسكون بالفرائض فى بعض الأحيان ، ولا ينتهون عن فعلها ولو جئتهم بكل دليل على أنها بدعة ، ويجادلونك فيها مجادلة المستميت فى الدفاع عن هذا المعتقد الباطل ، ويقولون لك : كان يفعله فلان ، وفلان ، وفلان ، وهو ما أفتى به الشيخ فلان إلى آخره ، فلا تستطيع أن تقيمهم على المحجة البيضاء بعد ذلك أبداً ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله !! .

وقد رتب النبى ﷺ على حبه دخول الجنة ؛ فقد قال فى الحديث الصحيح : « المرء مع من أحب » .

وهو تفسير لقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ ومن يُطعِ اللَّهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا ﴾ (1) .

ولا شك أن من أحيا سنته أحيا الله قلبه يوم تموت القلوب ، وكان على الجادة من أمره في كل ما يقول وما يفعل ، وظل على الهدى ما ظَلّ محافظاً على هذه السنة حتى يأتى أمر الله .

وسنة الرسول ﷺ هى سنة المرسلين من قبله ، فهو على طريقهم يدعو إلى الله بدعوتهم ، ويرسى من المبادئ والأصول ما غرسوه فى أممهم تحقيقًا لقوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدِه ﴾ (2) .

---

(1) النساء : ٦٩ .
(2) الأنعام : ٩٠ .

إلا أنه قد امتاز عنهم بالإمامة فى مكارم الأخلاق ، وخصه الله بالشريعة التى جمعت كل الشرائع وفاقتها فى كثير مما يتعلق بأمور الدين وشئون الحياة ، بحسب متطلبات الأمة من لدن بعثته حتى تقوم الساعة .

﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلام ديناً ﴾(١) .

أى الآن أكملت لكم الدين الذي رضيه الله لعباده جميعًا ، وفطرهم عليه، وتعبدهم به ، وألزمهم أحكامه وفرائضه وسننه ، وجعله لكم دينًا قويمًا وصراطًا مستقيماً ، وأتّم الله لكم به النعمة ، وزادكم من فضله من الخصائص والمميزات ما جعلكم أمة من خير الأمم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

والنبى ﷺ هو النعمة الكبرى كشف الله به الغمّة ، وأنار بنوره الوجود ، به وحّد الله الصف وجمع الكلمة ، وألّف القلوب فكان المؤمنون أخوة بعد فرقة وتنافر وتناحر ، لا تضع الحرب بينهم أوزارها ، ولا يتمتع واحدٌ منهم بالأمان ساعة .

وليس هناك أخوّة أعظم من أخوة الإيمان ؛ لأنها تخلو من الأثرة وحب الذات ، وتصفو من أكدار الغل والحسد ، وإن أرقى أخوّة إيمانية عرفتها الدنيا هى الأخوة بين المهاجرين والأنصار ، فقد صهرهم الإيمان فى بوتقة واحدة ، فكانوا ذهباً خالصاً لا غش فيه ولا دَخَل ، لقد كان الأوس والخزرج عَدُوّين فى بلد واحد ، تدور رحى الحرب بينهما على أتفه الأسباب ، وكان اليهود يعيشون معهم فيوقدون نارها كلما خبت كما هو شأنهم دائماً ، فيقتتلون حتى يكاد يُفْنى بعضهم بعضاً ، فلما هاجر إليهم رسول الله ﷺ جمعهم على كلمة التوحيد ، وسمّاهم الأنصار حتى لا يَعتزَّ أحدهم بنسبه ، ولا بحسبه ؛ ثم وحّد المهاجرين تحت هذا المسّمى ، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار ، فتحابوا فى الله حبًّا أضحى مضرب الأمثال .

---

(١) المائدة : ٣ .

وقد سجل الله هذا الحب الذى فاق كل حبّ فى سورة آل عمران ، وفى سورة الحشر .

فقال فى سورة آل عمران : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ (١) .

وقال فى سورة الحشر : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضـوانًا ويَنْصُرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجةً مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ ومن يُوْقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) .

وقد علمنا الله – عز وجل – فى كتابه العزيز كيف نسير سيرهم ، وننهج نهجهم فى الصدق والإخلاص ، والحب والوفاء ، والكرم والإيثار ، فقال جل وعلا بعدهـــاتين الآيتـــين : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعلْ فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوفٌ رحيمٌ ﴾ (٣) .

فإذا ما سرْنا على الدرب دعونا لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان بما ندعوا به لأنفسنا فنقــول : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالسير على الصراط السّوى ، وانزع من قلوبنا الغلّ حتىَ لا يكره مؤمن مؤمنًا ، وهو معهم على الطريق إليه ، فإن الغل قتّال يقطع أنياط القلوب ، وينزع منها العطف والحنان ، ويفرق بين المحبين أو بين من شأنهم أن يتـحابّوا فى الله ، ويتآلفوا فيما بينهم على كلمة الله ، ويصلحوا ذات بينهم على هدىً من الله .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) الحشر : ٨ – ٩ .

(٣) الحشر : ١٠ .

ويخيـل إليه أن الناس لو دخـلوا الجنة وفى قلوبـهـم ذرة من غل ما تمتعوا بنعيمها .

ولهذا أخبرنا الله عز وجل أن أهل الجنة لا يحملون فى قلوبهم شيئًا من الغل فقال : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين ﴾ (١) .

فهم يتعايشون فيها فى سلام ووئام ، ويجدون فى هذا الأنس كله ، والنعيم كله .

﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلامًا سلامًا ﴾ (٢) .

﴿ وجوهٌ يومئـذٍ ناعمـةٌ لسـعيها راضيةٌ فى جنة عاليةٍ لا تَسْمَعُ فيها لاغيةً ﴾ (٣) .

أى لا تسمع فيها كلامًا لا خير فيه ولا طائل تحته ، بل تسمع منهم – لو كنت معهم – قولاً لينًا سـديداً حكيماً ، فيه السَّلام والأمان من كل ما يعكر الصفو ، ويُجلب الملل .

ولكى نكون من أهل الجنة لابُدّ أن نموت على هذا الحبّ والصفاء ، فمن مات على شىء بُعث عليه .

والإسلام كله حبّ وصفاء ،والمؤمن الحق من يحرص على هذا الحب وهذا الصفاء حتى يصدق عليه أنه مسلم حقًّا .

يقول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقَاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٤) .

والمسلم من سَلِم الناس من لسانه ويده كما قال الرسول ﷺ .

ولكى يسلم الناس من اللسان لابد أن يكون قلب صاحبه نقيًّا طاهرًا خاليًا من الغش والخداع، والغل والحسد ، والكبر والغرور وغير ذلك مما يدفع اللسان إلى ترجمته، والتعبير عنه بألفاظ ممجوجة تؤذى المشاعر ، أو تثير الغرائز أو تبعث الكوامن الشريرة ، أو تدعو إلى فتنة أو إلى بدعة وما إلى ذلك مما يضُرّ بالناس .

---

(١) الحجر : ٤٧ .

(٢) الواقعة : ٢٥ – ٢٦ .

(٣) الغاشية : ٨ – ١١ .

(٤) آل عمران : ١٠٢ .

وقد قالوا : لسان المؤمن وراء قلبه ، ولسان الفاسق أمام قلبه .

واللسان يترجم عما فى القلب من خير وشر .

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما

جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

اللسان بصمة يُعرف بها صاحبها معرفة تكشف ما لديه من حقائق وخلائق كأنه أمام مجهر لا يخفى وراءه شيئًا .

والوجه يشارك اللسان فى الترجمة والتعبير ، فلا يخفى على الأريب ما ينطوى عليه قلب المتكلم من حبٍّ أو بُغْضٍ ، ومن صِدْق أو كـذب ، ومن إيمان أو نفاق ... إلخ .

وصدق الله عز وجل إذ يقول : ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرضٌ أن لن يُخرِجَ الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكَهُم فلعَرَفْتهم بسيماهم ولتعرفَنَّهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ (١) .

والمؤمن يرى بنور الله ما وراء الظواهر من بواطن فقد يضمر المرء خلاف ما يظهر ، فيجد المؤمن فى قلبه حرجاً من قبوله .

وقد يتظاهر إنسان بالصلاح والتُّقَى أمام الناس فيظنون به خيراً لكن لا يلتبس أمره على المؤمن ، فهو يعرف ما يضمره فى قلبه بإشراق روحه وبصيرته ، وقد لا يصرح له بما علمه منه حياءً من الله وستراً عليه .

قال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » (٢) .

وأعظم المؤمنين إيماناً من لا يحمل فى قلبه حقداً على أحد ، وذلك لزهده فى الدنيا ، ورغبته فى الآخرة .

---

(١) محمد : ٢٩ - ٣٠ .

(٢) رواه الترمذى فى سننه والبخارى فى تاريخه عن أنس بسند صحيح .

فعن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – قال : قيل يا رسول الله : أى الناس أفضل ؟ ، قال : « كل مخموم القلب ، صدوق اللسان » .

قيل : صدوق اللسان نعرفه .. فما مخمول القلب ؟

قال : « هو التقى النقى .. لا إثم فيه ولا بغى ، ولا غل ولا حسد » (١) .

لأن الإيمان هذّب طباعه ، وزكى نفسه ، وقوّم خلقه ونقى سريرته فشَفِي تماماً من جميع أمراض القلوب على كثرتها .

وصدقت عائشة فى قولها : « لله درّ التقوى ، ما تركت لذى غيظ شفاء » .

وقد ذكر الله أوصاف المتقين فقال جل شأنه فى أوصافهم : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ (٢) .

وكظم الغيظ قدرة خاصة لا تكون إلا لمن قوى إيمانه ، وصدق فى الله يقينه .

والعفو عن الناس درجة من أعلى درجات الكمال البشرى ، ولا تكون إلا للمؤمن .

قال تعالى : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾(٣) .

وأقوى الأقوياء فى كظم الغيظ ، وأعظم العظماء فى العفو عن الناس أكمل الخلق محمد ﷺ .

وقد عبّر عن صفاء روحه وسلامة صدره ونقاء سريرته وعظيم حبه لأصحابه بقوله : « لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً ؛ فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » (٤) .

* * *

(١) أخرجه ابن ماجه . (٢) آل عمران : ١٣٤ .

(٢) الشورى : ٤٣ . (٤) رواه أبو داود .

واعلم أن للغش صوراً كثيرة بعضها ظاهرٌ جلىّ ، وبعضها مستتر خفىّ .

١ – فقد يكون فى البيع والشراء ، فيدل على الطمع والجشع وخبث الطبع وسوء الخلق وعلى غير ذلك من الأوصاف المذمومة التى لا يتحلى بواحدة منها مؤمن .

روى مسلم فى صحيحه وابن ماجه فى سننه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ مرّ على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام ؟ » .

قال : أصابته السماء يا رسول الله .

قال : « أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ ،من غشنا فليس منا » .

أى ليس على نهجنا ، ولا هو ممن يُحِبُّنَا ونُحِبُّه .

ومن العلماء من يخرجه من الملة أخذاً بظاهر الحديث ، والقول الأول هو الذى عليه المعوَّل .

والغش فى البيع والشراء فى هذه الأيام قد بلغ مداه ، وتعددت الأعيبه ، وتفنن التجار فى إخفاء هذه الألاعيب ، واحتالوا فى بيع ما يريدون بيعه بشتى الطرق ، وهم يحسبون أن هذه الحيل تخفى على الله ، كلا .. كلا ؛ فإن الله لا تخفى عليه خافية .

﴿ يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور واللهُ يقضى بالحق ﴾(١) .

نعم يقضى بالحق ، فينصف المظلوم من الظالم عاجلاً أو آجلاً ، وينتقم من كل من يغش فى السلع أو يطفف فى الكيل أو يخسر الميزان .

٢ – وقد يكون الغش فى إظهار الصداقة وحسن الصحبة بصورة خادعة من أجل الحصول على غرض من أغراض الدنيا ، فإذا انقضى الغرض أو فات أوانه ظهر الخدَّاع على طبيعته ، وكشف عن خَبِيئَتِه ، وتَخَلّى عن مدعاه ، وربما قلّب لصاحبه الأمور ، وانقلب عدواً يصارعه فى أمر معاشه ، ويسد عليه أبواب الرزق من هنا وهناك ، ويفعل به من الشر ما لا يعلم مداه إلا الله .

---

(١) غافر : ١٩ – ٢٠ .

ويصدق فيه قول الشاعر :

وإخوان اتَّخَذْتُهُمُوا دروعًا ... فكانـوها ولكـن للأعادى

وخلتُهُمُوا سـهامًا صائبات ... فكانوهـا ولكـن فى فؤادى

وقالـوا قـد صَفَتْ منا قُلُوبٌ ... نعم صدقوا ولكن من ودادى

وقالوا قد سـعينا كلَّ سعى ... لقد صدقوا ولكن فى فسادى

وسيأتى الكلام عن الصداقة فى أسمى مظاهرها وأرقى معانيها فى حديث آخر إن شاء الله .

٣ – وقد يتظاهر المرء بالصلاح والتقى فيحسبه الناس من الأخيار وهو من كبار الأشرار .

يعطيك من طَرَفِ اللسان حلاوة

ويروغُ منك كما يَروغ الثعلبُ

وهذا هو ذو الوجهين يأتى الناس بوجه ويعرض عنهم بوجه آخر ، وهو شرّ الناس يوم القيامة ، كما سيأتى بيانه فى حديث آخر .

وهذا ما يسمّى بنفاق العمل .

وهذا اللون من النفاق ينشأ من ضعف الإيمان إلى حدٍّ لا يصح أن يطلق عليه لفظ إيمان ، حتى يكاد يلحق بالنفاق الأكبر وهو النفاق فى العقيدة ، وهو إظهار الإيمان وإخفاء الكفر – والعياذ بالله تعالى .

ونفاق العقيدة من أكبر أنواع الغش على الإطلاق ، لهذا ضاعف الله العذاب للمنافقين وأعلن عليهم الحرب ، وحذر المؤمنين من شرّهم فى كثير من الآيات .

وحذرهم أيضًا من الذين يدّعون الإسلام وينسبون إليه وهم إذا حدّثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا خاصموا فجروا ، وإذا عاهدوا غدروا ، وإذا ائتمنوا خانوا .

وأى غش أشد من النفاق فى العقيدة والعمل .

إن المنافق يقرب منك البعيد ، ويبعد منك القريب ، ويظهر لك الودّ ، ويخفى عنك العداوة ، ويدّعى أنه يحبك وهو من أشد الناس بغضاً لك ، ويزعم أنه معك وهو ضدُّك ، وهو بهذا يظن أنه يبلغ مراده منك ومن غيرك بهذا الخِدَاع البَرَّاق .

وأعظم تصوير فنى للمنافق ما جاء فى قصيدة للأستاذ محمد مصطفى حمام .

قال رحمه الله :

إذا كُنْتَ فـى جَنَّةِ النِّفَاقِ ... فَاعْدِلْ بسَاقٍ وَمِلْ بِسَاقِ

وَضَاحِكِ الشَّمْسَ فى الدَّيَاجى ... ودَاعِبِ البَدْرَ فى المَحَاقِ

ولا تُقَارِبْ وَلاَ تُبَاعِدْ ... وانسب شآمًا إلى عِرَاقِ

وقُلْ كَلاَمًا بـغير مَعْنىً ... واحْلِفْ على الإفْكِ بالطَّلاَقِ

ولا تُصَادِقْ وَلاَ تُخَاصِمْ ... واستقبل الكل بالعناقِ

فأىّ شخصٍ كأى شخصٍ ... بلا اختلاَفٍ ولا اتِّفَاقِ

وأىّ شىءٍ كأىّ شىء ... مادُمْتَ فى جَنَّةِ النِّفَاقِ

والمنافق يخدع نفسه قبل أن يخدع الناس ، ويغش نفسه قبل أن يغش الناس ، فهو يحسب أنه يحسن صنعًا ، وأنه يعرف من أين تؤكل الكتف ، ويرى نفسه على قسط وافر من الذكاء والفطنة ، وأنه أبو الفتاكة كما يقولون ، وأنه وأنه حتى يخيل إليه أن النفاق جنة هو ساكنها ، بل صاحبها ومالكها ، لهذا قد اختلت عنده الموازين وضاعت القيم ، وذهبت مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيَم ، وجوّز لنفسه أن يقول ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وأن يكتفى من العمل بالشعارات فيعدل بساق ويميل بأخرى ، ويبالغ فى المدح والثناء والإطراء ، ويحلف على ذلك بأغلظ الأيمان ، ولا يعرف للصداقة ولا للخصومة حدوداً ، ولا يوازن بين ما هو نافع أو ضار ، ولا بين ما هو موافق للشرع أو مخالف له .

هذا هو حال المنافق كما يصوره هذا الشاعر الحكيم فى أسلوب واضح مشرق ، وفى صور كلية غاية فى دقة التعبير .

٤ – وقد يكون الغش فى المشورة وكتمان النصيحة ، وتلك خيانة يحذر الله منها عباده تحذيراً شديداً فى آيات كثيرة منها :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون ﴾ (١) .

والمستشار مؤتمن يجب عليه أن يشير بما فيه خير للمستشير ، فإن لم يكن أهلاً للمشورة فليحله إلى غيره من أهل العلم والرأى .

والنصيحة واجبة لكل من طلبها أو احتاج إليها وإن لم يطلبها ، لما رواه مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ أنه قال : « الدين النصيحة » .

قلنا : لمن يا رسول الله ؟ .

قال : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وهو استدلال صحيح لكن بشرط أن نفهم معنى النصيحة ، فقد يقال : كيف ينصح العبد ربه ، وينصح رسوله ، وينصح كتابه ؟ .

فأقول :ليست النصيحة هنا من إسداء النصح، ولكن هى بمعنى الإخلاص.

يقال : نصحت لك ، أى : أخلصت لك الود والنصح .

ويقال : لبن نصوح ، أى : خالص لا غش فيه .

والنصح يلازم الإخلاص ولا يفارقه .

ولهذا فسر بعض العلماء النصح لله بأنه : الإخلاص لله فى القول والعمل ، والدعوة إلى عبادته ، وطاعته ، والنصح لرسوله : العمل بسنته ، والنصح لكتابه : تدبره والعمل به .

---

(١) الأنفال : ٢٧ .

ولو فسروا النصح بالإخلاص لكان أقرب ، فيكون المعنى : الدين الإخلاص ، قلنا : لمن يا رسول الله يكون الإخلاص .

فقال : الإخلاص لله . . . الخ .

ويدخل النصح بمعنى الإرشاد والتوجيه والإصلاح فى الإخلاص تبعاً .

وهناك فرق بين نصحت لك ونصحتك ، فالأول بمعنى : الإخلاص ، والثانى بمعنى :الإرشاد، كما فى قول جرير بن عبد الله – رضى الله عنه – « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم »(١) .

فعليك أيها المسلم أن تكون لأخيك المسلم مثل ظله إن استطعت إلى ذلك سبيلاً ، تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وتذكره بالله ، وتعينه على نفسه وشيطانه وهواه ودنياه .

عليك أن تشاركه آلامه وآماله ، وتشاطره الحياة بخيرها وشرها ، وحلوها ومرّها ، وأن تهنئه إذا جاءه ما يسره ، وأن تواسيه إذا نزل به ما يضره ، فهذه هى الأخوة فى أسمى صورها وأرقى معانيها .

إن أخاك الحقَّ مَنْ كان مَعَك
وَمَنْ يضرُّ نفسَهُ لِيَنْفَعَكْ
وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صدَّعَك
شَتَّتَ فيه شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكْ (٢)

وفقنا الله وإياك إلى ما يحبه ويرضاه .

* * *

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) نسب هذا النظم لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه .

(٥٥) لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسنُ الظنَّ بالله عز وجل

عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - أنه سمع النبى ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : لا يَموتنَ أحدُكُم إلاّ وهو يُحْسنُ الظنَّ بالله عز وجل » (١) .

* * *

هذه الوصية من أعظم الوصايا التي تمدّ المسلم بالطمع فى رحمة الله ، وتغرس فى نفسه الرجاء فى عفوه ومغفرته ، وتطرد من ساحة قلبه شبح اليأس والقنوط ، وتعطيه الأمل فى دخول الجنة مع تقصيره فى العمل الصالح إذ يعتبر أن دخولها برحمة الله لا بالعمل ، وإن كان العمل الصالح نوراً على الطريق إليها ، وعاملاً مساعداً للطمع فيها .

وهذه الوصية من أواخر الوصايا التى وصى بها رسول الله ﷺ أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، فلابد أن يعتبرها المسلم نبراساً يضىء له طريق الهدى ، ولا يثنيه عن طلب الرحمة والعفو والمغفرة من الله - تبارك وتعالى - مهما كثرت ذنوبه وخطاياه .

وهى وصية مُوَدِّع كما نفهم من الحديث ، وكأنها وصية من عاين الموت ، أو ظهرت له بوادره وبوارقه ، ولاحت بين عينيه سكراته وغفواته ،، ورأى رحمة الله تقترب منه رويداً رويداً تبشره بقرب الموعد ، وحسن المنقلب .

* * *

ومعنى الوصية إجمالاً أحسنوا الظن بالله فى حياتكم كلهاحتى تلقوا ربكم

---

(١) رواه مسلم وأبو داود .

– عز وجل – فإن من مات على شىء بُعث عليه ، واحرصوا على الرجاء فى رحمته كما تحرصون على الحياة نفسها ، بحيث لا يدرككم الموت وأنتم غافلون عن هذا الظن الحسن ، واستحضروه فى قلوبكم كلما بدا لكم شبح اليأس ولو من بعيد .

واعلموا أن رحمة الله وسعت كل شىء ، وأن عفوه يسبق عقابه ، وأن صفحه يسبق عتابه ، وأن توبته على عباده أقرب إليهم من حبل الوريد ، وأنه غَنىٌّ عنهم لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم ، وأنه يُعطى عبده ما طمع فيه من العطاء بغير حساب ، إذا أخلص النية وأصلح الطَّوِيَّة ، وجَدَّ فى العمل الصالح ، ولم يجعل للشيطان عليه سبيلاً .

وإنه يسير على من يسره الله له .

وقد قال الله – عز وجل – فى الحديث القدسى : « أنا عند ظن عبدي بى، فإن ظن بى خيراً فله ، وإن ظن بى شراً فله » (١) .

وأسلوب هذه الوصية حكيم قد جمع البلاغة من أطرافها ، يعرف ذلك الراسخون فى العربية .

ونحن نحاول هنا أن نفهم طرفًا من فن هذا التعبير ، وشيئًا يسيرًا من دقة هذا التصوير بقدر طاقتنا البشرية وبقدر ما علّمنا الله – عز وجل – فنقول : يبدو لنا أن النهى فى الحديث مسلط على الموت ، وليس هو المقصود به ، ولكن المقصود هو : البقاء على حسن الظن حتى الموت ، فهذا هو ما يمكنهم القيام به ، وقد سلط النهى على الموت وهو في غير إمكانهم تحريضاً لهم على الثبات والاستمرار في حسن الظن إلى نهاية العمر ، ثم نُقل النهى بالاستثناء فى موضعه فظهر المقصود من غير إشكال ، كأنه قال : لا تتركوا حسن الظن بالله فى حال من الأحوال حتى الموت .

وهذا كقوله تعالى حكاية عن إبراهيم ويعقوب عليهم السلام : ﴿ ووصَّى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٢) .

---

(١) رواه أحمد عن أبى هريرة وأصله ثابت فى الصحيحين عن أبى هريرة .

(٢) البقرة : ١٣٢ .

وقـولـه تـعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاتِه ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ [1] ، أى : لا يأتينكم الموت بغتة إلا وأنتم على الإسلام ، تعبدون الله ، ولا تشركون به شيئًا .

وما من كلمة يقولها النبى ﷺ فى الدين إلا وهى بيان للقرآن الكريم واقتباس منه ؛ لهذا كان أسلوبه فى البيان يشبه أسلوب القران فى الطلاقة والبلاغة والعذوبة ، وجمال التعبير وروعة البيان ، ولكن لا يساميه ، ولا يدانيه من قريب ولا من بعيد .

فأسلوبه ﷺ شعاع من ضِيَاءٍ عمّ الأرض والسماء .

وأساليب الأدباء جميعًا لا تدانى أسـلوب النبى ﷺ من قريب ولا من بعيد ، فهو أفصح الفصحاء قاطبة ، فقد آتاه الله جوامع الكلم ، وأمدّه بنور من عنده يتكلم به ، ويمشى به فى الناس حتى بدا لهم وكأنه قرآنٌ تراه أعينهم كما تسمعه آذانهم ، صلوات الله وسلامه عليه .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٠٢ .

الفهرس

رقم الوصية	الموضوع	الصفحة

رقم الوصية	الموضوع	الصفحة

من كتب المؤلف

١ – الفقه الواضح – ثلاث مجلدات – طبع .

٢ – قصص القرآن – مجلد – طبع .

٣ – خلاصة التفسير – مجلد – طبع .

٤ – القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه – مجلد – طبع .

٥ – بين السائل والفقيه – ستة أجزاء – طبع .

٦ – وصايا الرسول وأثرها فى تقويم الفرد وإصلاح المجتمع – ثلاثة مجلدات – تحت الطبع .

٧ – مع المرأة المسلمة فى أحكام دينها وأمور دنياها – مجلد – طبع .

٨ – دراسات فى علوم القرآن – طبع .

٩ – الطبرى ومنهجه فى التفسير – طبع .

١٠ – القاسمى ومنهجه فى التفسير – طبع .

١١ – من مناسك الحج والعمرة – طبع .

١٢ – قواعد النحو بأسلوب العصر – طبع .

١٣ – قواعد الصرف بأسلوب العصر – طبع .

١٤ – عدة الخطيب والواعظ فى الحكم والأمثال – طبع .

١٥ – من لطائف البيان فى تفسير سورة يوسف عليه السلام – طبع .

١٦ – تفسير سورة النور – طبع .

١٧ – تفسير سورة الذاريات – طبع .

١٨ – تفسير سورة الصافات – طبع .

١٩ – تفسير سورة الرعد – طبع .

٢٠ – الأمثال القرآنية : دراسة تحليلية – طبع .

٢١ – ولله الأسماء الحسنى – تحت الطبع .

٢٢ – تفسير الأحلام فى ضوء الإسلام – تحت الطبع .

رقم الإيداع ٩٩/٥٣١٢
الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 295 - 075 - 8

دار العدنان للطباعة
دار السلام ت : ٣١٨٠١٥٣